
الدار المصرية للتأليف والترجمة
البرىء
قصة
تأليف : جابرييلى دانونزيو
ترجمة : طه فوزى
مراجعة : حسن محمود

البرىء

نص

تأليف

جابرييلى دانونزيو

ترجمة

طه فوزى

مراجعة

حسن محمود

الدار المصرية للتأليف والترجمة

جابريلي دانونزيو

ولد « جابرييلي دانونزيو » مؤلف هذه القصة فى مدينة «بيسكارا» فى الثانى عشر من شهر مارس من عام ١٨٦٣ ومات فى « جاردونى » فى أول مارس سنة ١٩٣٨ . أما اسم اسرته الأصلى فهو « رابانيبيتا » . ولكن لما كان ابوه قد تبناه خاله المدعو « داننونزيو » فقد اختار هذا الاسم وأطلقه على ابنه جابرييلى منذ ولادته . ولما آنس والد « داننونزيو » النجابة والذكاء المفرط فى ابنه منذ صباه الحقه باحدى المدارس فى « توسكانا » وعمل على أن يدرس كل ما يستطيع دراسته فى الآداب . وذاعت شهرته بادىء ذى بدء فى مدينة « براتو » على أثر وضعه لمجموعة من القصائد سماها « الربيع » عمل أبوه على طبعها فى سنة ١٨٧٩ .

وبعد أن انتقل الى روما قضى فترة من أيام شبابه مترددا على الاندية الأدبية والمجتمعات الرفيعة وادارات تحرير الجرائد ، فاشترك أولا فى تحرير مجلة « كرونا كابيزانتينا » الادبية ثم أصبح مديرا لها ثم عمل من سنة ١٨٨٤ حتى سنة ١٨٨٨ محررا بجريدة « التريبونا (وجرائد أخرى .

وفى سنة ١٨٨٣ تزوج من « ماريا هادوبين » دوقة « جالليزى » وكانت ثمرة هذه الزيجة ثلاثة ابناء .

ولقد زادت فى شهرته أولى قصصه « السعادة » التى وضعها فى عام ١٨٨٩ والتى لاقت نجاحا منقطع النظير . ومنذ ذلك الحين سيطر « داننونزيو » بشخصيته القوية على الحياة الأدبية فى ايطاليا .

وفى سنة ١٨٩١ انتقل الى مدينة « نابولى » حيث اشترك فى تحرير جريدة « الماتينو » التى كان قد أنشأها اذ ذاك « أ. سكارفوليو » ثم هام حبا بالاميرة « ماريا جرافينا كرويلاس » .

وبعد ترجمة قصته « البرىء » « الى الفرنسية فى عام ١٨٩٢ ذاع صيته خارج ايطاليا . وفى سنة ١٨٩٧ انتخب نائبا فى البرلمان الايطالى عن دائرة

« اورتينا امارى » على أن اشتراكه الفعلى فى الحياة السياسية لم يتم الا فيما بعد • وفى ناحية أخرى وفى سنة ١٨٩٨ اعتكف فى احدى الفيلات على مقربة من « ستينيانو » (فلورنسه) • سرعان ما جمع فيها الكثير من التحف النادرة • وعاشت معه فيها صديقته وملهمته الممثلة المسرحية القديرة اليونورا دوزى •

على أن اضطراب احواله المالية الشديد اضطره الى الرحيل فى سنة ١٩١٠ رغما عنه الى فرنسا حيث استقر فى « اركاشونه » الواقعة على ساحل المحيط الاطلسى وفيها استمر فى الكتابة بهمة لا تعرف الكلل حتى باللغة الفرنسية أيضا (اذ وضع قصة شهيد سان سيباستيان عام ١٩١١ وهى مسرحية وضع موسيقاها « ديبوسى » وقصة « بيزانيللى » ١٩١٣ التى كتبها بلغة فرنسية أنيقة) •

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى عاد الى ايطاليا وأخذ يحرض على دخول ايطاليا فيها وألقى فى « كوارتو » فى يوم ٥ مايو ١٩١٥ خطبته الشهيرة التى وضعت خاتمة لحياد ايطالياثم تطوع فى صفوف الجيش وامتاز ببطولته فى الجو والبر والبحر • وفى يناير عام ١٩١٦ فقد ابصار عينه اليمنى فى احدى المعارك الجوية • ولما كان مضطرا للبقاء وقتا طويلا دون حركة فقد وضع كتابه الشهير « الليل الدامس » •

على أنه سرعان ما عاد الى العمل حيث اقترح القيام بغارة جوية على مدينة « فيينا » قادها بنفسه فى اليوم التاسع من أغسطس من عام ١٩١٨ والقى اثناءها على أهالى المدينة منشورا طلب منهم فيه العمل على انهاء الحرب ، كما قام بغارة جوية أخرى على بلدة «بوكارى» على ظهر قطع صغيرة من السفن الحربية • وتقديرا لهذه البطولة النادرة منح عددا من الميداليات الفضية فضلا عن ميدالية الجدارة العسكرية الذهبية •

ولكن مفاوضات الصلح التى كانت تجرى فى « فيرساى » أثارت غضبه على الحكومة والبرلمان وعلى الديمقراطية • فكان الزحف على « رونكى » (١١ ــ ١٢ سبتمبر ١٩١٩) واحتلال ميناء « فيومى » اللذان قام بتنظيمهما وقيادتهما •



وبعد انتهاء الحملة على « فيومي » اعتكف « داننونزيو » باحدى الفيلات في « جاردوني » وقضى فيها سنى حياته الأخيرة وهو مكب على أعماله الأدبية، وقد انعم عليه في سنة ١٩٢٤ بلقب أمير « موتى نيفوزو » كما عين في سنة ١٩٣٧ مديرا لأكاديمية ايطاليا •

ويمكننا أن نذكر من بين انتاجه الأدبى الرفيع فضلا عما سبق ذكره مؤلفاته الشعرية : الأنشودة الجديدة ، ازاييتا جوتاداورو « الخيال » ز ، المراثى الرومانية « القصيدة الفردوسية » مدائح السماء والبحر والأرض والأبطال •

ومن بين مسرحياته : المدينة الميتة ، لاجوكوندا ، للمجد ، ابنة جورى ، فرانشيسكا داريميني • فضلا عن مسرحية الحب •

ومن بين قصصه وكتبه النثرية المختلفة : السعادة ، جيوفانى ايبيسكوبو البرىء ، انتصار الموت ، عذارى الصخور ، الثأر ، وقصة ربما نعم وربما لا ، التأمل فى الموت ، مقدمة حياة كولا دى رينزو ، الليل الدامس •

وقد قام دانوزيو بنفسه بجمع مؤلفاته فى ثمانية واربعين مجلدا فضلا عن مجلد آخر يشتمل على فهرس لها وضعه « أ • سودينى » (١٩٣٦) •

طه فوزى

طوبى للاطهـار ...

هل اذهب الى المحكمة للمثول بين يدى القاضى وأقول له : « لقد ارتكبت جريمـة » • فان تلك النفس المسـكينة ما كانت لتمـوت لو لم اقتلهـا أنا « توليو هيرميل » • لقد قتلتها أنا بنفسى قتلتها عمدا مع سبق الاصرار فى منزلى وقمت بارتكاب جريمتى وأنا مالك لجميع قواى العقلية وعارف ما أفعل حق المعرفة ثم بقيت أعيش مع هذا السر الدفين فى منزلى سنة كاملة حتى اليوم • واليـوم هو الذكرى الأولى لهذا الحادث الأثيم • وها أنذا بين يديك فاستمع الى واصغ الى ما أقول وحاكمنى على ما جنت يداى ؟ هل استطيـع حقا أن أذهب الى القاضى واتحدث اليه على هذا النحو ؟

انى لا استطيع ولا أريد ، فعدالة البشر لا تصل الى وليست هناك محكمة فى هذا العالم تستطيع أن تحاكمنى • ومع هـذا يتحتم على أن اتهم نفسى واعترف بجريرتى • اكشف سرى الى أى انسان ، ... ولكن ترى لمن ؟

كانت أول ذكرى هى هذه •

كان ذلك فى شـهر أبريل وقد ذهبنا الى الريف منـذ عـدة أيام • أنا وزوجتى « جوليانا » وطفلتانا « ماريا » و « ناتاليا » لقضاء أجازة عيد الفصح فى بيت والدتى الذى كان بيتا ريفيـا كبيرا قديم العهـد اطلق عليـه اسم « الضيعة » انقضت سبعة أعوام على زواجنا ومضت ثلاثة أعوام أخرى على أجازة عيد فصح آخر بدا لى حقا أنه عيد من أعياد الصفح والغفران والسلام والحب فى تلك الفيلا المنعزلة الناصـعة البياض التى هى أشبه شىء بدير كبير يعطرها أريج البنفسج ، وذلك عندما كانت ابنتنا الثانية « ناتاليـا » تحاول أن تخطو خطواتها الأولى بعد أن خرجت من القماط والخرق كما تخرج الزهور من أكمامها • وكانت « جوليانا » تبدو فى منتهى التسامح نحـوى ولو أن شفتيها تفتران عن ابتسامة حزينة ، وكنت قد عدت اليها تائبا نادما متذللا بعد خيانتى الأولى الشديدة لها ، وكانت أمى عن غير قصد ودون ادراك لمـا حدث قد وضعت بيديها اللطيفتين غصنا صغيرا من أغصان الزيتـون على رأس سريرنا وملأت الاناء المقدس الفضى الذى يتدلى من الجدار •

ولكن بعد أن انقضت الآن ثلاثة أعوام أخرى فما أكثر تلك الاشياء التى تغيرت ٠٠ فقد تم بينى وبين « جوليانا » انفصال نهائى لا رجعة فيه ، وكانت اخطائى فى حقها قد تكاثرت وتكدست بعضها فوق بعض واهنتها اهانات كثيرة بمنتهي العنف والقسوة دون أى اعتبار لها ودون أدب واحتشام٠ وكانت تدفعنى الى ذلك شراستي وجريي وراء اللذة وجموح عواطفى وماتميل اليه نفسى الشريرة الامارة بالسوء من حب الاستطلاع ٠ وكنت اهيم حبا باثنتين من صديقاتها الحميمات ، وقضيت بضعة اسابيع فى مدينة فلورنسة مع « تيريزارافو » دون حياء أو تعقل ووقعت مبارزة بينى وبين زوجها « رافو » الكونت المزيف وكان خصمى المسكين موضع السخرية والاستهزاء بسبب هذه المبارزة وبسبب بعض الظروف الغريبة ٠ على أن شيئا من هذا كله لم يكن ليخفى على « جوليانا » وكانت تتألم لذلك كل الألم ولكن فى اباء وشمم وفى كثير من الصمت والهدوء والاحاديث التى دارت بيننا فى هذا الشأن قليلة بل نادرة ، وانى لم أكذب قط فى كل ما قلته ، اذ كنت أعتقد أن صراحتى واخلاصى لها يقللان من خطيئتى فى عينى تلك المرأة النبيلة الحلوة التى كنت أعرف أنها امرأة كيسة كما كنت أعرف أيضا أنها تعترف بتفوقى الذهنى وذكائى المفرط وانها تتغاضى بعض الشىء عما تلاحظه من اضطراب فى حياتى بعد أن تسمع تلك النظريات المفصلة التى طالما شرحتها على مسمع منها أكثر من مرة والتى تتعارض وتهدم تلك المبادىء الاخلاقية التى ينادى بها علنا أغلبية الناس وكان تأكدى من أنها لن تحكم على ولن تعتبرنى انسانا عاديا تافها من شأنه أن يخفف من وطأة اغلاطى وخطاياى وكنت أقول لنفسى انها هى الأخرى تفهم أننى انسان آخر ليس على شاكلة غيره من الناس ولى رأى خاص فى الحياة يختلف عن آراء أمثالى ، وأستطيع أن أتملص من تلك الواجبات التى يريد الغير أن يفرضها على فرضا ، وبوسعى أيضا أن ازدرى بآراء الآخرين وأعيش حسبما جبلت عليه طبيعتى الفريدة واخلاصى المطلق ٠

كنت مقتنعا كل الاقتناع بأننى لست انسانا فريدا فى نوعه فحسب ، بل نادر الوجود ، وكنت أعتقد أن ندرة مشاعرى واحاسيسى من شأنها أن يبدو كل عمل من أعمالى نبيلا ممتازا ٠

ولما كنت فخورا كثيرا الاعتداد بامتيازى وندرة شخصيتى فاننى لم أكن لأعرف أى معنى للتضحية وانكار الذات كما لم أكن استطيع الامتناع عن التعبير عن رغبة من رغباتى • وأن كل تفاهاتى هذه لم تكن لتنطوى فى الواقع الا على قدر كبير من الانانيــة وحب الذات • لأنى بينما كنت اهمل القيام بالتزاماتى كنت راضيا عن حالتى مطمئن النفس هادىء البال •

وهكذا وصل بى الأمر رويدا رويدا بعد اخطائى واغلاطى المتوالية الى أن استعيد حريتى الأولى بالموافقة التى كانت تبديها جوليانا دون كذب أو نفاق أو مواربة والتى لم يكن يشوبها شىء من التحقير • وكنت ابذل قصارى جهدى فى أن أكون رجلا عادلا مهما كلفنى ذلك من ثمن ، بينما كان يبذل غيرى جهودهم فى التظاهر بالعدالة والنزاهة •

وكنت احاول فى جميع المناسبات أن أؤكد ميثاق الاخوة الجديد والصداقة النقية بينى وبين جوليانا وكنت أقول لنفسى أنها يجب أن تكون لى بمثابة الأخت أو فى صورة الصديقة الحميمة •

كانت اختى الوحيدة « كوستانزا » قد ماتت فى التاسعة من عمرها وتركت فى قلبى لوعة وحسرة لاحد لهما وكثيرا ما كنت افكر بحزن عميق فى تلك المخلوقة الصغيرة التى لم تستطع أن تقدم لى كنز حنانها • ذلك الكنز الذى طالما كنت أتصوره معينا لا ينضب • وكان ذلك الحب الأخوى يبدو لى دائما أنه أسمى أنواع الحب وأدعاه الى المواساة والهناء اذا ما قورن بمختلف المشاعر الانسانية الموجودة فى هذا العالم • وكثيرا ما كنت أفكر فى ذلك العزاء المفقود بألم شديد تجعله حتمية الموت سرا غامضا لا ادرك كنهه • ترى أين أجد فى هذه الدنيا اختا أخرى ؟

وسرعان ما تمثل هذا الأمل المنشود فى جوليانا •

ولما كانت هذه تترفع عن الجمع بين المشاعر المختلفة فقد وقفت موقفا وسطا بين الحنان الدافق والهجر الأليم وكنت منذ مدة لا أشعر بأقل اضطراب فى احساسى حينما كنت ابقى على مقربة منها وعندما كنت أحس بأنفاسها واشتم اريجها واتطلع الى الشامة الصغيرة السمراء على جيدها كنت ابقى فى حالة برود جنسى • وما كان يبدو لى أن من الممكن أن تكون جوليانا هى تلك المرأة

عينها التى كنت قد رأيتها ذات يوم ممتقعة الوجه شاحبة اللون تنهـــار فى استسلام أمام عنف عواطفى الجياشة ٠

قدمت لها اذن كل معانى الأخوة وقبلت هى هذا الاعتبار بكل بساطة ودون كلفة ، واذا كانت تشعر بالحزن لهذا الوضع فاننى كنت أشعر بحزن أعمق وألم أشد حينما كنت افكر فى أن كلينا قد دفن الحب بيديه الى الأبد دون أن يكون هناك أمل فى أن يبعث هذا الحب من جديد وفى أن شفاهنا ربما لن تلتقى الى الأبد مرة أخرى ٠

ولقد بدا لى وأنا فى غمرة اعتدادى بنفسى اعتدادا أعمى أن جوليانا كانت بينها وبين نفسها تشعر بالرضا والامتنان من ذلك الحزن الذى كنت أحس بأنه لا شفاء لى منه ٠ وبدا لى أيضا أنها لابد أن تكون راضية عن ذلك ، وانها ترى فى حزنى عزاء لها عن حبها القديم ٠ وكان كل منا تواقا لأن يستمر هذا الحب الى الأبد ويحلم بأن تبقى هذه العاطفة دائما كما كان كل منـا قد آمن بهذا الحلم السعيد ٠ وطالمـا تفوهنا أكثر من مرة فى غمرة من السرور والفرح بهاتين الكلمتين الجميلتين : دائما والى الأبد ٠

وصـل بنا الأمر فى بعض الأحيـان الى الاعتقاد بتشابه اجسادنا ، ذلك التشابه الفـريد والنادر الوجـود الذى يربط بين مخلوقين من المخلوقات البشرية برباط الرغبة الشديد والنهم الذى لا يشبع ٠

ولقد اعتقدنا ذلك الاعتقاد لأن حدة احاسيسنا لم تكن قد تناقضت حتى بعد أن أنجبنا كائنـا حيـا جـديدا ، وحتى بعد أن تحققت أغراضـنا من الزواج ٠

على أنه سرعان ما بدا لنـا هـــذا الوهم سرابا خادعا ، وانطفـأت كل شـعلة وتبـدد كل أمل واقسم أننى قد ذرفت دمـوعا سخينة على حطـام حبنا المنهار ٠

ولكن كيف أجد السبيل الى تجنب ما لا يمكن اجتنابه ؟

ولقد كان من حسن الحظ أن هذا الحب مات نتيجة لحتمية هذه الظواهر

والظروف ودون أن يكون لأحـد منا جريرة فى ذلك • ولهـذا استطعنا أن نعيش فى الدار ذاتها التى كنا نعيش فيها يربط بيننا شعور جديد ربمـا لا يكون أقل عمقا وتأثيرا من احساسـنا الأول • ولكنه كان دون شك أعز منه وأكثر سموا •

وكان من حسن الحظ أيضا أن وهما جديدا استطاع أن يلحق بذلك الوهم الأول ويقيم بين روحينا كثيرا من مشاعر الحب الخالص والتأثير البالغ والحزن العميق المتبادل •

ولكن ترى ما هو ذلك الهدف الذى يرمى اليه ذلك النوع من تلك البلاغة الافلاطونية لتبرير عمل مخلوقة بريئة تضحى بنفسها عن طيب خاطر ؟

وفى الحق أن حياتنا الجديدة التى لم تعد حياة زوجية كما كانت بل كانت حياة أخوية أصبحت تعتمد كلها على فرض واحد وهو انكار الذات انـكارا كليا من جانب الأخت • أما أنا فقد استعدت حريتى كاملة وكان فى مقدورى أن أذهب حيث أريد للبحث عن العـواطف الجياشة التى كانت اعصابى فى أشد الحاجة اليها وكان فى استطاعتى أن اهيم بأمرأة اخرى واعيش بعيـدا عن دارى وأجد الأخت فى انتظارى وألحـظ فى حجرات دارى آثار عنايتها واهتمامها واضحة جليـة وأجد الورود وقد نسـقتها بيديها ووضعتها فى احدى المزاهر فوق مكتبى وأرى رؤية العين مظاهر النظام والاناقة والنظافة فى كل مكان من البيت كما لو كان هـذا البيت مكانا تسكنه الملائكة وتغمره النعمة •

ألم تكن حالتى هذه حالة يحسدنى الناس عليها ؟

وألم تكن تلك المرأة التى كانت تقبل عن طيب خاطر أن تضحى من أجلى بشبابها فى مقابل قبلة اطبعها على جبينها المشرق الوضاح علامة من الرضـا والامتنان امرأة جليلة فاضلة منقطعة النظير ؟

كان امتنانى هذا يزداد ويشتد فى بعض الأحيان حتى كان يبدو فى كثير من المجاملات التى لا نهاية لها وفى كثير من الاهتمام والود وكنت اعرف اننى أعز الأخوة عليها • وعندما كنت اغيب عنها كنت أكتب اليها رسائل مطولة

تفيض بالحزن والحنان وكنت فى أغلب الاحيان اودعها صندوق البريد مع تلك الرسائل الأخرى التى كنت ابعث بها الى عشيقتى • ولم يكن من الممكن أن تشعر عشيقتى بالغيرة من زوجتى كما لم تكن تشعر بالغيرة أيضا من اجلالى واحترامى لذكرى شقيقتى « كوستانزا » •

ولكنى رغما من انهماكى الشديد وانشغالى بشئون حياتى الخاصة لم يكن فى مقدورى التهرب من تلك الاستجوابات التى كانت تنبعث فى دخيلة نفسى بين الفينة والفينة •

ولما كانت « جوليانا » تتشبث بقوة تضحيتها العجيبة فقد كان من اللازم أن تحبنى حبا جما يتسم بالسمو والاخلاص •

ولما كانت تحبنى ولا تستطيع أن تكون بالنسبة لى الا اختا ، فقد كان لزاما عليها أن تشعر فى دخيلة نفسها بيأس قاتل •

ألم يكن الرجل الذى يضحى ـ دون أن يشعر بتأنيب الضمير فى سبيل شهوات غرامية زائلة ـ بتلك المخلوقة الوادعة الشجاعة التى كانت تفتر شفتاها عن ابتسامة مريرة ـ رجلا طائشا لا عقل له ولا قلب ؟

وانى لأذكر (ويدهشنى ما كان فى مسلكى من انحراف فى ذلك العهد) أنه كان من بين الاسباب والحجج التى كنت اقولها لنفسى لتهدئة خواطرى هذه الحجة التى ربما كانت اقواها جميعا وهى : لما كانت العظمة الاخلاقية تنشأ عن تخطى الآلام المريرة التى يشعر بها الانسان • فان جوليانا قد اتيحت لها الفرصة لاثبات شجاعتها وبطولتها اذ تحملت فى صبر وجلد كل كل ما جعلتها أنا تتحمله من آلام •

ولكنى أدركت فى يوم من الأيام انها كانت تعانى بعض الآلام بسبب سوء حالتها الصحية وادركت أن شحوبها يزداد يوما بعد يوم وينتشر على وجهها فى بعض الأحيان كالسحب القاتمة الزرقاء •

ولقد لاحظت أكثر من مرة علامات التقلص وآثار التشنج تبدو فى عضلات وجهها كما انتابتها أكثر من مرة فى حضورى انتفاضة ورعدة مستمرة كانت

تهز جسمها هزا عنيفا وتجعل اسنانها تصطك ببعضها كما لو كانت قد انتابتها حمى مفاجئة ٠

وفى احدى الامسيات تناهت الى سمعى صرخة مدوية خرجت من حلقها من غرفة بعيدة عن غرفتى ٠

وعندئذ هرعت اليها ووجدتها واقفة على قدميها مرتدية رداء فضفاضا وهى تترنح وتتلوى كما لو كانت قد تناولت سما زعافا ٠

وما أن شاهدتنى الى جانبها حتى امسكت باحدى يدى وقبضت عليها بشدة كما لو كانت تقبض عليها منجلة كبيرة وكانت تصيح بى قائلة :

ـ أغثنى ياتوليو اغثنى يا توليو ٠ ما أشد ما أعيانى ٠ انى أشعر بألم شديد ٠

كانت تنظر الى وهى تقترب منى وكانت تحدق فى عينى بعينها الزائغتين اللتين بدتا لى فى الظل كأنهما قد اتسعتا اتساعا عجيبا ٠ وقد كنت أرى فى عينيها الواسعتين ذلك الألم المجهول يمر كالأمواج يقفو بعضها بعضا ٠ وقد اثارت فى نفسى على حين غرة تلك النظرة المستطيلة القاسية شيئا كثيرا من الفزع الجنونى ٠

كان ذلك عند المساء وكان الشفق يتوهج فى الأفق وكانت النافذة مفتوحة على مصراعيها والستائر يداعبها الهواء وتتلاطم بعضها بالبعض الآخر كما كانت هناك شمعة تستعر نارها فوق المنضدة فى مواجهة احدى المرايا وانى لا أدرى لماذا أحدث تلاطم الستائر واضطراب تلك الشعلة الصغيرة التى كان ينعكس نورها على المرآة الشاحبة أثرا عميقا فى نفسى وحزنا وغما فى قلبى وزاد من خوفى وهلعى وقد تبادرت الى ذهنى فكرة السم ، وكانت هى فى تلك اللحظة لا تستطيع اخراج صيحة أخرى ٠

ارتمت فوق صدرى فاقدة الوعى على أثر ما كانت تشعر به من تشنج واخذت تصيح قائلة :

ـ اغثنى يا توليو ٠ اسعفنى يا توليو ٠

ولما كان الهلع قد جمد الدم فى عروقى وجعلنى أشبه ما أكون بقطعة من الثلج فقد بقيت دقيقة دون أن استطيع التفوه بكلمة واحدة ودون أن استطيع أن أحرك ذراعى • ثم قلت :

ـ ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت بنفسك يا جوليانا ؟ تكلمى •• تكلمى •• ماذا فعلت ؟

وعندما أدهشها ما فى صوتى من تغير شـديد تراجعت الى الوراء قليلا ونظرت الى وكان وجهى اذ ذاك أشد شحوبا وأكثر تقلصا من وجهها وذلك لأنها قالت لى بسرعة وفى شيء كثير من الدهشة :

ـ لاشيء لاشيء يا توليو • لا تنزعج ولا تخش شيئا •• ليس بى شيء كما ترى •• انها آلامى المعتادة •• انهـا كما تعلم احـدى ازماتى التى تنتابنى بين وقت وآخر •• والتى تمر عادة بسلام • هدىء من روعك ولا تضطرب •

على انى وقد استولى على ذلك الشك القاتل ارتبت فى صحة قولها وكان يبدو لى أن كل الاشياء التى اراها حولى تكشف لى عن ذلك الحادث المحـزن وأن صوتا داخليا يقول لى بلهجة التأكد :

ـ أنها من اجلك ومن اجلك أنت ارادت أن تموت • انك أنت أنت وحدك الذى دفعتها الى الموت دفعا •

وعندئذ امسكت بيديها وأحسست بأنهما باردتان ورأيت قطرة من العرق تنحدر من جبينها •• وقاطعتها بقولى :

ـ لا • لا • انك تخدعيننى • بالله عليك يا جوليانا يا حبيبتى تكلمى • تكلمى • وقولى لى ماذا بك •• قولى لى بالله عليك •• ماذا •• شربت ؟

وأخذت عيناى المرتعدتان تبحثان حولهما فوق الاثاثات وفوق السجـادة وفى كل مكان عن أى دليل أو عن أية اشارة •

وعندئذ فهمت ما ارمى اليـه وترامت على صـدرى وقالت لى وفمها فوق كتفى وقد أخذتها الرعدة التى جعلتنى ارتعد أنا أيضا (وانى لن انسى قط وما دمت حيا نبراتها الغريبة التي لايمكنني وصفها) قالت :

ـ لا ٠ لا ٠ لا يا توليو ٠ لا ٠

يا لله ٠ أى شيء فى هذا العالم يمكن أن يعادل تلاحق الأحداث فى سرعة جنونية فى حياتنا الداخلية ؟٠٠

بقينا على هذا النحو فى وسط الغرفة لا ينطق أحد منا ببنت شفة وثار فى نفسى عالم مترامى الاطراف من المشاعر والافكار لا يمكن وصفه حول نقطة واحدة بشكل واضح مخيف ٠ وكان ذلك الصوت الداخلى يقول لى :

ـ واذا كان صحيحا أنهـا تجرعت السـم ؟ واذا كان ذلك صحيحا فما العمل ؟٠

انتابت جوليانا رجفة شديدة مستمرة جعلتها تنتفض انتفاضا قويا فوق صدرى ٠ وكانت لا تزال تخفى وجهها ٠

ولقد كنت أعلم أنها رغما مما تشعر به من ألم فى جسدها الضعيف لـم تكن تفكر فى شيء آخر اللهم الا فى الأمر الذى أوجب اشتباهى فيه ولم تكن تفكر الا فيما كنت أشعر به من رعب وجزع جنونى ٠

وهنا تبـادر الى شفتى سـؤال أردت أن اوجهـه اليها ٠٠ كنت أريد أن أقول لها :

ـ ألم يخطر ببا لكقط أن تحاولى ٠٠؟

كما كنت أريد أيضا أن أوجه اليها هذا السؤال الآخر :

ـ هل كان من الممكن أن تنصاعى لهذه التجربة الأليمة ٠

على أنى لم اتفوه بهذا السؤال ولا بذلك ٠

ومع هذا فقد بدا لى أنها قد فهمت ما كنت أريد أن أقول وسيطرت على كل منا فكرة الموت وشبح الموت المريع وتغلغل كل منا فى عالم الأرواح الحزين بعد أن نسينا ما أوجدته فى نفسينا فكرة المـوت من لبس وابهام ٠ وبعد أن ابتعدنا عن عالم الحقيقة ٠

على أنها لم تلبث أن أخذت فجأة في الشهيق والبكاء وقد إستبدر نحيبها

تحيبى وامتزجت دموعها بدموعى • ويلاه • لقد كانت دموعا سخينة • ولكن لم يكن فى مقدورها أن تحدث أى تغيير فيما قدره الله لنا •

علمت فيما بعد أنها اصابتها منذ عدة أشهر بعض الأمراض النسائية الخطيرة ، وانها كانت تعانى آلاما شديدة فى الرحم وفى المبيض •

ومن المعلوم أن تلك الأمراض النسائية الخطيرة الخفية تقلب حياة المرأة رأسا على عقب •

ولقد افهمنى الطبيب الذى أردت أن اتحدث اليه فى هذا الأمر بأنه يتحتم على أن أمتنع امتناعا باتا مدى فترة طويلة من الزمن عن الاقتراب منها وأن أقلع أيضا حتى عن ممازحتها ومداعبتها واثارتها • وأكد لى أنهـا اذا حملت فسوف تكون عملية الوضع عسيرة وربما أودت بحياتها •

على أن هذه الأمور ولو أنها كانت تؤلمنى أشد الألم فقد كانت تخفف عنى ذلك الضيق الذى كنت أشعر به من شيئين آخرين واقنعتنى أننى لا ذنب لى فيما أصاب جوليانا من ذبول وهزال وقدمت لى حجة سهلة أبرر بها أمام أمى هجرى لفراش جوليانا • وكل ما حدث من تغيير فى حياتى الزوجية • وكانت أمى فى ذلك الوقت على أهبة الذهاب الى روما والرحيل من الريف الذى كانت تقضى فيه بعد وفاة والدى الجانب الأكبر من العام مع شقيقى « فيديريكو » •

كانت أمى تحب زوجتى الشابة حبا جما •

وفى الحق أن جوليانا كانت فى نظرها الزوجة المثالية والرفيقة المخلصة التى كانت تحلم بها لابنها • ولم تكن ترى فى العالم امرأة أخرى أجمل من جوليانا أو أرق منها أو أكثر منها نبلا • ولم يكن يخطر ببالها أنه من الممكن أن اشتهى نساء اخريات أو أن القى بنفسى بين ذراعى امرأة سواها أو انام فى احضان من عداها أو اهيم حبا بغيرها •

ولما كانت أمى قد احبها أبى مدى عشرين عاما واخلص لها كل الاخلاص ولم يتغير قلبه عليها يوما واحدا حتى انتقل الى الدار الآخرة • فقد كانت

تجهل كل الجهل التقلب والتقزز والخيانة والغدر وجميع ألوان الشقاء والاخلال بالشرف التي قد تنشأ في فراش الزوجية • كما كانت لا تعرف الحزن والعذاب الذي كنت قد سببته وأسببه لتلك المخلوقة البريئة العزيزة التي كانت لا تستحق شيئا منه •

ولما كانت قد انخدعت بما كانت تتظاهر به جوليانا نبلا منها وكرما اذ كانت تخفي عنها كل شيء • فقد كانت لا تزال تؤمن بأننا زوجان سعيدان • •ولكن الويل كل الويل اذا كانت قد علمت شيئا مما حدث •

ولقد كنت آنئذ لا أزال أهيم حبا بالسيدة « تيريزا رافو » وأقع تحت سيطرتها الكاملة • تلك المرأة الجهنمية التي كانت تبدو لي في صورة حسناء قصة « مينيو » •

ولعلكم تذكرون تلك الكلمات التي وجهها « ابولونيو » الى « مينيو » في تلك القصة الشعرية الساحرة وهي :•

ـ أيها الشاب الجيمل • أنك تداعب أفعي والأفعي تداعبك •

كان الحظ مواتيا لي • فقد كانت أمي مضطرة الى مغادرة روما بسبب وفاة احدى خالاتي وأن تبقى بعيدة حينا من الوقت واستطعت بفضل مواظبتي على الحضور الى المنزل على غير العادة وترددي المستمر على زوجتي ان املأ ذلك الفراغ الهائل الذي تركته أمي برحيلها • ولم يكن قد زال من ذهني أثر ذلك الاضطراب الذي شعرت به في تلك الأمسية •

وقد وقع شيء آخر لا يمكن تصويره في احدى الأمسيات جعلني أكثر من التردد على جوليانا •

ولما كانت آلامها الجسمانية تتزايد باستمرار • فقد كان في مقدورنا أنا وأمي بعد جهد شديد أن نجعلها توافق على اجراء العملية الجراحية التي كانت تتطلبها حالتها وقد استدعت العملية بقاءها ثلاثين أو اربعين يوما متتالية في راحة تامة في فراشها وفترة نقاهة تقضيها في شيء كثير من الحرص والعناية • وكانت أعصاب المريضة المسكينة قد ضعفت كثيرا

وازدادت توترا • وكانت الاستعدادات الطويلة الأمد والمضنية قد اضعفتها وأنهكت قواها وأزعجتها ازعاجا شديدا الى حد أنها حاولت أكثر من مرة أن تلقى بنفسها من فوق سريرها وأن تثور وأن تتخلص من ذلك العذاب القاسي الذى كان ينهك قواها ويهد كيانها ويحط من قدرها ويزيد فى اذلالها •

قالت لى فى يوم من الأيام وفى شىء كثير من المرارة والحزن :

ـ قل لى بالله عليك • ألا تشعر بشىء من التقزز منى اذا فكرت فى حالتى •

يالله • ياله من شىء قبيح •

وبعد أن قالت ذلك أبدت حركة تنم عن التقزز من نفسها وأسبلت جفنيها ثم سكتت فجأة وعلى حين غرة •

وفى يوم آخر عندما كنت أدلف الى غرفتها أدركت أن هناك رائحة كريهة قد وصلت الى انفى • وعندئذ صاحت بأعلى صوتها دون وعى وقدبدا الشحوب على وجهها حتى أصبح يحكى لون قميصها وقالت :

ـ اذهب من هنا • اذهب من هنا يا توليو • ارجوك أن تذهب • وعد عند ما ابرأ من علتى لأنك اذا بقيت هنا فلسوف تكرهنى • اننى مكروهة وأنا فى هذه الحالة وغير مقبولة •• فلا تنظر الى •

وكانت الشهقات تحبس انفاسها •

ثم انها فى ذلك اليوم نفسه ولما تمض ساعات قلائل على ذلك الحديث بادرتنى بينما كنت ألتزم الصمت اعتقادا منى أنها كانت على وشك النوم بتلك الكلمات الحزينة التى كانت تتفوه بها بنبرات غريبة كنبرات من يتكلم وهو فى حلم • ليتنى كنت قد فعلت ذلك • لقد كانت فكرة طيبة لا بأس بها •

وعندئذ قلت لها :

ـ ماذا تقولين يا جوليانا ؟

ولكنها لم تحر جوابا •

ــ فى أى شىء تفكرين يا جوليانا ؟

على انها لم تجبنى الا بحركة من فمها كانت تحاول بها أن تبتسم ولكنها لم تستطع الى ذلك سبيلا ٠

وقد بدا لى أننى قد فهمت ما ترمى اليه ، وهنا انتابتنى موجة عارمة من المرارة وتأنيب الضمير والحنان والشفقة وقد وددت لو استطعت أن ابذل كل شىء لكى يكون فى مقدورها أن تعرف ما يجول بخاطرى وما تنطوى عليه نفسى فى تلك اللحظة وأن يتسنى لها أن تدرك مقدار تأثيرى البالغ على حقيقته ذلك التأثير الدفين الذى لم استطع التعبير عنه والذى كان لهذا السبب لا جدوى منه ٠

قلت لها :

ــ سامحينى واصفحى عنى ٠ وقولى لى ماذا يجب على أن أعمل حتى تصفحى عنى وحتى تنسى كل تلك الأمور الشائنة التى ارتكبتها فى حقك٠٠ لسوف أعود اليك ولن أكون لأحد غيرك ٠ بل سأكون لك ولك ما حييت ٠ أنك أنت وحدك المرأة التى أحببتها حبا حقيقيا طوال أيام حياتى اننى أحبك وحدك ٠ وأن نفسى تتجه دائما نحوك وتبحث عنك وترثى لحالك وتبكى من أجلك ٠ وانى لأقسم لك اننى لم أشعر قط وأنا بعيد عنك بأى سرور حقيقى٠ ولم تمر بى لحظة واحدة فى حياتى نسيتك فيها أو بعدت فيها عن ذاكرتى أبدا أبدا ٠ وأقسم لك على ذلك ٠ انك أنت وحدك المرأة الوحيدة فى هذا العالم التى تمتاز بالطيبة والحلاوة والرقة انك أطيب وأرق مخلوقة حلمت بها وتمنيتها فى هذا العالم ٠ انك الوحيدة والفريدة فى نوعها ٠ لقد وصل بى الأمر الى حد اننى أهنتك وجعلتك تتألمين وتفكرين فى الموت كما لو كنت تفكرين فى شىء من الأشياء المستحبة المرغوب فيها ٠

يا لله ٠ انك سوف تصفحين عنى ولكننى لن استطيع الصفح عن نفسى لسوف تنسين أنت كل شىء ٠ ولكننى أنا لن انسى ما حييت ٠ لسوف يبدو لى دائما اننى غير جدير بمحبتك حتى ولو كرست لك كل حياتى ولن أستطيع أن اجزيك واعوضك على ما ارتكبته من آثام نحوك ، وانى اؤكد لك بأنك ستكونين من الآن فصاعدا كما كنت دائما حبيبتى وصديقتى واختى ٠ ولسوف

تكونين ـ كما كنت دائما ـ حارستي ومستشارتي ، ولسوف أقول لك كل شيء وابوح لك بكل شيء ولسوف تكونين قطعة من نفسي • ولسوف تنالين الشفاء • ولسوف أعمل أنا على شفائك وعلى برئك من علتك ، ولسوف ترين كيف سأكون جديرا بمعالجتك وابرائك من مرضك عن طريق حناني الدافق • وانك لتعرفين ذلك حق المعرفة • تذكري وتذكري جيدا كيف اني عندما كنت مريضة فيما مضى أردت أن أقوم أنا وحدي بعلاجك ولم ابتعد قط عن فراشك ، نهارا أو ليلا وكنت آنذاك تقولين لي أن جوليانا ستتذكر لك ذلك دائما • وكانت الدموع تترقرق من عينيك ، وكنت أنا انظر اليك والرعدة تسري في اوصالي ، ابتها القديسة ايتها القديسة تذكري تذكري ، وعندما يمن الله عليك بالشفاء وتبرحين فراشك وتدخلين في دور النقاهة سنذهب الى الريف وسوف نعود الى « فيلا ليللا » (قصر الليل) لسوف تكونين ضعيفة الجسم بعض الشيء ولكنك سوف تشعرين بالعافية ولسوف استعيد انشراحي وبهجتي السابقة ولسوف اجعلك تبتسمين وأجعلك تضحكين ، ولسوف تعاودين ضحكاتك الجميلة التي كانت تنزل بردا وسلاما على قلبي ، لسوف تستعيدين مرح الشباب ومباهجه اللطيفة ، ولسوف تتركين ضفائرك تتهدل فوق كتفيك على النحو الذي كان يعجبني • أننا لا نزال في ريعان الشباب وميعة الصبا • ولسوف نستعيد سعادتنا السابقة اذا ما أردت • لسوف نعيش ولسوف نعيش في هناء •

هذا ما كنت اتحدث به اليها في دخيلة نفسي ، وهذا ما كنت أود أن اقوله لها • ولكن الكلمات لم تكن تخرج من فمي ، واني رغما من تأثيري الشديد وانهمار الدموع من عيني كنت أعرف أن ذلك التأثير مؤقت والى حين • وأن تلك الوعود انما هي وعود كاذبة • كما كنت أعلم علم اليقين أن جوليانا لن تنخدع بمثل هذه العبارات وأنها لابد أن تجيبني بابتسامتها الحلوة الساحرة التي طالما بدت على شفتيها في مرات سابقة • والتي كانت تريد أن تقول لي من خلالها :

ـ نعم انني أعلم أنك انسان طيب القلب وتريد ألا تجعلني اتألم • ولكنك لست سيد نفسك ولا سيطرة لك على قلبك ولن تستطيع أن تقاوم المقادير التي تجتذبك ، لماذا تريد مني أن اخدع نفسي ؟

لزمت الصمت في ذلك اليوم وفي الأيام التي تلته ، ورغما من احساسي

أكثر من مرة بالاضطراب والبلبلة من جراء ما كنت أشعر به من النـدم وما كنت انوى القيام به • ورغما من الأحـلام الغامضة التى كنت أحلم بها لم اجرؤ أن اتكلم لأقول لنفسى أننى لكى أعود اليها يجب على أن اهجر الاشياء التى تبهجنى والمرأة التى تفسدنى وتسحرنى •

ولكن هل أجد القوة لعمل ذلك ؟

وكنت أرد على نفسى بقولى : من يدرى •

ولقد كنت انتظر من يوم الى آخر أن أجد تلك القوة التى لم أكن أشـعر بها قط والتى لم تدركنى ، كنت انتظر من يوم لآخر وقوع حادث (لا ادرى ماذا عسى أن يكون) من شأنه أن يقوى عزيمتى ويجعل تصميمى حازما لا مرد له وكنت اتردد فى أن اتصور حياتنا الجديدة أو أحلم بازدهار حبنا الشرعى مرة ثانيـة وبتذوق طعم تلك الأحاسيس المتجددة • وكنت أقول لنفسى :

ـ سوف نذهب اذن الى « فيلا ليللا » في تلك الدار التى لا تزال تحتفظ بذكرياتنا الجميلة ، ولسوف نكون هناك نحن الاثنين وحدنا ، اذ سنترك ابنتينا « ماريا » و « ناتاليا » عند أمى فى الضيعة ، ولابد أن يكون الجو معتدلا فيها ، ولسوف تظل زوجتى الناقهة مستندة الى ذراعى دائما ونحن نسير فى تلك الطرق والدروب المعـروفة حيث تثير كل خطوة من خطواتنا احدى الذكريات • وكان بودى لو أرى فى شحوب وجهها شعلة بسيطة خاطفة تنتشر عليه بين الفينة والفينة • وأن يكون كل منا تجاه الآخر ملتزما جانب الحرص والحذر ونشعر بشىء من الخوف ويخيم علينا فى بعض الأحيان ستار من الصمت والتفـكير • ويتجنب كل منا النظر فى وجـه الآخر ولكن ترى لمـاذا ؟ •

وفى أحـد الأيام عنـد ما أشعر بتأثير تلك الأماكن وما توحى به الى نفس آخـذة فى التحـدث اليها عما كنا نحس به من النشوة والسرور فى ايامنا الماضية وأقول لها :

ـ هل تذكرين ؟ هل تذكرين ؟ وهل تذكرين ؟

وعندئذ يشعر كل منا رويدا رويدا بالخوف يتزايد في قلوبنا دون أن

نجد له مبررا ويأخذ كل منا فى الوقت ذاته فى الالتصاق بالآخر دون وعى ، ويلثم كل منا فم الآخر ونعتقد أننا فى حاجة الى المزيد من العناق والتقبيل. ولابد أن تكون هى أيضا تريد المزيد وأنا اضمها بين ذراعى واناديها بأسماء يوحى بها الى ما أشعر به من حنان عظيم وعطف عليها ولابد أن تفتح عينها وتحدق فى وجهى وتركز على محياى لحظة كل ما يجيش بصدرها وما تنفعل به روحها ، وقد تبدو لى انها قد ظهرت فى ابهى حلل جلالها ·

وهكذا نعـود الى الشعور مرة ثانية بحماستنا القـديمة وشغفنا الأول ونستغرق ثانية فى اوهامنا العظيمة · وعندئذ تستولى على كل منـا فـكرة واحدة لاتبرح اذهانناونشعر بشوق شديد لا يمكنوصفه يضطرب فى نفوسنا وأقول لها وفرائصى ترتعد ارتعادا شديدا :

ـ ترى هل ابللت من مرضك ؟

ولابد أن تفهم من نبرات صوتى ذلك الغرض الخفى الذى ارمى اليه من توجيه هذا السؤال اليها ولابد أن تجيبنى على سؤالى هذا دون أن تحـاول اخفاء رعدتها قائلة :

ـ لم ابرأ بعد من علتى ·

وفى المساء عنـدما يفترق كل منـا عن الآخر ويأوى كل منا الى غرفتـه الخاصة يشعر كلانا بأنه يكاد يموت غما وحزنا ·

ولكن ما ان يأتى الصـباح حتى تقول لى عيناها وهمـا تنظران الى نظرة مفاجئة :

ـ اليوم ·· اليوم ··

وعندما تتحاشى تلك اللحظة القدسية المريعة وتنتحل بعض الأعذار البريئة تتخلص منى وتطيل فى عذابنا وتقول لى :

ـ لنخرج هيا بنا نخرج ··

وعندئذ نخرج فى عصر يوم مشرق وفى جو خانق يثير الاعصاب فنسير

بجهد وفى تثاقل وما هى الا لحظات حتى تبدأ فى السقوط على أيدينا وعلى وجهينا بعض نقط فاترة من ماء المطر كأنها دموع العين • وعندئذ أقول فى صوت متغير :

ـ لنعـد ادراجنا •

وعندما نقترب من عتبة الباب آخذها فجأة بين ذراعى وأحس بها وهى ترتمى على صدرى كما لو كانت فاقدة الوعى لا حراك بها • فاحملها بين يدى وأصعد بها الدرج دون أن أشعر بثقلها • وبعد كثـير •• وبعد كثـير •• ! تضعف قوة الشهوة فى نفسى خشية الحاق الأذى بها وخوفا من أن أجعلها تصرخ صرخة تنم عن الألم ، وبعد كثير من ••• ! وعنـدئذ يتحطـم كيان كل منا تحطيما شديدا عندما نشعر بصدمة احساس قدسى مريع لم يكن لنا عهد به من قبـل • وبعـد ذلك تبدو لى وكأنها قد فارقت الحياة وقد تبلل وجهها كلية بالدموع وعلاه الشحوب وأصبح يحكى فى بياضه بياض وسادة السرير •

ويلاه •• لقد بدت لى كأنها قد ماتت فى ذلك الصباح عندما عمل الاطباء على خديرها بالكلوروفورم •

ولما شعرت المسكينة بأنها تغيب فى سكون الموت وجهوده حاولت مرتين أو ثلاث مرات أن ترفع ذراعيها نحوى وحاولت أن تنادينى • وهنا غادرت الحجرة وقد انقلبت سحنتى ورأيت مباضع الجراحين وشيئا أشبه ما يكون بملعقة حادة بتارة وقطع الشاش والقطن المعقمة والثلج والأشياء الأخرىالتى وضعها الاطباء فوق احدى المناضد ولقد انتظرت سـاعتين كاملتين ثقيلتين وكنت ازداد ألمـا دقيقة بعد أخرى كلما توغلت فى الخيال • كما شـعرت بشىء كثير من الشفقة اليائسة تضطرب فى احشائى نحو تلك المخلوقة التى كانت مباضع الجراحين لا تتوغل وتمزق فى لحمها السىء الحظ فحسب بل وفى صميم نفسها وفى أدق المشاعر التى تستطيع امرأة الاحتفاظ بها وفى ذلك الجزء الحساس من أجزاء جسدها أيضا •

كنت أشـعر بشفقة نحو هـذه المخلوقة كانت توحى بهـا الى حالتها وما تتعرض له من خطر وما كنت أشـعر به من حب ورغبـة وشهوة نحوها • ولقد تخيلت عندئذ ذلك الجرح الكبير وأثر الالتحام وهو لا يزال مفتوحا تغلوه الدماء النازفة ••

وعندما عدت ثانية الى غرفة « جوليانا » الفيتها لا تزال تحت تأثير المخدر فاقدة الوعى لا تتفوه بكلمة واحدة ولا تزال أشبه بأمرأة ميتة ، وكانت أمى لا تزال هى أيضا شاحبة الوجه مكتئبة وزائغة البصر الى حد كبير ولكن كان يبدو أن العملية الجراحية قد نجحت نجاحا تاما كما كانت تبدو على وجوه الاطباء علامات الرضا والارتياح وكانت رائحة التخدير تملأ جو الغرفة وكانت الراهبة الانجليزية تقف فى أحد أركانها وهى تملأ الأوعية بقطع الثلج • وكان مساعد الطبيب يلف الضماد ويعيده الى حالته الأولى بعد أن أخذ الطبيب منه ما كان فى حاجة اليه وهكذا عادت الأمور الى مجراها الطبيعى • وقد أخذ السكون والهدوء يخيم رويدا رويدا •

أما المريضة فقد بقيت مدة طويلة مستغرقة فى نومها العميق وظهرت آثار بسيطة من الحمى على جسدها • ومع هذا فقد شعرت أثناء الليل ببعض الاضطرابات فى معدتها وبرغبة شديدة فى القىء لم تستطع مقاومتها • ولم يكن ذلك المخدر كافيا لتهدئة هذه الآلام التى كانت تشعر بها أو لاعادتها الى حالتها الطبيعية ، وكنت أنا فاقد الوعى عندما كنت أشاهد ذلك العذاب الشديد الغير الانسانى وأنا أعتقد انها لابد أن تفارق الحياة ولا أدرى ماذا قلت فى ذلك الوقت ولا ما قمت بفعله وكنت اعانى سكرات الموت معها •

تحسنت حالة المريضة فى اليوم التالى ثم أخذت فى التحسن يوما بعد يوم وكانت تستعيد قواها فى شىء كثير من البطء •

وقد كنت الازم الجلوس الى جانب سريرها وكنت اصر على أن أذكرها بممرضى العصور الماضية بما كنت أقوم به من حركات • ولكن شعورى كان يختلف عن شعور أولئك • فقد كان شعورا اخويا دائما وكثيرا ما كنت أشعر بالقلق والاضطراب من بعض العبارات التى كانت تتضمنها رسالة من عشيقتى البعيدة عندما كنت اقرأ لها بعض الصحف فى كتاب من كتبها المفضلة لم أكن استطيع أن انسى تلك العشيقة الغائبة ومع هذا فانى عندما كنت فى بعض الأحيان أرد على احدى رسائلها أشعر بشىء قليل من التقزز والفتور وكنت أعتقد أن هذه دلالة على عدم حبى لها وكنت أقول لنفسى مرارا وتكرارا •

ـ من يدرى ماذا سيكون ٠

وفى يوم من الأيام وجهت أمى الحديث لزوجتى « جوليانا » فى حضرتى وقالت لهـا :

ـ هل لن نذهب سويا الى الضيعة عندما تقومين من فراشك وتستطعين أن تتحركى ٠

ـ أليس ذلك صحيحا يا توليو ٠٠؟

وعندئذ نظرت جوليانا الى ٠

وهنا أجبت دون تردد أو تفكير بقولى :

ـ نعم يا أمى ٠ بل اننى سأذهب أنا وجوليانا الى « فيلا ليللا » ٠

وعندئذ ألقت على جوليانا نظرة أخرى خاطفة وأفتر ثغرها عن ابتسـامة لم تكن منتظرة لايمكن وصفها ٠ وكانت ابتسامتهاهذه تعبر عن بساطة أشبه ببراءة الأطفال وتحكى ابتسامة طفل مريض قد وعده ذووه بوعد من الوعود الخلابة ثم اسبلت عينيها واستمرت تبتسم وعيناها تكادان تكونان مغمضتين وكأنهما تريان شيئا بعيدا وبعيدا جدا وكانت هذه الابتسامة تتضاءل رويدا رويدا على شفتيها بشكل غير ملحوظ ٠

ما أكثر ما كانت تعجبنى وتسر خاطرى ٠ وما أعظم ما كان حبى وعبادتى لها فى تلك اللحظة !٠

لقـد كنت أحس احساسا قويا بأنه ليس هناك فى العالم كله شىء يعادل طيبة قلبها وبساطتها ٠

كانت تلك المخلوقة المسكينة تبدو عليها امارات حنان طيبة لا حد لها وكان احساسى بهذه الطيبة يتغلغـل فى صميم نفسى ويغمر قلبى سرورا وبهجة ، كانت ترقد فوق سريرها وهى مضطجعة على ظهرها وتحت رأسـها وكتفيها وسادتان أو ثلاث وسائد وكان وجهها الذى يجلله شعرها الكستنائى الغزير المتهدل من حوله يبدو فى أبهى صورة وفى منتهى الجمال وفى ملائكية ظاهرة وكانت ترتدى قميصا مشدودا الى عنقها ويغطى كل ذراعها وكانت يداها

مسترخيتين فوق مـلاءة سريرها وهما نحيلتان يبـدو عليهما شيء كثير من الشحوب وكانت عروقها البارزة الداكنة اللون تميزهما فوق ملاءة السرير الناصعة البياض ٠

امسكت باحـدى تلك اليـدين (وكانت أمى قد غادرت الغرفة) وقلت بصوت خفيض ٠

ـ لسوف نعود اذن ٠٠ الى « فيلا ليللا » ٠

وهنا قالت الناقهة :

ـ نعم !

وبعدئذ لزمنا الصمت لكى نطيل من أمد تأثرنا ونحتفظ بأوهامنا ٠ وكان كل منا يعرف المعنى العميق الذى كانت تنطوى عليه تلك الكلمـات القليلة التى تبادلناها فى صوت يكاد يشبه الهمس ٠ وكانت غريزتنا الحادة توحى الينا وتنبهنا الى ضرورة عدم الاصرار وعدم الايضاح وعدم التمادى فيما كنا بسبيله أكثر من ذلك لأننا اذا كنا قد أطلنا الحـديث لوجدنا أنفسنا أمام الحقيقة التى لا تتفق مع أوهامنا والتى كانت تداعب خواطرنا وتنعم بهـا أحلامنا وتشعرنا بعد قليل بما يعكر صفونا ٠

وكان ذلك التثاقل الذى كان يبدو علينا يزيد من أحلامنا ويعمل عـلى أن ننسى كل ما فات بين الفينة والفينة وننحنى فى وقت واحد على الصحيفة بذاتهـا ونتتبع بأعيننا السـطر بنفسـه وكانت معنا اذ ذاك بعض الكتب الشعرية وكنا نحمل أبيات الشعر من المعانى أكثر مما تحتملها ٠ وكنا نتحدث ونحن صامتان بلسان ذلك الشاعر الرقيق وكنت أؤشر بظفرى على الشطرات التى كان يبدو أنها تعبر عن مشاعرى المكنونة وعما يجول بخاطرى ٠

وبعد أن تقرأ تلك الأبيات كانت تتخاذل قليلا فوق الوسائد وهى تغلق جفنيها وتبتسم ابتسامة خفيفة غير ملحوظة ٠

ولكنى كنت أرى قميصها وهو يرتفع وينخفض فوق صدرها مع أنفاسها

المضطربة فى شىء كثير من البطء الذى بدأ يقلقنى كما كانت تزعجنى رائحة زهر اللويزة التى كانت تنبعث من ملاءة سريرها وأغطية وسائدها .

كنت أشتهى وأنتظر منها أن تشعر بشىء من الضعف المفاجىء فترتمى على صدرى وتطوق عنقى باحدى ذراعيها وتقرب خدها من خدى حتى أشعر بحرارة أنفاسها .

وهنا وضعت سبابتها الممدودة فوق الصحيفة ورسمت بظفرها اشارة على هامشها وهى تتابع قراءتى التى كانت تنم على تأثرى البالغ .

وعندئذ أمسكت بمعصمها وانحنيت برأسى ببطء حتى لمست شفتاى تجويف كفها وغمغمت قائلا :

ـ هل فى استطاعتك يا حبيبتى أن تنسى وتصفحى ؟

وضعت يدها على فمى ونطقت بكلمتها الرهيبة قائلة :

ـ اسكت .

وهنا دخلت أمى وأعلنت أن السيدة « تاليتشى » قد جاءت لزيارتنا فى تلك اللحظة . وقد قرأت على وجه جوليانا امارات الضيق من نبأ هذه الزيارة وكذلك كان الحال بالنسبة لى فقد انتابنى اضطراب صامت لهذه الزيارة التى جاءت فى غير وقتها وتنهدت جوليانا وقالت :

ـ رباه !

وعندئذ قلت لأمى فى لهجة ضارعة :

ـ اخبريها أن جوليانا نائمة .

ولكن أمى قالت لى :

ـ ان الزائرة تنتظر منذ وقت طويل فى الغرفة المجاورة ومن الواجب استقبالها .

كانت السيدة « تاليتشى » هذه امرأة ثرثارة طويلة اللسان ثقيلة الظل وكانت تتطلع الى من حين الى آخر فى شىء كثير من الدهشة وحب الاستطلاع كما أن أمى قالت عرضا أثناء الحديث :

ـ اننى أكاد أبقى الى جانب المريضة الناقهة من الصباح الى المساء ٠

وهنا صاحت السيدة « تاليتشي » فى سخرية ظاهرة وهى تحدق فى وجهى وتقول :

ـ يا له من زوج مثالى !

زاد اضطرابى كثيرا حتى اننى قررت أن أنصرف من الغرفة وأنتحل أى عذر من الأعذار فى سبيل ذلك ٠ وخرجت من البيت والتقيت على درج السلم بابنتى الصغيرتين « ماريا وناتاليا » اللتين كانتا عائدتين بصحبة مربيتهما وقد انهالتا على عناقا وتقبيلا جريا على عادتهما كلما شاهدتانى وأعطتنى كبراهما « ماريا » بعض الرسائل التى أخذتها من حارس باب المنزل ٠

وسرعان ما أدركت بينها رسالة من عشيقتى الغائبة ٠ وعندئذ تخلصت من عناقهما بعد جهد ٠

وعندما وصلت الى الطريق توقفت عن المسير لكى أقرأ هذه الرسالة ٠

كانت رسالة موجزة ولكنها عاطفية وكانت تضم بين أسطرها عبارتين أو ثلاث عبارات تتميز بحرارتها الملتهبة ٠

وقد عرفت « تيريزا » كيف تجد هذه العبارات لاثارة عواطفى وأخبرتنى فى هذه الرسالة بأنها سوف تكون فى « فلورنسه » فى الفترة ما بين اليوم العشرين والخامس والعشرين من الشهر وأنها تود رؤيتى هنالك « كالمرة السابقة » ٠ وكانت تعدنى بأنها سوف تبلغنى أخبارا أكثر دقة عند لقائنا ٠

وعندئذ فارقت مخيلتى فجأة خيالات ذلك الوهم وذلك التأثر الذى شعرت به فى المدة الأخيرة كما تفارق الزهور أغصان احدى الأشجار وتتبدد فى كل مكان مع الريح على اثر عاصفة هوجاء ٠ وكما كانت تلك الأزهار لا يمكن اعادتها الى مكانها من الشجرة فكذلك كانت الحال بالنسبة لخواطرى ، فقد أصبحت هذه التأثرات غريبة عنى وبذلت مجهودا كبيرا كما حاولت كثيرا أن أستجمع شتات نفسى ولكنى لم أستطع الى ذلك سبيلا ٠

أخذت أهيم فى الطرقات لا ألوى على شىء ودون غرض معين فدخلت احدى المقاهى ثم انصرفت منها ودخلت احدى المكتبات ثم اشتريت شيئا من الحلوى وبعض الكتب بطريقة آلية دون أن أعرف لماذا اشتريتها ٠

وهنا بدأت الشمس تغيب وراء الأفق وبدأ الليل يرخى سدوله وأخذت المصابيح ترسل أنوارها وازدحمت أرصفة الطرق وقد ردت اثنتان أو ثلاث من السيدات على تحياتى من فوق عرباتهن ٠ كما مر بى أحد أصدقائى وهو يسير الى جانب عشيقته التى كانت تحمل بين يديها باقة من الزهور وهى تسير بسرعة تتحدث وتضحك معه ٠ وهنا أثارت ما فى الحيـاة المدنية من مظاهر خلابة حبى للاستطلاع وكان سببا فى غيرتى وحسدى واثارة شهوتى ٠

ولقد ازداد اضطرابى فى هذا الأسبوع زيادة كبيرة فشعرت بدمى يغلى غليانا شديدا ويلتهب التهابا وومضت فى مخيلتى بعض الصور واضحة جلية واجتذبتنى عشيقتى البعيدة بالكلمات الملتهبة التى قرأتها فى رسالتها واتجهت كل رغباتى وشهواتى نحوها دون أن تجد ما يدفعها أو يردها ٠ ولكنى عندما هدأ اضطرابى وبينما كنت أصعد درج سلم منزلى أدركت خطورة كل ماحدث وما قمت بعمله ففكرت فى أننى قبل ساعات قليـلة تحللت من أحد القيود والتزمت بوعد من الوعود وأخذت على نفسى موثقا وعهدا صامتا ولكنه رهيب تعهدت به لمخلوقة لا تزال ضعيفة ومريضة وأيقنت أنه لا يمكننى أن أتحلل منه دون أن أجلب على نفسى العار ٠

وعندئذ أخذت أقرع نفسى تقريعا شديدا لأنى لم أقاوم تلك الشـهوات الكاذبة كما انحيت باللائمة على نفسى لأننى ترددت طويلا فى مقاومة هـــذا الضعف النفسى ، وأخذت أحاسب نفسى حسابا عسيرا على كل ما قمت بعمله وما قلته بفمى فى ذلك اليوم كما يفعل التاجر المدقق البخيل الذى يريد أن يتعلق بأوهى الأسباب لكى يتحلل من عقـد وافق عليه من قبـل ٠ وكانت الكلمات الأخيرة التى قلتها لنفسى تمتاز بشىء كثير من الشـدة والعنف ٠ اذ قلت :

ـ هل تستطيعين ياحبيبتى أن تنسى وتصفحى ؟ تلك الكلمات التى تفوهت بها بتلك اللهجة على أثر قراءتى لتلك الأبيات الشعرية والتى كانت فى معناها

تعادل تصميما نهائيا وتأكيدا قويا كما أن كلمة أسكت التى ردت بها على جوليانا كانت تصديقا وتأمينا على كلماتى ·

ولكنى قلت فى نفسى :

ـ هل صدقت جوليانا فى هذه المرة توبتى ورجوعى الى الصواب ؟ وألم تكن فى شك دائما فيما يتصل بكل حركاتى الطيبة ؟

لقد تراءت أمام عينى صورة ابتسامتها الخفيفة التى كانت تبدو فى بعض الأحيان على شفتيها والتى كانت تتضاءل رويدا رويدا وتنبىء عن عدم ثقتها اذا كانت فى قرارة نفسها لم تصدق ما قلته لها واذا كان ما شعرت به من الوهم قد ظهر لها بطلانه فجأة فربما لم يكن لتراجعى ونكوصى أى خطر جسيم ولن يكون له أى أثر شديد فى نفسها أو يسبب لها الكثير من الاشمئزاز والاحتقار منى ولبقى الحادث دون أية نتيجة ومر مرور الرياح ولعدت أنا حرا طليقا كما كنت من قبل ·

وقد تبقى « فيلا ليللا » حلما من أحلامها ، ثم تراءت أمامى ابتسامة أخرى وهى الابتسامة الجديدة الخاطفة البريئة التى افترت عنها شفتاها من جديد عند ذكر اسم « فيلا ليللا » ·

ماذا أفعل ؟ وماذا أقرر ؟ وأى طريق أسلك ؟ ·

فقد كانت الرسالة التى بعثت بها الى « تيريزا رافلو » تشعل النار فى جسدى ·

عندما دخلت ثانية الى غرفة « جوليانا » أدركت منذ النظرة الأولى أنها كانت فى انتظارى وبدت أمامى جزلة مسرورة وعيناها تشعان نورا كما بدا على وجهها شحوب أكثر وضوحا وظهورا من ذى قبل ·

وما أن رأتنى حتى صاحت وهى تضحك قائلة :

ـ أين كنت يا توليو ؟

فأجبتها بقولى :

ـ لقد جعلتني السيدة « تاليتشى » ألوذ بالفرار ·

ضحكت وهنا أخذت تضحك ضحكا رقيقا متواصلا وكان من شأن المرح أن جعلها تتجلى فى أبهى صـورة فقدمت اليها الكتب وعلبة الحلـوى التى اشتريتها ٠

وعندئذ عمرها السرور وكانت أشبه ما تكون بطفلة نهمة وصاحت بى قائلة :

ـ كل هذا من أجلى ؟

تناولت قطعة من الحلوى وهمت بوضعها فى فمها ولكنها ترددت قليـلا وتركتها تسقط من يدها وأقصت العلبة جانبا وقالت :

ـ ثم ٠٠ ثم ٠

وهنا قالت أمى :

ـ أتعرف يا توليو انها لم تذق شـيئا من الطعام حتى الآن وأرادت أن تنتظرك ٠

وعندئذ قاطعتها جوليانا وقد احمر وجهها بقولها :

ـ آه اننى لم أقل لك بعد ٠٠ لم أقل لك بعد ٠٠ ان الطبيب كان هنـا بينما كنت فى الخارج ٠ ولقد وجد أن صحتى تحسنت كثيرا ولسوف يكون فى مقدورى أن أبرح سريرى يوم الخميس القادم ٠ أرأيت يا توليو ؟ سوف يكون فى استطاعتى أن أنهض من فراشى يوم الخميس المقبل ٠

ثم أردفت قائلة :

ـ وبعد عشرة أيام أو خمسة عشر يوما على الأكثر سيكون فى استطاعتى أن أسافر فى القطار ٠

واستطردت تقول بعد برهة صمت أليمة وقد خفت حدة صوتها :

ـ الى « فيلا ليللا » ٠

اذن فانها لم تكن تفكر فى شىء آخر غير « فيلا ليللا » ولم تكن تحلم بشىء آخر سواها وكانت قد صدقت ولا تزال تصدق ما كنت أقوله وكنت أحاول

بكل جهد أن أخفى ألمى وأهتم اهتماما بالغا باحضار المعدات اللازمة لتهيئة طعامها البسيط ولقد وضعت أنا نفس المائدة الصغيرة فوق ركبتى ٠

كانت جوليانا تتبع حركاتى بنظراتها اللطيفة التى كانت تستدر عطفى واشفاقى عليها وليتها كانت تدرك ذلك !

وبينما نحن كذلك اذا بوالدتى تصيح فجأة صيحة عالية وتقول :

ـ ما أجملك هذا المساء يا جوليانا ٠

وفى الحق ان وجهها كان يطفح بشرا ويفيض بحيوية غريبة كانت تجعل عينيها متوقدتين وتجعلها تبدو كأنها أكثر شبابا وحلاوة من أى وقت مضى

وعندما تفوهت أمى بهذه العبارة احمر وجهها حياء وخجلا وبقيت مسحة من هذا الاحمرار تغطى خديها طوال ذلك المساء وأخذت تقول وتكرر هـذه العبارة :

ـ سوف أقوم من فراشى يوم الخميس ٠٠ يوم الخميس ٠٠ بعد ثلاثة أيام ! ولكننى لن أستطيع السير على أقدامى ٠٠

وكانت أثناء الحديث لا تفتأ تتكلم عن ابلالها من مرضها وعن قرب سفرنا وطلبت من والدتى أن تعطيها بعض أخبار عن الفللا وعن الحديقة ، كما وجهت الى الحديث قائلة :

ـ لقد زرعت شتلة من الموالح الى جانب أشجار الخوخ فى المرة الأخيرة التى كنا فيها بالضيعة ٠ أتذكر ذلك يا توليو ؟ من يدرى اذا كنت سأجدها فى مكانها أم لا ٠٠

وعندئذ قاطعتها أمى وامارات البشر تبدو على وجهها قائلة :

ـ نعم ٠٠ نعم ٠

ـ لسوف تجدينها ما فى ذلك شك ٠ لقد نمت وترعرعت وأصبحت شجرة باسقة اسألى عنها « فيديريكو » ٠

ـ أحقا ما تقولين يا أماه ٠ قولى لى بالله عليك ٠

كان يبدو أن تلك التفاصيل الدقيقة كانت لها أهمية عظيمة فى نفسها فى تلك اللحظة فأخذت تتحدث وتتبسط فى الحديث بفصاحة غير معهودة وكنت أعجب كيف توغلت فى أوهامها الى هذا الحد وعجبت كيف جعلها هذا الحلم تتجلى الى هذه الدرجة وكنت أقول لنفسى :

ــ لماذا صدقت وعودى فى هذه المرة ؟ لماذا صدقتنى ؟ كيف تركت نفسها تجرى وراء هذه الأوهام ؟ من الذى أعطاها هذه الثقة بما أقول على غير عادتها ؟

كانت فكرة خيانتى لها واخلالى بوعودى فى القريب العاجل التى ربما كان لا معدى لى عنها • كانت هذه الفكرة تجعل الدم يجمد فى عروقى ولكن ترى لماذا تكون هذه الخيانة لا معدى عنها ؟ هل لن يكون فى مقدورى ألا أقوم بارتكابها ؟ يجب على ويتحتم على الوفاء بوعدى وان أمى شاهدة على وعدى الذى وعدته وقطعته على نفسى ولسوف أفى بوعدى مهما كان الثمن ومهما كلفنى ذلك من عناء ، ولقد تخلصت من هذا التردد المؤلم بعد صراع نفسانى عنيف اهتز له ضميرى هزة شديدة واتجهت بكليتى نحو جوليانا مدفوعا بدافع نفسانى عارم •

كانت جوليانا لا تزال تبعث البهجة فى قلبى وكانت متأثرة ممتلئة حيوية وشبابا وكانت تذكرنى بزوجتى جوليانا القديمة التى طالما احتضنتها بين ذراعى وحملتها فوق صدرى فى غمرة حياتنا الزوجية الوادعة التى كانت ترفرف عليها السعادة والسكينة مدفوعا بنشوة أشبه ما تكون بالجنون وطالما هرعت بها الى غرفة نومها •

كانت جوليانا ترجو أمى وهى تحاول منعها عن صب النبيذ وتقول لها :

ــ كلا كلا يا أمى • بالله عليك لا تجعلينى أشرب أكثر مما شربت • لقد شربت كثيرا من النبيذ دون أن أشعر بذلك •

وهنا التفتت الى وقالت لى :

ــ ما ألذ نبيذ « شابليس » • هل تذكر يا « توليو » ؟

قالت هذا وأخذت تضحك وهى تحدق فى عينى لكى تثير فى نفسى ذكرى

حبنا القديم الذى كانت تفوح منه رائحر النبيذ الأبيض القليل المرارة الذى كان يعجبها وتؤثره على غيره .

فأجبتها قائلا :

ـ نعم أذكر ذلك النبيذ .

وهنا أسبلت جفونها برعشة خفيفة من أهدابها ثم قالت :

ـ ان الجو حار هنا أليس كذلك ؟ انى أشعر بأذنى تحترقان .

ثم ضغطت بكفيها على رأسها لكى تتحسس حرارة جسدها ، وكان النور الذى يستعر الى جانب سريرها يكشف عن ملامح وجهها . كما كان يكشف عن بعض الخيوط الذهبية اللامعة وسط شعرها الكستنائى الغزير الذى كانت تبدو من خلاله أطراف أذنها الرقيقة الصغيرة الحمراء .

وبينما كنت أساعد على رفع المائدة الصغيرة (وكانت أمى قد خرجت اذ ذاك هى والخادمة للحظة واحدة وبقيتا فى الغرفة المجاورة) اذا بها تنادينى بصوت خفيض قائلة :

ـ يا « توليو » .

وعندما اقتربت منها أبدت حركة خاطفة استرعت انتباهى وطبعت قبلة على خدى .

وهنا قلت لنفسى :

ـ ألم يكن من المحتم أن تستعيدنى بهذه القبلة كلية والى الأبد جسدا وروحا ؟ ألم تكن تلك الحركة التى أبدتها وهى تلك المرأة المترفعة العزيزة النفس تعنى أنها تريد أن تنسى كل شىء وأنها قد نسيت بالفعل كل ما حدث لتعيش معى من جديد حياة جديدة ؟ لعلها رغبت فى الاستسلام مرة أخرى لحبى لها فى شىء كثير من الرضاء والثقة والحنان .

وهكذا أضحت أختى عشيقتى على حين غرة ودفعة واحدة .

لقد احتفظت هذه الأخت المعصومة من الخطأ فى دمها وفى عروقها الدفينة بذكرى مداعباتى واحساساتنا وشهواتنا . تلك الذكرى التى تبقى دائما باقية راسخة فى قلوب النساء .

وعندما كنت أفكر فى ذلك بينما كنت أخلو الى نفسى ، كانت تتراءى أمام عينى دون انقطاع بعض مشاهد الأيام والليالى الماضية كنت أرى مناظر الشفق الأحمر التى كانت تبدو فى شهر يونيه الحار تتخللها عطور غريبة شديدة الوقع على من يعيشون بمعزل عمن يحبون ومن يبكون أو يشتهون ويتشوق وأرى كأنى أدخل الغرفة وأجدها جالسة الى جانب النافذة وقد وضعت كتابا فوق ركبتيها وبدا عليها النحول وشحب لون وجهها وكأنها أصبحت من الموت قاب قوسين أو أدنى • وصحت بها قائلا :

ـ جوليانا •

وهنا انتفضت وانتبهت • فقلت لها :

ـ ماذا تفعلين ؟

فأجابت قائلة :

ـ لا شىء •

وقد ظهر على عينيها الحالكتى السواد شىء من التغير لا يمكن وصفه كأنه انطلاق أشياء كانت مكبوتة فى نفسها •

يالله • ما أكثر المرات التى عانت فيها آلام ذلك العذاب الجسمانى منذ يوم انفصالنا المشئوم ؟

كانت أفكارى تحوم حول تلك المشاهد التى أثارها ذلك الحادث البسيط الأخير • وكان ذلك التأثر الغريب الذى بدا على جوليانا يذكرنى ببعض مظاهر حساسيتها الجسمانية الحادة • وربما كان المرض قد زاد من عنفوان هذه الحساسية وجعلها أكثر ايلاما •

وعندئذ فكرت بدافع الفضول والشقاوة فى أن أرى حياة تلك المناقشة الضعيفة تستعر وتتحطم أمام دعاباتى ومزاحى • وفكرت فى أن الشهوة قد يكون لها طعم العلاقات الجسدية المحرمة • وكنت أقول لنفسى :

ـ وهل يكون ذلك سببا فى موتها ؟

كانت بعض الكلمات التي قالها الطبيب تعود الى ذاكرتي فتسبب لي حزنا

شـديدا ، كما اننى بسبب تلك القسـوة التى تكمن فى قرارة نفوس جميع الرجال الشهوانيين لم أخش ذلك الخطر ولم ترتعد له فرائصى • بل لقـد اجتذبنى اليها اجتذابا •

حاولت أن أختبر مشاعرى بهذا النوع من البهجة المريرة الممزوجة بالتقزز الذى كنت أشعر به فى دخيلة نفسى وفى أحاسيسى التى كانت تكاد تقدم لى دليلا أكيدا على وحشية الانسان وضراوته • وكنت أقول لنفسى :

ـ لماذا توجد فى طبيعة الانسان هذه المقدرة الفظيعة على أن يستمتع بامرأة الى أقصى حدود الاستمتاع وهو يعلم علم اليقين أن متعته هـذه تضر بتلك المخلوقة التى يستمتع بها ضررا بليغا ؟

لماذا توجد جرثومة من ذلك الفساد وتلك « السادية » فى كل رجل من الرجال الذين يحبون ويشتهون ؟

كان من شأن هذه الأفكار الملتوية الى جانب شعور العطف والحنان الأول أن أدت بى الى أن أصر على ما اعتزمته لمصلحة تلك الواهمة المسكينة ، وكانت عشيقتى الغائبة تبث سمومها فى نفسى حتى من بعيد •

على أننى رغبة منى فى التغلب على مقاومة أنانيتى ـ كنت فى حاجة الى أن أرجح على متعتى الفاجرة بتلك المرأة الغائبة صورة لذة أخرى نادرة الوجود وجديدة فى نوعها • كنت أمنى نفسى بأن أضـع بذورها ببطء فى طمأنينة بيتنا الشريف •

وعندئذ أخذت فى تحليل مختلف الحالات النفسـية التى مرت بى أثناء حياتى مع جوليانا فى مختلف مراحل حياتنا الزوجية • وقد استخلصت من ذلك التحليل بعض العناصر التى ساعدتنى على ايجاد حالة جديدة مصطنعة من شأنها أن تزيد فى قوة تلك الأحاسيس التى كنت أريد تجربتها •

فاننى مثلا رغبة منى فى تقبيح طعم ذلك الشىء المحرم الذى كان يجتذبنى ويثير شهوتى الشريرة حاولت جهدى أن أتمثل أمامى تلك اللحظات التى كنت أعاشرها فيها معاشرة الأخ لأخته والتي كان الشعور الأخوى فيها كاملا وفي

عنفوانه والتى كان مسلك الاخوة خلالها يبدو لى فى شخص جوليانا صادقا سليما وفى أكمل صورة ٠

لقد كان من يتردد أمام هذه الصغائر الجنونية هو ذلك الرجل الذى كان منذ ساعات قلائل يشعر بقلبه يضطرب ويتأثر ازاء ابتسامة خاطفة ٠

كانت مثل تلك الأزمات المتعارضة تشكل حياته الشاذة المبعثرة المفككة وغير المتجانسة ٠ كانت فيه ميول متعددة من كل نوع وكان يجمع بين كل الامكانيات المتباينة وكأن كيانه يتغير ويتخذ مختلف المظاهر الغريبة المتضاربة طبقا للزمان والمكان ومختلف الظروف والأحـداث والأقـوال وطبقا للتأثرات النفسية الخفية ٠

وكانت احدى حالاته الجسمانية تزيد فى ميوله الخاصة ٠ وكان هــذا الميل الخاص يستحيل الى مركز للجاذبية تتجه نحوه أحواله وميوله كلهـا مجتمعة وكانت هذه التجمعات تنتشر رويدا رويدا وتتبسط هنا وهنالك ٠

وعندئذ كان ينتقل مركز الثقل عنده ويتزحزح من مكانه وتصبح شخصيته شخصية أخرى ٠

وكانت بعض موجات ساكنة من الدماء والآراء تظهر فى قرارة نفسه رويدا رويدا ، وعلى حين غرة أرواحا جديدة ٠

وهكذا يصبح مجموعة من الأرواح المختلفة ٠

واننى أتوقف لحظة عند هذا الحادث لأنه يمثل حقا النقطة الحاسمة فى حياتى ٠

ففى صبيحة اليوم التالى عندما استيقظت من نومى ما كنت أحتفظ فى ذاكرتى الا بمعلومات مشوشة عما حدث وقد استولى على من جديد شعور من الألم العميق والذلة حالما وقع بصرى على رسالة أخرى بعثت بها الى « تيريزا رافللو » أكدت لى فيها الموعد الذى سنتلاقى فيه فى فلورنسه فى اليوم الحادى والعشرين وأعطتني تعليمات محددة دقيقة حتي لا يحدث أي التباس ٠ وكان

اليوم الحادى والعشرون يصادف يوم السبت • وكان اليوم التاسع عشر يوافق يوم الخميس وهو اليوم الذى كان مقررا أن تبرح فيه زوجتى جوليانا فراشها وذلك لأول مرة منذ مرضها ورقادها ودار حديث مستفيض بينى وبين نفسى حول كل ما كان يمكن أن يحدث وبدأت أبحث عن حل وسط وقلت فى نفسى :

ـ أجل ، ليس ثمة شك فى أن قطع علاقتى بالسيدة « تيريزا » قد أصبح أمرا ضروريا لا معدى عنه ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ وما عسى أن تكون الحجة التى أتذرع بها ؟ هل يكون فى مقدورى أن أعلن عما اعتزمته فى رسالة عادية أبعث بها الى تيريزا ؟

لقد كانت اجابتى الأخيرة عليها مليئة بالعواطف المتأججة والرغبة المشبوبة ولكن كيف أبرر ذلك التغير المفاجىء ؟ ولكن هل تستحق صديقتى المسكينة مثل هذه الضربة القاسية التى لم تكن لتتوقعها فى يوم من الأيام •

لقد أحبتنى كثيرا ولا تزال تحبنى • ولقد عرضت نفسها لبعض الأخطار من أجلى فى يوم من الأيام • ولقد أحببتها أنا أيضا •• ولا أزال أحبها وان غرامنا الكبير والعجيب معروف للجميع ولا يزال الناس يغبطوننا عليه • وهناك من يعملون على الكيد له وفصم عراه •• وما أكثر الرجال الذين يتحرقون شوقا الى الحلول محلى ! •

وهنا أخذت أذكر بسرعة أسماء المنافسين لى ممن أخشى بأسهم أكثر من غيرهم وأذكر أولئك المنافسين الذين يحتمل أن يخلفونى دون غيرهم وأتمثل صورهم فى مخيلتى وأخذت أقول لنفسى :

ـ ألا توجد فى مدينة روما كلها امرأة أجمل منها وأكثر منها جاذبية وسحرا ؟

وهنا انتابنى ذلك الاضطراب المفاجىء الذى شعرت به فى الليلة السابقة وهز أعصابى هزا عنيفا وبدت لى فكرة قطع علاقتى بمحض ارادتى بهذه المخلوقة أمرا مستحيلا وفكرة غير معقولة • وكنت أقول لنفسى :

ـ كلا •• كلا • لن تكون لدى القوة على ذلك ولا أريد ذلك ولن أستطيع الى ذلك سبيلا •

وبعد أن هدأ اضطراب أعصابى تابعت ذلك الحديث الذى لا جدوى منه ، ولو انى كنت متأكدا فى قرارة نفسى بأنه اذا حان الموعد فانى لن أستطيع الامتناع عن السفر ٠

وهكذا شعرت وأنا أهبط من غرفة الناقهة بشىء كثير من الشجاعة اذ كنت لا أزال متأثرا كل التأثر ٠

نعم وجدت لدى الشجاعة لأن أكتب الى تلك المرأة التى كانت تدعونى الى لقائها قائلا :

ـ لن أحضر ٠ ولقد انتحلت عذرا من الأعذار المقبولة حتى لايبدو لها أن هناك أمرا خطيرا ٠

وهنا هتف بى هاتف فى قرارة نفسى قائلا :

ـ ولكن هل تؤمل اذن أنها لن تعير أهمية لهذا العذر وتفرض عليك السفر للقائها ؟

لم استطع التخلص من هذه السخرية ٠ وهنا استولى على نفسى شىء كثير من الاضطراب والشوق الشديدين وألحا على الحاحا شديدا دون هوادة وكنت أبذل قصارى جهدى لكى أخفى اضطرابى على جوليانا وعلى أمى كما كنت اتحاشى جهدى أن ابقى بمفردى مع تلك الواهمة المسكينة ، وكان يبدو لى بين الفينة والفينة أننى اقرأ فى عينيها العسليتين المبللتين بالدموع مبادىء الشكوك فى اخلاصى وكان يبدو لى أننى أرى سحابة تمر على جبينها الوضاح ٠

تلقيت فى يوم الأربعاء برقية شديدة اللهجة تنم عن التهديد والوعيد ألم يكن هذا أمرا متوقعا ؟ ٠ وكان نص البرقية ما يلى :

وعندئذ أجبت على هذه البرقية قائلا :

ـ سأحضر ٠

وبعد ذلك الاجراء الذى اتخذته وأنا واقع تحت هذا النوع من سرعة

التأثر الآثم الذى يصحب كل أعمال الانسان الحاسمة فى حياته أحسست بشىء من الارتياح عندما رأيت الأمور تجرى فى طريقها وكان احساسى بعدم المسئولية واحساسى بما كان يقع من الأمور وبما كان على وشك أن يقع له تأثير عميق فى نفسى ·

وكنت أقول لنفسى :

ـ أننى بالرغم من معرفتى بذلك الشر الذى ارتكبته وبالرغم من أننى كنت اتهم نفسى بنفسى فلن استطيع أن أفعل ما عدا ذلك ·

وهذا يدل على أننى اخضع لقوة عليا مجهولة وأننى ضحية قدر قاس ساخر لا يمكن قهره أو التغلب عليه ·

ومع هذا فانه ما ان وطئت قدماى عتبة غرفة جوليانا حتى شعرت بعبء ثقيل يجثم على صدرى ووقفت فى مكانى وأنا أترنح بين مصراعى الباب الذانى كانا يخفيانى وكنت أقول لنفسى :

ـ يكفى أن تنظر الى حتى تستطيع أن تخمن كل شىء ·

كنت افكر وأنا شارد الذهن وكنت على وشك العودة من حيث اتيت ولكنها قالت بصوت لم يبد لى أننى سمعت ما هو أحلى وأعذب منه ·

وعندئذ خطوت خطوة الى الأمام · وعندما رأتنى صاحت قائلة :

ـ ماذا بك يا توليو ؟ هل أنت مريض وتشعر بشىء ؟

فأجبتها قائلا :

ـ أننى كنت أشعر بشىء من الدوار ولكنه زال والحمد لله ·

وعندئذ فكرت فى نفسى قائلا :

ـ أننى قد تأكدت الآن انها لم تستطع تخمين اى شىء مما حدث ·

وفى الحق أنها كانت لا تعرف شيئا وكان يبدو لى بأن هذا أمر غريب ، هل كان لزاما على أن أمهد لها الطريق لتلقى هذه الضربة القاصمة ، وهل كان يتحتم على أن أحدثها بصراحة واخلاص أم اختلق أكذوبة منى

الاكاذيب التى تستـدر عطفها وشفقتها ؟ أم هل كان ينبغى على أن أرحـل من فورى دون أن أخبرها بذلك واسجل لها اعترافى فى رسالة أبعث بهـا اليها فيما بعد ؟

ترى ما هى الطريقة المثلى التى من شأنها أن تخفف العبء على نفسى وتخفف من وحشية الصدمة وضراوتها بالنسبة لها ؟

ويلاه ؟ لقد كان شغلى الشاغل وأنا فى غمرة هـذا التفكير الحزين أن اخفف العبء على نفسى قبل أن أعمل على تخفيف أثر الصدمة عليها ٠

ومما لاشك فيه أننى كنت أفضل السفر بغتـة وارسال الرسالة اليهـا لولا احترامى وتوقيرى لأمى ٠ وكان من اللازم على ألا أعكر صفو والدتى مهما كان الثمن ٠ وفى هذه المرة أيضا لم استطع التخلص مما كنت أشعر به من تأنيب ضميرى ٠ وكنت أقول لنفسى :

ـ بأى ثمن ؟ يالك من قلب طيب ! ومـع ذلك فلتسر فى طـريقك فأن الارتباط الأول خير لك وأبقى ٠٠ وأنك اذا أردت فى هـذه المرة أيضا فأن الضحية سوف تحاول الابتسام وهى تشعر بأنها تموت ٠ ثق بها اذن ولاتعر اهتماما لأى شىء آخر أيها القلب الكريم ٠

حقا أن الانسان قد يجد فى بعض الأحيان فى احتقاره العظيم لنفسه شيئا من البهجة والارتياح ٠

سألتنى جوليانا بحركة بريئة وهى تشير بسبابتها بين عينى كما لو كانت تريد أن توقف تفكيرى قائلة :

ـ فى أى شىء تفكر يا « توليو » ٠

أما أنا فقد امسكت بيدها دون أن أجـد جوابا ٠ وكان فى ذلك الصمت المطبق ما يكفى لتغيير اتجاه افكارى مرة ثانيـة ، وكانت الحلاوة التى بدت فى صـوت تلك الواهمة المسكينة وفى حركاتها قد جعلتنى الين واثارت فى نفسى شعور الحنـان الذى يستدر المدامع والذى يطلقون عليه اسم الإشفاق على النفس ٠

أحسست بحاجة ملحة الى البكاء • وفى الوقت ذاته كان هاتف يهتف بى فى قرارة نفسى ويوحى الى قائلا :

ـ يجب أن تفيد من هذه الحالة النفسية الطيبة دون أن تميط اللثـام فى الوقت الحاضر عن أى شىء • لأنك اذا بالغت فى ذلك فقـد ينتهى بك الأمر الى البكاء بكل سهولة •

أنك تعـلم علم اليقين ذلك التـأثير الغريب الذى تحدثه دموع الرجـل فى نفس المرأة التى تحبـه ولسـوف تتأثر جوليـانا بذلك كل التـأثير وتضطرب • أما أنت فقـد يبـدو عليك أنك تعـانى ألما ممضا • وغدا عندما تقول لهـا الحقيقة فأن ذكرى الدموع ترفعك من جـديد فى نظرها • وعندئذ تقول فى نفسها :

ـ يا لله انه لهذا كان يبكى بالأمس بكاء مرا • يا له من مسكين !

ولن تقول عنك بأنك رجل أنانى بغيض ولكنك سوف تبـدو وكأنك قد كافحت بكل ما فيك من قوة دون جدوى ضد قوة قاهرة مشئومة لا يعلمها الا الله ولسوف تبدو وكأنك قد أصابك مرض يعيى نطس الأطباء لا يعلم كنه الا الله وتحمـل فى صـدرك قلبا ممزقا • استفـد اذن من هـذه الفرصـة واغتنمها •

سألتنى جوليانا بصوت متهدج لطيف مملوء بالثقة والحنان قائلة :

ـ هل لديك شىء يشغل قلبك ؟

كنت اذ ذاك مطأطىء الرأس متأثرا كل التأثر ما فى ذلك شك • ولكن استعدادى للبكاء « النـافع » أذهل مشاعرى وشـغل بالى وأوقف مدامعى وأخر انهمارها • وكنت أقول فى نفسى فى خوف أشبه بخوف الاطفال كما لو كان كل شىء يتوقف على ذلك الحديث المادى الصغير الذى لا تكفى الارادة وحدها لاحداثه :

واذا لم استطع البكاء ؟ واذا لم تنحدر الدموع من عينى ؟ •

وفى تلك الأثناء كان هاتف وهو دائما ذلك الهـاتف الأول يهتف بى فى قرارة نفسى قائلا :

ـ ما أكبر هذه الخطيئة • ان هذه الساعة لا يمكن أن تكون بعد مواتية •

كان النور ضئيلا فى الغرفة ولم تكن الرؤية فيه واضحة ما كان أشد وقع الشهيق فى الظلام !

سألتنى جوليانا بعد فترة من السكون وهى تمر بيدها على جبينى وعلى شعرى لكى أرفع وجهى نحوها قائلة :

ـ لماذا لا ترد على يا توليو •

أنك تستطيع أن تقول لى كل شىء وأنت تعرف ذلك •

يالله أننى لم اسمع قط بعد تلك المرة صوتا انسانيا بمثل هـذه الحلاوة وحتى أمى هى الأخرى لم تعرف كيف تحدثنى فى يوم من الأيام بمثل هـذه الرقة والحلاوة •

وهنا اغرورقت عيناى بالدموع وأحسست فى اهدابهما بحرارة البـكاء وعندئذ قلت لنفسى :

ـ هذه هى اللحظة الحاسمة •

على أنه لم تذرف عينى سوى دمعة واحدة • وعندئذ رفعت وجهى (وياله من أمر مذل ولكنه حق وفى مثل هذه المذلة الدرامية يتضاءل ظهور الجانب الأكبرمن التأثيرات الانسانية) حتى تتسنى لجوليانا رؤية تلك الدمعـة وأحسست مدى فترة من الوقت بشىء من القلق الشديد • اذ كنت أخشى ألا تستطيع رؤية بريقها فى ذلك النور الخافت ورغبة فى تنبيهها اليها تنهدت نهدة طويلة كما يفعل الانسان عندما يريد أن يحبس شهيقه •

وعنـدئذ اقتربت بوجهها من وجهى لكى تنظـر الى عن كثب لأننى كنت صامتا لا اتفوه بكلمة • وقالت ثانية :

ـ لماذا لم ترد على ؟

وشاهدت الدمعة التى انحدرت من عينى ، ولكى تتأكد منها أمسكت برأسى وقلبته الى الخلف بحركة فيها شىء من العنف وقالت :

ـ هل تبكى ؟

وكان صوتها متهدجا • إما أنا فقد استطعت أن أخلص رأسى بسرعة من

بين يديها ووقفت لكى أهرب منها وكنت أشبه بانسان لا يستطيع أن يتحمل مثل هذا الألم الشديد وقلت لها :

ـ وداعا • وداعا • دعينى أذهب يا جوليانا وداعا •

وخرجت من الغرفة مندفعا لا ألوى على شيء •

وعندما أصبحت بمفردى شعرت بالتقزز والاشمئزاز من نفسى ، وكانت هذه ليلة العيد بالنسبة لتلك الناقهة التى الفيتها فى انتظارى بعد ساعات قلائل عندما حضرت اليها لكى اشترك فى تلك الوليمة الصغيرة المعتادة برفقة أمى ، وما أن شاهدتنى هذه حتى صاحت قائلة :

ـ اذن يا توليو سوف يكون الغد يوم عيد •

وهنا أخذت أنا وجوليانا ينظر كل منا الى الآخر فى لهفة وشوق • ثم تحدثت عن ذلك الغد وعن تلك الساعة التى تستطيع فيها النهوض من فراشها وعن بعض التفاصيل الدقيقة فى شيء من الجهد وفى شيء من الذهول ،وكنت اتمنى فى دخيلة نفسى ألا تفارقنا أمى •

وكان من حسن حظى أنها خرجت لحظة وسرعان ما عادت وفى تلك الفترة سألتنى جوليانا بسرعة قائلة :

ـ ماذا كان بك منذ قليل ؟•• ألا تريد أن تقول لى ؟

ـ لاشيء • لاشيء !

ـ أنظر انك بهذا تعكر صفو هذا العيد •

ـ كلا كلا لسوف أقول لك •• سأقول لك •• فيما بعد ••

لا تفكرى فى ذلك الآن • ارجوك ألا تفكرى فى ذلك •

ـ كن طيبا !

وكانت أمى فى تلك اللحظة تعود مع ابنتى الصغيرتين ماريا وناتاليا • على أن نبرات تلك الكلمات القليلة التى تفوهت بها جوليانا كانت كافية لاقناعها بأنها لم تعرف الحقيقة ولم يتبادر اليها أى شك •

ترى هل كانت تعتقد أن ذلك الحزن ربما كان مرده الى ذكرى افعالى الماضية التى لا يمكن نسيانها والاستغفار عنها ؟ وهل كانت تفكر فى اننى أشعر بعذاب تأنيب الضمير لأننى سببت لها كثيرا من الألم ، وأخشى ألا أكون جديرا بنيل كل غفرانها ؟

وفى صبيحة اليوم التالى بلغ بنا التأثر مداه (اذ كنت نزولا على رغبتها انتظر فى الحجرة المجاورة) عندما سمعتها تنادينى بصوتها الرنان قائلة :

ـ تعال يا توليو ٠

فدخلت ورأيتها واقفة على قدميها وكان يبدو لى أنها أصبحت أطول قامة من ذى قبل وأكثر رشاقة وتكاد تكون هزيلة ترتدى رداء فضفاضا به ثنيات مستطيلة وكانت تبتسم وقد استطاعت بالكاد أن تصلب عودها وأن تبعد ذراعيها عن جانبيها كما لو كانت تحاول حفظ توازنها وتتجه الى تارة والى أمى تارة أخرى وكانت أمى تنظر اليها فى شىء كثير من الحنان الذى لايوصف وهى على أهبة الاستعداد لمساعدتها على الوقوف وكنت أنا أيضا أمد اليها كلتا يدى لكى تستند اليهما ٠ ولكنها كانت ترجونا نحن الاثنين قائلة :

ـ لا لا ٠ دعانى دعانى ٠ انى لن أقع ٠ أريد السير بمفردى حتى أصل الى الأريكة ٠

تقدمت بقدمها وخطت خطوة على مهل وكان يبدو على وجهها اشراق البهجة التى تحكى بهجة الأطفال ٠

ـ حذار يا جوليانا ٠

وهنا خطت خطوة أو خطوتين ثم انتابها ذهول مفاجىء وخوف مريع من السقوط فترددت لحظة فى الاتجاه نحوى أو نحو أمى ثم ارتمت بين ذراعى وعلى صدرى وألقت بكل ثقلها على وانتفضت كما لو كانت تشهق بالبكاء ٠ ولكنها كانت تضحك بدلا من ذلك وهى تكاد يخنقها الشوق واللهفة ٠

ولما كانت لا ترتدى فوق جسدها « المشد » (البوسنت) فقد شعرت يداى بنحولها وضعفها من خلال ملابسها وشعر صدرى بخفقان قلبها ولين عودها

وكانت خياشـيمى تشتم اريج شـعورها • كما رأت عيناى على عنقها تلك الشامة السمراء الصغيرة •

وهنا قالت بصوت متقطع وهى تضحك وتتنهد :

ـ لقد خشيت أن أقع • لقد خشيت الوقوع •

ولما كانت تدير رأسها نحو امى لتنظر اليها دون أن تنفصل عنى لاحظت جزءا من لثتها البـاهتة وبياض عينيها وبعض عـلامات التشنج بادية على وجهها • فادركت أننى أحمل بين ذراعى مخلوقة مريضة مسكينة غيرها المرض تغييرا كبيرا وأضعف أعصابها وجعل عروقها فى حالة سيئة ربما لا يرجى لها شفاء ، ولكنى تذكرت ما ظهر عليها من التجلى فى تلك الليلة على أثر تلك القبلة الغير المنتظرة • كما بدا لى أن احسانى وحبى واصلاح ما فات وكل ما كنت قد عدلت عنه منذ لحظة شيئا بالغ الجمال ، كانت تقول لى :

ـ خذنى أنت يا توليو الى الأريكة بالله عليك •

اسندتها من خصرها بذراعى وسرت بها على مهـل الى الأريكة وساعدتها على التمدد فوقها ووضعت على مسندها الوسائد المحشوة بريش النعـام • وأذكر اننى اخترت من بين الوسائد وسادة لينة أكثر من غيرها لكى أسـند اليهـا رأسها وعند ما أردت أن أضـع وسادة تحت قدميها ركعت على ركبتى وشاهدت جوربها ذا اللون الفاقع وحذاءها الصغير الذى كان يصل الى أعلى كعبها •

ولقد كانت تتتبع طوال هـذا المساء كل حـركة من حركاتى بنظرة حلوة تنـم عن الحنـان كانت تحيرنى وأحضرت الى جانب الأريكة مائدة صـغيرة من موائد الشـاى وضعت فوقها زهرية مملوءة بالزهـــور النضرة وبعض الكتب ومقشطا من العاج كما أننى بدا على ـ دون قصد ـ أثناء هذا الاهتمام شىء من الضيق •

وهنا بدأت السخرية تعمل عملها فقلت لنفسى :

ـ يالك من انسان قدير ! يالك من انسان قدير ماهر ! ان ما تعمله على مرأى من والدتك شيء عظيم الفـائدة بالنسبة لك • كيف يمكن أن يتطرق

اليها الشك فيك بعد أن رأت بعينيها امارات حنانك وعطفك ؟ • ان ذلك الشيء القليل من الضيق والاشمئزاز ليس فيه شيء من الضرر ولا بأس به • أنها ليست عادة البصر • سر في طريقك • سر في طريقك • فكل شيء يسير على ما يرام • تشجع •

صاحت جوليانا وهي تتنفس الصعداء وتسبل جفنيها قائلة :

ـ يالله • كم أشعر بشيء كثير من الراحة هنا •• شكرا لك يا « توليو » •

وبعد أن انقضت بضع دقائق بعد ما خرجت أمي وبقينا بمفردنا كررت جوليانا بنغمة أكثر رقة وحنانا قولها :

ـ شكرا لك يا توليو •

قالت هذه العبارة ومدت يدها نحوى لكى امسك بها بين يدى •

ولما كانت اكمام ردائها فضفاضة فقد بدت عند هذه الحركة ذراعها عارية حتى مرفقها وقد ارتعدت لحظة فى الهواء تلك اليد البيضاء الناصعة الكريمة التى كانت تحمل الحب والتسامح والسلام والأحلام والنسيان ، وكل ما هو طيب وكل ماهو جميل • كما لو كانت تعرض على شيئا جليلاً •

وأنى أعتقد اننى عندما تحين منيتى لن أرى ثانية فى صحوة الموت ، عندما لا أشعر بشيء من الألم الا هذه الحركة ولن أرى من بين الصور والخيالات التى مرت بى طول حياتى والتى لا حصر لها ولا عد سوى هذه الحركة وحدها ، وأنى كلما فكرت فى هذا الأمر لا استطيع أن اتصور على وجه الدقة حالتى التى كنت فيها ولكنى استطيع أن أؤكد أننى كنت اذ ذاك أدرك كيف كانت تلك اللحظة عصيبة الى حد كبير كما كنت ادرك خطورة الأفعال التى وقعت والتى كانت على وشك الوقوع •

ولقد كان حضور ذهنى اذ ذاك كاملا أو كان يبدو لى كذلك • وكان يتراءى أمام عينى موكبان يختلفان كل الاختلاف ويتميز كل منهما عن الآخر ويقف كل منهما فى مؤازرة الآخر • كان يسيطر على احدهما الى جانب الشفقة والحنان نحو تلك المخلوقة التي كنت على وشك أن أصدمها صدمة قاتلة

شعور قوى بتانيب الضمير نحو ذلك العرس الذى كنت أهم برفضه • كما كان يسيطر علي الموكب الآخر الى جانب الشهوة العارمة واللهفة على العشيقة البعيدة شعور بالانانية أحسست به فى ذلك الاختبار الفاتر الذى اختبرتنى به الظروف التى كان من الممكن أن تبرر عدم اجرامى ، وكان من شأن هذين التفكيرين المتوازيين أن صيرا حياتي جحيما لا يطاق وجعلانى فى حالة يرثى لها •

جاءت اللحظة الحاسمة • اذ كان لزاما على أن اسافر فى الغد • ولم يكن في مقدورى ارجاء السفر الى ما بعد ذلك أو تغيير الموعد •

ورغبة فى ألا يبدو الأمر غامضا ويدعو الى الدهشة ، كان من اللازم اخطار أمى بهذا السفر فى صبيحة ذلك اليوم ونحن نتناول طعام الافطار وأن انتحل لذلك عذرا مقبولا • وكان من اللازم أيضا أن أخطر زوجتى جوليانا قبل أن أخطر أمي وقبل أن يقع ما يمنعنى من ذلك • وكنت اقول لنفسى :

ـ واذا استشاطت جوليانا غضبا فما العمل ؟ واذا كانت فى غمرة الألم والاستنكار تكشف الى أمي حقيقة كل شيء ؟ وكيف أحصل منها على وعد بالتزام الصمت واتيان عمل جديد من أعمال انكار الذات ؟

أخذت أحدث نفسى بهذه الأحاديث حتى اللحظة الأخيرة ، وكنت أقول لنفسى :

ـ هل ستفهم فى الحال من أول كلمة اقولها لها • واذا لم تفهم ؟ واذا ما سألتنى ببساطة عن سبب سفرى ؟ فكيف أجيبها وماذا اقول لها ؟ ولكنها سوف تفهم لا محالة • من المستحيل ألا تكون قد عرفت من بعض صديقاتها ومن السيدة « تاميتشى » على سبيل المثال أن « تيريزا رافو » ليست في روما •

كانت قواى قد بدأت تنهار وما كان فى استطاعتى أن اقاوم تأثرى واهتياجى الذى كان يزداد دقيقة بعد أخرى •

ولقد قررت بكل ما فى اعصابى من قوة أن اخبرهما بما اعتزمت عليه • وعندما كانت جوليانا تتكلم وددت لو انها أتاحت لي الفرصة لأسدد سهمي •

كانت تتحدث عن كل شيء وعلى الأخص ما كان يتصل بمستقبلنا في شيء كثير من القلق والتردد غير المعتاد • وكان يبدو لى أن ذلك التشنج الذى بدا عليها والذى لم أكن أعرف له سببا والذى كنت قد لاحظته منذ هنيهة قد أصبح أشد وضوحا •

كنت لا أزال اذ ذاك واقفا على قدمى خلف الأريكة ، وكنت حتى هذه اللحظة قد استطعت تجنب نظراتها اذ كنت اتحرك فى انحاء الغرفة وانتقل بمهارة من مكان الى آخر وخلف الأريكة دائما • وكنت أشغل نفسى تارة بتنسيق ستائر النافذة وتارة أخرى باعادة تنظيم الكتب الموجودة فى المكتبة الصغيرة وتارة ثالثة كنت أقوم بجمع أوراق الزهور المتساقطة على البساط من باقة من الزهور الذابلة •

وعند ما كنت واقفا على قدمى كنت أنظر الى تجاعيد شعرها وأهدابها الطويلة المنثنية ونبضات صدرها الخافتة والى يديها الجميلتين اللتين كانتا تستندان الى مسندى الأريكة واللتين كانتا مسترخيتين شاحبتين كما كانتا فى ذلك اليوم الذى كانت فيه عروقهما الزرقاء تميزها فوق ملاءة السرير البيضاء •

لم يكن قد مضى على ذلك اليوم أسبوع كامل • ولكن ترى لماذا كان ذلك اليوم يبدو لى كأنه مضى عليه زمن بعيد ؟

عندما كنت واقفا على قدمى خلفها فى ذلك الاضطراب الشديد كما لو كنت متربصا فى كمين فكرت فى أنها ربما كانت تحس بغريزتها بذلك التهديد وبذلك الخطر الذى سوف ينهال على رأسها •

واعتقدت أنها تتوقع شرا مستطيرا لا تعرف كنهه •

وعندئذ انقبض قلبى مرة ثانية انقباضا شديدا •

وما هى الا لحظة حتى قالت :

ـ غدا اذا تحسنت صحتى يجب أن تحملنى الى الشرفة فى الهواء الطلق ••

وهنا قاطعتها بقولى :

ـ غدا لن أكون هنا ·

وعندئذ انتفضت عند سماع نبرات صـوتى الغريبة فأردفت قائلا دون انتظار :

ـ سأسافر ··

ثم استطردت قائلا وأنا أبذل مجهودا لكى أحـل عقـدة لسانى ، وكنت اذ ذاك أشـعر بالفزع والاشـمئزاز كمن يريد أن يتم الضربة للاجهـاز على ضحيته :

ـ سأسافر الى مدينة فلورنسا ·

ـ ويلاه ·

لقد فهمت فجأة فاتجهت نحوى بحركة سريعة والتوت بكل جسدها فوق الوسائد لكى تنظر الى وجهى · وهنا رأيت مرة ثانية من خلال تلك الحركة العنيفة بياض عينيها ولثتها الباهتة ·

وعندئذ قلت متلعثما دون أن أجد كلمة أخرى أقولها وأنا انحنى نحوها اذ كنت أخشى أن يكون قد أصابها مكروه :

ـ جوليانا ؟

ولكنها أسبلت جفنيها واعتدلت كما كانت وتراجعت وانكمشت فى نفسها كما لو كانت قد انتابتها نوبة برد شديدة وبقيت على هذه الحالة بضع دقائق وعيناها مغمضتان وشفتاها مضمومتان جامدتان دون حركة · ولم يكن هناك ما يدل على أنها لا تزال على قيد الحياة الا نبضات وريدها فى عنقها وبعض آثار التشنج فى يديها ·

ألم يكن عملى هذا اجراما ؟ لقد كان أكبر جريمة ارتكبها وربما لا يكون أقلهـا ·

سافرت وأنا فى أسوأ الحالات ودامت غيبتى أكثر من أسبوع ·

وعندما عدت وفى الأيام التى تلت عودتى كنت أنا نفسى أعجب كل العجب من صفاقتى ووقاحتى وعدم مبالاتى ·

استولى على نوع من السحر كان يمحو من نفسى كل احساس بالخلق الكريم ويجعلنى جديرا بارتكاب أكبر المظالم وأشد القساوات ٠

كانت جوليانا فى هذه المرة أيضا تبدى تجلدا عجيبا وعرفت فى هذه المرة أيضا كيف تلتزم الصمت ولا تبوح بشىء وكانت تبدو فى صمتها كأنها محتبسة داخل قفص من حديد لا يمكن اقتحامه ٠

وسافرت الى الضيعة مع ابنتينا بصحبة والدتى ورافقهن أخى فى سفرهن وبقيت وحدى فى روما ٠

ومن ذلك الوقت بدأت عهدا حالك السواد يزخر بالأحزان لا تزال ذكراه تملؤنى حتى الآن بالتقزز والاشمئزاز والانكسار ٠
ولما كان قد استولى على ذلك الشعور الذى يثير طبيعة الانسان أكثر من أى شىء آخر ٠ فقد عانيت كل ذلك العذاب الذى تستطيع امرأة أن تنزله بنفس ضعيفة خائرة والهة وواعية ٠
ولما كانت نيران الشك تحرق قلب جوليانا فقد أججت فى قلبى غيرة جنسية شديدة وجاءت على كل ما فى قلبى من منابع الخير واستغلت فى ذلك كل ما فى نفسى الشريرة من خسة ودناءة ٠

لم تبد لى « تيريزا رافو » شهية ولم أغفر منها فى يوم من الأيام أكثر من الآن ٠ اذ لم يكن فى استطاعتى أن أجد فرقا بينها وبين أية امرأة فاجرة سيئة الخلق ، وقد أفادت هى بذاتها من احتقارى لها لاثارة شهوتى ٠

عرفت حالات النزع الشديدة كما عرفت المباهج الدنيئة والاستسلام الشائن والاتفاقات الوضيعة التى قبلتها دون حياء أو خجل والدموع التى كانت أشد وقعا من أى سم من السموم القاتلة والهذيان المفاجىء الذى كان يجعلنى قاب قوسين أو أدنى من الجنون وعرفت الانزلاق فى لهجة الترف الذى جعلنى أبقى أياما طويلة فى حالة خمول ذهنى اذ أحسست بتعاسة الشهوات الجسدية التى أثارتها الغيرة ٠ وأصبح بيتى بالنسبة لى شيئا غريبا ٠ كما أن وجود جوليانا أصبح يسوءنى ويسبب لى كثيرا من الضيق ٠ وكانت تمر فى بعض الأحيان أسابيع كاملة دون أن أوجه اليها كلمة واحدة ، ونظرا لما كنت

أعانيه فى قرارة نفسى من العذاب الشديد فاننى ما كنت أنظر اليها أو أسمع صوتها • وكنت فى بعض الأحيان عندما أرفع عينى وأتطلع اليها أعجب كل العجب من شحوبها ومن التعبيرات التى ترتسم عليه وبعض العلامات الأخرى التى كانت تبدو على محياها • وكان كل هذا بالنسبة لى وكأنه أمر جديد غريب لم يكن لى عهد به من قبل ولم أكن لأتوقعه • ولم يكن فى طوقى أن أتوصل الى حقيقة أمرها كاملة • وكنت على جهل تام بكل أفعالها وما كنت أشعر أننى بحاجة قط الى استجوابها لأتعرف منها على حقيقة أمرها ، ولم أكن أحس بشعور من القلق والاهتمام والخوف عليها وكان شعورا بالقساوة لا يمكن وصفه يغمر نفسى ازاءها وليس هذا فحسب بل اننى كنت فى بعض المرات أشعر نحوها بشىء من الحقد والضغينة التى ما كنت لأدرك لها كنها أو أعرف لها وصفا •

وفى يوم من الأيام سمعتها تضحك فأهاج ذلك أعصابى واستشاطنى غضبا وفى يوم آخر أخذ قلبى يخفق خفقانا شديدا عندما سمعتها تغنى من غرفة بعيدة ولقد كانت تغنى أنشودة « أورفييو » التى مطلعها :

« ماذا أستطيع أن أعمل من غير (ايوريديتشى) » •

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تغنى فيها بهذه الكيفية منذ وقت طويل وهى تذرع أرجاء البيت جيئة وذهابا •

وكانت تلك هى المرة الأولى التى أسمع فيها صوتها ثانية بعد فترة سكون طال أمدها •

لكن ترى لماذا كانت تغنى ؟

هل كانت تشعر بشىء من السعادة ؟ وعلى أى شىء كان يدل هذا السرور المفرط غير المعتاد ؟

تملكنى شعور من الاضطراب لم أدرك كنهه فاتجهت اليها دون تفكير وناديتها باسمها ولما رأتنى أدخل غرفتها استولت عليها الدهشة والعجب وبقيت مشدوهة لفترة وجيزة وقد احتبست أنفاسها فى حلقها بشكل واضح جلى • فقلت لها لكى أبدأ الحديث معها بأية وسيلة :

ـ أتغنين ؟

وكنت فى هذه اللحظة فى ضيق شديد • وقد أخذت منى الدهشــة كل مأخــذ • مما فعلت • ولكنهــا ابتسمت ابتسامة حائرة وهى لا تدرى بماذا تجيبنى أو تعرف ماذا تعمل معى أو أى مسلك تسلكه ازائى • وبدا لى أننى أقرأ فى عينيها شيئا من الدهشة المؤلمة التى كنت قد لاحظتها فى غــير ذلك من المرات ملاحظة عابرة وكانت تلك الدهشة تدعو الى الرثاء وتنم عن الشك والوسوسة القاتلة •

وفى الواقع أننى شاهدت صورتى فى المرآة التى كانت أمامى • فلاحظت نحول وجهى وعينى الغائرتين وفمى البارز المنتفخ ومظهرى المحموم الذى كان يبدو على منذ بضعة أشهر •

سألتها وأنا لا أزال متحيرا خجلا اذ لم أكن أدرى ماذا أقول لكى أقطع حبل الصمت وقلت لها :

ـ هل ترتدين ثيابك تأهبا للخروج ؟

ـ نعم •

كان ذلك فى صبيحة يوم من أيام شهر نوفمبر وكانت واقفة على قدميها الى جانب احدى المناضد التى ازدانت بمفرش من الدانتيلا وقد انتشر فوقها عدد لا يحصى من أدوات الزينة النسائية • وكانت ترتدى ثوبا من الصوف السميك الداكن اللون وتمسك بيدها مشطا مصنوعا من التارتاورجا (ظهر السلحفاة) البيضاء المطعمة بالفضة ، وكان ذلك الثوب البسيط يتمشى مع رشاقة من كانت ترتديه ، وكانت هنالك فوق المنضدة باقة كبيرة من الليلك الأبيض الذى كانت تصل أطرافه الى أكتافها وكانت أشعة الشمس تنفذ من خلال النافذة كما كانت تنتشر فى جو الغرفة رائحة المساحيق العطرة ، أو أريج بعض الزهور الذى لم أستطع تمييزه •

وعندئذ سألتها قائلا :

ـ ماذا عسى أن تكون تلك الرائحة التى تتعطرين بها ؟

فأجابتنى قائلة :

ـ انها رائحة عطر « التفاح » •

فقلت لها :

ـ ان هذه الرائحة تعجبنى ٠

وهنا مدت يدها الى المائدة وتناولت زجاجة صغيرة وقدمتها الى ففتحتها وشممتها طويلا وما ذلك الا لكى أقوم بعمل أى شىء ولكى أجد متسعا من الوقت للتفكير فى عبارة أخرى أقولها ، ولكنى لم أستطع اخفاء ارتباكى والعودة الى حالتى الطبيعية ، وكنت أشعر بأنه قد زال ماكان بيننا من عدم الكلفة وكانت تبدو فى نظرى كأنها امرأة أخرى وكانت أنشودة « أورفيو » التى كانت تغنيها تهز نفسى هزا وتقلقنى وتضايقنى ٠

وكان يبدو أن نغمة تلك الأنشودة القديمة الحزينة التى كان يرن صداها فى أذنى على ضوء أشعة الشمس الذهبية الدافئة ومن خلال تلك الروائح العطرة ووسط أدوات الزينة التى نسقتها يد ناعمة رقيقة كانت تدل على أن هناك شيئا خفيا فى حياتها كما كانت تبسط ظلال سر من الأسرار لم أدرك كنهه فقلت لها مدفوعا بذلك القلق الغريب الذى كنت أشعر به :

ـ ما أجمل تلك الأنشودة التى كنت تغنيها منذ هنيهة ٠

وعندئذ صاحت قائلة :

ـ حقا انها جميلة جدا ٠

وهنا تبادر الى شفتى سؤال كنت أود أن أوجهه اليها ٠ كنت أريد أن أقول لهـا :

ـ ولكن لماذا كنت تغنين ؟

غير أنى حبست هذا السؤال بين شفتى وحاولت فيما بينى وبين نفسى أن أعرف السبب فى ذلك الفضول الذى كان يقلقنى ويحز فى نفسى ٠

انقضت فترة سكون وجيزة كانت تعبث أثناءها بظفر ابهامها فوق أسنان المشط مما أحدث نغمة خفيفة (ولهذه النغمة مكانة ممتازة بين ذكرياتى) ٠ وقلت لها :

ـ انك كنت ترتدين ثيابك تأهبا للخروج ٠ استمرى اذن ٠

فردت على بقولها :

ـ ليس أمامى الا أن أرتدى سترتى وأضع قبعتى فوق رأسى • كم الساعة الآن ؟

ـ انها الساعة الحادية عشرة الا ربعا •

ـ يالله • هل صار الوقت متأخرا الى هذا الحد ؟

أخذت قبعتها وخمارها الشفاف وجلست أمام المرآة ، وكنت أنظر اليها وعندئذ كنت على وشك أن أقول لها :

ـ أين تذهبين ؟

ولكنى حبست أيضا هذا السؤال ولو أنه كان يبدو لى سؤالا طبيعيا وأخذت أنظر اليها وأدقق النظر فى كل حركة من حركاتها •

ولقد بدت لى ثانية على حقيقتها وكما كانت دائما سيدة شابة على درجة كبيرة من الأناقة وانسانة نبيلة رقيقة حسنة الملامح رشيقة القد تبدو على وجهها سيماء اللطف والذكاء وامرأة تستحق العبادة وكان من الممكن أن تكون عشيقة ممتعة بسبب جمال جسدها وخفة روحها •

وعندئذ قلت فى نفسى :

ـ ألا يمكن أن تكون عشيقة لأحد الرجال ؟

وكنت أرد على نفسى قائلا :

ـ يقينا انه من المستحيل ألا يكون الكثيرون قد عملوا أكثر من مرة على اغرائها وخداعها • والجميع يعرفون أننى أهجرها وأهمل شأنها كما أن خطاياى أشهر من نار على علم ، ترى هل استسلمت لواحد من هؤلاء ، أو أنها على وشك الوقوع فى حبائله • وهل وصل بها الأمر الى أن ترى أنه لا جدوى من تضحيتها بشبابها وأن من الظلم بقاءها على هذه الحالة ؟

وهل يا ترى قد ملت أخيرا انكارها لذاتها الذى طال أمده ؟ وهل عرفت شخصا أفضل منى أو رجلا مخادعا يتقن فن الختل والاغراء يستطيع أن يقنعها

بالتطلع الى محب جديد ويجعلها تنسى زوجها الخائن ؟ وهل يا ترى قد فقدت حبها وقلبها كلية ، ذلك القلب الذى طالما عذبته دون شفقة أو رحمة ودون وازع من ضمير ؟

وهنا اعتراني خوف مفاجيء انخلع له قلبى وجعلنى ما شعرت به من الأسى أقول في نفسى :

ـ هأنذا أعترف لها الآن بما ساورنى من شكوك ، لسوف أنظر الى أعماق عينيها وأنا أقول لها : هل لا تزالين طاهرة نقية ؟ ولسوف أعرف الحقيقة واني أعلم أنها لا تعرف الكذب ، ألا تعرف الكذب ، يالله هل هناك امرأة لا تعرف الكذب٠٠ من أدراك أنت بطبيعة النساء ؟ ان المرأة تعرف كل شيء ، يجب أن تتذكر ذلك جيدا وألا يغيب عن بالك ، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يخفى معطف كبير من معاطف السيدات في طياته نصف « دستة » من العشاق ، التضحية ! انكار الذات ! انها كلمات جوفاء ، من ذا الذى يستطيع معرفة الحقيقة ٠ يجب أن تقسم اذا استطعت على اخلاص زوجتك ولا أقول عن زوجتك في الوقت الحاضر ولكن زوجتك قبل مرضها ، أقسم وأنت مطمئن كل الاطمئنان اذا استطعت وكان من شأن هذا الهاتف الخبيث (يالله كم كانت « تيريزا رافو » تنفث سمومها) ٠ أن أجعل الدم يجمد في عروقى ٠

ردت على جوليانا في شيء من الخجل قائلة :

ـ ليهدأ بالك يا « توليو » ضع هذا الدبوس في الخمار هنا ٠

وكانت ترفع ذراعيها وتثنيهما نحو قمة رأسها لكي تقوم بتثبيت الخمار وكانت أصابعها البيضاء تحاول عبثا وضعه في المكان اللائق وكانت حركاتها تنم عن شيء كثير من الرقة واللطف ، وكانت أصابعها البيضاء قد جعلتنى أقول لنفسى :

ـ آه كم من الوقت قد مضى علينا دون أن تتصافح أيدينا ٠

يالله ٠ ما كان أجملها عندما كانت تشد على يدى بقوة وحرارة فيما مضى لكى تؤكد لى أنها ما كانت تضمر لى أى حقد أو موجدة بسبب أية اهانة ألحقتها بها ٠

ترى هل لم تعد يدها الآن كما كانت طاهرة نقية ؟

وبينما كنت أقول بتثبيت خمارها أحسست بشيء من الاشمئزاز عندما كنت أفكر في أنه من الممكن ألا تكون بعد طاهرة الذيل •

وقفت على قدميها وقد ساعدتها أيضا على ارتداء سترتها وتلاقت عيناى بعينيها مرتين أو ثلاثا ونظر كل منا الى الآخر ، ولكنها كانت نظرات خاطفة •

على أنى استطعت مع ذلك أن أقرأ فى عينيها شيئا من الدهشة والقلق ، وربما كانت هى أيضا تقول لنفسها :

ـ لماذا دخل هنا فى غرفتى ؟ ولماذا يبقى فيها ؟ وما معنى ما يبدو على وجهه من الاضطراب والحيرة ؟ وماذا يريد منى ؟ وماذا حدث له ؟

وهنا قالت لى :

ـ أتسمح •• لحظة واحدة •

قالت هـذا وخرجت من غرفتها • وقد سمعتها وهى تنادى على وصيفتها الآنسة « ايديت » •

واذ كنت بمفردى وقع بصرى رغما عنى على المكتب الصغير الذى كان غاصا بالرسائل والبطاقات والكتب • فدنوت منه وظلت عيناى متعلقتين فترة من الوقت بهذه الأوراق ، كأنى كنت أحاول اكتشاف أمر من الأمور •• وقلت لنفسى :

ـ ماذا عساه يكون •

وهنا هزتنى هـذه الرغبة الشريرة الدنيئة الحمقاء ، ونظرت الى كتاب مغلف بقطعة من القماش القديم وبين صفحاته خنجر صغير ، وكان يبدو أنه كتاب كان يطامعه أحد الأشخاص ، وقد تصفح نصف أوراقه • كان هو تلك الرواية الجديدة التى وضعها أخيرا « فيلبو اربوريو » واسمها « السر » • وقد قرأت على الصفحة الأولى منه اهداء بخط المؤلف وهذا نصه :

« اليك يا « جوليانا هيرميل » أقدم شخصيتى « ايبورينا توريس » (١)

---

(١) بطلة قصة السر •

ولو أن فى هذا شيئا من عدم اللياقة .

توقيع
ف . اربوريو

تحريرا فى يوم عيد القديسين عام ٨٥

هل تعرف جوليانا اذن هذا الكاتب القصصى ؟ وأى مسلك تسلكه جوليانا مع هذا الرجل ؟

وتبادرت الى ذهنى صـورة ذلك الكاتب الجميلة الفتانة الذى رأيته عدة مرات فى بعض الأماكن العامة.

يقينا ان فى مقدوره أن يكون محل اعجاب جوليانا وكنت أعلم من بعض الاشاعات الذائعة أنه يعجب السيدات وأن قصصه المليئة بالعقد النفسية التى كانت فى بعض الأحيان شديدة وفى أغلب الأحيان زائفة ، كانت تزعج نفوس الأشخاص العاطفيين وتؤجج الخيالات المضطربة وتعلم الناس ـ بما اتسمت به من براعة فائقة ـ ازدراء الحياة الزوجية ، وكنت أعرف أن قصصه « سكرات الموت » و « الكاثوليكية المتزمتة » و « انجيليكا دونى » و « جيورجيو اليورا » و « السر » كانت تخلع على الحياة صورة قاتمة أشبه ما تكون بحريق هائل يحترق فيه عدد لا حصر له من المخلوقات البشرية ، وان كل شـخص من أشخاص قصصه يكافح من أجل وهم من الأوهام ويدخل فى مبارزة يائسة مع الواقع .

كنت أقول لنفسى فى شىء من الخوف :

ـ ألم يكن من الممكن أن يكون ذلك الفنان الغريب ـ الذى كانت قصصه تدل على التسامى والروحانية النقية ـ قد مارس براعته ضدى أنا أيضا ؟ وألم أكن أنا نفسى الذى قلت عن قصة « جيورجيو اليورا » التى وضعها أنها قصـة انسانية ؟ وألم أكن أنا قد وجدت فى بعض شخصيات مؤلفاته الأدبية شيئا من التشابه الغريب مع شخصى ، وهل يا ترى كان من شأن هـذا التشابه الغريب بيننا أن أساعده عـلى عمله الذى شرع فيه وأراد به فتنة زوجتى ؟ وهل استسلمت له جوليانا عندما رأت فى مؤلفاته بعض الأعمال الفتانة التى كان من شأنها أن جعلتها تعبدنى عبادة فى يوم من الأيام .

عادت جوليانا الى الغرفة ثانية وعندما شاهدت ذلك الكتاب بين يدى قالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة مضطربة وفى شىء من الخجل :

ـ ماذا تنظر ؟

وعندئذ أسرعت بسؤالها دون أن أغير من نبرات صوتى وفى شىء كثير من الهدوء والبساطة قائلا :

ـ هل تعرفين « فيليو اربوريو » ؟

فأجابتنى بصراحة قائلة :

ـ أجل • فقد قدموه الى فى بيت « مونتيريزى » • كما حضر هنا أيضا بعض المرات ولكن لم تتح له الفرص للقائك •

وهنا خطر ببالى أن أوجه اليها هذا السؤال :

ـ ولكن لماذا لم تحدثينى عن ذلك ؟

ولكنى حبست هذا السؤال بين شفتى • وكنت أقول لنفسى :

ـ كيف كانت تستطيع أن تحدثنى عن ذلك اذا كنت أنا بمسلكى الذى سلكته ازاءها قد منعت كل تبادل للأفكار والأحاديث الودية بينى وبينها ؟

وقد أردفت قائلة :

ـ ان هذا الكتاب هو أبسط الكتب التى وضعها ، هل قرأت قصة «السر» ؟

ـ نعم • لقد قرأتها •

ـ وهل أعجبتك ؟

فأجبتها دون تفكير لكى أظهر علو نفسى أمام جوليانا قائلا :

ـ لا • انها كتاب تافه •

وهنا قالت فى نهاية الأمر :

ـ اننى ذاهبة •

وهمت بالخروج وقد تبعتها حتى الردهة وأنا أسير على هدى ذلك العبير

الذي كانت تتركه من خلفها • وكان هذا العبير خفيفا جدا حتى كاد يكون غير محسوس • وقد اقتصرت على أن تقول لى أمام الخادمة هذه العبارة :

ـ الى اللقاء •

وعبرت العتبة بخطوة وئيدة •

أما أنا فقد عدت الى غرفتي وفتحت النافذة وأطللت منها لكى أراها وهى سائرة فى الطريق •

كانت تسير بخطواتها الوئيدة على الرصيف فى الجهة التى كانت تغمرها أشعة الشمس وكانت تسير فى طريقها لا تلوى على شىء ودون أن تدير رأسها الى هذه الجهة أو الى تلك ، وكانت شمس « سان مارتينو » تصبغ صفحة السماء البللورية بلون ذهبى خفيف وكان الدفء والهدوء يلطفان الهواء كما كان يفوح عبير البنفسج هنا وهنالك • وقد انتابنى شىء كثير من الحزن والكآبة جعلنى أنكفىء خائر القوى فوق جلسة النافذة وازداد هـذا الحزن رويدا رويدا حتى أصبح قاسيا لا يحتمل •

لم يحدث قط فى حياتى ـ اللهم الا نادرا ـ أننى تألمت كما تألمت الآن مما ساورنى من شكوك جعلت ثقتى فى جوليانا تنهار دفعة واحدة وهى تلك الثقة التى استمرت سنين طويلة ولم يحدث الا مرات نادرة فى حياتى أن تألمت نفسى من وهم خاطف مثل هذا الوهم ، وكنت أقول لنفسى :

ـ هل هربت اذن دون أن يكون هناك من يحميها ؟

لم أكن أستطيع أو أريد أن أقنع نفسى بذلك ، كانت كل حياتها المليئة بالخطايا مصحوبة بذلك الوهم الكبير الذى لم يكن يتفق مع متطلبات أنانيتى فحسب بل كان يتمشى مع أحلامى العذبة وايمانى بسموها الخلقى ، وكنت أقول لنفسى :

ـ ان السمو الأخلاقى الذى ينبثق عن الآلام الشديدة التى يتحملها الانسان كان أمرا لا معدى عنه لكى تتحمل ما جعلتها تتحمله من آلام حتى تتاح لهـا الفرصة لتكون بطلة من كبار الأبطال •

وكان ذلك الأمر البديهى الذى استطعت به أن أخفف من وقـع تأنيب

ضميرى فى كثير من المرات قد تأصل فى أغوار نفسى وولد فيها فكرة أفلاطونية عن الدور الذى أقوم به ٠

ولقـد كان يسرنى وأنا ذلك الرجل المنحل المعوج الضعيف أن أرى فى دائرة وجودى انسانة طيبة مستقيمة قوية الشكيمة ، انسانة لا يتطرق اليها الفساد وكان يسرنى السرور كله أن أكون موضع حبها ومكان تقديسها الى الأبد ٠ وكانت كل رذائلى وكل شقاوتى وكل ما فى نفسى من ضعف تعتمد على هذا الوهم ، وكنت أعتقد أنه من الممكن ترجمة حلم جميع الرجال المفكرين الى حقيقة وهو أن يبقى الانسان خائنا الى الأبد لامرأة مخلصة له الى الأبد ٠

وكنت أقول لنفسى :

ـ عن أى شىء تبحث ؟ هل تريد كل ما فى الحياة من نشوة ومسرات ؟ اخرج واذهب وابتهج كما تريد ، ان المخلوقة الصامتة الخرساء الواعية باقية فى بيتك كأنها صورة من صور العـذراء فى أحد الأديرة وفى انتظارك وأن المصباح الذى لا تلقى فيه بنقطتين من الزيت سوف يبقى دائما موقدا ٠ أليس هذا هو حلم جميع الرجال المفكرين ؟

كنت أقول لنفسى أيضا :

ـ انك فى أى ساعة تعود وبعد أية مغامرة تقوم بها سوف تجدها ٠ انها كانت واثقة من عودتك ولكنها لن تتحدث اليك ولن تقول لك انها كانت فى انتظارك : لسوف تضع رأسك فوق ركبتيها ولسوف تمر فوق صـدغيك بأطراف أصابعها لكى تخفف من آلامك ٠

كانت مثل هذه العودة فى حسبانى أمرا حميدا ٠ تلك العودة النهائية بعد كارثة من تلك الكوارث الداخلية التى تغير من طبيعة الانسان ٠

وكان كل ما أشـعر به من يأس قد بددته ثقتى الكبـيرة فى ذلك الملجأ الحصين الذى لا تشوبه شائبة وأنه فى غمرة مباذلى هذه كلها كان يتدلى شىء من الضياء من تلك المرأة التى بسبب حبها لى نتيجة لأعمالى حيالها قد بلغت ذروة السمو وكان ذلك الضياء يتفق تمام الاتفاق مع ذلك الحلم الذى كان يراودنى وذلك الاعتقاد الراسخ الذى كنت أعتقده ٠

هل كان فى شك من الشكوك ما يكفى لتحطيم كل شىء دفعة واحدة ؟

استعرضت أمام مخيلتى كل ما حدث بينى وبين جوليانا منذ لحظة دخولى فى غرفتها الى حين خروجها ٠

ورغما من أننى نسبت الجانب الأكبر من حركاتى وأعمالى الى حالة عصبية وقتية فلم أستطع أن أبدد ذلك الأثر الغريب الذى أحدثته عبارة « انها كانت تبدو لى امرأة أخرى » ٠

ومما لاشك فيه أنه طرأ عليها شيء جديد لم يكن لى به عهد من قبل، ولكن ما عسى أن يكون ذلك الشيء ؟

ألا يوجد لهذا الاهــداء الذى كتبه « فيليــو اربوريو » مغزى يدعو الى الاطمئنان ؟

ألا يؤكد طهارة « ايبورينا توديس » ؟ أن تلك التسمية المجيدة كان قد أوحى بها لذلك الكاتب ، ماكانت تتمتع به جوليانا هيرميل من شهرة بالطهر والعفاف أو تلك المحاولة لاغرائها والتى كان نصيبها الفشل أو ربما كان العدول عن الحصار الذى كان قد أحاطها الكاتب به ٠ ولهذا يجب أن يكون البرج العاجى لا يزال سليما ٠

وبينما كنت أقرع الحجة بالحجة على هذا النحو لكى أعالج ما أحدثه الشك من أثر مؤلم ، كنت أشعر فى قرارة نفسى بشيء من القلق لا أعرف كنهه اذ كنت أخشى ظهور بعض الاعتراضات الساخرة بصورة مفاجئة ٠ وكنت أقول لنفسى :

ـ انك تعلم أن لون جلد جوليانا ناصع البياض بشكل غريب وأنا شاحبة اللون وقد أصبح لونها يحكى لون قميصها وربما كانت التسمية المقدسـة تخفى بين ثناياها معنى نجسا ٠٠ ولكن عبارة « شيء من عدم اللياقة » التى وردت فى الاهداء ؟ ماذا أقول فيها ؟ ماذا أقول ؟ ما أكثر عبارات السفسطة ٠

قطع شيء من الغضب والعنف وقلة الاحتمال هـــذا التفكير المذل الذى لا جدوى منه فابتعدت بعيدا عن النافذة وهززت أكتافى ودرت دورتين أو ثلاث فى أرجاء الغرفة وفتحت أحد الكتب عن غير قصد ثم ألقيت به جانبـا ولكن قلقى لم يتناقص ٠

أخذت أفكر وأنا واقف على قدمى كما لو كنت أواجه خصما غـير مرئى وأقول لنفسى :

ـ وقصارى القول ما فائدة كل هـذا والى أى شيء يؤدى ؟ فاما أنها قد سقطت والخسارة فيها لا تعوض واما أنها فى خطر وأنا فى حالتى الراهنة لا أستطيع التدخل لانقاذها • واما أنها لا تزال طاهرة الذيل بفضل احتفاظها بطهرها وعفافها •

وعندئذ فان شيئا لم يتغير •

وعلى كل حال فليس أمامى ما أقوم بعمله •

ان ما هو حادث لابد منه وكل ما سيحدث سيكون لا معدى عنه ، لسوف تمر أزمة الألم الشديدة التى أعانيها ويجب على أن أصبر ، ما كان أجمل أعواد الليلك البيضاء التى كانت موضوعة فوق منضدة جوليانا ! • لسوف أخرج لكى أشترى أعوادا مثلها ولكن بكميات كبيرة •

كان موعدى مع « تيريزا » هو اليوم فى الساعة الثانية وكانت لا تزال متبقية على هذا الموعد ثلاث ساعات كاملة •

ألم تقل لى هى فى المرة الأخيرة انها تريد أن تجد المدخنة موقدة ؟ لسوف تكون أول نار تشعلها فى الشتاء فى يوم دافىء ويبدو لى أنها فى « أسبوع البر » ليت الأمر يستمر على هذا النحو ! ولكننى سوف أستفز فى أول فرصة تسنح لى « ايوجينيو ايجانو » •

أخذت أفكارى تتجه الى الطريق الجديد وكانت تتوقف بعض وقفات خاطفة مع بعض انحرافات مفاجئة ، ولقد تراءت لى بين صور المجون المقبلة صورة أخرى من الصور النجسة وهى تلك الصورة التى كنت أخشاها والتى كنت أريد الهرب منها •

تبادرت الى ذهنى بعض صحف من قصة « الكاثوليكية المتزمتة » الجريئة الملتهبة وكان يتولد من كل اشمئزاز أشعر به اشمئزازا آخر وكنت أخلط بين قذارة المرأتين كما كنت أخلط بين حقدى على كل من « فيليو اربوريو » القصصى وصاحبنا « ايوجينيو ايجانو » •

—

انقشعت غيوم الأزمة بعد أن تركت فى نفسى شيئا لا أدرى كنهه من التحقير المزوج بالحقد نحو « الأخت » (١) • فابتعدت ، وابتغدت كثيرا وأصبحت أشد قسوة وقليل الاهتمام وكثير الانطواء على نفسى ، كما صارت عاطفتى التعسة ازاء « تيريزا رافو » مقصورة عليها دون غيرها وشغلت عـلى جميع حواسى ولم تترك لى ساعة أستريح فيها وكنت شخصا كثير الوساوس ورجلا انتابه شيء كثير من الجنون الشيطانى أصيب بمرض مجهول ومخيف •

اختلطت ذكريات ذلك الشتاء فى نفسى دون تجانس أو أى ترابط فيما بينها وكانت تغشاها بعض الظلمات الغريبة النادرة •

لم ألتق فى منزلى فى ذلك الشتاء بالسيد « فيليو اربوريو » ولكنى رأيته مرات قليلة فى بعض الأماكن العامة وقد شاهدته فى احدى الليالى فى ناد من نوادى لعبة السـلاح وهناك تم التعارف بيننا ، اذ قام رئيس النادى بتقديم كل منا الى الآخر وتبادلنا بعض الأحاديث القصيرة وكان ضوء الغاز وضجيج النظارة وصليل الأسلحة ولمعانها وأوضاع المتبارزين الرشيقة أو غير السليمة ودبيب أرجلهم وحركات كل هذه الأجسام السريعة وصرخاتهم الخـارجة من حناجرهم وصيحاتهم الشديدة والضحكات العالية • كل أولئك كان يعيـد الى ذاكرتى بوضوح غريب ذلك المنظر الذى كان يبدو حولنا بينما كان كل منا فى مواجهة الآخر والمدرب ينادينا كلا باسمه ورأيت للمرة الثانية تلك الحركة التى رفع بها « فيليبيواربوريو » القناع عن وجهه وبدا وجهه ممتقعا والعرق يتصبب منه • وبعد أن أمسك القناع باحدى يديه ولسـلاح باليد الأخرى انحنى وأخذ يتنهـد نهدات متواصلة وقد بدا عليه التعب وامارات التشنج وكان أشبه شيء بانسان لم يتدرب قط على ممارسة تمرينات الرياضة البدنية • وقد فكرت فى الحال فى أنه ليس انسـانا يخشى شره اذا ما التقيت به فى الطريق أو فى أى مكان آخر فى يوم من الأيام وشعرت بشيء كثير من الغرور والاعتداد بالنفس ، ولم أوجه اليه عمدا أية كلمة تشير الى شـهرته فى عالم الأدب والى اعجابى بمؤلفاته ووقفت أمامه كما أقف أمام أى انسان مغمور •

وهنا سألنى المدرب وهو يبتسم قائلا :

ــ اذن هل تأتى غدا ؟

---

(١) يقصد زوجته التي كان يعاشرها معاشرة الأخ لأخته •

فاجبته قائلا :

– نعم فى الساعة العاشرة ٠

وعندئذ قال « اربوريو » فى شيء كثير من الدهشة :

– هل تتبارزان ؟

– نعم

وبعد أن تردد قليلا أردف قائلا :

– ومع من تتبارز ؟ وارجو ألا يكون فى هذا السؤال فضول منى ٠

– مع « ايوجينيو ايجانو » ٠

على أننى أدركت أنه يريد أن يعرف شيئا أكثر من ذلك ، ولكن تحفظى ازاءه وعدم اكتراثى الظاهر بما يقول جعله يحجم عن المزيد من التساؤل ٠

وهنا قلت للمدرب :

– أتسمح لى يا سيدى بأن نتبارز خمس دقائق ٠

ثم استدرت لكى أذهب الى غرفة خلع الملابس ٠

وعندما وصلت الى عتبتها توقفت لأنظر خلفى فرأيت « اربوريو » الذى كان قد استأنف المبارزة وكانت نظرة واحـدة كافية لاقناعى بأنه شخص لا يعتد به فى تلك اللعبة ولا يجيدها ٠

وبعد أن عدت وبدأت المبارزة مع المدرب أمام أعين جميع الحاضرين استولى على نفسى شيء من التهييج العصبى الذى ضاعف حماستى وزاد فى قوتى وشعرت بنظرات « فيلبواربوريو » التى كان يسددها نحوى ٠

وبعد أن عدت الى غرفة خلع الملابس التقينا مرة ثانيـة وكانت الغـرفة المنخفضة مليئة بالدخان وبرائحة العرق الذى يبعث على التقزز والاشمئزاز والذى كان ينبعث من اللحوم البشرية وكان الجميع هناك عراة الأجسـام يرتدون « البرانس » البيضاء ٠ وقد أخذوا يدلكون صدورهم وسواعدهـم وأكتافهم على مهل وهم يدخنون ويتكلمون بصوت عال لينفسوا بثرثرتهم عما يشعرون به من وحشيتهم وكانوا يتبادلون الوقوف تحت ميـاه الدش وهم

يضجون بالضحات العاليـة ، وقد شـاهدت فى تلك الأثناء مرتين أو ثلاث مرات جسد « أربوريو » النحيل الذى اتجهت اليه عيناى عن غير قصد وشعرت نحوه باشمئزاز لا يوصف وبشيء من الألم كما لو كنت قد اصطدمت صدمة عنيفة وتمثلت أمامى من جديد تلك الصورة المقوتة •

لم تتح لى بعد هذه المرة أية فرصة أخرى لرؤيته أو الالتقاء به ولم أعره أى اهتمام ولم ألاحظ أى شيء يدعو الى الريبة من مسلك « جوليانا » ولم أكن أشعر فى خارج هذا المحيط الذى كنت أضطرب فيه بأى شيء محسوس أو مفهوم فقد كانت جميع التأثيرات الغريبة تمر بخاطرى كأنها نقط المـاء التى تتساقط على لوحة مستقرة فترتد الى الخلف أو تتحلل بفعل الحرارة •

تعاقبت الأحداث وأخذ بعضها يمسك برقاب البعض فقد وقع فى أواخر شهر فبراير انفصال نهائى بينى وبين « تيريزارافو » على أثر حـادثة أخيرة مشينة فرحلت بمفردى الى مدينة البندقية وبقيت بها حوالى شهر من الزمان فى حالة سيئة لم أكن اعرف لها سببا أو تعليلا وكنت فى حالة من الذهول قرارة نفسى اللهم الا اننى كنت اعيش بمفردى بين خيالات تلك الاشياء التى كان يزيدها ظلام مياه الارخبيل وسكونه ايلاما لنفسى ولم أكن أعى شيئا فى لا جدوى منها وكانت تمر بى ساعات طوال لا أحس فيها الا بثقل الحيـــاة وهمومها ونبضات العروق فى رأسى • وكانت تتملكنى مدى ساعات طويلة تلك الجاذبية الغريبة التى كان لهـا على نفسى وعلى حواسى أثر كبير فـكان يتراءى أمام عينى باستمرار شيء غامض لا أعرف كنهه • وكانت الغيوم تأخذ فى بعض الأحيان وهى فوق المياه شـكلا محزنا وكانت تمر كأنها الأطيـاف بخطوات رئيدة ورهيبة وكثيرا ما كنت أرى فى « الجندول » الذى هو أشبه شيء بنعش الموتى شبح الموت يتراءى أمامى • وعندما كان النوتى يسألنى عن المكان الذى يجب عليه أن يأخذنى اليه كنت أرد عليه دائما تقريبا بايماءة مبهمة وكنت أحس فى قرارة نفسى بما تحمل من كل معانى اليأس هـــذه الكلمات التى كنت أود أن أقولها وهى :

ــ « الى أى مكان ، الى خارج هذا العالم » •

عدت الى مدينة روما فى أواخر أيام شهر مارس وكنت أشعر بشعور جديد ازاء ما ألم بي بعد أن انقشع ذلك الخسوف الذي غشي على ضميري ، كان

الذعر والذهول والخوف الذى لا أعرف له سببا ينتابنى فى بعض الأحيان بغتة على غ، انتظار وكنت أشعر بنفسى ضعيفا كأننى طفل من الأطفال وكنت أتلفت حولى باستمرار فى شىء من اليقظة غير المعتادة لأعرف حقائق معانى الأشياء ولكى أستجمع ما بينها من علاقات طبيعية • ولكى أدرك كل ما حدث من تغيير فيها وكل ما اختفى منها •

ولما كنت اتغلغل رويدا رويدا فى صميم الحياة العامة استقر التوازن فى فكرى وعادت الى بعض آمالى وانبعثت فى نفسى من جديد الرغبة فى الاهتمام بالمستقبل •

ووجدت جوليانا خائرة القوى الى حد بعيد وقد تغيرت صحتها وأصبحت فى حالة من الحزن لا عهد لها بها من قبل ، وكنا نتحدث قليلا ، ولكن لم يكن أحد منا ينظر الى عينى الآخر ودون أن يفتح كل منا قلبه للآخر وكان كلانا يرغب فى اصطحاب طفلتينا وكانت « ماريا وناتاليا تملآن علينا ببراءتهما ما كان يسود بيننا من صمت بأصواتهما المعذبة ، وقد تساءلت « ماريا » ذات يوم قائلة :

ــ خبرينى يا أماه هل سنذهب هذا العام الى الضيعة لقضاء أجازة عيد الفصح ؟

فأجبتها بدلا من أمها دون تردد بقولى :

ــ نعم سنذهب •

وعندئذ أخذت « ماريا » تقفز فى الغرفة من فرط سرورها وهى تجذب اليها أختها • وهنا نظرت الى جوليانا وسألتها فى شىء من الخجل والذلة والانكسار قائلا :

ــ أتريدين أن نذهب الى الضيعة ؟

فأجابت بالموافقة بايماءة من رأسها •

ثم أردفت قائلا :

ــ اننى أرى أنك لست بصحة جيدة • ان صحتى أنا أيضا ليست على ما يرام • وربما كان من شأن الريف •• والربيع أن ••••

وكانت جوليانا فى تلك اللحظة تتمدد فوق احدى الارائك وهى تضع يديها البيضاء فوق مسنديها • وذكرتنى هيئتها هذه بمنظر سابق وهو منظر المريضة الناقهة فى صبيحة قيامها من فراش مرضها بعد أن اخطرتهابعزمى على السفر •

تقرر السفر وأخذنا فى اعداد العدة للرحيل ، وكان هناك أمل يومض فى قرارة نفسي وكنت لا أجرؤ على النظر اليها •

هذه هى الذكرى الأولى •

كان غرضى عندما بدأت القصة أن أقول ان هــذه هى أول ذكرى تشير الى الأمر المريع •

كان ذلك أثناء شهر ابريل وكنا أتينا الى الضيعة منذ بضعة أيام وكانت أمى قد قالت ببراءتها المعهودة :

ـ لكما الله يا ولدى العزيزين • ما أعظم شحوب وجهيكما • ألا تبا لروما ولعنة الله عليها ! • يجب عليكما أن تبقيا هنا الى جانبى فى الريف وقتا طويلا كى تستعيدا صحتكما ، وقتا طويلا !

وهنا قالت لها جوليانا وهى تبتسم :

ـ نعم نعم يا أماه • سوف نبقى هنا ما شئت من الوقت •

وتكررت هذه الابتسامة على شفتى جوليانا فى حضرة والدتى ، ورغما من أن الحزن والكآبة كانا مخيميين على عينيها باستمرار الا أن الابتسامة كانت دون شك ابتسامة حلوة رقيقة وكانت تنم عن منتهى الطيبة والاخلاص حتى أننى أنا نفسى انخدعت بها وصدقتها وجرؤت أن أغلق عليها أعظم الآمال •

ولم تكن والدتى لتنفصل فى الأيام الأولى عن ضيفانها العزيزين ، وكان يبدو أنها تريد أن تغمرهما بلطفها وتشبعهما بحنانها وشاهدتها مرتين أو ثلاث مرات وقد بدا عليها شىء كثير من التأثر الذى لا يمكن وصفه • وكثيرا ما كنت أشاهدها وهى تمسح بيدها الرحيمة على شعر جوليانا كما سمعتها فى احدى المرات وهى تسألها قائلة :

ـ ألا يزال يحبك كثيرا •

وكانت جوليانا ترد عليها بقولها :

ـ نعم بارك الله فى « توليو » المسكين •

ـ اذن ليس صحيحا ما ••

ـ ماذا ؟

ـ ما نقلوه الىّ ٠

؛ وما الذى نقلوه اليك ؟

ـ لا شيء ، لا شيء ٠٠ كنت اعتقـد أن يكون « توليـو » سبب لك بعض الضيق ٠

كان هذا الحديث يجرى وهما واقفتان امام احدى النوافذ المفتوحـة على مصراعيها خلف الستائر التى يداعبها الهواء بينما الرياح تهز فى الخارج خمائل الأعناب هزا عنيفا ٠

وعندئذ تقدمت نحوهما قبل أن يفطنا الى وجودى ورفعت احدى الستائر واظهرت نفسى لهما ٠

فصاحت والدتى قائلة :

ـ هل جئت يا « توليو » ٠

وبعد ذلك تبادلتا نظرة مضطربة ثم قالت أمى :

ـ كنا نتحدث عنك ٠

وهنا سألتها فى شيء كثير من المرح قائلا :

ـ عنى أنا ؟ هل كنتما تتحدثان عنى بسوء ؟

وعندئذ أسرعت جوليانا بقولها :

حاشا لله ٠ كنا نذكرك بالخير ٠

وأدركت من نبرات صوتها رغبتها فى طمأنتى وتهدئة روعى ٠

وكانت شمس ابريل تسطع فوق جلسة النافذة وتلمع فوق شعر رأس أمى الذى وخطه المشيب وتلقى شيئا من الضياء على صدغى جوليانا وكانت الستائر الناصعة البياض تتموج فى الهواء وينعكس خيالها على صفحة زجاج النافذة ٠ وكانت الخمـائل الكبيرة المتأرجحة فى الفضـاء والمغطاة بالاوراق الخضراء الجديدة تحدث صريرا يعلو تارة ويخفت تارة أخرى ، وكانت الظلال تتغير تبعا لاهتزازات هذه الخمائل ٠ وكانت جدران المنزل المكسوة بزهور البنفسج التى لا حصر لها ينبعث منها عبير من روائح الربيـع الزكية يـكاد يكون أشبه شيء بالبخورالشرقى ٠

وهنا غمغمت جوليـانا وهي تمر بأصابعها فوق حاجبيها وتسبل جفنيها قائلة :

ـ ما أقوى هذه الرائحة انها تحدث دوارا بالرأس •

وكنت اذ ذاك واقفا الى الخلف قليلا بينها وبين أمي وقد شعرت بالرغبة فى أن انحنى فوق حافة النافذة واضم كلتيهما من خصريهما بكل ذراعى كما أود أن اودع فى هذه الحركة التى تدل على الألفة وعدم الكلفة كل ما فى قلبى من حنان وأن أجعل جوليانا تفهم كثيرا من الأشـياء التى لا استطيع التعبير عنها واستعيدها بكليتها بذلك العمل وحده ، ولكن يمنعنى من ذلك شـعور بالخوف الذى يشبه خوف الأطفال •

وهنا قامت أمي وهي تشير بسبابتها الى جهة فى الرابية :

ـ انظرى يا جوليانا • هذه هي « فيلا ليللا » مسكنك • هل ترينها ؟

ـ نعم نعم •

كانت تحدق بنظرها وهي تتحاشى اشـعة الشمس بيـدها المبسوطة أعلى عينيها وقد أدركت أنا اذ كنت ألاحظها جيدا ـ شيئا من الرعدة يبدو فوق شفتها السفلى •

فسألتها وأنا أحاول بسؤالى الايحائى أن أزيد من اضطرابها قائلا :

ـ هل تميزين شجرة السرو ؟

كانت تتراءى امام مخيلتى اذ ذاك شـجرة السرو العجوزة الـكبيرة التى ينبت عند جذرها بعض اعواد الورد ويقف فى أعلاها سرب من العصافير •

ـ نعم نعم أننى أكاد اميزها •

كانت « فيلا ليللا » تبرز ببياضها الناصع فى وسط الرابية على مسـافة بعيدة فى أحد السهول المنبسطة وكانت سلسلة التلال تبدو امامنا فى هيئة جليلة كما كانت أشجار الزيتون المتراصة فى كل مكان منها أشبه ما تكون بقطار من القطارات ذات اللون الأخضر والرمادى التى تسير فى اتجاه واحد

وكانت الأشجار الكبيرة المغطاة بالزهور البيضاء والوردية هي الشيء الوحيد الذي يغير من هذا التشبيه ٠

وكانت السماء تبدو في شحوب مستمر كما لو كانت في صفائها البان تنتشر على صفحتها باستمرار ثم لا تلبث أن تتبدد ٠

ولما كنت أرغب في أن أعيد الى تلك النفس ذلك الحلم الذي انتزعته منها بقسوة ووحشية فقد قلت لها :

ـ لسوف نذهب الى « فيلا ليللا » بعد عيد الفصح حيث تكون كل اشجارها مزدهرة ٠

وجرؤت أن اقترب من أمي وجوليانا واحيط خصريهما بكلتا ذراعي وانحني فوق جلسة النافذة واضع رأسي بين رأسيهما بحيث يتهدل فوق رأسي شعر كل منهما ٠ وكان الربيع وطيب الهواء وجمال هذه الاماكن وهذا التجلي والهدوء الذي بدا على جميع المخلوقات وتلك السماء الصافية القدسية التي كانت تزداد جمالا كلما ازدادت شحوبا كل اولئك كان يجعلني أشعر شعورا جديدا بالحياة لم يكن لي عهد به من قبل حتى قلت وأنا ارتعد فيما بيني وبين نفسي ٠ ولكن هل من الممكن أن ٠٠؟ ولكن هل من الممكن ٠٠؟ وهل استطيع اذن بعد كل ما حدث وبعد كل ما عاينت ٠ وبعد كثير من الخطايا وكثير من الفضائح أن أشعر في الحياة بهذه اللذة ! وهل استطيع أن أؤمل ! وهل استطيع أن اتوقع شيئا من السعادة والهناء !٠ اذن من الذي منحني هذه البركة ؟ كان يبدو أن كياني بأكمله خف وانتشر وتخطى ما وراء الحدود واصابه شيء من الاضطراب السريع الدائم ، وليس هناك ما يعطي مجرد فكرة أو يعبر تعبيرا صادقا عما اوجده في نفسي ذلك الاحساس الذي نجم عن شعرة من شعورها لمست خدي ٠

بقينا بضعة دقائق على هذه الحالة دون أن ينبس احد منا ببنت شفة وكانت الخمائل تهتز والرعشات المتعددة التي تبدو على الزهور الصفراء والبنفسجية التي كانت تكسو الجدار أسفل النافذة تسحر ناظري وتتصاعد مع الشمس رائحة ذكية دسمة وحارة كأنها الانفاس المترددة :

وعلى حين غرة نهضت جوليانا وتراجعت ربدا الشحوب على وجهها وشيء من الاضطراب فى عينيها ومطت شفتيها فى شيء من الاشمئزاز ثم قالت :

ـ ان هذه الرائحة فظيعة وتسبب الدوار الا تضر بك أنت أيضا هـــذه الرائحة يا أماه ؟

ثم استدارت لكى تنصرف من هذا المكان وخطت خطوة مترددة وهى تترنح ثم اسرعت وخرجت من الغرفة ووالدتى فى اثرها ٠

أما أنا فقد أخذت أنظر اليها وهى تبتعد من خلال فتحة الباب وأنا لا ازال يتملكنى ذلك الاحساس الأول الذى شعرت به ٠

ـ ٢ ـ

كانت ثقتى بالمستقبل تزداد يوما بعـد يوم ٠ فما عدت أذكر شيئا مما مضى على وجه التقريب وكانت نفسى المنهكة القلقة قد نسيت الآلام ، وكان كل شيء فى بعض الساعات التى كنت أشعر فيها بالوحدة الكاملة (١) ويصبح مجهولا ولا يمكن فهمه ، وكان يبدو لى بعد تلك الانحلالات النفسانية الغريبة أن هناك مبدأ جديدا من مبادىء الحياة قد تغلغل فى نفسى ، وأن هناك قوة أخرى قد استولت على قلبى ٠

كانت هنـاك احساسات كثيرة تلقائية لا دخـل لارادتى فيها وغريزية لا أعرف لها كنها قد أصبحت تشكل وجـودى الحقيقى ، كما استقرت بين حياتى الخارجية ومشاعرى الداخلية اشياء دقيقة وردود فعل كان لهـا أعظم الأثر فى نفسى وكان كل أثر منهذه التأثيرات التى لايعمل لها حساب يتحول الى ظاهرة نفسانية عجيبة ، وكان كيانى كله قد تغير بسبب ما كان يمر فى الهـواء وبسبب كل نسمة من النسـائم وكل ظل من الظلال وكل ضوء من الاضواء ٠

---

(١) يزول ويتبدد وينبسـط ويختلط بعضه ببعض ويغوص فى تلك الميوعة الأصلية ٠

ومما لاشك فيه أن أمراض النفس شأنها فى ذلك شـأن أمراض الجسم سواء بسواء تجدد الانسان وتغيره كما أن النقاهة الروحية ليست أقل حلاوة واعجازا من النقاهة الجسمانية • كنت اتوقف ببساطة وبراءة وقد أخـذت منى الدهشة كل ماخذ امام شجيرة مزدهرة وامام غصن من الاغصان تكسوه الأوراق الخضراء الصغيرة وأمام فرع صـغير نبت فوق جـذع من الجـذوع بصورة تكاد تكون تلقائية وأمام أحقر نبات من النبـاتات التى تظهر فوق سطح الأرض بفضل نغمات الربيع وانفاسه اللطيفة •

وكثيرا ما كنت أخرج فى الصباح بصحبة شقيقى • وفى تلك الساعة كان كل شىء صابحا يانعا هادئا ميسرا • وكانت صحبتى لشقيقى « فيديركو » تطهر نفسى وتقوى من عزيمتى كأنها النسيم العليل • وكان « فيديركو » اذ ذاك يبلغ من العمر السابعة والعشرين وقد قضى طوال ايام حياته تقريبا فى الريف وعاش فيه عيشة التقشف والجد • ويبدو أنه يحمل فى دخيلة نفســه كل ما على وجه الأرض من طيبة واخلاص ، ويسير فى حياته طبقا للقواعد والأصول المرعية حتى ان « تولستوى » لو رآه كان يود أن يتخـذه ابنـا له •

وكنا نسير فى الحقول دون هـدف معين وقليلا ما كنا نتجـاذب أطراف الحديث ونتناقش فى بعض المسائل ، وكان شقيقى يمتدح خصوبة الأراضى التى نمتلكها كما كان يشرح لى أساليب الزراعة الحديثة وكان يظهر لى أثر التحسينات وأعمال التجديد وكانت بيـوت فلاحينا نظيفة فسيحة الارجاء كثيرة الهـواء ، وحظائر مواشينا مكتظة بحيوانات سمينة سـليمة الابدان ومزارعنا يسودها نظام رائـع • وكثيرا ما كان أخى اثناء سـيرنا يتوقف هنيهة لتأمل أحد الغروس • ويداه الخشنتان تتحولان الى يدين غاية فى الرقة عندما تلمسان الأوراق الخضراء الصغيرة النابتة فى أعلى الاغصان الصغيرة الحديثة الظهور ، وكنا فى بعض الأحيان نجوس خـلال بستان من بساتين الفاكهة ، واشجار الخوخ والكمثرى والتفـاح والـكرز والبرقوق والمشمش تحمل فوق اغصانها ملايين الازهار ، والضوء يتغير هناك بين البراعم الوردية والفضية الشفافة ويكاد يستحيل الى نوع من الرطوبة القـدسية والى شىء غامض طيب لا يمكن وصفه ، والسماء تطل على هـذه الزروع اليانعة وتلقى من خلالها نظرة مليئة بالحلاوة والعذوبة •

فيقول لى وهو يفكر فى ذلك الكنز العظيم المتوقع بينما كنت اشيد بجمال الزهور :

ـ لسوف ترى لسوف ترى الفواكه •

فكنت أقول لنفسى « لسوف أراها وأرى الزهور وهى تتساقط ، والأوراق وهى تنبت والثمـــار وهى تكبر وتترعرع ثم تتلون وتنضــج وتنفصــل عن اغصانها » وكان لهذا التأكيد الذى تفوه به أخى أهمية عظيمة بالنسبة لى كما لو كان يشير الى سعادة موعودة ومنتظرة لا اعرف كنهها يجب أن تتطور فى تلك الفترة الواقعة ما بين وقت الازدهار ووقت حمل الثمار • وقبل أن أعلن عن نيتــى فى البقــاء كــان يبــدو لأخــى أن من الطبيعــى أن أبقــى طوال حياتى هنــا فى الريف معه ومع والدتنــا لأنه قال اننى ســوف أرى ثمار أشجاره وكان متأكدا من أننى سوف أراها ! لذلك كان صحيحا أنه بدأت حياة جديدة أحياها منذ الآن وأن هذا الشعور الذى شعرت به فى قرارة نفسى لا يخدعنى وأن كل شيء أصبح الآن يتم فى يسر غريب غير معتاد وفى شيء كثير من الحب •

ما كان أشد حبى لأخى فيديركو ! اننى لم أحبــه قط كما أحببته الآن وبهذا القدر •

كان هذا هو كل ما يجول بخاطرى وكانت هذه الخواطر متقطعة لا انسجام بينها وصبيانية فى بعض الأحيان وذلك بسبب استعداد نفسانى فريد كان يجعلنى أرى فى كل عمل تافه خيرا لى وبشرى طيبة •

وكان جل ما أصبو اليه هو أن أرى نفسى بعيدا عن جميع الأحداث الماضية بعيدا عن بعض الأماكن المعينة وعن بعض أشخاص معينين وألا يعرف أحد عنى شيئا ، وكنت أتذوق فى بعض الأحيان سكون الريف خلال فصل الربيع وأتصور ذلك الفضاء الذى يفصلنى عن ذلك العالم القائم الذى عانيت منه الشيء الكثير وتلك الآلام التى تحملتها منه •

كان يستولى على خوف لا يمكن وصفه وينقبض له صدرى فى بعض الأحيان ويجعلنى أبحث حولى باهتمام زائد عن دلائل الطمأنينة التى أشعر بها فى الوقت الحاضر وكان يدفعنى الى ان أضع ذراعى فى ذراع أخى ، وان أقرأ

فى عينيه ذلك الحب الذى لا ريب فيه والذى كان يكنه لى وذلك العطف الذى يشملنى به ٠

كنت أثق ثقة عمياء بأخى « فيديركو » وكنت أود ألا يحبنى فحسب بل ويستولى على ويستحوذ على جميع مشاعرى كما كنت أود أن أمنحه حق البكورة اذ كان هو أجدر به منى وأبقى خاضعا لنصائحه وارشاداته ٠ وأنظر اليه نظرتى الى زعيمى ومرشدى وأن أطيعه فى كل ما يأمرنى به ٠ وكنت أعتقد أننى اذا ما سرت بجانبه لا أتعرض لخطر الهلاك لأنه كان يعرف الصراط المستقيم ويسير فيه بخطوات ثابتة ثم انه كان له ساعد قوى متين ويستطيع الدفاع عنى وحمايتى ٠ كان الرجل المثالى الصالح القوى الكيس الحكيم ٠ لم يكن هناك فى نظرى شىء يعادل فى شرفه منظر ذلك الشاب المخلص الذى كرس نفسه لكل عمل صالح والذى أحب الأرض من صميم قلبه وكان يبدو أن عينيه قد اكتسبتا لونا أخضر صافيا بفضل تأمله المستمر لكل ما هو أخضر ٠

وقد أطلقت عليه فى أحد الأيام وأنا ابتسم اسم « يسوع الأرض » وحدث فى صبيحة أحد الأيام المليئة بالصفاء والخير والتى تصور فجر الأيام الأولى فى طفولة الأرض أن كان أخى يتحدث الى وهو على طرف أحد الحقول مع جماعة من المزارعين وكان يتكلم وهو واقف على قدميه وكان أطول محدثيه هامة وكانت حركاته وهدوءه يدلان على بساطة أقواله ٠ وكان هؤلاء الرجال من الشيوخ المحتكين الذين بلغوا من الكبر عتيا يستمعون الى ذلك الشاب وينصتون الى ما يقول ٠ وكانت تبدو على أجسادهم العارية آثار العمل المضنى ٠

ولما لم تكن هناك أية شجرة قريبة منهم ٠ ولما كانت أعواد الحنطة ضئيل فى الحقل فان أشكالهم كانت تبدو كاملة فى وضح النهار ٠

وعندما رآنى أتجه نحوه صرف رجاله لكى يأتى للقائى وعندئذ خرجت من فمى عن غير قصد عبارة : ها هو ذا يسوع الأرض قد أتى الينا !

كانت له عناية لا حد لها بجميع أنواع النباتات ولم يكن شىء منها يغيب عن عينيه الحادتين اللتين كانتا تكادان تريان كل شىء وكان أثناء نزهاتنا

الصباحية يتوقف من آن لآخر لكى يخلص ورقة زرع صغيرة خضراء من احدى القشور أو من دودة أو نملة ٠

وفى أحد الأيام كنت أثناء مسيرى أضرب الأعشاب بطرف عصاى دون أن أفطن الى ذلك وكانت أطراف الحشائش الرقيقة تتطاير عند كل ضربة من هذه الضربات فكان هو يتألم من ذلك كل الألم حتى أنه انتزع العصا من يدى ولكن فى شيء كثير من اللطف وامتقع مون وجهه واحمر ، اذ ربما كان يفكر فى أن عمله الرحيم هذا ربما يبدو لى أنه مبالغة فى رقة عواطفه ، يالله ماكان أشد هذا الاحمرار فوق ذلك الوجه الذى تتمثل فيه كل مظاهر الرجولة ٠

وقد حدث فى يوم آخر بينما كنت أقطع من احدى أشجار التفاح غصنا مزدهرا أننى لاحظت فى عينى « فيديركو » غمـامة من الحزن والمـرارة ، فسرعان ما تركت الغصن وسحبت يدى بعيدا عنه وأنا أقول :

ــ هل يسوءك أن

وهنا أخذ يضحك بملء شدقيه وقال :

ــ ولكن لا ٠ ولكن لا ٠٠ أقطع أغصان الشجرة كلها اذا أردت ٠

وفى تلك الأثناء كان الغصن قد انقطع وبقى معلقا بأحد أليافة القوية وأخذ يتدلى على طول جذع الشجرة ٠

ولقد كان لهـذا الكسر منظر يبعث على الألـم حقا ، فزهور ذلك الفرع الهزيلة البضة البيضاء الى حد ما والتى أشبه ما تكون بأوراق الورود المتناثرة التى تحمل بعض الجراثيم الضارة ــ كانت ترتعد فى الهواء باستمرار ٠

وقلت اذ ذاك لكى أخفف من فداحة هذه الخسارة :

ــ لقد قطعته لكى آخذه الى جوليانا ٠

وبعد أن انتزعت تلك الألياف القوية فصلت الغصن المكسور عن الشجرة وأخذته بيدى ٠

- ٣ -

لم أحمل هذا الغصن وحده الى جوليانا بل حملت اليها أغصانا كثيرة وقد كنت أعود دائما الى الضيعة وأنا مثقل بباقات الزهور لكى أهديها اليها • وفى صبيحة أحد الأيام عندما كنت أحمل فوق ساعدى حزمة من الورود البيضاء التقيت فى الردهة بوالدتى وكنت مهتاجا وأشعر بشىء من الحرارة والاضطراب والنشوة ، قابلت عند المدخل أمي •

فسألتها قائلا :

- أين جوليانا ؟

فأجابتنى وهى تضحك قائلة :

- انها فى الأعلى فى غرفتها •

وعندئذ صعدت السلم عدوا وعبرت الدهليـز ودخلت بسرعة الى غرفتها وناديت عليها قائلا :

- جوليانا جوليانا • أين أنت ؟

فخرجت ابنتاى ماريا وناتاليا واستقبلتانى بالتهليل والترحاب وقد فرحتا بمنظر الزهور وفارقهما هدوؤهما وزاد جنونهما وصاحتا بى قائلتين :

- تعال تعال • ان والدتنا هنا فى غرفة النوم •• تعال •

وعندئذ تخطيت تلك العتبة وأخذ قلبى يدق دقا شديدا ووجدت نفسى وجها لوجه أمام جوليانا التى كانت تبتسم ويبدو عليها الاضطراب والقلق وألقيت حزمة الزهور تحت قدميها وقلت لها :

- انظرى •

وهنا صاحت وهى تنحنى فوق هذا الكنز الصابح العطر قائلة :

- آه • يا له من شىء جميل •

كانت ترتدى أحد معاطفها الفضفاضة الذى تؤثره على غيره ، وهذا المعطف أخضر اللون وخضرته أشبه بخضرة أوراق شجرة اللويزة وقبل أن تمشط

شعرها كانت تضم خصلة الى بعضها بواسطة بعض الأسلاك الرفيعة التى تستعمل لهذا الغرض ، وكانت هذه الأسلاك تغطى مؤخرة رأسها وتخفى أذنيها كالضفائر الكثيفة ، وكان عبير الورود البيضاء وهو عبير خليط بين رائحة الزعتر واللوز المر تحيط بها من كل جانب وتفوح فى جميع أرجاء الغرفة •

فقلت لها :

ـ حذار من أن تؤذيك هذه الأشجار • انظرى ماذا فعلت بيدى •

وقد أريتها الخدوش التى أحدثتها والتى كانت لا تزال دامية كما لو كنت أريد أن أظهر لها ما كلفتنيه هذه الهدية •

وكنت أقول لنفسى :

ـ ليتها تمسك يدى الآن بيديها •

وخطرت ببالى ذكرى يوم من الأيام الماضية قبلت فيه يدى اللتين خدشتهما الأشواك وكانت تريد أن تمتص نقط الدماء الدقيقة التى كانت تبرز من يدى الواحدة تلو الأخرى ، ليتها تمسك الآن بيدى • فبهذا العمل وحده تعبر لى عن صفحها واستسلامها •

وكنت أتوقع باستمرار فى تلك الأيام سنوح لحظة مثل هذه اللحظة • وفى الحق لم أكن أعرف من أين جاءتنى مثل هذه الثقة • ولكننى كنت متأكدا من أن جوليانا سوف تعود الى من جديد ان عاجلا أو آجلا بعمل صامت يتمثل فيه كل غفرانها واستسلامها •

ابتسمت جوليانا وبدت غمامة من الحزن والألم على وجهها الكثير الشحوب وفى عينيها الغائرتين •

وهنا سألتها بعد أن دنوت منها قائلا :

ـ ألا تشعرين بشىء طفيف من التحسن بعد أن جئت الى هنا ؟

فأجابتنى قائلة :

ـ نعم نعم اننى أشعر بشىء من التحسن •

وبعد فترة سكون سألتنى قائلة :

ـ وأنت كيف حالك ؟

ـ اننى شفيت والحمد لله ، ألا ترين ؟

ـ نعم حقا ، شفيت ٠

وعندما كانت تتحدث الى فى تلك الأيام كانت تكلمنى فى شىء كثير من اللطف والحنان الذى يستحيل على أن أصفه الآن ٠ كان يبدو لى دائما أنها تبذل جهدا كبيرا فى منع الكلمات من الخروج من شفتيها لكى تقول كلمات أخرى تختلف معها كل الاختلاف ٠

وفضلا عن هذا فان صوتها كان ـ ان جاز لنا مثل هذا التعبير ـ أكثر أنوثة ، وكان صوتها قد فقد شيئا من طلاقته وجانبا من رنينه ٠ فكان أشبه برنين الآلات الموسيقية التى فقدت رنينها ، ولكن بما أنها كانت فى جميع عباراتها التى توجهها الى كثيرة الرقة ٠ اذن فما الذى يمنعنا من أن يعانق بعضنا البعض ؟ وما الذى وضعته تلك الفترة من الزمن بينى وبينها ؟

كان عنادى الغريزى فى تلك الفترة التى سوف تبقى خالدة فى تاريخ نفسى كأنها سر من الأسرار يبدو كأنه تلاشى وأصبح أثرا بعد عين ٠ وكانت جميع طاقاتى التحليلية الشديدة ـ وهى التى كثيرا ما سببت لى الكثير من الضيق والحسرة ـ تبدو كأنها نفدت وكأن قدرة امكانياتى المضطربة تحطمت وكانت مختلف الأحاسيس والمشاعر التى لا حصر لها ولا عد والتى كنت أشعر بها فى ذلك الوقت قد أصبحت الآن لا أفهم لها معنى أو أجد لها تعليلا لأننى لم أجد هناك من يرشدنى الى أصلها ومبعثها حتى يتسنى لى أن أحدد طبيعتها ٠

كان هناك تقطع وعدم امتزاج بين تلك الحقبة من حياتى وما عداها من الحقب الأخرى ٠

سمعت فى ذات مرة من يروى فى قصة من القصص الخرافية أن أميرا شابا بعد أن قام برحلة طويلة مليئة بالمغامرات والمخاطر وصل فى نهاية المطاف الى حيث كانت المرأة التى كان يبحث عنها فى شىء كثير من الحماس والاهتمام كان الشاب يرتعد من شدة الوجد اليها بينما كانت المرأة تبتسم له عن كثب

ولكن كان هنـاك خمار يجعل المـرأة المبتسمة بعيدة المنال • وكان هـــذا الخمار مصنوعا من مادة مجهولة • وكان رقيقا الى حد كبير ، حتى أنه كان يختلط بالهواء ، ومع ذلك فان الشاب لم يستطع أن يضم محبوبته من خلال ذلك الخمار •

وهذه الصورة ساعدتني قليلا على أن أتصــور حالتي التي كنت فيها ازاء جوليانا وكنت أشعر بأن هناك شيئا لا أعرف كنهه هو الذى يبقى بينى وبينها هذه الفرقة ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت أثق كل الثقة بالعمل الصامت البسيط الذى يجب أن يحطم العقبات ويجعلني سعيدا ان عاجلا أو آجلا •

لشد ما كانت تعجبنى غرفة جوليانا فى تلك الأثناء اذ كانت مفروشــة ببساط فاتح اللون قديم العهد الى حد ما مزركش بأزهار مختلفة الألوان وبها جناح داخلي •

ما أعظم ما كانت تعطرها رائحة تلك الورود البيضاء •

قالت لي وقد ازداد شحوب وجهها :

ـ ان هذه الرائحة شديدة تصدع الرأس • ألا تشمها ؟

وذهبت نحو احدى النوافذ لكى تفتحها ثم أردفت قائلة :

ـ يا ماريا نادى على الآنسة « ايدينت » •

وهنا حضرت الوصيفة فقالت لها :

ـ أرجوك يا « ايديت » أن تحملى هذه الزهور الى غرفة البيانو وأن تضعيها فى الأصص وحاذرى من أن تؤذيك •

وقد حلا لكل من « ماريا وناتاليا » أن تحمـلا جزءا من الحزمة ، فبقينا وحدنا ولكنها اتجهت مرة أخرى نحو النافذة واتكأت على جلسـتها وأدارت كتفيها للضوء •

وعندئذ قلت لها :

هل لديك ما تعملينه أتريدين مني أن أنصرف من هنا ؟

ـ لا · لا · ابق كما تريد واجلس وقص على أنباء النزهة التى قمت بها فى هذا الصباح الى أى جهة وصلت ؟

ولقد نطقت بهذه العبارات فى شىء كثير من السرعة ·

ولما كان حاجز النافذة بارتفاع كليتيها فقد وضعت مرفقيها على جلستها ومالت بجذعها الى الخلف بحيث دخل فى مستطيل النافذة · أما وجهها الذى كان متجها نحوى بكليته فقد امتلأ بالظلال وخاصة فى محاجر عينيها ولكن شعرها الذى كان الضوء يغمره كله كان يتكون منه ما يشبه الهالة الصغيرة· وهكذا الحال بالنسبة لكتفيها فانهما كانتا يغشاهما الضوء وكانت احدى قدميها التى كانت تعتمد عليها بثقل جسمها أكثر من الأخرى تبرز من طرف ثوبها بحيث كان يبدو ظاهرا جزء من جوربها الرمادى اللون وحذاؤها اللامع ، وكان لشكلها فى هذا الوضع وتحت هذا الضوء قدرة خارقة على الاغراء والفتنة ، وكان جانب من مناظر الريف الخلابة يبدو واضحا من جانبى النافذة ومن خلف رأس جوليانا ·

وعندئذ حدث فجأة أننى رأيت فيها فى لمح البصر المرأة المشتهاة فاشتعلت فى دمى ذكرى المداعبة والرغبة فيها وكنت أتحدث اليها وأنا أحدق فيها وكنت كلما ازددت نظرا اليها ازداد احساسى بالاضطراب ·

ومما لاشك فيه أنها قد رأت ذلك وتبينته فى نظراتى وذلك لأن القلق قد ظهر على وجهها واضحا جليا ·

فقلت لنفسى وقد شعرت بشوق شديد نحوها :

ـ هل أجرؤ ؟ هل أتقدم نحوها وآخذها بين ذراعى ؟

ولكن الصراحة الواضحة التى كنت أحاول أن أودعها فى أحاديثى الطائشة زايلتنى فاضطربت أيما اضطراب · وقد أصبح هذا الضيق الذى أشعر به شيئا لا يحتمل ·

كانت تصل من الغرف المجاورة أصوات كل من « ماريا وناتاليا » والآنسة « ايديت » غير واضحة ·

نهضت من مكانى واقتربت من النافذة ووقفت الى جانب جوليانا وأوشكت أن أنحنى فوقها لكى أنطق بتلك الكلمات التى طالما تحدثت بها بينى وبين نفسى فى بعض الأحاديث الوهمية • ولكن خوفى من احتمال مقاطعتها لحديثى كان يمنعنى من الكلام وفكرت فى أن هذه اللحظة ربما لم تكن مواتية آنذاك وأننى ربما لا أجد الوقت الكافى لكى أقول لها كل شىء وأن أفتح لها كل قلبى وأن أقص عليها قصة حياتى النفسية فى هذه الأسابيع الأخيرة وقصة نقاهة نفسى الغريبة ويقظة أدق مشاعرى وازدهار أحلامى الحلوة وعمق أحاسيسى الجديدة واصرار آمالى وعنادها •

فكرت فى أننى قد لا أجد الوقت الكافى لأن أقص عليها أدق الأحـداث التى مرت بى أخـيرا ولكى أدلى اليها بجميع اعترافاتى البريئة التى تتلذذ بسماعها المرأة التى تحب تلك الاعترافات المليئة بالحقائق والتى هى أبلغ من كل فصاحة وأكثر اقناعا من كل بيان •

وكان لزاما على فى الواقع أن يكون فى مقدورى اقناعها بأمر عظيم لا يمكن تصديقه أو على الأقل بالنسبة لها بعد كثير من الضلال والأوهام وأن أستطيع اقناعها بأن عودتى اليها ليست على سبيل الخداع ولكنها عودة مخلصة ونهائية اقتضتها حاجة حيوية لكيانى بأكمله •

ومما لاشك فيه أنها كانت لا تزال لا تثق بى •

ويقينا أن السبب فى مسلكها وتحفظها هذا يرجع الى عدم ثقتها بى •

وكان لا يزال يحول بينى وبين جوليانا طيف ذكرى اليمة يجب على أن أطارد ذلك الطيف وأن أضم نفسى الى نفسها مرة ثانية وأوثق بينهما بأوثق العرى بحيث لا يستطيع أى شىء أن يحول بينهما • ولكن هذا كان يجب أن يحدث فى فرصـة مواتية وفى مكان خفى يسوده السكون لا تقيـم فيه الا الذكريات ألا وهو « فيلا ليللا » •

كان كلانا يلتزم الصمت فى تلك الأثناء ونحن واقفان أمام فراغ النافذة وكل منا الى جانب الآخر وكانت تصل الى من الغرف المجاورة أصوات كل من « ماريا وناتاليـا » والآنسة « ايديت » غير واضـحة وكانت رائحة الورود

البيضاء قد تبددت وكانت الستائر تتدلى من قبو مقصورة غرفة النوم تسمح بروية السرير القائم فى آخرها ، ذلك السرير الذى كثيرا ما كانت عيناى تتطلعان اليه فى شئ من اللهفة •

كانت جوليانا قد طأطأت رأسها ربما لأنها تشعر هى الأخرى بثقل السكون وألمه • وكان النسيم العليل يداعب فوق صدغها خصلة من خصل شعرها المتهدلة • وكان اضطراب تلك الخصلة الجامحة القاتمة اللون التى تبدو بعض شعراتها تحت أشعة الشمس كأنها خيوط من الذهب الابريز فوق هذا الصدغ الشاحب • كان ذلك الاضطراب يجعلنى أتألم أشد الألم ، وعندما كنت أنظر اليها كنت أرى ثانية على رقبتها تلك الشامة السمراء التى كانت فى كثير من المرات فى أوقات أخرى تبعث على الاغراء •

ولما لم يكن فى وسعى الصبر أكثر من ذلك رفعت يدى وأنا بين عاملين عامل الخوف وعامل الجرأة لكى أزيح عن خدها تلك الخصلة • ولمست أصابعى المرتعدة رأسها وأذنها وجيدها ولكن ذلك كان لمسا خفيفا على سبيل المداعبة البسيطة •

وهنا قالت لى جوليانا وقد انتفضت انتفاضة شديدة وألقت على نظرة ذاهلة وهى ترتعد ارتعادا شديدا :

ـ ماذا تفعل ؟

ثم ابتعدت عن النافذة •

وعندما شعرت بأنى أتبعها أسرعت الخطى كأنها تريد الفرار وهى لا تلوى على شىء •

وهنا توقفت عن ملاحقتها وصحت بها قائلا :

ـ ولكن لماذا كل هذا يا جوليانا ؟

وأسرعت بالقول :

ـ حقا اننى لست حتى الآن جديرا بك •• سامحينى واصفحى عنى •

فى تلك اللحظة أخذ جرسا الكنيسة يدقان دقا متواصلا وأسرعت « ماريا

وناتاليا » الى الغرفة نحو والدتهما وهما تصيحان من فرط البهجة والسرور وتعلقت الواحدة منهما تلو الأخرى بعنقها وغمرتا وجهها بقبلاتهما • وبعد أن فعلتا ذلك بعمهما انتقلتا الى وقد رفعتهما الواحدة بعد الأخرى بين ذراعى•

كان الجرسان يدقان بسرعة ، ويبدو أن الضيعة بأكملها اجتاحها رنين البرونز • وكان ذلك فى يوم السبت المقدس فى ساعة القيامة •

* *

ــ ٤ ــ

فى عصر يوم السبت المذكور أحسست بشىء كثير من الحزن لا عهد لى بمثله من قبل •

كان البريد قد وصل الى الضيعة وكنت أنا وأخى نتصفح الجرائد على عجل ونحن جلوس فى ردهة البلياردو فوقع نظرى بطريق المصادفة على اسم « فيليو اربوريو » ورد فى أحد الأخبار المحلية • فسرعان ما استولى على الاضطراب الشديد • وهكذا قلبت صدمة بسيطة كيانى رأسا على عقب •

وأذكر أن ذلك حدث فى عصر يوم امتلأت سماؤه بالغيوم وبدأ النور فيه ضئيلا ومرت جوليانا وأمى وكل منهما تتأبط ذراع الأخرى وأخذتا تتجاذبان أطراف الحديث وهما خارج الباب الزجاجي المؤدى الى الساحة وكانت جوليانا تحمل فى يدها كتابا وتسير الهوينى وبدت عليها امارات التعب •

تبادرت الى خاطرى صور بعض أحداث الماضى كما تتابع الصور التى يراها النائم فى أحلامه • وهأنذا أرى جوليانا وهى واقفة أمام المرآة فى يوم من أيام شهر نوفمبر وأرى باقة الليلك الأبيض وأشعر بتلهفى على سماع أنشودة « أورفيو » وأرى ثانية الكلمات المكتوبة على الصفحة الأولى من كتاب «السر» ولون الثوب الذى كانت ترتديه جوليانا والحديث الذى كنت أتحدث به الى نفسى وأنا واقف أمام النافذة ووجه « فيليو اربوريو » وهو يتصبب عرقا ومنظر غرفة خلع الملابس فى نادى السلاح وقلت فى نفسى وأنا أرتعد فرقا وجزعا كمن وجد نفسه فجأة ينحني علي شفة هاوية :

ـ « هل أستطيع اذن الا أنقذ نفسي » ؟

واذ استبد بى الجزع والقلق أيما استبداد وكنت فى حاجة الى الاختلاء بنفسى لأسبر أغوارها وأمعن النظر فى أمارات الخوف البادية على محياى فقد حييت أخى وغادرت القاعة ودلفت الى غرفتى ، وكان اضطرابى مزيجا من نفاد الصبر والغضب شأنى شأن من يحس على حين غرة ـ وهو فى نشوة الابلال الواهم من مرضه وفى غمرة شعوره بالاطمئنان بالحياة من جديد ـ بتأنيب الضمير على ما اقترفه فيما مضى من آثام ويدرك أنه ما زال يحمل فى جسده بذور الشر المتأصلة ويرى لزاما عليه أن يلاحظ نفسه ويعيد النظر فى مسلكه حتى يقتنع بالحقيقة المرة المريعة ، وكنت أقول لنفسى :

ـ هل أستطيع اذن ألا أنقذ نفسى ؟ ولكن ترى لماذا ؟

فى ذلك النسيان العجيب الذى غاصت فى لجته كافة الأشياء التى حدثت فى الماضى وفى ذلك النوع من الظلمة التى كان يبدو أنها بلغت شغاف قلبى واحتوت جزءا كبيرا من ضميرى تبددت أيضا تلك الشكوك البغيضة التى كانت تساورنى ازاء جوليانا وأصبحت أثرا بعد عين وكانت نفسى فى حاجة ماسة وشديدة الى الأمل والايمان والتمرغ فى الأوهام وأضغاث الأحلام وكانت أمى ـ حسبما كان يتراءى لى ـ تحيط رأس جوليانا بهالة من النور والمجد حينما كانت تمسح بيدها المباركة على شعر رأس زوجتى . وعندما كنت أرى هاتين المرأتين على مثل هذا الوفاق التام كنت بسبب احدى نزواتى العاطفية أجد فيهما المثل الأعلى للطهر والعفاف . وأصبح الآن أى حادث عرضى غير ذى موضوع ومجرد اسم امرأة عن طريق المصادفة فى احدى المذكرات ويقظة ذكرى مزعجة أليمة ـ فيها ما يكفى لازعاجى وقلب كيانى رأسا على عقب ولاثارة دهشتى ويجعلنى أقف على شفة هاوية سحيقة لم أكن أجرؤ على أن ألقى عليها نظرة فاحصة ثاقبة وذلك لأن السعادة التى كنت أحلم بها كانت تحول بينى وبين ذلك وتجعلنى أرتد الى الوراء وأنا أكثر استمساكا بنفسى وأشد اعتزازا بها . وكنت بادىء ذى بدء أسبح فى بحر قاتم من الهموم لا يمكن وصفه كانت تسطع فوقه بين الفينة والفينة بروق مخيفة وكنت أسائل نفسى قائلا :

هل من الممكن ألا تكون جوليانا امرأة عنيفة طاهرة الذيل ؟ واذن فما

شأن « فيليو اربوريو » أو أى انسان آخر ؟. من يدرى ؟. وهل اذا عرفت خطيئتها يكون فى وسعى الصفح عنها ؟ . ولكن أية خطيئة وأى صفح ؟

وكنت أقول لنفسى :

ـ انك ليس لك الحق فى محاكمتها وليس لك أى حق فى أن ترفع صوتك بأية كلمة . طالما سكتت . وفى هذه المرة يتحتم عليك أنت أن تلتزم الصمت . ولكن أين السعادة ومن لى بها ؟ هل تحلم أنت بسعادتك وحدك أو بسعادتكما أنتما الاثنان ؟ يقينا انك تحلم بالسعادة لكليكما وذلك لأن انعكاسا بسيطا لأحزانها كفيل بأن يجلل بالسواد كل بهجة تحس بها . انك تفرض أنك اذا ما كنت جذلا لابد أنها ستكون هى الأخرى جذلة مسرورة وسيكون فرحك بماضيك الحافل بالمباذل وأما هى فبماضيها الملىء بالتضحيات. ان السعادة التى تحلم بها تعتمد كلها على نسيان الماضى واذا لم تكن عفيفة حقا فلم لا تستطيع أن تضع قناعا أو حجرا على خطيئتها كما وضعته على خطيئتك ؟ ولماذا تريد أن تجعلها تنسى خطاياك ولا تنسى أنت خطاياها ؟ اذا كانت قد أخطأت ؟ لماذا تريد أن تكون رجلا جديدا لا شأن لك مطلقا بماضيك دون أن تنظر اليها كامرأة جديدة وفى موقف مثل موقفك وان تفرقة مثل هذه لابد أن تكون أقبح ظلم من مظالمك ـ ولكن أين المثالية ؟ تلك المثالية التى كنت أتمثلها فى شخصها ؟ ان سعادتى الكاملة لابد أن تتحقق عندما أستطيع أن أرى فى جوليانا مخلوقة متسامية معصومة من الخطأ جديرة بالحب والاخلاص والعبادة . ولابد أن تشعر هى الأخرى فى هذا التسامى الجليل وفى تلك العظمة الأخلاقية بأكبر جانب من جوانب سعادتها ، انى لن استطيع أن أتخلص من ماضى ولا من ماضيها . وذلك لأن هذه السعادة الخاصة لا يمكن أن تكون بمنأى عما شاب حياتى الماضية من شقاوة وعربدة وعن تلك البطولة الحقة والتى تكاد تكون فوق مستوى البشر والتى كانت نفسى تنحنى دائما أمامها . ولكن أتدرى مقدار ما فى حلمك هذا من بطولة وما فيه من سمو مثالى ؟ وهل من الممكن أن تكون جديرا بهذه السعادة وهذه المنحة العظيمة ؟ ولأى امتياز تستحق ذلك ؟

وعلى هذا فان خطاياك الكثيرة تكون قد قادتك لا الى الاستغفار ولكن الى المكافأة .

انتفضت انتفاضة شديدة لكى أقطع ذلك الحديث الذى كان يدور بينى وبين نفسى ثم قلت لنفسى :

– ان الأمر فى جملته لايتعلق الا بشك قديم ، بشك يكتنفه الغموض وقد ظهر ثانية بطريق المصادفة • وان انزعاجك الذى لا مبرر له سوف يتبدد ويصبح أثرا بعد عين • اننى واهم وأجرى وراء الخيال • لسوف نذهب بعد يومين أو ثلاثة أيام بعد عيد الفصح الى « فيلا ليللا » وهناك سوف أعلم ، علم اليقين حقيقة الأمر ، ولكن ألا يدعو ما يبدو فى عينيها من كآبة شديدة وحزن عميق الى شيء من الريبة ؟ وألا يدعو الى الريبة أيضا ما يبدو على وجهها من امارات الذهول وعلى عينيها من آثار تفكيرها المستمر وذلك التعب الذى تنم عليه بعض حركاتها وتلك اللهفة التى لا تستطيع اخفاءها عندما تقترب منها • ان مثل ذلك الغموض وتلك المظاهر من الممكن تأويلها تأويلا حسنا ومع ذلك فاننى وقد استبدت بى موجة عارمة من موجات الحزن والألم وقفت على قدمى واتجهت نحو النافذة رغبة منى فى الاستغراق فى ذلك المنظر الخارجى لعلى أجد فيه ما يريح أفكارى أو يفرج من كربتى أو أجد فيه الهاما جديدا أو تهدئة لخواطرى •

كانت السماء كلها مجللة بالبياض أشبه ما تكون بمجموعة من قلاع السفن المشرعة تحيط بها الرياح من كل جانب وتحدث فيها ثنيات كبيرة ومتغيرة ، وكان بعض هذه القلاع يبدو من آن لآخر وكأنه يكاد ينفصل من مكانه ويقترب من الأرض ويكاد يكتسح رؤوس الأشجار ويتمزق ويستحيل الى أشرطة متساقطة ويرتعد على وجه الأرض ثم لا يلبث أن يتلاشى • وكانت تلك الخطوط البيضاء تتجه من المرتفعات على مدى البصر الى وجهة غير معينة ثم تتفرق ثم لا تلبث أن تتجمع ثانية وهى تسير على أبعاد وهمية وتبدو كأنها بلدة يراها الانسان فى أحلامه وهى أبعد ما تكون عن الحقيقة • كانت هناك ظلال عمودية تغمر الوادى وكان نهر « أسورو » يبعث فيه الحياة من ضفتيه غير المنظورتين بأنواره المتلألئة • وكان ذلك النهر الملتوى البراق فى ذلك الخليج الظليل والذى تظلله سحب السماء التى تتحلل باستمرار يلفت الأنظار وكان يتراءى للناظر اليه كأنه شيء من الأشياء الرمزية الفاتنة • اذ كان يبدو كأنه يحمل فى جنباته المعنى الخفى لذلك المنظر الذى يجل عن كل وصف •

وهكذا أخذ ألمي يفقد حدته رويدا رويدا وأصبح يسيرا • وكنت أقول لنفسي :

ـ لماذا تتطلع بشيء كثير من الشوق الى تلك السعادة التي لست أهلا لها ؟ ولماذا تثق ثقة عمياء بميزة من الميزات لا وجود لها ؟

ربما كان الناس جميعا يلقون أثناء حياتهم نقطة حاسمة يستطيع أكثرهم حنكة أن يفهموا فيها قيمة حياتهم • وانك تجد نفسك الآن في هذه النقطة وعليك أن تتذكر تلك اللحظة التي ارتعدت فيها في الهواء نحوك تلك اليد البيضاء الناصعة المخلصة والتي كانت تحمل الحب والتسامح والسلام والحلم والنسيان وكل ما هو جليل وكل ما هو حسن ، كما لو كانت تقدم اليك أسمى عطاء •

ملأ الحزن والأسى قلبي بالدموع ، واتكأت بمرفقي فوق جلسة النافذة وأسندت رأسي الى كفي وأخذت أدقق النظر في صفحة هذا النهر في آخرذلك الوادي السحيق بينما كانت سحب السماء تتبدد دون توقف وبقيت بضع دقائق وأنا مهدد بعقاب عاجل وشعرت بأنني ستنهال على رأسي كارثة مجهولة •

ولما تناهى الى سمعي من الغرفة السفلى أنغام البيانو على غير انتظار • فان ذلك الحزن سرعان ما اختفى دفعة واحدة وقد حركني شوق غامض اختلطت فيه كل أحلامي وجميع رغباتي وآمالي وحسراتي ومخاوفي بسرعة خاطفةودفعة واحدة • عرفت هذه الأنغام الموسيقية اذ كانت دورا موسيقيا بدون كلمات كانت تفضله جوليانا وكثيرا ما كانت الآنسة ايديت تقوم بعزفه • كانت نغماته من تلك الأنغام المحزنة الغامضة العميقة في وقت ما يبدو فيه أن النفس توجه الى « الحياة » بنبرات متغيرة هذا السؤال :

ـ لماذا خيبت آمالي ؟

فاستسلمت لدافع غريزي وسرعان ما خرجت وعبرت الدهليز وهبطت درج السلم وتوقفت أمام باب الغرفة التي كانت تصدر النغمات عنها • كان الباب مورويا وتسللت منه دون أن أحدث أية ضجة ونظرت من خلال فتحات ستائره وكنت أقول لنفسي :

ـ ترى هل جوليانا موجودة فيها ؟

على أن عينى المملوءتين بالضوء لم تريا شيئا بادىء ذى بدء قبل أن تتعودا على الظلام • ولكن صدمتنى تلك الرائحة الشديدة التى كانت تنبعث من الورود البيضاء وذلك العبير المملوء بالبخور واللـوز المر • فنظرت وكانت الغرفة مضاءة بنور خافت ينبعث من بين الأعواد المحيطة باحدى الثريات ، وكانت الآنسة « ايديت » بمفردها أمام أصابع البيانو تستمر فى عزفها دون أن تفطن الى وجودى ، وهيكل البيانو يلمع فى الظل وكانت أعواد الزهور تظهر بوضوح بلونها الأبيض الناصع • ولقد بدت لى هذه المعزوفة وسـط هذه المجموعة الهامة ووسط عبير أعواد الزهور الفياحة التى كانت تذكرنى بنسيم الصباح المنعش وبابتسامة جوليانا وبرعدتى ـ مؤثرة ومحزنة الى أبعد الحدود •

ولكن ترى أين كانت جوليانا ؟ هل صعدت ؟ ألا تزال فى الخارج ؟

وعندئذ عدت أدراجى وهبطت بقية الدرج واخترقت الردهة دون أن ألتقى بانسان • كنت أشعر بحاجة ملحة للبحث عنها والى رؤيتها • وأعتقد أن مجرد رؤيتها كفيل بأن ينزل السكينة فى قلبى ويعيد الثقة الى نفسى • وعنـدما خرجت الى الساحة لمحت جوليانا أسفل الخيمة بصحبة شقيقى « فيديركو » وقد ابتسم لى كلاهما • وقال لى أخى وهو يبتسم عنـدما صرت عـلى مقربة منه :
ـ كنا نتحدث عنك • ان جوليانا تعتقد أنك لابد أن تتضايق من بقائك فى الضيعة • فماذا الحال فيما يتصل بمشروعاتنا اذن ؟

وعندئذ أجبته وأنا أحاول أن أظهر عدم اكتراثى المعتاد قائلا :

ـ لا ! ان جوليانا لا تعرف هذه الأمور •

ـ ولكنك سوف ترى • أننى على العكس من ذلك ضقت ذرعا بمدينةروما• وبكل أمر آخر •

كنت أنظر الى جوليسانا وحـدث تغيير عجيب فى قرارة نفسى وذلك لأن الأشياء المحزنة التى أرهقتنى حتى هـذه الساعة ذهبت الى أسـفل سافلين

وغشيها الظلام وأخذت تتبدد وتركت مكانها لذلك الشعور الطيب الذى كان مجرد رؤيتى لوجهها ولوجه أخى كافيا لاثارته فى نفسى • وكانت جوليانا جالسة ومنطوية على نفسها وهى تضع فوق ركبتيها كتابا سرعان ما تبينته وهو الكتاب الذى كنت أعطيتها اياه منذ أيام قلائل وهو كتاب « الحرب والسلم » • وكان كل شىء فيها فى الحق سواء فى حركاتها أو فى نظراتها لطيفا وجميلا • ولذلك سرعان ما نبت فى نفسى شىء مماثل لذلك الشعور الذى كنت أود أن أشعر به اذا كنت قد رأيت فى ذلك المكان نفسه — اسفل تلك الخمائل المعتادة التى تناثرت من فوقها أزهارها الذابلة — شقيقتى « كوستانزا » اليافعة المسكينة الى جانب شقيقى « فيديركو » • وكانت الخمائل تقذف بأزهارها التى لا حصر لها ولا عد عند كل هبوب للرياح • ومنظرها فى ضوء النهار أشبه ما يكون بهطول أشرطة شفافة رقيقة فى بطء واستمرار • وتتطاير فى الهواء وتتردد وترتعد كأنها أجنحة صغيرة من أجنحة الفراشات ذوات اللون الأخضر والأشقر والتى تبدو أمام الناظر بسبب استمرارها وخنقها كأنها أنوار براقة وكانت جوليانا تتلقاها فوق ركبتها أحيانا وفوق أكتافها أحيانا أخرى بين الفنية والفنية تقوم بحركة ضعيفة لكى تنتزع بعض هذه الزهرات التى تكون تغلغلت فى خصل شعرها المتهدلة على صدغيها • وكان « فيديركو » يقول وهو متجه نحوها :

— لو بقى « توليو » فى الضيعة لقمنا بعمل أشياء عظيمة ولكنا أصدرنا قوانين الاصلاح الزراعى الجديدة ووضعنا أسس الدستور الزراعى •• هل تبتسمين ؟

لسوف يكون لك أنت أيضا دور فى مهمتنا تقومين بأدائه • لسوف نجعلك تتولين الاشراف على تطبيق وصيتين أو ثلاثا من « وصايانا العشر » وتعملين أنت أيضا • قل لى يا « توليو » بهذه المناسبة متى تبدأ التعلم والتمرين ؟ ان يديك لا تزالان بضتين • ان وخزات بعض أشواك الورود لا تكفى ••

كان أخى يتحدث بمرح بصوته الرنان ونبراته القوية التى تبث فى نفس من يسمعها شعورا بالاطمئنان والثقة • وكان يتحدث عن مشروعاته القديمة والحديثة حول تفسير القوانين المسيحية الأولية الخاصة بالعمل الغذائى •

ويتسم حديثه بعمق الشعور وجدية الفكر ويفيض بمرح الشباب الذى كان أشبه شيء بقناع من التواضع أسدله هو بنفسه على ما كان يبديه من يسمعه من عبارات الدهشة والعجب والاطراء · فكل شيء فيه يبدو بسيطا يسيرا وطبيعيا · وهذا الشاب بفضل قوة فكره الذى ينير له الطريق وطيبته الغريزية قد خطرت بباله منذ عدة سنوات تلك النظرية الاجتماعية التى أوحى بها الى الفيلسوف الروسي « ليونى تولستوى » « موجيك » « تيموتيو بونداريف »· ولم يكن فى ذلك الوقت يعرف كتاب « الحرب والسلم » الذى كان قد ظهر آنذاك فى الغرب ·

قلت له وأنا آخذ الكتاب من فوق ركبتى جوليانا :

ـ ها هو ذا كتاب أعطيه اليك · فسألها :

ـ نعم اذا أعطانيه فلسوف أقرأه ·

قالت :

نعم لشد ما أعجبنى أن هذا الكتاب محزن ومسل فى وقت معا · اننى أيضا أحب « ماريا بولكونسكى » وكذلك « بيترو بيسوكهاو » ·

وجلست الى جانبها على المقعد وكان يبدو لى أننى لا أفكر فى شيء وليست لدى أفكار معينة · ولكن نفسى كانت تتيقظ وتتأمل · وكان هناك تعارض واضح بين الشعور الذى كنت أشعر به فى هذه اللحظة والأشياء المحيطة بى وبين الشعور الذى يتمثل فى أحاديث « فيديريكو » وفى ذلك الكتاب وفى أسماء الشخصيات التى كانت جوليانا تحبها · وكانت الساعات تسير الهوينى وفى بطء وهى تكاد تكون متأكدة فى ذلك البخار المضطرب الأبيض الذى كانت الخمائل تتخلى عن زهورها من خلاله رويدا رويدا · انغام البيانو تصل كأنها قطع من النار ولا يستطيع أحد فهمها مما يزيد من كآبة الضوء وتهدى من كثافة الهواء ·

وفتحت ذلك الكتاب دون أن اسمع شيئا وأنا مستغرق فى تفكيرى وأخذت أتصفحه من هنا ومن هناك ولمحت رؤوس بعض الصحف كما لاحظت أن بعض الصفحات ثنيت من أركانها كما لو كان من قام بثنيها يريد أن يرجع اليها فيما بعد · كما لاحظت أيضا أن بعض الصفحات الأخرى ظهرت على هوامشها

آثار الضغط عليها بظفر انسان حسب ما اعتادته قارئة الكتاب • وأردت أن اقرأ هذه الصفحات فى ذلك الوقت يدفعنى الى ذلك حب الاستطلاع وأنا أكاد أكون فى لهفة شديدة • وقد لاحظت أيضا أن عبارات كثيرة وردت فى الحوار بين « بيتروبيسوكهاو » وبين الشيخ المجهول فى جهة « توربوك » ووضعت تحتها بعض الاشارات • وهى :

« ان نظراتك الفكرية تنعكس على كيانك الداخلى • وعليك أن تسأل نفسك عما اذا كنت مسرورا من نفسك والى أية نهاية وصلت وأنت لم تجد لك مرشدا سوى فكرك وعقلك • انك لا تزال فى ميعة الصبا كما أنك تتمتع بثروة طائلة • وانك على جانب كبير من الذكاء ماذا فعلت بكل هذه المواهب؟ هل أنت مسرور من نفسك ومن حياتك ؟ » •

ـ لا ! اننى أمقت حياتى •

ـ واذا كنت تمقت حياتك • فما عليك الا أن تغيرها • وأن تتطهر من آثامك واذا ما غيرت حياتك فانك سوف تتعلم الحكمة وتعرف كيف قضيت هذه الحياة ؟

ـ لقد قضيتها فى الخلاعة والمجون والفجور • وأخذت من المجتمع كل شىء دون أن تعطيه شيئا ، كيف أنفقت الأموال التى آلت اليك وماذا فعلت بها ؟ ماذا قدمت للناس ؟ هل فكرت فى آلاف الخدم الذين يخدمونك ؟ هل قدمت لهم أية مساعدة أدبية أو مادية ؟ لا أليس كذلك ؟ انك أوفدت من تعبهم لكى تعيش عيشة كلها فساد ، هل حاولت أن تعمل شيئا من أجل مصلحة أهلك وذويك ؟ لقد عشت عيشة كسل وخمول ثم تزوجت وقبلت تحمل مسئولية ارشاد امرأة شابة • ولكن ماذا فعلت ؟ انك لابد من أن ترشدها الى سواء السبيل وطريق الحق ألقيت بها فى هاوية الكذب والتعاسة » •

ثقلت هذه الأفكار على كاهلى من جديد وسحقتنى سحقا • وكان ذلك عذابا أشد من ذلك العذاب الذى تحملته فيما مضى وذلك لأن وجود جوليانا واقترابها منى كان يزيد اضطرابى •

ان هذه الفقرة المذكورة كان مؤشرا أمامها باشارة واحدة • وليس ثمة شك فى أن جوليانا وضعت هذه الاشارة وهى تفكر فى شخصى وفى خطاياى ولكن

هل يشير السطر الأخير الينا نحن الاثنين ؟ هل كنت أنا الذى ألقيتها في هاوية الكذب والتعاسة فترددت هى فيها ؟

كنت أخشى أن تسمع هى و « فيديركو » دقات قلبى ٠

كانت هناك صحيفة ثانية قد طوى أحد أطرافها ٠ وكان على هامشها خط واضح أمام الأسطر التى تتحدث عن موت الأميرة « ليزا » فى « ليسى جورى » ٠

كانت عينا الأميرة الميتة مسبلتين ولكن وجهها النحيل لم يبد عليه أى تغيير ويبدو أنها تقول دائما :

ـ ماذا فعلت بى ؟ ولم يكن الأمير « اندريا » يذرف دمعة واحدة ولكن يشعر بأن قلبه يتمزق عندما كان يفكر فى أنه كان جانيا ومرتكبا لأخطاء لا يمكن اصلاحها أو نسيانها ٠

ولقد جاء أيضا الأمير الشيخ وقبل احدى اليدين الهزيلتين اللتين كانتا كأنهما قدتا من الشمع واللتين كانتا قد انضمتا احداهما فوق الأخرى وبدا أن ذلك الوجه الناحل كان يقول له باستمرار :

ـ ماذا فعلت بى ؟

ولقد لدغنى ذلك السؤال الرقيق المريع كما لو كانت قد لدغتنى احدى الحشرات القاتلة ٠ وعندما كنت أقرأ عبارة ماذا فعلت بى كنت أحدق بعينى فى هذه الصفحة من صفحات الكتاب دون أن أجرؤ على الالتفات للنظر الى وجه جوليانا بالرغم من أننى كنت فى غاية الشوق الى رؤيتها وكنت أخشى أن تسمع هى و «فيديركو» دقات قلبى فيستديران للنظر الى ويكتشفان اضطرابى وجزعى ٠

ولقد كان اضطرابى شديدا حتى انى كنت أعتقد أن سحنتى قد انقلبت واننى لا أستطيع الوقوف على قدمى أو النطق بكلمة واحدة ٠

ألقيت نظرة سريعة من طرف عينى على جوليانا وقد أحدث منظرها الجانبى أثرا شديدا فى نفسى حتى بدا لى أننى أراه باستمرار فوق صحيفة الكتاب الى جانب عبارة وجه الأميرة الميتة الناحل المسكين ٠

كان منظرا جانبيا مؤثرا جعله النظر اليه والتمعن فيه أكثر عبوسا كما جعلته الأهـداب الطويلة أشـد تجهما وكان يبـدو أن شفتيها المضمومتين والمنحرفتين تعبران دون قصد عما حل بها من تعب وحزن • وكانت تصف حديث أخي الذى كان صوته يرن مضطربا فى أذنى وكان يبدو لى أنه آت من بعيد ولو أنه كان قريبا منى كل القرب وكانت كل أزاهير الخمائل التى كانت تنهـال دون توقف • كل تلك الأزاهير الذابلـة والتى تكاد تكون أزهارا صناعية أو غير ميتة تبث فى نفسى احساسا لا أستطيع التعبير عنه، كما لو كان ذلك المنظر الطبيعى يحدث فى قرارة نفسى أثرا غريبا ، وكنت أشاهد تنقل تلك الأرواح الشفافة فى سماء مكنونة فى قرارة نفسى •

كانت الميتة والحية على السواء تقولان دون أن تحرك أية واحـدة منهما شفتيها :

ـ ماذا فعلت بى ؟ ماذا فعلت بى ؟

وهنا قالت لى جوليانا بعـد أن اتجهت نحوى وانتزعت الكتاب من بين يدى وأغلقته ووضعتـه مرة ثانيـة فوق ركبتيها فى شيء من نفـاذ الصبر والعصبية :

ـ ماذا تقرأ الآن يا توليو •

وبعد ذلك مباشرة قالت دون توقف كما لو كانت تريد ألا تجعـل لعملها أى مغزى :

ـ لمـاذا لا نذهب الى الأعلى عنـد الآنسة « ايديت » لعزف بعض الألحان الموسيقية ؟ انها تعزف الآن على ما يبدو لى معزوفة جنازة بطل : وهى التى يحلو لك سماعها يا « فيديريكو » •

وهنـا أرهفت السمع وأخـذت تصغى لهـذه المعزوفة وأخذ ثلاثتنا فى الانصـات •

ولقـد وصلت بعض المقـاطع الموسيقية الى آذاننا وسط هـذا السكون ولم تكن مخدوعة أو مخطئة فيما قالت • وأردفت قائلة وهي تهم بالوقوف على قدميها :

ـ هيا بنا اذن • أتأتيان معى ؟

وكنت أنا آخر من قام من مقعده وذلك رغبة منى فى أن أراها أمامى • ولم تهتم هى بنفض زهور الخميلة من فوق ملابسها تلك الزهور التى كانت قد فرشت حولنا فوق الأرض بساطا وثيرا والتى كانت تتساقط منها باستمرار كأنها المطر •

بقيت جوليانا فى مكانها واقفة على قدميها بعض لحظات مطأطئة الرأس لكى تنظر الى طبقة الزهور التى كانت تعبث بها وتكدسها على بعضها بمقدم حذائها الصغير ، بينما كانت تنهال عليها زهور وزهور أخرى دون هوادة • وكنت لا أرى وجهها • ترى هل كانت تقصد هذا الفعل التافه أو كانت مستغرقة في بحر من الحيرة والارتباك ؟

ـ ٥ ـ

وفى صبيحة اليوم التالى كان من بين حملة هدايا عيد الفصح الآخرين الذين حضروا الى الضيعة « كاليستو » الشيخ حارس « فيلا ليللا » وكان يحمل باقة كبيرة من أعواد الليلك الصابحة العطرة • يريد أن يقدمها هو بنفسه وبيديه الى « جوليانا » ليذكرها بأيام اقامتنا السعيدة فى الضيعة ويرجوها أن تقوم بزيارة له ولو لمدة قصيرة • وقال لها :

ـ انه يبدو لى أن السيدة كانت مسرورة كل السرور ومرحة الى أقصى حد هناك فى الضيعة فلماذا لا نعود اليها ؟ ان البيت لم يتغير فيه أى شيء وأصبحت الحديقة أكثر ازدهارا وأينعت ثمراتها كما استحالت أعواد الليلك الى ما يشبه الغابة ألا يصل العبير الى الضيعة عند المساء ؟ ان البيت والحديقة فى انتظار هذه الزيارة كما أن العشوش القديمة الموجودة تحت السقيفة مليئة بالعصافير واننا نزولا على ارادة سيدتى أبقينا على هذه العشوش واحترمناها احترامنا للأشياء المقدسة • ولكنها الآن قد أصبحت كثيرة العدد وأكثر مما يجب أن تكون • ويجب استعمال الجاروف فى كل أسبوع فوق الشرفات وفوق قواعد النوافذ • وياله من عمل شاق نقوم به من الفجر الى

غروب الشمس ! ومتى تتفضل سيدتى اذن بالمجيء الينا ؟ هل تحضر فى الحـال ؟

وهنا قلت لزوجتى جوليانا :

ـ أتريدين أن نذهب يوم الثلاثاء ؟

فأجابتنى فى شيء من التردد بينما كانت تجتهد فى تنسيق أعواد الليلك المفككة والتى كانت تكاد تخفى وجهها قائلة :

ـ نذهب اذن اذا أردت يوم الثلاثاء ٠

وعندئذ قلت للشيخ « كاليستو » بصوت ينم عن المرح والسرور دهشت له أنا أيضا لأنه كان طبيعيا وصادرا من صميم نفسى :

ـ نحضر اذن يوم الثلاثاء يا « كاليسو » انتظرنا فى صباح يوم الثلاثاء ٠ ولسوف تحضر معنا طعام الافطار معك ٠ لا يجب أن تقوم باعداد أى شيء ٠ هل فهمت ؟ دع المنزل مغلقا ٠ أريد أن أقوم أنا بنفسى بفتح بابه وافتح انا بنفسى النوافذ نافذة بعد نافذة ٠ أفهمت ؟

كان هناك مرح عجيب لا أعرف مصدره ولا مأتاه يهزنى هزا ويوحى الى بأعمال وألفاظ صبيانية تكاد تكون جنونية كنت أبذل قصارى جهـدى فى حبسها والامتناع عنها ٠ كنت أود أن أعانق « كاليسو » وأن أربت بيـدى على شعر لحيته البيضاء الجميلة وأن أمسك بذراعه وأتحدث اليه عن « فيلا ليللا » وعن الأشياء القـديمة وعن الأوقات التى قضيناها فيها فيما مضى وعشنا فيها عيشة رغدة تحت شمس الربيع العظيمة ٠ وكنت أقول لنفسى وانا أنظر اليه : هأنذا أجد أمامى رجلا ساذجا مخلصا قوى الجسم له قلب طاهر ! وشعرت مرة ثانية بأننى هدأ بالى واطمأنت نفسى كما لو كانت مودة ذلك الشيخ بالنسبة لى طلسما وحجابا ضد القدر ٠

ومرة ثانية بعد نهاية اليوم السالف انتعشت نفسى بما كان فى الهـواء من بهجة فائقة ٠ ذلك الهواء الذى يشع من جميع العيون ، ويصدر عن كل شيء ٠ وكانت الضيعة فى ذلك الصباح تبدو كأنها مقصد الحجيج لم يتأخر أحد من أهالى الناحية عن احضار هدايا وعن تقديم أطيب التمنيات ٠ كما أن والدتي تلقت على يديها المباركتين قبلات لا عد لها ولا حصر من الرجال

والنساء والأطفال وجمهورا غفيرا حضر الصلاة التى أقيمت فى الكنيسة التى امتلأت بالمصلين الذين لم يجد كثير منهم مكانا والذين وقفوا على عتبتها وفى الساحة التى أمامها ٠

أخذت أجراس الكنيسة تدق دقات متواصلة وكان رنينها أشبه ما يكون بالألحان الموسيقية ٠ وانتشر فى الجو الذى كان يغمره الهواء الدافىء وكانت مكتوبة على برج جرس الكنيسة هذه العبارة :

« ان الوقت الآن وقت مقبول وان اليوم يوم خلاص » ٠

وفى ذلك الصباح المجيد الذى كان يبدو فيه أن كل الدعوات تتصاعد نحو ذلك البيت العزيز كانت عبارة ، ان الوقت الآن وقت مقبول ، يرن صداها فى جميع الأرجاء ٠

كيف كنت أستطيع اذن أن أحتفظ فى قلبى بدناءة الشكوك والشبهات وبالخيالات النجسة غير الطاهرة والذكريات المزعجة ؟ وما الذى أستطيع أن أخشاه بعد أن رأيت أمى تطبع بشفتيها القبلات أكثر من مرة على جبين جوليانا الوضاح ؟ وبعد أن شاهدت أخى يشد بيده الفخورة الطاهرة على تلك اليد النحيلة الشاحبة التى كانت فى نظره كأنها يد شقيقته «كوستانزا» وقد عادت الى الحياة ؟ ٠

- ٦ -

شغلتنى فكرة السفر الى « فيلا ليللا » طوال ذلك النهار واليوم التالى باستمرار ٠

ومن المعلوم أن انتظار الساعة المحددة لأول لقاء مع الحبيب يسبب الشىء الكثير من الشوق واللهفة ٠

وكان أسوأ وقت قضيته فى الانتظار وشعرت فيه بكثير من الألم ورأيت فيه شر الأحلام وأقبحها هو يوم سبت النور السابق لعيد الفصح ٠ اذ كنت كثير القلق كثير الهذيان يستولى على ذلك الوهم الذى كلما أبعدته عن خاطرى عاد من جديد ٠ وكلما عملت على تبديه بدأ كما كان أول مرة ٠

كذلك كان الاضطراب الجنسى الذى تبعث عليه شـدة الرغبة والشوق الشديد يساعد على اعماء بصيرتى وتضليها •

وكنت أعتقد أننى لا أستطيع استعادة قلب جوليانا فحسب بل امتلاك جسدها أيضا • وقد أضيف الى ما كنت أشعر به من الشوق شىء كثير من الاضطراب •

كان اسم « فيلا ليللا » يثير فى نفسى أجمل الذكريات وأحر الأشواق ، كان لا يثير ذكريات الحب الخالص وحدها ، بل كان يثير أيضا تلك العواطف الملتهبة ولم يكن مدعاة للتنهد بل كان يجعلنى أرفع صوتى بالصراخ • وكنت قد جعلت أشواقى أكثر حدة وحطمت رغباتى بتلك الخيالات والتصورات التى ولدتها الشكوك والريب دون أن أفطن الى ذلك • وكنت أحمل فى قرارة نفسى تلك الجرثومة الخفية القتالة •

وفى الحق أنه كان قد ظهر فى نفسى حتى هـذه اللحظة ذلك التـأثر الفكرى ، واستولى على جميع مشاعرى •

وبينما كنت فى انتظار ذلك اليوم العظيم كانت قد جرت بينى وبين تلك المرأة التى كنت أريد ان أنال صفحها ورضاها أحاديث لطيفة بريئة كان لها أجمـل الوقـع فى نفسى • ولم أعد أرى الآن ذلك المنظر المؤثر بينى وبينها بقـدر ما أرى الآن منظر الاشـتهاء الذى كان يجب أن يكون نتيجة مباشرة لتلك الأحاديث •

كان الصفح يتحول فى أحلامى الى استسلام • كما كانت القبلة المرتعدة على الخدين تتحول الى قبلة شهوانية على الفم • وكان الجسـد يطغى على الروح •

وكان هذا نتيجة عملية احلال سريعة لم تتوقف وقد خطرت ببالى رويدا رويدا فكرة لم تلبث أن طغت على كل ما عداها وشغلت كل حيز فى تفكيرى واستولت على كيانى كله •

وكانت فكرة دقيقة صافية واضحة المعالم ، وهى أن أقدم الى جوليانا بعد

الافطار كوبا صغيرا من نبيذ « شالبيس » • وهذا الكوب يكفى لأن يقلب كيانها لا سيما وأنها لا تحتسى النبيذ الا نادرا وبعد الغذاء تزداد حرارة الجو وتفوح روائح الورود واعواد الليلك وتروح العصافير الدورية وتعدو وتحدث ضجيجا يصم الآذان • وهكذا نكون بمفردنا وقد سرت فى جسد كل منا رعدة لا يمكن التحكم فيها • وهنا أقول لها على حين غرة :

ـ أتريدين أن نذهب لرؤية غرفتنا من جديد ؟ انها غرفة عرسنا العتيقة التى تعمدت ألا أفتحها أثناء تجوالنا فى الفيلا •

ثم ندخل الغرفة حيث لا نجد فيها الا السكون المخيم عليها ولا شيئا آخر سوى دقات قلبى ونبضات الدم الذى يتدفق فى عروقى • وربما تسمع هى الأخرى تلك النبضات ولا شيء آخر الا نبضات الدم الذى يجرى فى عروقها• أما ما عدا ذلك فلا شيء غير الهدوء والسكون • ويبدو أن العصافير الدورية قد توقفت عن السباق ، أريد أن أتكلم وعند أول كلمة خافتة ينطق بها لسانى ترتمى بين أحضانى كالمغمى عليها •

كانت هذه التمثيلية الخيالية تزدادوتتسع باستمرار وتصبح أكثر تعقيدا وتشابه الحقيقة وتصل الى حالة من الوضوح لا يمكن تصديقها • ولم أكن استطيع أن أناقش جوليانا فى التعبير عن كل أفكارى • وكان يبدو أنه قد عاد الى نفسى فجورها الأول •

وهكذا كنت أشعر بشيء كثير من السرور عندما كنت أتأمل ذلك الوجه الذى يثير الشهوة ويداعبها • كما أن ذلك العفاف الذى احتفظت به عدة أسابيع فى ذلك الربيع الذى بلغت فيه الحرارة درجة كبيرة كان الآن يحدث آثاره على جهازى العصبى الذى عادت اليه قوته ونشاطه ، وكانت هناك ظاهرة فسيولوجية بسيطة تغير كيانى تغيرا شاملا وتؤثر على أفكارى وتجعلنى أستحيل الى انسان آخر •

كانت « ماريا و ناتاليا » قد أبدتا رغبتهما فى مرافقتنا فى هذه الرحلة ، وكانت جوليانا تود من صميم فؤادها أن تعمل على تحقيق رغبتهما ولكننى عارضت هذا الطلب ، وقد استعنت بكل ما لدى من مهارة وبكل أنواع الكياسة واللطف لكي أصل الى هدفي •

كان « فيديريكو » قد اقترح على اقتراحنا وقال لى اننى ذاهب فى يوم الثلاثاء الى « كازال كالدورى » ولسوف أصحبكما فى عربتى الى « فيلا ليللا » ولسوف تبقيان فيها وأواصل أنا السفر ، وفى المساء أعود لأخذكما فى عربتى ونعود سويا الى الضيعة ٠

أما جوليانا التى كانت حاضرة فقد قبلت هذا الاقتراح ٠ وكنت أعتقد أن مرافقة فيديريكو لنا على الأقل فى الذهاب لن تكون شيئا مقلقا بل انها كانت تخرجنى من بعض المآزق الحرجة ٠

وفى الحق ماذا كان يمكن أن يدور بيننا أنا وجوليانا من حديث اذا كنا بمفردنا طوال الساعتين أو الساعات الثلاث التى نقضيها فى السفر ؟ وأى مسلك كان يمكننى أن أسلكه ازاءها ؟

كان من الممكن أيضا أن أفسد الأمور وأغامر بالنتيجة الطيبة التى كنت أنتظرها أو على الأقل أنزع ما فى تأثراتنا من صفاء ٠

الم أكن أحلم فى يوم من الأيام بأن أجد نفسى مرة ثانية معها فى « فيلا ليللا » على غير انتظار كما لو كان ذلك بفعل ساحر وأن أوجه اليها أول كلمة من كلماتى الحنونة المستكينة ؟ ٠ ومن الممكن أن يكون وجود « فيديركو معنا سبيلا الى تجنيبنا الشكوك الأولى والصمت المؤلم الطويل والعبارات التى ننطق بها بصوت خفيض مخافة أن يسمعها سائق العربة ٠ وكل تلك التوترات وكل التعذيبات الصغيرة ٠

لسوف ننزل الى « فيلا ليللا » وهناك فقط سوف نجد أنفسنا فى آخر المطاف الواحد الى جانب الآخر أمام باب ذلك الفردوس المفقود ٠

ـ ٧ ـ

وهذا ما حدث ويستحيل على أن أعبر بالكلمات عما شعرت به عندما سمعت رنين عزف العازفة وقرقعة العربة التى كانت تبتعد وهى تحمل « فيديريكو » الى « كازال كالدورى » ٠ وعندئذ قلت للحارس « كالپستو » وأنا آخذ من يده المفاتيح في شيء كثير من الضيق الظاهر :

ـ الآن فى مقدورك أن تذهب ولسوف أستدعيك فيما بعد ٠

وأغلقت أنا بنفسى الباب مرة ثانية خلف الشيخ الذى بدا لى أنه اعتراه شىء من الدهشة وأنه ابتئاء من ابعاده بهذه الطريقة الجافة ٠

وعندما أصبحت أنا وجوليانا وحيدين صحت قائلا :

ـ ها نحن أولاء أخيرا ـ وقد انتقلت موجة السعادة التى غمرتنى الى صوتى ٠

كنت سعيدا وسعيدا جدا وسعيدا سعادة لا يمكن وصفها وتملكتنى موجة عارمة من السعادة لم أكن أحلم بها او أنتظرها تجلت فى كل جزء من أجزاء جسمى وأثارت وزادت من كل ما كان لا يزال شابا وكل ما كان طيبا فى نفسى ، وكانت تجعلنى بمعزل عن العالم وتركز حياتى كلها فجأة فى دائرة ذلك السور الذى يحيط بالحديقة ٠ وتزاحمت الكلمات على شفتى دون أن يكون هناك أى ترابط بينها ٠ وكان عقلى يكاد يذهب شعاعا بين كثير من الأفكار السريعة الخاطفة التى كانت تمر بمخيلتى مرور البرق ٠

وكنت أقول لنفسى : كيف تسنى لزوجتى جوليانا ألا تخمن كل ما يحدث فى قرارة نفسى ؟ وكيف استطاعت ألا تفهمنى ؟ وكيف لم يطعنها فى صميم قلبها شعاع الغبطة التى كانت تغمرنى ؟

نظر كل منا الى الآخر وكنت لا أزال أرى أثر اللهفة على ذلك الوجه الذى كانت تبدو على تقاسيمه بسمة حائرة ٠ وعندئذ قالت لى بصوتها الخافت الضعيف والذى يبدو عليه ذلك التردد الفريد فى نوعه والذى طالما لاحظته عليها ٠ ذلك التردد الذى كان يجعلها تبدو باستمرار متنبهة وقادرة على حبس الكلمة التى تتبادر الى شفتيها وعلى أن تقول كلمة أخرى غيرها :

ـ هيا بنا نقوم بجولة فى أرجاء الحديقةقبل أن نفتح باب البيت ٠ لقدمضى وقت طويل لم أرها مزدهرة هذا الازدهار وانقضت على آخر مرة حضرنا فيها هنا ثلاث سنوات ٠ أتذكر ذلك ؟ وكان حضورنا أيضا فى شهر ابريل فى أيام عيد الفصح ٠٠

ربما كانت تريد اخفاء اضطرابها ولكنها لم تستطع الى ذلك سبيلا ٠ وربما

كانت تريد ايقاف سيل حنانها الدافق غير انها لم تتمكن من ذلك • وبدأت هي بنفسها بالكلمات الأولى التى تفوهت بها فى ذلك المكان باثارة الذكريات الماضية وتوقفت عن المسير بعد أن خطونا بعض خطوات وأخذ كل منا ينظر الى الآخر • وسرعان ما بدا على عينيها السوداوين تغيير كبير لا يمكن وصفه كما لو كان نتيجة مشاعر جياشة احتبست فى قرارة نفسها •

وهنا قطعت هذا الصمت الذى ضقت به ذرعا ولم أستطع احتماله بعد أن تدافعت من صميم قلبى موجة عارمة من الكلمات العاطفية الحلوة وشعرت بحاجة ملحة للركوع أمامها فوق طرقات الحديقة المفروشة بالحصى وأن أحيط ركبتيها بذراعي وآخذ فى تقبيل ثيابها ويديها وساعديها قبلات لا عد لهـا ولا حصر فى شيء كثير من اللهفة • وقد أشارت لى بأن ألتزم الصمت بحركة تنم عن الضراعة واستمرت فى التوغل فى السير فى تلك الممرات بخطوات أكثر سرعة •

كانت ترتدى ثوبا من الصوف الرمادى الفاتح المزركش بشرائط داكنة اللون وتغطى رأسها بقبعة من الجوخ الرمادى وتمسك بيدها مظلة صغيرة من الحرير الرمادى اللون بها خطوط بيضاء • وكنت لا أزال أراها أنيقة فى ذلك اللون اللطيف البسيط وهى تقدم بين الكتل الكثيفة من أعواد الليلك التى كانت تميل نحوها وهى تزدحم بعناقيدها التى لا عد لها والتى تختلف ألوانها بين البنفسجية والزرقاء •

كانت لا تزال باقية على منتصف النهار ساعة أو ما يقرب من الساعة ، وكان الجو فى صبيحة ذلك اليوم حارا قبل الأوان ، والسماء زرقاء صافية فيما خلا بعض السحب الخفيفة التى تسبح على صفحتها وكانت الأزهـــار الجميلة الخلابة التى خلعت اسمها على هذه الفيلا مزدهرة فى كافة أرجائها وتشغل الجزء الأكبـر من الحـديقة وتتكون منها غابة كثيفة تخترقها هنا وهنالك خمائل الورود الصفراء وأكوام الحشائش الخضراء • والورود تتسلق على جدوع الأشجار هنا وهنالك وتتسلل بين الأغصان ثم تتدلى مختلطة فى شكل سلاسل أو أكاليل أما عند سفح الجذوع فهناك بعض أعواد الزهور الفلورنسية ترتفع بين الأوراق وهى أشبه ما تكون بسيوف طويلة مسلولة • وكانت الروائح الثلاث تمتزج ببعضها فى انسجام تام كنت أعرفه لأنه كان

عالقا بصورة واضحة بذاكرتى منذ زمن بعيد ، شأنه فى ذلك شأن قطعة موسيقية تكونت من أنغام ثلاث امتزجت ببعضها وائتلفت ائتلافا • وما كنا لنسمع من خلال ذلك الصمت الا تغريد العصافير الدورية وبيتنا لا يكاد يظهر وسط هامات أشجار السرو المخروطية الشكل ، والعصافير تلوذ به فى أسراب لا حصر لها ولا عد كأنها النحل يحوم حول خلاياه •

وان هى الا لحظات حتى أخذت جوليانا تبطىء من سرعة خطواتها وكنت أنا أسير الى جانبها وأكاد أكون ملتصقا بها حتى ان مرفقينا تحتكان ببعضهما بين الحين والآخر • كانت تتلفت من حواليها بنظرات كثيرة الحركة والانتباه كما لو أنها تخشى أن يغيب عن نظرها شىء ما • ولاحظت مرتين أو ثلاثا أنها تهم بتحريك شفتيها ايذانا بالكلام حتى ان الحروف الأولى لأول كلمة كانت ترتسم على شفتيها دون أن يسمع لها صوت • وسألتها بصوت خفيض وفى كثير من الخجل وكأنى عاشق ولهان قائلا :

ـ فيم تفكرين ؟

ـ أفكر فى أنه ما كان ينبغى لنا أن نرحل من هنا اطلاقا ••

ـ انك لعلى حق ياجوليانا •

كانت العصافير الداورية تقترب منا فى بعض الأحيان حتى تكاد تلمسنا وهى تصيح أثناء طيرانها السريع • وتلمع فى الهواء كأنها سهام مكسوة بالريش وعندئذ انطلقت قائلا وقد اشتد بى التأثر حتى تغيرت نبرات صوتى وأصبح من المتعذر تمييزه : كم كنت أشتهى هذا اليوم يا جوليانا ! انك لا تعرفين أبدا كم كنت أشتهيه • انظرى اننى لم أشعر قط فى حياتى بشوق مثل ذلك الشوق الذى اضطرم فى قلبى منذ أمس الأول من تلك اللحظة التى وافقت فيها على الحضور • أتذكرين أول مرة التقينا فيها خفية فوق شرفة فيلا « أوجيرى » حيث تبادلنا القبلات ؟ وكنت مجنونا بحبك • انك لتذكرين ذلك دون شك •

ومع هذا فان انتظار تلك الليلة لا يبدو لى أنه شىء يذكر الى جانب هذا اليوم •• انك لن تصديقنى ولك الحق فى ألا تصدقينى وألا تثقى بى ولكنى أريد أن أقول لك كل شىء وأريد أريد أن أقص عليك كل ما تحملته وكل ماخشيته وكل ما عقدت عليه أكبر الآمال •

يالله اننى أعلم ذلك علم اليقين وان كل ما تحملته ربما كان أقل مما جعلتك تتحملينه • أجل اننى أعرف ذلك وأعرفه حق المعرفة • ان جميع آلامى ربما لا تعدل ألمك ولا تساوى دموعك ولم أكفر عن سيئاتى ولست جديرا بأن أنال غفرانك ولكن قولى لى وقولى لى أنت ماذا يجب على أن أعمل لكى تصفحى عنى • انك لن تصدقينى ولكننى أريد أن أقول لك كل شىء وانك أنت وحدك المرأة التى أحببتها حبا صادقا فى حياتى واننى أحبك أنت وحدك دون سواك، اننى أعرف ماذا تقولين فيما بينك وبين نفسك • أعرف ذلك ، فان هــــذه هى الأقوال التى يقولها الرجال لكى يفوزوا بالصفح عن سيئاتهم وخطاياهم، ولك الحق كل الحق فى ألا تصدقى ما أقول ، ولكن عليك أن تعلمى أنك اذا ما فكرت فى حبنا الماضى واذا ما فكرت فى تلك السنوات الثلاث الأولى التى قضيناها وشعر كل منا نحو الآخر بحنان مستفيض • واذا ما ذكرت ذلك وفكرت فيه فليس من الممكن ألا تصدقينى • اننى وأنا وسط مزالقى وشر مباذلى كنت أذكرك ولا أنساك لحظة واحــدة ، وكانت روحى متجهة نحوك وتبحث عنك وتهيم بك وتنتحب من أجلك دائما • أتفهمين ؟ كنت دائما كذلك• أما كنت أنت بنفسك تلاحظين ذلك ؟ وعندما كنت أنت منى بمثابة الأخت أما كنت تلاحظين فى بعض الأحيان أننى كنت أموت حزنا وغما ؟ اننى أقسم لك على أننى لم أشعر قط وأنا بعيد عنك بأى شىء من البهجة الحقة • وأنه لــم تمر بى ســاعة واحــدة غبت فيها عن ذاكرتى ونســيتك نســيانا تاما أبدا • وأقسم لك على ذلك • كنت دائما موضع عبادتى الدائمة العميقة والخفية• وكان أعظم جانب منى مخصصا لك وأعز امانى وآمالى أن أتخلص من شرورى وآثامى وأعود مرة ثانية الى حبى الأول كاملا غير منقوص •• أستحلفك بالله أن تقولى لى ان آمالى لم تكن عبثا ولم تذهب أدراج الرياح •

كانت تسير الهدينى وفى منتهى البطء دون أن تنظر أمامها وهى مطأطئة الرأس وقد اشتد شحوبها وكان يبدو بعض التقلص المؤلم فى طرف فمها • ولما كانت تلتزم الصمت بدأ ينبت فى قرارة نفسى شىء من القلق الغامض وبدأ احساس خفى بالضيق يتسرب الى نفسى من تلك الحشرات ومن تلك الأزهار ومن صياح العصافير ومن ابتسامة ذلك الربيع الطلق الضاحك •

فاستطردت قائلا وأنا أمسك بيدها التى كانت قد تركتها متهدلة الىجانبها:

ـ ألا تحبينني ؟ انك لا تصدقينني لأنك فقدت كل ثقة بى · ولا تزالين تخافين أن أخدعك · ولا تجرئين على أن تهبى نفسك لى مرة ثانية لأنك تفكرين دائما فى تلك المرة ·· ولقد كانت حقا أفظع مثل على انحطاطى المشين · وأنبنى ضميرى عليها أعنف التأنيب كما لو كنت اقترفت جريمة من الجرائم· انك حتى لو صفحت عنى فلن يكون فى مقدورى أن أصفح أنا عن نفسى ولكن ألم تلاحظى أننى كنت مريضا وأنه أصابنى مس من الجنون ؟ ان اللعنة كانت تتعقبنى وتقتفى آثارى وانى منذ ذلك اليوم لم أنعم قط بلحظة من لحظات هدوء البال ، ولم أشعر بصفاء الذهن وراحة الضمير منذ ذلك الحين · ألا تذكرين ذلك ؟ ألا تذكرين ذلك ؟ يقينا انك كنت تعلمين أننى كنت خارجا عن طورى وفى حالة من حالات الجنون والحماقة لأنك كنت تنظرين الى نظرتك الى شخص مجنون · ولاحظت فى أكثر من مرة أن فى نظرتك شيئا من الاشفاق الأليم وشيئا لا أعرف كنهه من حب الاستطلاع والدهشة والخوف · ألا تذكرين كيف صرت وفى أى حالة أصبحت ؟ · وقد تغيرت ملامحى تغيرا ملحوظا ·· ومع هذا فاننى برئت من علتى ، وأنقذنى الله من أجلك واستطعت أن أرى النور وأخيرا ظهر النور أمام عينى · انك أنت المرأة الوحيدة التى احببتها فى حياتى · أحبك أنت وحدك · أتفهمين ما أقول ؟

وتفوهت بهذه العبارات الأخيرة بصوت أكثر ثباتا وأكثر اطمئنانا كما لو كنت أريد أن أطبع كلماتى كلمة بعد كلمة فى نفس جوليانا وضغطت بشدة على يدها التى كنت أمسك بها بيدى · وهنا توقفت عن المسير كما لو كانت على وشك أن تقع وهى تتنهد بشدة · وبعد ذلك وفى الساعات التى تلت هذه اللحظة أدركت كل ما كان فى هذا التنهد من ألم ممض · على أنى لم أفهم فى ذلك الوقت غير شىء واحد وهو أن ذكرى الخيانة المريعة التى أثرتها جددت أحزانها وآلامها وأننى لمست جرحا لم يندمل بعد · لى الويل ! ليتنى أستطيع أن أقنعها بضرورة تصديقى ! ليتنى أستطيع أن أتغلب على عدم ثقتها بى وخوفها منى ! · ترى ألا تحس هى بالحقيقة فى نبرات صوتى ؟

كنا اذ ذاك على مقربة من ناصية أحد الطرق وهناك مقعد كبير وما ان شاهدته حتى غمغمت قائلة :

ـ لنجلس هنا قليلا •

فجلسنا ولا أدرى اذا كانت قد عرفت فى الحال ذلك المكان • أما أنا فلم أعرف لأننى كنت تائها كما لو كنت وضعت عصابة فوق عينى منــذ وقت بعيد • وأخذ كل منا ينظر حوله ، وبعدئذ بدأ كل منا ينظر الى الآخر وكل منا يفكر فيما يفكر فيه الآخر وتبدو أفكاره فى عينيه واضحة جلية ، اذ كانت ذكريات كثيرة من ذكريات الحنان والحب لا تزال عالقة بذلك المقعد الحجرى القديم لم يشعر قلبى بشىء من الحسرة ، بل بشىء كثير من الفهم المؤلم • كان أشبه شىء بالتذمر من الحياة جعلنى أرى فى لمح البصر صــورة واضحة للمستقبل المشرق الوضاء • وكنت أقول لنفسى : الويل لى • انها لا تعرف مقدار ما أشــعر به نحوها من محبة وحنان ! لقد أعددت لهــا فى نفسى جنة الفردوس لتنعم بها كما تشاء ! واستعرت نار الحب فى أحشائى ، قوية ، حتى اننى تحمست تحمسا شديدا •

وهنا قلت لهــا : انك تتألمين كثيرا ، ولكن أية مخلوقة فى هــذا العالم أحبها انسان كما أحببتك ؟ وأية امرأة شاهدت دليلا على الحب كذلك الدليل الذى أقدمه لك شاهدا على حبى ؟ انك كنت تقولين منــذ برهة انه ما كان يجب علينا أن نرحل من هنا وربما كنا من السعداء لو أننا بقينا هنا ولمــا كنت تحملت هذه التضحية وما كنت ذرفت كثيرا من الدموع وفقدت جزءا كبيرا من حياتك ضاع هباء منثورا • ولمــا كنت قد عرفت حبى وتحققت من كل ما أشعر لك به من حب ••

كانت فى تلك اللحظة تترك رأسها مائلا على صدرها وقد أسبلت جفنيها • تسنمع الى كلمــاتى وهى جامدة لا تتحرك • وأهدابها تنشر فوق وجنتيها غمامة تجعلنى أضطرب أكثر من أية نظرة حادة • تسددها نحوى •

ثم استطردت قائلا : اننى أنا نفسى ما كان بوسعى أن أعرف أننى أحبك هذا الحب ، أما كنت أعتقد عندما ابتعدت عنك فى المرة الأولى أن كل شىء انتهى ؟ بل كنت أبحث عن حب آخر وعن حمى أخرى ونشوة جديدة وأريد أن أعانق الحياة بضمة واحدة ، لم يكن فيك ما يكفينى وظللت سنوات عديدة أشعر بتعب مريع • كان مريعا وفظيعا الى حد أننى لم أشــعر بالفزع الذى يشــعر به المحكوم عليه بالأشــغال الشاقة من السجن الذى عاش فيه وهو

يموت فيه رويدا رويدا يوما بعد آخر • ويتحتم علي أن أنتقل من ظلمة الى ظلمة سنوات عديدة قبل أن يبزغ هــذا النور فى نفسى وقبل أن تظهر لى هـذه الحقيقة الكبرى • اننى لم أحب سوى امرأة واحدة وهى أنت دون سواك • انك أنت وحدك فى هذا العالم التى تتمثل فيك الطيبة والحلاوة • انك أطيب وأحلى مخلوقة حلمت بها فى حياتى ، أنت المرأة الوحيدة الفريدة فى نوعها • كنت أنت مستقرة فى منزلى بينما كنت أبحث عنك بعيدا •• أتفهمين الآن ما أقــول ؟ أتفهمين ؟ كنت فى بيتى بينمــا كنت أبحث عنك بعيــدا ••

حدثينى بالله عليك • ألا يساوى هـذا الاكتشاف الذى اكتشفته كل ما انهمر من عينيك من دموع ؟ أما كنت تودين لو أنك زرفت دموعا أكثر من هـذه الدموع فى سـبيل الحصـول على دليـل على حبى لك مثـل هـذا الدليـل ؟

وعندئذ قالت بصوت واضح ولكنه خافت استطعت أن أسمعه بالكاد : أجل وأكثر من هذه الدموع •

خرجت هذه الكلمات كأنها نفخة من تلك الشفتين الباهتتين ، وأخذت الدموع تترقرق من بين أهدابها وسالت فوق وجنتيها وبللت فمها المتشنج وسقطت فوق صدرها المضطرب الخفاق •

وعندئذ صحت وأنا أشعر برعدة تنم عن منتهى السعادة وأرتمى على ركبتى أمامها قائلا : جوليانا •• حبيبتى •• حبيبتى !

وأحطت خصرها بذراعى ووضعت رأسى فى حجرها وأحسست فى جسدى كله بذلك التوتر وتلك الرغبة الجامحة اللذين تتبدد فيهما المقدرة على التعبير بحركة أو باشارة أو بمسحة عن قوة هذا الحب الدفين •

وانهمرت دموعها فوق خدى فبللتهما واذا كان أثر تلك الدموع السخينة المـادى اسـتجابة لمـا كنت أشعر به نحوها لاحتفظت الى الأبد فوق وجهى بذلك الأثر الذى لا يمحى •

وأخذت أستعطفها قائلا :

ـ دعينى أشرب هذه الدموع ٠

وبعد أن نهضت من مكانى اقتربت بشفتى نحو أهدابها وبللتها بمدامعها بينما كانت أصابعى تتحسسها على غير هدى ٠

وهنا شعرت بمرونة عجيبة أصابت أعصابى وبميوعة وهمية سرت فى بدنى ، واعتقدت أن فى وسعى أن أضم محبوبتى بذراعى وأحيط كل جسدها بجسدى ٠ وأخذت أقول لها وأنا أتذوق فى فمى لذة طعم تلك الدموع (وقد أدهشنى فى الساعات التالية فيما بعد أننى لم أشعر فى تلك الدموع بشىء كثير من المرارة) ـ هل كنت تحلمين بأننى أحبك كل هذا الحب ؟ هل كنت تحلمين بهذه السعادة ؟ انظرى الى ، اننى أنا الذى أقول لك ذلك ، انظرى الى جيدا ، اننى أنا بنفسى ٠٠٠ آه ليتك تعلمين كيف يبدو لى هذا أمرا غريبا ٠ ليتنى أستطيع أن أقول لك ٠٠ اننى أعلم أننى عرفتك قبل الآن ، وأعرف أننى أحببتك قبل اليوم ، وأعرف أننى وجدتك مرة ثانية ومع هذا فانه يبدو لى أننى قد وجدتك الآن فقط وقبل لحظة وجيزة عندما قلت لى : ـ نعم وأكثر من هذه الدموع ٠٠ انك قلت لى ذلك ٠ أليس هذا صحيحا ؟ انها كلمات أربع لا أكثر ولا أقل ٠٠ ونفثة ٠٠ وهكذا أعيش أنا مرة ثانية وتعيشين أنت مرة أخرى ٠ وهكذا أصبحنا سعيدين وسعيدين الى الأبد ٠

كنت أقول لها هذه الكلمات بذلك الصوت الذى كان كأنه يصل من بعيد متقطعا غير واضح ، حتى انه يبدو أنه يصل الى حافة شفتى متغيرا فى مادته بل فى جوهره ٠ أما هى التى ذرفت حتى تلك اللحظة كثيرا من الدموع فى صمت وسكون ٠ فانها اندفعت فى الشهيق والنحيب ٠

كانت تشهق شهيقا عاليا الى حد كبير ، ولم يكن شهيقها شهيق من استولى عليه السرور الذى لا حد له ٠ بل شهيق انسان يعانى يأسا قاتلا كانت تشهق بدرجة كبيرة الى حد أننى بقيت بعض لحظة وقد استولت على الدهشة من جراء ما يحدثه تأثر الانسان ٠ ولذلك تراجعت الى الوراء قليلا دون وعى ٠ ولكن سرعان ما أدركت تلك الفجوة التى انفتحت بينى وبينها ، ولاحظت بعد ذلك بقليل أن الالتصاق المادى هو الذى امتنع وحده ، بل ان

شعور الترابط والألفة أيضا قد تبدد فى لحظة واحدة • ولذلك فقد بقينا دائما كائنين اثنين منفصلين عن بعضهما تمام الانفصال وغريبين عن بعضهما، وكان اختلاف تصرفات كل منا يعمل هو الآخر على زيادة الشقة التى تفصل بيننا • وبقيت جوليانا منطوية على نفسها تضغط بمنديلها على فمها بكلتا يديها وتشهق بالبكاء ، وكل شهقة من شهقاتها تجعل جسدها ينتفض انتفاضة شديدة يبدو أنها تكشف عما فيه من نحافة ونحول • وكنت لا أزال راكعا أمامها دون أن ألمسها وكنت انظر اليها والدهشة آخذة منى كل مأخذ ولو أننى كنت متيقظا تيقظا غريبا ومتنبها لمراقبة كل ما يوشك أن يحدث فى نفسى رغما من أنى كنت واعيا لكل ما يحدث من حولى • كنت أسمع شهيقها وزقزقة العصافير الداورية • وكنت أعرف الزمن الذى يمر بى والمكان الذى أنا فيه كل المعرفة وقد أثارت فى نفسى تلك الزهور وتلك الروائح العطرية وصفاء الجو وبسمة ذلك الربيع الطلق الضاحك ـ شيئا من الفزع الذى ازداد وازداد حتى استحال الى نوع من الخوف المرعب والى هلع غريزى أعمى لا يمكن للعقل أن يمنعه أو يقف فى سبيله •

وهنا برزت فكرة وسط ذلك الاضطراب المخيف كانت أشبه شىء بصاعقة انفجرت وسط كومة من الغيوم فأضاءت لى الطريق وهزتنى هزا عنيفا ، وكانت هذه الفكرة تتلخص فى أنها ليست طاهرة الذيل •

ويحى ! لماذا لم أقع على الأرض صريعا آنذاك ؟ لماذا لم تتمزق أحشائى ولم أبق هناك ملقى فوق الحصى عند قدمى المرأة التى رفعتنى فى غمرة لحظات قلائل الى ذروة السعادة ولم تلبث أن ألقت بى فى هاوية سحيقة من التعاسة والشقاء ؟

ـ أجيبينى ، علام هذا البكاء والنحيب ؟

أمسكتها من كلتى يديها وكشفت عن وجهها وأخذت أتحدث اليها عن كثب وكان صوتى خافتا حتى اننى أنا نفسى كنت لا أكاد أسمعه من خلال زمجرة الأفكار المضطربة التى كانت تملأ رأسى •

فتوقفت جوليانا عن الشهيق وأخذت تنظر الى بعينين جاحظتين أحرقتهما الدموع السخينة وكانتا تعبران عن شعور بالغ بالقلق كما لو كانتا تريانى

وقد أدركتنى المنية وكان لا بد فى الواقع أن يكون وجهى فى تلك اللحظة قد امتقع وخلا من كل أثر من آثار الحياة ٠

عندئذ أردفت قائلا وأنا أميط اللثام عما كان يجول بخاطرى من أفكار مرعبة عبرت عنها فى هذا السؤال الغامض : ربما كان الوقت متأخرا ؟ وهل هو متأخر أكثر مما يجب ٠

لا ! لا ! لا ! يا توليـو لا ٠ـ٠ لا شىء بالمـرة ٠٠ ربما اعتقدت أن ٠٠٠ لا لا ! ٠٠ اننى فى منتهى الضعف ٠ انظر اننى لم أعد بعد كما كنت من قبل ٠٠ اننى واهنة ولا أستطيع الوقوف على قدمى ٠٠ انك تعلم أنى مريضة ومريضة جدا ، لم أستطع الصمود ٠٠ ازاء ما تحدثنى به ٠ انك تفهم أن ٠٠ انتابنى هذا الانهيار على حين غرة ٠٠ انها مسألة أعصاب ٠٠ وأشـبه شىء بالتشنج ٠٠ وكثيرا ما يشهق الانسان ويبكى ولا يدرك من يراه اذا كان هذا الشهيق والبكاء دليلا على فرط السرور والفرح أو نتيجة ألم ممض ٠٠ رحمتك اللهم بى ٠٠ أرأيت ٠٠؟ مرت الأزمة بسلام والحمد لله ٠٠ انهض وقم يا « توليو » وتعال هنا واجلس الى جانبى ٠

كانت جوليانا تحدثنى بصوت لا يزال خافتا ضعيفا من أثر البكاء تتخلله بعض الشـهقات والتنهدات وتنظر الى وقد بدت عـلى محياها امارات معينة كنت أفهمها ٠ امارات طالما أظهرتها فى مرات عديدة عندما كانت تشاهدنى وبدت على علامات الألم الممض ٠ ولقد جاء عليها وقت لم تكن تقوى عـلى أن تشاهدنى وأنا أتألم ، وكانت حساسيتها بهذا الصدد فاقت كل حد ، حتى انه كان فى مقدورى أن أحصل منها على كل ما أريد بفضل ظهورى بمظهر المتألم الحزين ٠ ولقد كانت على أتم اسـتعداد لأن تفعل كل شىء لكى تبعد عنى الألم وأقل الألم ٠ وكثيرا ما كنت أتظاهر آنذاك على سبيل الدعابة بأننى متضايق أشد الضيق وذلك لكى أثير عواطفها فتقوم بمواساتى وكأنها تواسى صبيا صغيرا ولكى تقوم بملاطفتى والربت عـلى كتفى ٠ الأمر الذى يسرنى السرور كله ولكى أحرك فى نفسها بعض الفضائل والخصال الحميدة التى كانت محل عبادتى وتقديرى ٠ والآن ألا يبدو فى عينيها هـذا التعبير ذاته الذى ينم عن الحنان واللهفة والقلق ؟

قالت لى مرة ثانية :
ـ تعال الى هنا واجلس الى جوارى • أو انك تريد أن نتابع تجوالنا فى الحديقة ؟ اننا لم نر شيئا حتى الآن •• هيا بنا لنذهب الى حوض الأسماك • أريد أن أبلل عينى بمياهه الحافية •• لماذا تنظر الى على هذا النحو ؟ فيم تفكر ؟ ألسنا سعداء ؟ انظر • هأنذا بدأت أشعر بكثير من التحسن فى صحتى ولكنى بحاجة الى أن أبلل عينى ووجهى •• كم هى الساعة الآن ؟ أظنها بلغت الثانية عشرة ظهرا ؟ أن فيديريكو سوف يمر علينا حوالى الساعة السادسة مساء • لذلك فلدينا متسع من الوقت •• أتريد أن نذهب الى حوض الأسماك ؟

كانت تتكلم كلمات متقطعة وهى لا تزال متشنجة بعض الشىء وتبذل مجهودا واضحا فى سبيل استعادة هدوئها والتحكم فى أعصابها ولكى تبدد من نفسى أدنى شك وتظهر أمامى سعيدة خليقة بكل ثقة •

وفى ابتسامتها القلقة الحائرة التى تبدو فى عينيها اللتين لا تزالان محمرتين ومخضلتين من أثر البكاء •• حلاوة هزت نياط قلبى وغمرتنى بشعور دافق من الحنان • وتبدو فى حركاتها وفى كل جزء من أجزاء جسمها واضحة جلية تلك الحلاوة التى تلين عواطفى وتوهن حواسى وتضعفها • ومن المستحيل على أن أصف قوة ذلك الاغراء الذى كان ينبعث من تلك المخلوقة ومدى تأثيره على أعصابى وفى نفسى • وأنا فى تلك الحالة النفسية القلقة الحائرة • ويبدو أنها تقول لى ضمنا وفى صمت : ليس فى وسعى أن أكون أكثر حلاوة ورقة مما انا الآن • خذنى اذن مادمت تحبنى وخذنى بين ذراعيك ولكن فى رفق دون أن تلحق بى أى أذى ودون أن تضغط على جسدى بشدة • آه اننى أتحرق شوقا لملاطفتك ودعابتك اياى ! • ولكنى أعتقد مع ذلك أنه قد يكون فى مقدورك أن تعجل بوفاتي • ساعدنى هذا التصوير الى حد ما على ادراك ذلك الأثر الذى أحدثته فى نفسى ابتسامتها الحائرة ، وكنت أنظر الى فمها عند ما بادرتنى بقولها : ـ لماذا تنظر الى على هذا النحو ؟

وحينما سألتنى قائلة : ألسنا سعداء ؟ وهنا شعرت بحاجة ملحة أعمت بصيرتى الى احساس شديد بالرغبة العارمة أصب فيه كل ذلك الاضطراب الذى أثارته فى نفسى منذ برهة عواطفى المشبوبة •

وما أن نهضت جوليانا بحركة سريعة حتى احتضنتها بين ذراعى والصقت شفتى بشفتيها • وكانت تلك القبلة التى طبعتها على فمها قبلة عاشق ولهان وقبلة مستطيلة عميقة اهتز لها كيان كل منا بأجمعه اهتزازا عنيفا •

أما جوليانا فقد تركت نفسها تتهاوى فوق المقعد الحجرى خائرة القـوى وقالت لى : لا لا ياتوليو • أرجوك ألا تفعل أكثر من ذلك وأكثر مما فعلت • وتوسلت الى قائلة وهى تمـد ذراعيها كما لو كانت تريد اقصائى عنهـا قليلا : دعنى أستعيد بعضا من قوتى أولا • والا فلن أستطيع أن أنهض من فوق هذا المقعد بعد الآن •• انظر انى ميتة •

غير أنه بدت على ظاهرة غريبة تتمثل فى ذلك الاحساس الذى كان تاثيره على نفسى أشبه شىء بموجة عاتية يتحطـم أمامها كل أثر يعترض سـبيلها وتكتسح كل شىء على رمال الشاطىء • قلب ذلك الاحساس كيانى رأسا على عقب بصورة فجائية وسرعان ما طرأت على نفسى حالة جديدة أوجدتها تاثيرات الظروف المحيطة آنذاك وغلى الدم فى عروقى غليانا شـديدا وانى لا أذكـر شـيئا مما حـدث وقتئـذ سوى شىء واحد هو أن المرأة التى كنت أشتهيها جالسة هناك قبالتى ترتعد فرائصـها وقد أنهكتها القبلة التى طبعتها عـلى شفتيها أشد ما يكون الانهاك كما أذكر أنه كانت حوالينا حديقة غناء مقفرة زاخرة بالأسرار وأن هناك بيتا خفيا فى انتظارنا وراء الأشجار المزدهرة تقوم على حراسته تلك العصافير الداورية المألوفة •

وهنـا قلت لزوجتى جويانا وأنا أمسك بكلتا يديها وأصـابعى مشتبكة باصابعها :

ـ هـل تعتقدين انه لن يكون فى مقـدورى أن أحملك ؟ اننى أذكر أننى حينما كنت أحملك فيما مضى كأنى أحمـل ريشة من ريش الطيـور • والآن لابد أنك تكونين أخف وزنا من ذى قبل •• دعينا نجرب •

عندئذ مرت فى عينيها غمامة قاتمة وبدت مدة لحظة واحدة كأنها مستغرقة فى تفكير عميق فى أمر هام كمن يأخذ فى التفكير فى أمر هام ثم لا يلبث أن يتخذ قرارا عاجلا • هزت رأسها وارتدت الى الخلف وتعلقت بى بذراعيها الممدوتين وهى تضـحك • (ولقـد ظهر جزء من لثتها الباهتـة اللون أثناء ضحكها) وقالت :

ـ هأنذا • احملنى وألق بى الى أعلى !

وما ان رفعتها حتى ارتطمت بصدرى وكانت فى هـذه المرة هى التى بادرت بتقبيلى فى شىء من الهيـاج والتشنج كما لو كانت قد انتابتها فجأة رغبة جامحة وتود معها لو استطاعت دفعـة واحدة أن تطفىء غليلها وظماها القاسى الشديد •

وعندما ابتعد فمها عن فمى قالت لى مرة اخرى :

ـ ويلاه • اننى ميتة !

وكان منظر فمها الرطب المتورم بعض الشىء والمفتوح الى نصفه والذى أصبح فيما بعد أكثر احمرارا والذى كان لا يزال يبدو عليه الوهن ووجهها الشديد الشحوب البالغ الرقة يحدث فى نفسى ذلك التأثير العجيب الذى لا يمكن وصفه والذى يسببه منظر كائن حى فى هيئة الأموات •

وهنا همست كالحالمة وهى ترفع عينيها المغلقتين قائلة :

ـ هل أنت مسرور ؟

(كانت أهـدابها الطويلة ترتجف كما لو كانت هنالك ابتسامة خفيفة تشع من بين جفونها) •

فرددت عليها بأن ضممتها الى صدرى •

وهنا قالت جوليانا :

ـ هيا بنا اذن واحملنى الى حيث تشـاء • اسـندنى قليلاً ياتوليو لان ركبتى تنثنيان •

ـ اتريدين أن نذهب الى بيتنا يا جوليانا ؟

ـ لنذهب الى حيث تشاء •

كنت أسندها بقوة من خصرها باحدى ذراعى وأدفعها الى الأمام • أما هى فكانت كمن أخذته سنة من النعاس •

بقينا بعض الوقت صامتين لا ينبس احـدنا ببنت شـفة • وكان كلانا

يستدير نحو الآخر بين الفينة والفينة وفى وقت واحد معا لنتبادل النظرات مرة أخـرى ٠

وكانت جوليانا تبدو لى حقا أنها أصبحت مخلوقة جديدة ، وكانت هنـاك بعض الأشياء الدقيقة التى تسترعى انتباهى وتشغل كل تفكيرى ، وهى تلك الشامة الصغيرة على جيدها والتى لاتكاد ترى وذلك التجويف فى أسفل شفتها السفلى وأهدابها الطويلة المقدسة وذلك العرق البارز على صدغها والظلال التى تحيط بعينيها وحلمة أذنها المتناهية الدقة ٠ وكانت الشامة الداكنة الموجودة على جيدها يكاد يخفيها طرف الشريط المحيط بثوبها ، ولكنها كانت تبدو أحيانا عنـدما كانت جوليانا تقوم ببعض الحركات ، وتختفى أحيـانا أخرى وكان ظهور هذه الشامة واختفاؤها من آن لآخر يسببان لى شيئا من الضيق كنت أصعر بنشوة شديدة ولكنى مع ذلك كنت متنبها كل التنبه ٠ وكنت أسمع صيحات العصافير الداورية التى يتكاثر عددها وخرير الميـاه المنهمرة فى حوض الأسماك القريب ٠ وأشعر بالحياة تنقضى والزمن يمر سريعا ٠ وتلك الشـمس وهـــذه الزهور والروائح العطرية وذلك الضجيج وضحكات الربيع وابتساماته العريضة تجعلنى أشـعر للمرة الثالثة بشوق حار لا يمكن وصفه ٠

وعندما صرنا على مقربة من حوض الأسماك صاحت جوليانا بعد أن توقفت عن الاستناد الى وأسرعت الخطى قائلة :

ـ انظر كيف أصبحت شجرة الصفصاف التى طالما جلست أسفلها وكيف نمت وطالت عروقها ! هل تتذكرها ؟ ٠٠ لقد كانت غصنا بسيطا ٠٠

واستطردت قائلة بعد فترة سكون مؤلمة ٠ سكون خافت وبنبرات تختلف عن نبراتها الأولى :

ـ اننى سبق أن رأيتها مرة ثانية ٠٠ وربما كنت تجهل ذلك ٠٠ لقـد حضرت هنا الى فيلا ليللا فى تلك المرة ٠

لم تحبس أنفاسها ولكنها سرعان ما انحنت فوق احدى القنوات وارتشفت بعض رشـفات كما لو كانت تريد أن تبـــدد أثر تلك الـكلمات وتنتزع ما أحدثته من المرارة في فمها ٠

وعندما نهضت ثانية أبدت حركة تدل على أنها تطلب منى أن أقبلها ، كانت ذقنها قد تبللت وشفتاها قد انتعشتا وقد قررنا نحن الاثنين ونحن ساكتان أن نعجل بوقوع ذلك الحدث الذى كان لابد من وقوعه وهو ذلك الاعتراف الذى كانت كل حواسنا تتوق الى معرفته •

وعندما ابتعد كل منا عن الآخر أعاد كل منا بأعينه نفس ذلك الأمر المبهج •

كان ذلك الشعور الذى عبر عنه وجه جوليانا شعورا غريبا • ولكننى كنت فى ذلك الوقت لا أدرك كنهه ولا أفهمه • ولكننى لم أستطع فهمه الا فيما بعد الساعات التالية عندما علمت أن صورة الموت وصورة من صور الشهوة قد غمرتا تلك المخلوقة المسكينة فى وقت واحد معا • وأن جوليانا قد أحدثت فراغا قاتلا عندما استسلمت لضعف جسدها •

اننى أرى ذلك الوجه الغريب • كما لو كنت أتمثله أمامى الآن وكما سأراه دائما تحت ظلال تلك الشجرة الكبيرة التى كنا نتفيأ بظلها الظليل •

وكان بريق الماء تحت البسمس الذى كان يتسلل من بين أغصان الشجرة ذات الأوراق الكثيفة يكسب الظلال توهجا ساطعا كما أن الأصداء كانت تردد باستمرار وبشكل رتيب أصوات المياه المتساقطة الرنانة • كانت جميع هذه المظاهر تخرج بكيانى بعيدا عن عالم الحقيقة •

وعندما سرنا نحو البيت لم نتحدث بكلمة واحدة ، وكانت نشوتى قد صارت شديدة الى حد كبير وكانت صورة الحادث الغريب تلقى بنفسى المفعمة بالبهجة والسرور فى دوامة ، وكانت نبضات شرايينى شديدة الى حد كبير حتى انى قلت فيما بينى وبين نفسى :

ــ هل هذا هو نتيجة الهذيان ؟

اننى لم أشعر بذلك فى أول ليلة من ليالى زفافنا عندما وضعت قدمى على العتبة •

انتابتني مرتين أو ثلاث مرات نوبة وحشية كانت كأنها ضرب من الجنون

استطعت أن أكبحها بمعجزة من المعجزات وكانت هذه هى حاجتى الجسدية الى أن أستحوذ مرة ثانية عـلى تلك المرأة • ولقـد كان الاضطراب فيها هى أيضا يجب أن يكون قد بلغ أقصى حدوده اذ أنها وقفت وأخذت تتنهد تنهدات طويلة وتقول :

ـ آه يا الهى آه يا الهى • ان هذا لكثير •

وأمسكت بشدة باحدى يدى وهى مختنقة خائرة القوى وقالت لى :

ـ هل تسمع ؟

ولقد كنت أتابع ارتجاف صدرها أسـفل ردائها أكثر مما كنت أسمع دقات قلبها • وقد شاهدت فى عينى جوليانا القزحية تضيع وسـط بياضها أسفل جفنيها التى كانت تسبلهما •

ولما كنت أخشى أن تسوء حالتها فقد أسندتها ثم دفعتها الى الأمام وأنا اكاد أحملها حتى وصلت بها الى أشجار السرو حيث وجدت أريكة جلسنا عليها سويا ونحن متخاذلان •

كان البيت أمامنا وكنا نراه كما لو كنا نرى حلما من الأحلام •

وهنا قالت جوليانا وقد أسندت رأسها على كتفى :

ـ آه يا توليو • يا له من أمر مرعب • ألا تعتقد أنت أيضا انه قد يكون فى الامكان أن نموت الآن نحن الاثنين ؟

ثم استطردت تقول بصوت انبعث من أعمق أعماق نفسها :

ـ ياله من أمر مخيف • أتريد أن تدركنا المنية ونحن لا نزال فى ريعـان الشباب ؟

على أن الرعدة التى سرت فى جسدى والتى لم يكن لى عهد بها من قبل قد أوضـحت لى أن كلماتهـا كانت تنم عن وجود شـعور غريب ربما كان ذلك الشعور الذى جعل وجه جوليانا يتجلى تحت ظلال شجرة الصفصاف الوارفة بعد أن اتخذ كل منا قراره الصامت فى شىء كثير من الضيق •

ولكنى فى هــذه المرة أيضا لم أستطع أن أدرك حقيقة ما حدث وكل ما استطعت فهمه هو أن نوعا من الهذيان قد استولى على كلينا . وكنا نتنفس فى جو مفعم بالأحلام .

كان البيت أمامنا وكنا نراه كما لو كنا نرى حلما من الأحلام ، وكانت العصافير الداورية قد أقامت لها أوكارا على واجهة البيوت الريفية وعلى طول أفاريزه والنتوءات البارزة منه وفوق أعمدته وأسفل جلسات نوافذه وبين دعائـم شرفاته ومختلف قواعده وفى كل جزء من أجزائه . وكانت هــذه الأوكار المصنوعة من الصلصـال والتى لا حصر لهـا ولا عد . القديمة منها والحديثة مكدسة كأنها مجموعة من خلايا النحل . وكانت هنـاك مسافات بسيطة بين الوكر والآخر وكانت فضلات هذه العصافير وأقذارها ذات اللون الأبيض التى تشبه رذاذ الجص تنتشر بين المسافات التى تفصل بين كل وكر وآخر وعلى سياجات النوافذ الخشبية وفوق حواجز درج السلم . ولو أن البيت كان مغلقا لا يسكنه أحد الا أنه كان يعج بالحياة الصاخبة التى تتسم بالجذل والمرح والحنان . اذ كانت تلك العصافير المخلصة لا تفتأ تحوم حوله أثناء طيرانها وتملأ سكونه بزقزقتها وتضفى عليه جمالا بصفائها وجذلها وحلو شمائلها ومظاهر حنانها .

وبينما كانت أسراب العصافير تطير فى الهواء فى سرعة السهام وفى جماعات تطير بعضها فى اثر بعض يعلو ضجيجها ويبتعد بعضها عن بعض ثم لاتلبث أن تقترب فى لمح البصر وتنقض على الأشجار انقضاض الصاعقة وتلتهم أوراقها التهاما ، وما تلبث أن ترتفع مرة ثانية فى كبد السماء لتلقى من عليائها بين الحين والآخر ببقع كثيفة بيضاء تملأ بها الجو .

بينما كان يحدث كل ذلك بغير كلل أو ملل ودون هوادة كان يجرى هناك داخل الأوكار وحواليها عمل دائب حثيث . فمن العصافير التى كانت ترقد على بيضها جماعات كانت تطل لبضع لحظات قلائل معلقة فى الفتحات والثقوب وأخريات كانت تقف معتمدة على أجنحتها فى شىء كثير من المرح وجماعة ثالثة كانت لا تظهر منها خارج العش ســوى أذيالها الصغيرة المدببة ذات اللون الأبيض والأسود والأصفر الفاقع والتى كانت تهتز طربا وجذلا وجماعة أخرى كانت تطل بأنصاف جسمها خارج أوكارها فيظهر جزء من صدورها البراقة

ورقابها ذوات اللون الضارب الى الحمرة • كما كانت هناك غير هؤلاء وأولئك جميعا من بين تلك العصافير التى كانت حتى تلك اللحظة قابعة فى عقر دارها جماعة أخرى تأخذ فى التحليق فى الهـواء وهى تصرخ صرخات حادة عاليـة وتوغل فى طيرانها •

وكان منظر كل تلك الحركة الدائبة التى تنم عن الطرب والمرح والبهجة حول بيتنا المغلق وكل تلك الحيوية التى تعج بها أوكار العصافير حول وكرنا العتيق منظرا غاية فى الحلاوة واللطف حتى اننا كنا ننسى أنفسنا مدى بضع دقائق عندما نأخذ فى التأمل فى هذا المنظر العجيب ونحن فى غمرة البهجة والسرور •

ولقد أوقفت اثر هذا المنظر الخلاب حينما نهضت وقلت :

ـ ها هو ذا مفتاح البيت ماذا ننتظر ؟

وهنا توسلت الى جوليانا فى شىء من الخوف قائلة :

ـ أجل يا توليو لننتظر قليلا •

فقلت لها :

ـ اننى ذاهب لأفتح الباب •

وهكذا تحركت ناحية باب المنزل وصعدت درجاته الثلاث التى كانت تبدو وكأنها درجات أحد الهياكل واذ كنت على وشك أن أدير المفتاح بيد مرتعشة وكأنى أفتح صندوقا من صناديق ذخائر القديسين أحسست بجوليانا تقف خلفى وكانت قد لحقت بى فى سرعة البرق وبخفة كأنها شبح من الأشباح • انتابنى شعور بالفزع والهلع وبادرتها بقولى :

ـ هل أنت يا جوليانا ؟

فهمست فى أذنى بنفحاتها المليئة بالحنان قائلة :

ـ أجل اننى أنا جوليانا •

وبينما كانت واقفة خلف كتفى طوقت عنقى بكلتا ذراعيها فتشابك معصما يديها أسفل ذقنى • وكانت تلك الحركة الخاطفة التى قامت بها وتلك الرعدة

التى بدت فى همسها الضاحك والتى دلت على جذلها الصبيانى ـ الأمر الذى جعل الدهشة تأخذ منى كل مأخذ كما أن طريقتها فى تعلقها بى وكل مظاهر الرقة واللطف والرشاقة التى أبدتها • كل أولئك أعاد الى ذاكرتى زوجتى جوليانا فى أيام زواجنا الأولى • تلك الشابة الرقيقة التى شاركتنى سنى سعادتى وهنائى وتلك المخلوقة اللذيذة ذات الضفائر المتهدلة وذات الضحكات الرنانة الصافية • والتى كانت تبدو عليها سمات البساطة والبراءة • واذا بنفحة من نفحات تلك السعادة الغامرة تملأ كيانى وأنا على عتبة منزلنا الزاخر بالذكريات •

وهنا سألت جوليانا وأنا لا أزال أمسك المفتاح فى يدى لأديره فى ثقب الباب قائلا :

ـ هل أفتح ؟

فردت على بالايجاب دون أن تتركنى وكنت لا أزال أشعر بأنفاسها تتردد حول عنقى •

وحينما سمعت هى صرير المفتاح فى قفل الباب تعلقت بى بذراعيها وضمتنى بقوة حتى اننى أحسست بالرعدة التى كانت تسرى فى جسمها ورغما من أن الصافير كانت تزقزق من حوالينا الا أننا استطعنا أن نميز صوت صرير المفتاح المخيف كما كان يخيم علينا سكون رهيب •

ثم همست جوليانا وهى ما زالت متعلقة بى قائلة :

ـ ادخل •• ادخل •• ادخل •

ولعمرى ان ذلك الصوت الخارج من شفتيها القريبتين منى واللتين ماكنت أراهما• هذا الصوت الذى كان ينم عن الوضوح والغموض فى وقت واحد معا والذى أحسست بحرارته واخلاصه فى أذنى ، كما لو كانت تتحدث الى أعماق نفسى • ذلك الصوت الذى كان يفيض بالأنوثة والرقة والحنان والذى لم أسمع قط صوت امرأة يحاكيه فى الرقة والحلاوة• ذلك الصوت لا أزال أسمعه، ولسوف يرن فى أذنى ما حييت !

قالت لى مرة ثانية :

ـ ادخل ادخل ٠

دفعت البـاب وعبرنا عتبة البيت وكنا نحن الاثنين كأنما انصـهرنا فى شخص واحد تمام الانصهار ٠

كانت ردهة البيت تضيئها كوة مستديرة عالية ٠ وهنا حلقت فوق رؤوسنا احدى العصـافير وهى تصيح صـيحات متوالية فرفعنا أعيننا الى أعلى وقد أخذت الدهشة منا كل مأخذ واذا بنا نرى عشا يتدلى فوق احدى القبوات ، وكانت الكوة ينقصها أحد الألـواح الزجاجية وقد خرج العصفور منها وهو لا يزال يزقزق ٠

هنا همست جوليانا فى أذنى دون أن تنفصل عن عنقى بنيما كانت تلتوى بمرونة لكى تتحول بجسدها الى صدرى ولكى يلتقى فمى بفمها قائلة :

ـ انى الآن صرت لك ولك وحدك وتحت تصرفك وطوع أمرك ٠

أخذنا نقبل بعضنا بعضا وقتا طويلا ٠ وقلت لها والنشوة تملأ نفسى :

ـ تعالى هيا بنا الى أعلى ، أتريدين أن أحملك ؟

ورغما مما كنت أشعر به من النشوة كنت أحس بأن فى عضلاتى ما يكفى من القوة لكى أحملها وأصعد بها درج السلم فى غمضة عين ، ولكنها أجابتنى بقولها :

ـ اننى أستطيع أن أصعد بمفردى ٠

على أنه لم يكن يبدو لى عندما رأيتها وسمعت صوتها أنها تستطيع الصعود بمفردها ٠

وهنا طوقتها من خصرها كما فعلت فى المرة الأولى فى ممر الحديقة ودفعتها من درجة الى درجة وأنا أسندها ٠

وكان يبدو فى الواقع أن هناك بداخل البيت ذلك الطنين الحاد السحيق الذى يخرج من بطون بعض القواقع ، كما كان يبدو أيضا أنه ما كان يصل الينا أى ضجيج آخر سواه ٠

وعندما وصلنا الى بسطة الباب لـم أفتح البـاب المقابل لهـا • ولكنى استدرت الى الجهة اليمنى نحو الدهليـز وأنا أجرها من يدها دون أن أتفوه بكلمة •

كانت أنفاسها تتردد سريعة قوية حتى كانت تسبب لى شيئا كثيرا من الألم مما كان يدلنى على ما تشعر به من الفزع والأسى •

وسألتنى بقولها :

ـ الى أين تذهب ؟

فأجبتها قائلا :

ـ اننا ذاهبان الى غرفتنا القديمة •

كان الظلام حالكا حتى لم يكن فى مقدورنا رؤية بعضنا بعضا بوضـوح وكنت كمن تحركه غريزة من الغرائز ووجدت أكرة الباب وفتحته ودخلنا •

وكان يخفف من وطأة هذا الظلام مايتسلل من نور من بين فتحات النوافذ• وهنا يزداد الطنين حدة • وكنت أريد أن أجرى بسرعة نحو هذا النور المتسلل لكى أضىء الغرفة بسرعة • ولكنى لا أستطيع مفارقة جوليانا • ويبدو لى أنه ليس فى مقدورى الابتعاد عنها • واننى لا أستطيع أن أفصل يدى عن يديها ولو مدى لحظة واحـدة • كما لو كانت أعصـابنا تنجذب الى بعضـها بقوة مغناطيسية هائلة • فتقدمنا سويا ونحن أشبه ما نكون بالعميان ولكن عائقا أوقف مسيرنا فى الظلام •

كان هو السرير • ذلك السرير الكبير الذى شهد زفافنا ومظاهر حبنا •

ترى الى متى نسمع تلك الصيحات المريعة ؟

ـ ٨ ـ

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر وانقضت حوالى ثلاث ساعات منذ اللحظة التى وصلنا فيها الى « فيلا ليللا » • وكنت قد تركت جوليانا بمفردها لبضع دقائق قلائل وذهبت لاستدعاء « كاليستو » ذلك الحارس العجوز الذى

حمل سلة طعام الافطار لأبلغه نبأ اجازة غريبة جديدة تلقاه فى شىء من الخبث وليس فى شىء من الدهشة والغرابة كما كان الحال فى المرة الأولى ٠

كنا الآن أنا وجوليانا نجلس الى احدى الموائد وكأننا اثنان من العشاق ، الواحد قبالة الآخر وأخذنا نتبادل الابتسامات ولدينا اللحوم الباردة والفواكه المحفوظة والبسكويت والبرتقال وزجاجة من زجاجات نبيذ « شابلى » ٠ وكان منظر الصالة بقبوتها ذات النقوش الباروقية وبجدرانها الفاتحة اللون وبما يظهر فى أعلاها من رسومات ريفية يدل على أنها ترجع الى القرن الماضى ٠ وكانت الشرفة المفتوحة لاتسمح الا بدخول نور خافت وذلك لأن السماء كانت ملبدة بخيوط طويلة بيضاء من السحب وتبرز وسط الحديقة المزدحمة بالزروع الخضراء شجرة السرو العتيقة الكبيرة التى تنبت عند سفحها كومة من الورود وعلى هامتها سرب من العصافير وتبدو هناك فى الأسفل ومن خلال السياجات الحديدية المقوسة تلك الغابة المنسقة التى تحكى لون زهرة الليلك التى هى مفخرة فصل الربيع فى « فيلا ليللا » ٠ والروائح العطرية الثلاث التى هى عماد الفيلا وحياتها الغضة تفوح وتتموج وسط هذا الهدوء تموجات وئيدة منتظمة ٠

كانت جوليانا تقول لى :

ـ هل تذكر ؟

ولا تفتأ تكرر هذا السؤال ٠

ـ هل تذكر ؟

كانت ذكريات حبنا البعيدة تتردد الواحدة تلو الأخرى على شفتيها وتنطق بها بصوت خافت ، وكانت زاخرة بحيوية غريبة بفضل وجودها فى مسقط رأسها بين الكثير من الأشياء المحببة اليها ٠

على أن مظاهر ذلك الاهتمام المقلق وتلك الحياة الصاخبة التى سيطرت على نفسى عند أول وقفة توقفنا فيها فى الحديقة والتى كادت تذهب بكل ما كنت أشعر به من آلام ، كانت توحى الى بتلك المشاهد المقبلة التى تتعارض مع صور ذلك الماضى الرهيب ٠

وهنا قلت لها : يجب أن نعود هنا غدا أو بعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر لكى نبقى هنا ولكن بمفردنا ٠ انك ترين أنه لم ينقص شيء هنا ولم تسط يد انسان على أى شيء مما كان هنا ٠ ويمكننا ــ اذا شئت ــ أن نقضى هنا أيضا هذه الليلة ٠٠ ولكنك لا تريدين ! هل أنت حقا لا تريدين ذلك ٠

حاولت أن أقنعها بكافة الوسائل ، بأقوالى وحركاتى ونظراتى وكانت ركبتان تلمسان ركبتيها وهى تحدق فى وجهى دون أن تجيب بكلمة واحدة :

ــ هل تتذكرين أول ليلة قضيناها هنا فى فيلا ليللا ؟ حيث خرجنا وبقينا فى الخارج حتى صلاة العشاء ورأينا النوافذ تسطع منها الأنوار ! لعلك تفهمين ذلك جيدا ٠٠ تلك الأنوار التى توقد فى احدى الأمسيات للمرة الأولى وفى الأمسية الأولى ؟ انك حتى الآن لم تعملى شيئا سوى أن تتذكرى وتتذكرى ٠ ومع ذلك فان جميع ذكرياتك لا تساوى عندى لحظة واحدة من لحظات اليوم ولن تعدل لحظة من لحظات الغد ٠ هل تشكين فى تلك السعادة التى تنتظرنا ؟ اننى لم أحبك قط كما أحبك الآن ٠ أتفهمين ما أقول ؟ واننى لم أكن لك بكلياتى وجزئياتى كما أنا لك الآن يا جوليانا ٠٠

لسوف أقص عليك كل شيء ٠ أقص عليك كيف كنت أقضى أيامى حتى تعرفى معجزاتك ، من ذا الذى يستطيع أن يؤمل فى أشياء مثل هذه بعد كثير من الآثام والخطايا ؟ لسوف أقص عليك ٠٠ كان يبدو لى فى بعض الأوقات أننى عدت الى عهد المراهقة والى عهد سنى شبابى الأول ٠

كنت أحس بنفسى حرا طليقا فى ذلك الوقت ، وكنت طيبا حنونا مخلصا ٠ ولم أكن أذكر شيئا آخر غير ذلك ٠ وكانت أفكارى كلها وبرمتها مشغولة بك وحدك كما كانت كل مشاعرى وعواطفى متجهة اليك ٠ وكانت رؤيتى فى بعض الأحيان لزهرة من الزهور أو لورقة صغيرة من أوراق الأشجار كفيلة بأن تجعل نفسى تفيض بالمرح والسرور لأنها كانت مليئة زاخرة ، ولكنك كنت لا تعرفين شيئا عن ذلك ٠ وربما كنت لا تدركين شيئا ، لسوف أقص عليك ٠

فى يوم السبت الماضى عندما دخلت عليك فى غرفتك بباقة الورود البيضاء ٠

كنت خجولا كأنني شاب حديث العهد بالعشــق ، وكنت أشعر بأنني أكاد أتحرق شوقا لأن آخذك بين ذراعى ·· ألم تدركى ذلك ؟

لسوف أقص عليك كل شيء ولسوف أجعلك تضحكين حتى تستلقى على قفــاك ·

فى ذلك اليوم كانت ستائر غرفة النوم تسمح لى برؤية سريرك من خلالها ولم أكن أستطيع أن أرد البصر عن هذا المكان ، وكنت أرتجف · ولكن كيف كنت ارتعد ! هذا ما لا تعرفينه ··

كنت قد دخلت مرتين أو ثلاثا قبل هــذه المرة فى غرفتك خفية بمفردى وقلبى يخفق خفقانا شديدا · وكنت قد رفعت الستائر لكى أشاهد سريرك ولكى ألمس بيدى مفارشه ولكى أدفن وجهى فى وسادتك كأننى عاشق ولهان·

وفى بعض الليالى عندما كان الجميع فى الضيعة يغطون فى سبات عميق كنت أغامر بالمجىء والسير رويدا رويدا حتى أصير على مقربة من بابك · وكنت أعتقد أننى أسمع أنفاسك ··

قولى لى بالله عليك ، قولى لى هل أستطيع أن آتى اليك هذه الليلة ؟ هل تريدين ؟ قولى هل ستنتظريني ؟ هل يستطيع كل منا أن ينام بعيدا عن الآخر هذه الليلة ؟ ان هذا لمستحيل! ان خدك سوف يجد مرة ثانية مكانه فوق صدرى هنا ·· أتذكرين كيف كنت تنامين دون تحفظ ؟

وهنا قاطعتنى وأخــذت تقول فى صوت تبدو فيه الضراعة كما لو كانت كلماتى قد أصابتها بسوء :

ـ بالله عليك ياتوليو ، بالله عليك ياتوليو ، الزم الصمت !

ثم أردفت قائلة والابتسامة تعلو شفتيها :

ـ لا يجب أن تجعلنى ثملة على هـــذا النحو ·· ولقد سبق أن قلت لك ذلك · اننى جد ضعيفة واننى امرأة مريضة مسكينة ·· انك تجعلنى أشعر بالدوار · اننى لا أستطيع الصمود · ألا ترى فى أية حالة جعلتنى ؟ لقد تركتنى وقد فقدت نصف روحي وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الموت ·

كان ثغرها يفتر عن ابتسامة خفيفة ويبدو عليها شيء كثير من التعب ، كانت جفونها قد احمرت الى حد ما ، ولكن كانت عيناها تستعران تحت هذه الجفون المنهكة وتقدحان شررا ، وكانتا تحدقان في وجهي باستمرار دون هوادة ولو أن ظلال أهدابها كانت تخفف من حدة هذه النظرات . ولقد كان في هيئتها وحركاتها شيء غير طبيعي لم تستطع عيناي أن تبصره ولم يستطع عقلي أن يدرك كنهه . ترى في أي يوم من الأيام كان لملامحها هذا الشكل الغامض الخفي المقلق الذي يدعو الى الحيرة ؟ كان يبدو بين الفينة والفينة أن تعبيرات ملامحها تصبح أكثر تعقيدا وتصير أكثر غموضا حتى تستحيل الى لغز من الألغاز . وكنت أقول لنفسي انها منهوكة القوى مما تشعر به في دخيلة نفسها من آلام ، واني لا أرى فيها حتى الآن بوضوح حقيقة ما حدث لها . وربما كان كل شيء في نفسها انقلب رأسا على عقب . ألم تتغير حياتها في لحظة واحدة ؟ كان هذا التعبير العميق يجتذبني اليها ويزيد في تأجج نيران عواطفي . وكانت نظراتها المستعرة تتغلغل الى نخاع عظامي كما لو كانت نارا محرقة . ورغما من انني كنت أراها خائرة القوى ، الا أنني لا أزال أتوق لأن آخذها بين ذراعي وأن أضمها الى صدري وأسمع صيحة أخرى من صيحاتها وأن التهمها التهاما .

قلت لها وأنا أبذل جهدا كبيرا لكي أبدد ذلك البخار الذي يتصاعد بسرعة الى رأسي :

ـ لا تأكلي شيئا .

ـ وأنت أيضا لا يجب أن تأكل .

ـ يجب أن ترتشفي رشفة من النبيذ على الأقل ، ألا تعرفين هذا النبيذ ؟

ـ أجل انني أعرفه .

ـ أتتذكرين ؟

واخذ كل منا ينظر في حدقة عين الآخر وقد تغيرت سحنته عندما ذكرنا حبنا الأول الذي كان يطفو فوقه دخان ذلك النبيذ الأبيض القليل المرارة والذي كانت جوليانا تؤثره على غيره من أنواع النبيذ الأخرى .

ـ لنشرب اذن سويا نخب سعادتنا وهنائنا .

قرعنا كأسينا ببعضهما وأخذت أرتشف النبيذ في رشفات كبيرة • أما هي فلم تكد تبلل شفتيها كما لو أنها شعرت بشيء كبير من الاشمئزاز •

ـ ماذا حدث ؟

ـ اني لا أستطيع أن أشرب ياتوليو •

ـ لماذا ؟

ـ قلت لك انني لا أستطيع فلا ترغمني على الشراب ، واني أعتقد أن قطرة أشربها لابد أن تؤذيني •

وبدا على وجهها شحوب الموتى •

ـ انك مريضة يا جوليانا !!

ـ قليلا ، لنقم هيا بنا الى الشرفة •

وعندما أحطت خصرها بذراعي شعرت برخاوة خصرها الشديدة ، وذلك لأنها خلعت أثناء غيابي حزامها العريض (البوست) ، وقلت لها :

ـ أتريدين أن تتمددي فوق السرير ؟ انك ستستريحين ، ولسوف أبقى أنا الى جانبك •

ـ لا ياتوليو انني بخير •

ووقفنا سويا على طرف الشرفة أمام شجرة السرو واستندت هي على حاجزها ووضعت احدى يديها على كتفي •

كانت تتدلى من حافة السقف أسفل الافريز مجموعة من أعشاش العصافير الداورية التي كانت تهرع اليها وتطير منها في حركة دائبة ونشاط لا يعرف الكلل • وكان السكون يخيم على الحديقة أسفل الشرفة كما لو كانت هامة شجرة السرو ساكنة لا تتحرك أمام أنظارنا حتى أن زقزقة العصافير وطيرانها وصوت رفرفتها بأجنحتها تجعلني أشعر بشيء من الضيق والكدر • ولما كان كل شيء يبدو خافتا ويكتنفه شيء من الغموض في هذا الضوء الهادىء فقد أردت أن أنعم بفترة طويلة من الهدوء وبشيء من الاستجمام لكي أستمتع بكل ما في هذه اللحظة من حلاوة ، وأتلذذ بهذه الوحدة الشاملة •

وهنا سألتها وقد عدت بذاكرتى الى تلك الأنغام الشجية التى كنا نسمعها فى المساء قائلاً :

ـ ترى ألا تزال هنا تلك البلابل ؟

ـ من يدرى ! ربما لا تزال هنا ٠

ـ انها تغرد فى المساء : ألا يسرك أن تسمعى شجوها مرة ثانية ٠

ـ ولكن ترى فى أية ساعة سوف يمر بنا فيديركو ٠

ـ انه سوف يمر فى ساعة متأخرة وأتعشم أن يكون ذلك كذلك ٠

وهنا صاحت بلهجة تنم عن التمنى الحار حتى شعرت بشىء كثير من السرور والبهجة قائلة :

ـ نعم أرجو أن يمر فى ساعة متأخرة ٠٠ ارجو أن يمر فى ساعة متأخرة ٠

وعندئذ سألتها وأنا أبحث عن الاجابة فى عينيها قائلا :

ـ هل أنت سعيدة ؟

فأجابت وقد أسبلت جفنيها قائلة :

ـ نعم اننى جد سعيدة ٠

ـ أتعرفين أننى أحبك وحدك ٠ وأننى ملك يديك ما حييت ٠

ـ أعرف ذلك ٠

ـ وأنت الآن ٠ كيف تحبيننى ؟

ـ اننى أحبك بدرجة لا تستطيع أن تتصورها يا عزيزى توليو ٠

بعد أن قالت هذه الكلمات ابتعدت عن سياج الشرفة واستندت الى بكل جسمها باحدى حركاتها العجيبة والتى لايمكن وصفها وفى شىء كثير من الحلاوة والرقة النسائية اللتين يمكن أن تصدرا عن أية امرأة نحو أى رجل من الرجال ٠ فقلت :

ـ ما أجملك يا جوليانا ! ما أجملك !

وفى الحق أنها كانت تبـدو لى جميلة وقد استعادت نضارتها وصـارت سلسة القيادة لدنة العود وتكاد تذوب رقة حتى جعلتنى أفكر فى أننى أستطيع أن أمتصها رويدا رويدا وأن التهمها التهاما وكانت خصل شـعرها اللامع المتهدلة فوق وجهها الشاحب تبدو كأنها قد استحالت الى موجة من موجات المياه · وأهدابها تلقى على أعلى خدودها ظلالا كانت تزعجنى وتسبب لى الحيرة أكثر مما كانت تسبب لى أية نظرة من نظراتها ·

ـ انك أنت أيضا لا تستطيع أن تعرف ·· ليتنى أحدثك عن تلك الأفكار الجنونية التى تدور فى مخيلتى ! انها لسعادة عظيمة وبالغة الى حد أنها تسبب لى أشد الألم وتكاد تبعث فى نفسى الرغبة فى الموت ·

وهنا كررت وهى تبتسم ابتسامة خفيفة فى شىء كثير من التذلل والخضوع كلمة « الموت » ·

ثم استطردت قائلة :

ـ ومن يدرى ياتوليـو اذا كنت لن أموت ·· اذا كنت تفقدنى فى وقت قريب !

ـ ماذا تقولين ياجوليانا ؟

وهنا نهضت واقفة على قدمها لكى تحدق فى وجهى وأردفت قائلة :

ـ قل لى ماذا أنت فاعل اذا أنا مت فجأة ؟

ـ يالك من طفلة !

ـ اننى اذا مت غدا على سبيل المثال فماذا أنت فاعل ؟

ـ اسكتى بالله عليك !

ثم أخذتها من صدغيها بين كفى وانهلت عليها لثما وتقبيلا ولم يحرم أى جزء من أجزاء وجهها من قبلاتى الحارة فقد قبلتها فى فمها كما قبلت وجنتيها وعينيها وجبينها وشعرها قبـلات سريعة خفيفة · وكانت تدعنى أقبلهـا · وليس هذا فحسب · بل اننى عندما كنت أتوقف عن تقبيلها كانت تغمغم قائلة :

ـ استمر فى تقبيلى !

قلت لها فى شىء من الاستعطاف وأنا اجرها من يديها :

ـ لنعد الى حجرتنا ٠

وتركتنى أجرها دون أن تبدى أى اعتراض ٠

كانت شرفة غرفتنا مفتوحة على مصراعيها وكانت رائحة الورود الصفراء العتيقة التى تزدهر على مقربة منا تدخل مع الضوء الآتى من هـــذه الشرفة وألوان الزهور الصغيرة الزرقاء المنقوشة على أطراف أبسطة الغرفة قد بهتت حتى يتعذر على الانسان أن يراها بوضوح ، وكان طرف من أطراف الحديقة ينعكس على مرآة أحد الدواليب ويبدو كأنه على مسافة بعيدة ، ومنظر قفاز جوليانا وقبعتها وأحد أساورها الموضوعة فوق احدى المناضد يبدو كأنه يذكر بحياتها الغرامية السالفة وتكمن فيه بعض الأسرار الخفية ٠

وكنت أقول بعد أن ضقت ذرعا وأحسست بأنه قد انتابنى من رؤية كل هذه الأشياء شعور لا أعرف كنهه بالخداع وبالموجدة عليها :

ـ غدا ، غدا يجب أن تأتى الى هنا ولا يجب أن نتأخر عن الغد ، يجب أن ننام هنا فى الغد ٠ انك تريدين ذلك أليس هذا صحيحا ؟

غدا !

ـ نريد أن نبدأ حبا من جديد فى هذا البيت وفى هذه الحديقة وفى هــذا الربيع ٠٠ نريد أن نبدأ حبنا كما لو لم يكن قد حدث شىء ويجب أن نبحث عن دعاباتنا القديمة الواحدة تلو الأخرى ٠ ونحس فى كل منها بطعم جديد لم نشعر به من قبل ونجد أمامنا أياما كثيرة ، وأياما كثيرة ٠

ـ لا ٠ لا يا توليو ٠ لا يجب أن نتحدث عن المستقبل ٠ ألا تعلم أن هــذا فأل سىء ؟ اليوم ٠ اليوم ٠٠ يجب أن تفكر في اليوم الذيأنت فيه وفيالساعة التى تنقضى ٠

وهنا التصقت بى بشدة وفى شىء من الجنون وبحماسة لا يمكن تصورها وهى تضغط علىَ بقوة وتنهال على فمى بالقبل ٠

- ٩ -

قالت جوليانا وهى تنهض من مكانها :

ـ بدا لى أننى أسمع قرقعة سنابك خيول عربية « فيديركو » ٠ لقد وصل فيديركو ٠

أرهفنا السمع ولكنها كانت مخدوعة فيما سمعت ٠

سألتنى قائلة :

ـ أليست هذه هى الساعة التى يجب أن يجىء فيها ؟

ـ نعم كادت الساعة تبلغ السادسة ٠

ـ رحمتك يا الهى ٠

أرهفت السمع من جـديد ٠ ولكن لم نسمع أية قرقعة تدل عـلى وصـول العربة ٠

وهنا قالت :

ـ من الأفضل أن تذهب أنت ياتوليو لكى ترى بنفسك ٠

خرجت من الغرفة ونزلت من السلم وكنت أترنح قليلا وأرى كأن ضبابا يخيم على عينى ويبدو لى أن بخارا يتصاعد من مخى ٠ فناديت وأنا واقف على الباب الجانبى من أبواب السور الخارجى على الحارس العجوز « كاليستو » الذى كان يسكن على مقربة من ذلك الباب وسألته عما اذا كان « فيديركو » قد وصل ٠ ولم تكن العربة يظهر لها أثر حتى تلك اللحظة ٠

كان الشيخ يود أن يستبقينى قليلا لكى يتحدث الى فقلت له :

ـ أتعرف يا « كاليستو » بأنه من المحتمل أن نعود غدا للاقامة هنا ٠

وهنا رفع « كاليستو » ذراعيه نحو السماء للتدليل على سروره وفرحته بهذا الأمر •

ـ أحقا ما تقول ؟

ـ حقا ولسوف يكون لدينا متسع من الوقت للحديث •

عندما ترى العربة تعال لاخطارى ، وداعا يا كاليستو •

وقد تركته لأعود أدراجي • وعندما آذنت الشمس بالمغيب أكثرت العصافير الداورية من صياحها • واصطبغ الجو بذهب الأصيل • وأخذت أسراب العصافير الكثيرة العدد تشق أجواز الفضاء ويبدو بريقها تحت خيوط الغروب المتوهجة بعد أن استدارت ناحيتى •

سألتنى جوليانا وهى واقفة أمام المرآة تلبس قبعتها قائلة :

ـ ما وراءك من الأخبار ؟

ـ لا شيء •

ـ انظر الى • هل لا أزال منكوشة الشعر ؟

ـ لا !

ـ ولكن ماذا أصاب وجهى ؟ انظر الى •

كان يبدو حقا أنها كمن قامت من نعشها نظرا لأنها منهوكة القوى وقد ارتسمت حول كل عين من عينيها حلقة زرقاء اللون •

واستطردت قائلة وهى تحاول الابتسام :

ـ ومع هذا فانى لا أزال فى قيد الحياة •

ـ هل تتألمين ؟

ـ لا ياتوليو • ولكن أشعر بشيء غريب لا أعرف كنهه ولا أدرى ماذا جرى لى ويبدو أننى ضعيفة خاوية وأن رأسى خاو وعروقى خاوية وقلبى خاو وفى وسعك أن تقول اننى منحتك كل شيء ولم أستبق لنفسي شيئا سوى مظاهر الحياة وحدها •

كانت تبتسم وهي تتفوه بهذه الكلمات الغريبة وفمها يفتر عن ابتسامة خفيفة غامضة كانت تحدث فى نفسى اضطرابا شديدا وتثير شيئا كثيرا من الضيق الذى لا يمكننى أن أصوره • كان اضطرابى شديدا بسبب غلمتى متخاذلا بسبب ما كنت أشعر به من نشوة • ولذلك كانت قواى الفكرية بطيئة متكاسلة • كما كانت نفسى حزينة مهمومة ولم يكن يتطرق اليها أى شيء من الريبة المشئومة ، ومع هذا فقد كنت أنظر اليها فى شيء كثير من التمعن والانتباه وكنت أفحصها بنظراتى فى شيء كثير من الضيق الذى لم أكن أعرف له سببا •

اعتدلت أمام المرآة ولبست قبعتها ثم اتجهت نحو المنضدة وتناولت السوار والقفاز •

ثم قالت :

ـ هأنذا على أتم الاستعداد •

وبدا أنها كانت تبحث عن شيء ما بما كانت تبديه من نظرات وأردفت تقول :

ـ لقد كانت عندى مظلة أليس كذلك ؟

ـ أجل أعتقد ذلك •

ـ يالله لابد أننى تركتها هناك فوق الأريكة التى فى الحديقة •

ـ هل نذهب للبحث عنها ؟

ـ اننى جد متعبة •

ـ اذن فسأذهب أنا بمفردى للبحث عنها •

ـ كلا ارسل الحارس العجوز « كاليستو » •

ـ سأذهب أنا وسوف أقطف لك بعض أغصان من شجرة الليلك كما سأحضر لك باقة من الورود ذوات الرائحة العبقة • هل تريدين ؟

ـ كلا • دع الزهور وشأنها •

ـ تعالي هنا واجلسي حتي أجيء فربما يتأخر فيديركو •

قلت هذا وأحضرت مقعدا كبيرا ووضعته الى جانب الشرفة ثم استلقت عليه جوليانا وقالت لى :

ـ بما أنك ستنزل فاسأل « كاليستو » عما اذا كان معطفى عنده • اننى لم أتركه فى العربة • أليس كذلك ؟ اننى أشعر بشىء من البرد •

ـ أتريدين أن أقفل لك باب الشرفة •

ـ لا • لا • دعنى أتطلع الى الحديقة • فما أجملها فى هذه الساعة هـل تراها ؟ حقا ما أجملها •

كانت أشعة الشمس الذهبية تنتشر هنا وهنالك فى حافة أرجاء الحديقة فتكسبها شيئا من السحر والجمال • وكانت هامات أشجار الليلك المزدهرة تتدلى وقد اصطبغت بلون قرمزى زاه • أما بقية الأغصان الكثيفة المزدهرة التى تختلف ألوانها ما بين الرمادى والأزرق فكانت تتموج فى الهواء وكأنها قطع من الحرير تتغير ألوانها كلما داعبتها الرياح •

وكانت أشجار الصفصاف العالية تنحنى بهاماتها الجليلة فوق حوض الأسماك الذى كانت مياهه شفافة صافية تكشف عما به من القواقع البراقة المتلألئة تحت أشعة الشمس الذهبيـة • وكان ذلك البريق المتكسر وتلك النباتات والحشائش المتشابكة وتلك الغابة الجميلة الزاخرة بالأزهار تشكل عند ذهب الأصيل الدابر منظرا خياليا ساحرا يخلب الألباب •

ظل كل منا مدى بضع دقائق صامتا لا ينبس ببنت شفة مأخوذا برهبـة الطبيعة الساحرة وجـلالها • وكانت تجتاح نفسى آنذاك موجة من الكآبة والحزن المضطرب • كما كان يعتمل فى داخلى ذلك اليأس القاتل الذى يكمن وراء كل حب انسانى •

وكان يبدو أن ارهاق جسدى قد ازداد وأن اضطراب أعصابى قد اشتدت وطأته ازاء ذلك المشهد الفريد الرائع • وكان يغمرنى احساس من الضـيق والضجر والوهن والندم الذى لم أكن أعرف له كنها • ذلك الاحساس الذى يعقب كبح جماح الرغبة الشديدة المستعرة •

وقصارى القول اننى كنت أعانى ألما ممضا •

قالت جوليانا وكأنها حالمة :

ـ هأنذا الآن أود أن أسبل جفونى ولا أفتحها بعد اليوم ٠

ثم أردفت تقول وقد سرت الرعدة فى جسدها :

ـ اذهب ياتوليو لأننى أشعر بشىء من البرد ٠

تمددت فوق الأريكة وانكمشت فى نفسها كما لو كانت تقاوم الرعدة التى كانت تنتاب جسدها ٠ وكان لون وجهها ولاسيما الأجزاء المحيطة بأنفها يحكى شفافية المرمر الداكن ٠ كما كانت هى أيضا تعانى آلاما مبرحة ٠

وهنا قلت لها فى شىء من الدهشة وأنا حزين مهموم أتطلع اليها وأحدق فى وجهها :

ـ انك عليلة يا عزيزتى ٠

ـ اننى أشعر بشىء من البرد ٠ اذهب واحضر الى معطفى على وجه السرعة٠ أرجوك أن تذهب ٠

فذهبت عدوا حتى وصلت الى « كاليسـتو » وأخذت المعطف وسرعان ما صعدت الى جوليانا ٠ وما أن تناولته من يدى حتى أسرعت بارتدائه وقد ساعدتها على ذلك وعندما استلقت فوق الأريكة مرة أخرى وأخفت يديها داخل أكمام المعطف قالت لى :

ـ اننى أحسن حالا على هذا النحو ٠

ـ سأذهب اذن لأحضر المظلة من أسفل ٠ أين تركتها ؟

ـ لا تذهب فلست بحاجة اليها الآن ٠

كنت أحس برغبة عجيبة فى العودة الى الحديقة والى ذلك المقعد الحجرى العتيق الذى توقفنا عنده بادىء ذى بدء والذى بكت عنده جوليانا ونطقت بهذه الكلمات الأربع القدسية :

ـ أجل وأكثر من ذلك ٠٠

هـل كان ذلك الاحساس مجرد ميل عاطفى ؟ أم أنه التطلع الى احساس جديد ؟ أم أنه كان نتيجة لذلك السحر الذى كان يحدثه فى نفسى منظرالحديقة الخلاب عندما تجنح الشمس الى المغيب ؟

وهنا قلت :

ـ اننى ذاهب ولسوف أعود بعد دقيقة واحدة ٠

ثم خرجت ٠ واذ كنت أسفل الشرفةناديت عـلى جوليانا فأطلت منها ، كان يبدو من خـلاله قوام جوليانا المـديد والذى زاده طولا معطفها الطويل الارجوانى الداكن والذى بدا وجهها من فوقه ناصع البياض الى حد كبير ٠

ان العبارات التى توجه بها الشاعر ياكوبو الى عشيقته « اماندا » ترتبط فى ذهنى ارتباطا وثيقا بصورة جوليانا التى لا تزال عالقـة بفكرى دون أن يعتورها أى تغيير أو تبديل ٠ اذ قال :

ـ ما أشد بياض وجهك هذه الليلة يا اماندا ؟ هل نزف الدم من عروقك لكى يتلون به رداؤك ؟

تراجعت جوليانا الى الوراء أو بالأحرى أقول ـ رغبة منى فى الاعراب عن احساسى وقت ذاك ٠ انهـا اختفت كلية من أمام عينى فتقدمت بسرعة الى ممر الحديقة وأنا لا أعى تماما السبب الذى كان يدفعنى الى ذلك ٠ وكنت أسمع وقع أقدامى يرن فى رأسى ، وكنت شارد الذهن حتى ضللت الطريق ٠ وكان لزاما على أن أتوقف قليلا لأتعرف على ممرات الحديقة ٠ ولكن ترى ماذا كان مبعث ذلك الهياج الأعمى الذى انتابنى ؟

ولقد فكرت فى نفسى قائلا :

ـ ربما كان ذلك يعزى الى علة من العلل الجسمانية أو الى حالة خاصـة من الحالات العصبية التى تنتابنى أحيـانا ، واذا كنت لا أستطيع أن أبذل أى مجهود ذهنى لاستجماع أفكارى وغير قادر على التعرف على الطريق الصحيح ولا أجد سبيلا للاستجمام وجمع شـتات فكرى ، ألفيت بنفسى تحت رحمـة أعصابى التى كانت تنعكس عليها مظاهر غريبة وتثير بعض الظواهر ذوات القوة الغريبة حتى صرت كأننى قد أصابنى نوع من الهذيان ٠

على أن بعض الأفكار كانت تبرز بوضوح وتطغى على غيرها وكانت تزيد في نفس ذلك الاحساس بالحيرة والارتباك الذى حركته فى نفسى بعض الأحداث غير المتوقعة .

لم تبد جوليانا فى ذلك اليوم على النحو الذى أرادت أن تظهر به فى شكل تلك المخلوقة التى كنت أعرفها وجوليانا التى عهدتها أيام زواجنا الأولى . ولم تسلك ازائى فى بعض الظروف ذلك المسلك الذى كنت اتوقعه منها .

كان هناك عنصر من العناصر الغريبة وشيء من التقلص والاضطراب قد غيرتا وشوهتا هيئتها .

هل كان من الممكن نسبة هذه التغيرات الى بعض الأمراض التى انتابتها وأثرت على صحتها :

انها طالما قالت اننى مريضة واننى أعانى مرضا شديدا كما لو كانت تريد أن تبرر حالتها الراهنة .

يقينا ان المرض قد يحدث تغييرات كبيرة وبوسعه أن يجعل أى انسان فى حالة لا يستطيع أحد معها أن يعرفه . ولكن ترى ماذا كان نوع المرض الذى أصابها ؟

هل هو ذلك المرض القديم الذى لم يشفه مبضع الجراح ؟ وهل طرأت عليه بعض المضاعفات وأصبح داء عضالا ؟

لقد قالت لى فى لهجة فريدة فى نوعها وفى عبارات كأنها التنبؤات :

ـ من يدرى اذا كنت لا أموت وتنقذنى بعد قليل ؟

لقد حدثتنى أكثر من مرة عن الموت .

ترى هل كانت تعرف انها تحمل فى جسدها جرثومة قاتلة ؟

ترى هل كانت تستولى عليها اذ ذاك فكرة منحوسة محزنة ؟

لعل مثل هــذه الفكرة قد أثارت فيها تلك الانفعالات العنيفة الجنونية اليائسة وهي بين ذراعي ، وربما كان ذلك الوميض القوى من السعادة قد رد اليها ذلك الطيف الذى كان يطاردها وجعله أكثر وضوحا وأشد هولا •

وقلت فى نفسى :

ـ اذن فانها قد تمـوت • ومن الممكن أن تدركها المنيــة حتى وهى بين ذراعى فى غمرة الغبطة والسعادة •

كنت أقول ذلك لنفسى وأنا أشـعر بالخـوف الذى كان يجمد الدم فى عروقى كلها ومنعنى لفترة من الزمن من الاستمرار فى التفكير حتى بدا لى أن الخطر قد أصبح وشيك الوقوع ، وأن جوليانا كانت تتكهن وتقول الحقيقة عندما ذكرت لى :

ـ اذا مت غدا على سبيل المثال فماذا أنت فاعل ؟

كان الشـفق قد أخذ يختفى رويدا رويدا وكانت بعض الرياح الخفيفة تداعب الشجيرات الصـغيرة فتحدث صوتا يحاكى الخشخشة التى تحدثها الحيوانات السريعة أثناء مرورها ، كانت لا تزال هنـاك بعض العصـافير الداورية المتفـرقة تلقى بصيحاتها وهى تنطلق فى الهـواء انطلاق الحصى الخارجة من النبال ، وكان الضوء فى الأفق الغربى قويا وكأنه انعكاس لنيران مشتعلة تنبعث من موقد كبير •

ولما وصلت الى الأريكة وجدت المظلة • وهنا عاودتنى الذكريات الأخـيرة التى كانت لا تزال قوية حية والتى أثرت فى نفسى •

وكنت أقول فى نفسى :

ـ انها فى هذا المكان قد تهاوت وهى مقهورة متضعضعة •

وهنـا أطلعتها عـلى ذلك السر العظيم وقلت لها هــذه الكلمات العظيمة الحاسمة •

قلت لها :

ـ لقد كنت مستقرة فى بيتى ، بينما كنت أبحث عنك فى مكان بعيد •

هنــا تلقيت من شفتيها ذلك الرحيق الذى جعل نفسى تبلغ ذروة السعادة، وهنا ارتشفت أولى دموعها وسمعت شهقاتها وسألتها ذلك السؤال الغامض عندما قلت لها :

ـ لعل الوقت أصبح متأخرا ؟ هل تأخرنا أكثر ما يجب ؟

كانت قد انقضت ساعات قلائل ، وكانت كل تلك الأشـياء ابتعدت عن مخيلتى ٠

كانت قد مرت ساعات قلائل ٠ وكان يبدو أن السعادة تبددت ، وبمعنى آخر لا يقل هولا أننى كنت أسمع ذلك السؤال فى قرارة نفسى مرة ثانية ، وكان حزنى يتزايد وكان ذلك الضوء الوهمى وذلك الغروب الصامت وذلك الضجيج المريب الذى كان يتخلل الحشائش والشجيرات التى كان قد اكتنفها الظلام ومظاهر الشفق الخداعة قد اتخذت فى ذهنى معنى مشئوما ٠

ترى هل كان الوقت متأخرا حقا وأكثر مما يجب ؟

كانت قد شـعرت بأنها مدانة وأنهـا تحمل فى داخلهـا بذرة المـوت ٠ انهـا تعبت من الحيـاة وتعبت من التـألم ولا تأمل فى الحصول على شيء منى ولا تجرؤ على قتل نفسها عـلى حين غرة بسـلاح من الأسلحة أو بأحد السموم ٠

ربما كانت هى السبب فيما أصابها من مرض أو قد ساعدت على وجوده وتركته خفيا لكى يزداد وينتشر ولكى تتأصل جـذوره ولكى يصبح مرضا عضالا ولا يرجى له شفاء ٠

لقد أرادت أن تسير رويدا رويدا وفى الخفاء نحو الخلاص من الحيـاة ونحو النهاية ٠

ولما كانت تراقب نفسها استطاعت أن تدرك حقيقة مرضها ٠ وهى الآن تعرف بل وتعرف بالتأكيد أنها سـوف تزل وتسقط مغلوبة على أمرها ٠ وربما تعرف أيضا أن الحب والشهوة وقبلاتى سوف تعجل بهذا المصير ٠

لسوف أعود اليها الى الأبد • ولسوف تتفتح أمامها آفاق من السعادة لم تكن لتحلم بها •

انها تحبنى وتعرف أننى أحبها حبا جما عارما •

وبين يوم وليلة أصبح حلم من الأحلام بالنسبة لنا حقيقة لا مرية فيها • ومع كل هذا هاهى ذى كلمة نطقت بها شفتاها وهى كلمة الموت •

ولقــد مرت أمام مخيلتى وأنا غارق فى بحر من الاضطراب تلك الصــور المفزعة التى أرهقتنى مدى الساعتين اللتين قضيتهما فى ذلك الصباح فى انتظار الانتهاء من اجراء العملية الجراحية عندما بدا لى أننى أرى أمام عينى بوضوح فى خريطة من الخرائط التشريحية كل تلك التكهنات المخيفة التى تحدثها الأمراض فى منطقة الرحم النسائى •

كذلك عادت الى مخيلتى ذكرى أخرى أبعد عهدا حملت فى طياتها صــورا واضحة وهى صورة الغرفة وقت الغروب والنــافذة المفتوحة على مصراعيها والستائر الخفافة وشعلة الشمعة المضطربة الموضوعة أمام المرآة الشاحبة ومختلف المظاهر التى تبعث على التشاؤم • وهى أن جوليانا وقد وقفت عــلى قدميها تستند الى أحد الدواليب وبدت على وجهها علامات التشنج وأخذت تتلوى كأنهــا قد ابتلعت ســما زعافا • وذلك الصــوت الذى كان يتهمنى ويقول لى :

ـ من أجلك ومن أجلك أنت أرادت ان تموت • انك انت وانت وحــدك الذى دفعتها الى الموت دفعا •

ولما كنت قد استولى على خوف شديد ونوع من الرعب الأعمى كما لو كانت جميع هذه الصور حقائق لا يتطرق اليها الشك فاننى أخذت أعدو نحو البيت• وعندما رفعت عينى وجدت البيت لا حس فيه ولا حياة وكانت فتحات النوافذ والشرفات يغمرها الظلام •

وصحت وقد شعرت بشىء كثير من الهلع وأنا أندفع فوق درج السلم كما لو كنت أخشى ألا أصل فى الوقت المناسب لكى أراها مرة ثانية قائلا :

ـ جوليانا ٠

ولكن ترى ماذا كان قد حدث بى ؟ أكان ذلك جنونا منى ؟

كنت ألهث من شدة التعب وأنا أصعد درج السلم التى كاد يخيم عليها الظلام ودخلت الغرفة مندفعا ٠

وهنا سألتنى جوليانا وهى تنهض من مكانها قائلة :

ـ ماذا حدث ؟

ـ لا شيء لا شيء ٠٠ كنت أحسب أنك تنادينى ٠ ولذلك عدوت قليلا ٠ قولى لى كيف أنت الآن ؟

ـ اننى أشعر بشيء من البرد وبكثير من البرد يا توليو ٠ ويمكنك أن تجس يدى ٠

ومدت لى يديها وكانتا صاقعتين كأنهما قطعتان من الثلج ٠

ـ لقد تجمد كل جسدى كما ترى ٠

ـ رحمتك يا الهى ٠ من أين جاءك هـــذا البرد ؟ وماذا أستطيع أن أعمل لجلب الدفء اليك ؟

ـ لا تتعب نفسك ياتوليو ٠ ليست هذه هى المرة الأولى التى أشعر فيها بمثل هذا البرد ٠٠ ان هذا البرد يلازمنى ساعات وساعات وليس هنـــاك ما يفيد ويجب أن تنتظر حتى تمر هـــذه النوبة ٠٠ ولكن ترى لمــاذا تأخر فيديريكو كثيرا ؟ ٠٠ لقد أرخى الليل سدوله ٠

وهنا ارتمت على ظهر الاريكة كما لو كانت قد استنفـدت كل قواها فى النطق بهذه الكلمات ٠

وعندئذ قلت وأنا أتجه نحو الشرفة :

ـ اننى أغلق الباب ٠

ـ لا لا دعه مفتوحا ٠٠ ليس الهواء هو الذى يسبب لى هذا البرد ٠٠ بل

انني في حاجة الى استنشاق الهواء ٠٠ تعال هنا ٠٠ بدلا من ذلك الى جانبي وخذ هذا المقعد ٠

وهنا ركعت على ركبتي وأخذت تمر بيدها الصاقعة على رأسي بحركة ضعيفة وهي تغمغم قائلة :

ـ يالك من مسكين ياتوليو ٠

وعندئذ قاطعت حديثها اذ لم أستطع الصمود أكثر من ذلك ٠ وقلت لها : وقلت لهـا :

ـ ولكن قولي لي ياجوليانا ياحبيبتي ياروحي ٠٠ قولي لي الحقيقة ٠٠ انك تخفين عني شيئا ما ٠ يقينا ان بك شيئا لا تريدين الاعتراف به ، هنا فكرة متركزة وسـط جنبيك وطيف لم يفـارقك قط منـذ اللحظـة التي جئنـا فيها هنا ومنذ اللحظة التي صرنا فيها سعيدين ٠٠ ولكن هل نحن سعيدان حقا ؟ هل أنت في استطاعت أن تكوني سعيدة ؟

قولي لي الحقيقة يا جوليانا ٠ لمـاذا تريدين أن تخدعيني ؟ نعم حقا انك مريضا وانك معتلة البدن وهذا صحيح أيضا ولكن ليس هذا هو السر كلا ٠ ان هناك شيئا آخر لا أفهمه ولا أعرفه ٠٠ قولي لي الحقيقة حتى ولو كانت هذه الحقيقة يجب أن تصعقني ٠ انك عندما كنت تشهقين بالبكاء في هـذا الصباح سألتك قائلا :

ـ هل تأخرنا أكثر مما يجب ؟

فاجبتني بقولك :

ـ لا لا ٠٠٠

ولقد صدقتك فيما تقولين ٠ ولكن ألم يكن اموقت متأخرا أكثر مما يجب لسبب آلخر ٠

هل كان هنـاك شيء يمنعك من الاستمتاع بهـذه السعادة الفائقة التي تفتحت أمامك اليوم آفاقا ؟ ان هناك شيئا تعرفينه وتفكرين فيه ٠٠ قولي لي الحقيقة

وهنا حدقت بعينى فى وجهها • ولما كانت قد لزمت الصمت فأننى لم أر رويدا رويدا سوى عينيها المفتوحتين واللتين كانتا مفتوحتين بشكل غريب، وكانتا حادتين وجامدتين لا تتحركان وقد اختفى كل شيء حولنا واضطررت الى أن أغمض جفونى لكى أبدد ما شعرت به من الفزع الذى أنزلته بقلبى هاتان العينان •

ولكن كم من الزمن استمر هذا الموقف ؟

هل دام ساعة أو ثانية ؟

وأخيرا قالت فى شيء كثير من البطء والألم :

ـ اننى مريضة •

وعندئذ تمتمت وقد فقدت رشدى اذ اعتقدت أننى أسمع من نبرات صوتها اعترافا ينطبق تمام الانطباق مع ما كان يساورنى من ارتياب قائلا :

ـ ولكن كيف تقولين انك مريضة ؟ وما نوع هذا المرض ؟ هل أنت مريضة مرضا يوجب الموت ؟

وانى لا أدرى بأية طريقة أو بأى صوت أو بأى شكل نطقت بهذا السؤال الصريح • وفى الحق اننى لا أدرى اذا كان هذا السؤال خرج من فمى كاملا واذا كانت سمعته كاملا •

قالت لى :

ـ لا ياتوليو • لم أكن أريد أن أقول هذا •• لا لا •• كنت اريد ان اقول انها ليست غلطتى ان كنت قد صرت بهذه الحالة واذا كنت قد صرت غريبة بعض الشيء •• انها ليست غلطتى •• يجب أن تصبر علىّ ويجب أن تأخذنى الآن على علاتى وكما أنا •• ثق أنه ليس ثمة شيء آخر واننى لا أخفى شيئا •• وسوف يكون فى مقدورى أن أبرأ من مرضى • ولسوف ابرأ منه ••• لسوف تصبر علىّ أليس كذلك ؟ •• سوف تكون طيبا رحيما •• تعال هنا ياتوليو ياروحى • وانك أنت أيضا غريب بعض الشيء كثير الشكوك على ما يبدو •• انك سرعان ماتخاف ويشحب لون وجهك ومن يدري أية صور ••

تعال هنا تعال هنا اعطنى قبلة ٠٠ ثم قبلة أخرى ٠٠ وقبلة ثالثة ٠٠ هكذا قبلنى ادفئنى ٠٠ ولسوف يصل الآن فيديريكو ٠

كانت تتحدث بلا انقطاع وبصوت يبـدو فيـه شيء من الخشونة وبتلك النبرات التى لا يمكن فهم مدلولهـا والتى تنم عن اللطف والحنان والقلق ٠ تلك النبرات التى كانت تبدو فى صوتها عندما كانت جالسة على مقربة منى منذ ساعات قلائل فوق الأريكة لتهدئة خاطرى وللتنفس عن كربتى ٠

كنت أقبلها ٠ ولما كانت الأريكة التى تجلس عليها فسيحة وواطئة فانها ـ وقد كانت نحيفة ـ أفسحت لى مكانا الى جانبها وتعلقت بى وهى ترتجف وأخذت بيدها طرفا من أطراف معطفها وغطتنى به ٠

وكنا كما لو كنا فى مضجع ملتصقين صـدرها فوق صـدرى واختلطت أنفاسنا ببعضها ٠

وكنت أقول لنفسى :

ـ ليت كل أنفاسى وليت التصاقى بها يستطيع أن ينفث فيها كل ما فى جسمى من حرارة ٠

وكنت أبذل جهـدا عنيفا وضائعا حتى تنتقل حرارة جسمى الى جسدها وتمتمت قائلا لها :

٠٠ اننى فى هذه الليلة ٠ وفى هذه الليلة بالذات ، سوف أمسك بك أكثر وأضحك أكثر من هذا وأنا فى سريرك ولن تشعرى بالرعدة بعد ذلك ٠

ـ نعم نعم ٠٠

ـ لسوف ترين كيف يتسنى لى أن أضمك الى ٠ لسـوف أجعلك تنامين ملء جفونك ٠ لسوف تنامين طوال الليلة فوق صدرى ٠

ـ نعم ٠

ـ لسوف أجعلك تسهرين ولسوف أرتشف ريقك ٠ ولسوف أقرأ عـلى محياك الأحلام التى تحلمين بها ٠ وربما سوف تنادينى فى أحلامك ٠

ـ نعم نعم •

ـ واننى أذكر أنك فى بعض الليالى كنت تتحدثين فى أحلامك •

كـم كان ذلك يسرنى ! وياله من صـوت ذلك الذى كنت أسمعه ! انك لا تستطيعين أن تتصورى ذلك •• انه صوت لم تستطيعى أن تفهميه قط • واننى أنا وحدى الذى أعرفك دون سـواى •• ولسوف أسمعه هنالك مرة ثانية • ومن يدرى ماذا سيقول ؟ ربما تنادينى وما أجمل فمك عندما تنطقين بأول مقطع من مقاطع اسمى •

انه يبدو كأنه صوت قبلة من القبلات •• أتعرفين ذلك ؟ ولسوف أهمس فى أذنك ببعض كلمات حتى أتغلغل فى صميم أحلامك •

أتذكرين كم من المرات كنت فى الصباح أخمن شيئا مما رأيته فى أحلامك ؟

لسوف ترين ياروحى العزيزة أننى سأكون أرق مما كنت فى ذلك الحين ولسوف ترين ما أقدر عليه من الحنان لابرائك من علتك ، انك فى حاجة الى كثير من الحنان أيتها المسكينة •

كانت ترد على كل عبارة من عبـاراتى بكلمتى ، نعم نعم ، فى شىء من الاستسلام وهى تشجعنى على ماكنت واقعا فيه من وهم وضلال وتزيد فى تلك النشوة العنيفة التى كنت أشعر بها والتى كانت تبدو فى صوتى ومن الاعتقاد بأنها قد نامت على صوت هدهدة شهية •

سألتها وقد نهضت قليلا لكى أستمع جيدا قائلا :

ـ هل سمعت ؟

ـ ماذا ؟ هل وصل فيديريكو ؟

ـ لا ، اسمعى •

وأخذ كل منا ينصت ونحن ننظر الى ناحية الحديقة •

كانت الحديقة تضطرب بكتلة بنفسجية اللون يقطعها بريق مياه حوض السمك ولمعانه • وهناك منطقة من النور تغمر جانبا من السماء وهى منطقة فسيحة مثلثة الألوان • كانت حمراء دامية فى أسفلها ، ثم برتقالية فى وسطها ، ثم خضراء فى أعلاها • ولكنها خضرة تشبه خضرة النباتات الذابلة • تردد فى سكون الشفق صوت صاف رنان بمقدمة معزوفة على الناى : كنه تغريد البلبل الصداح •

وهنا همست جوليانا فى أذنى قائلة : انه فوق شجرة الصفصاف •

فأرهفنا السمع نحن الاثنين وأخذنا نتجه بأنظارنا الى الأفق البعيد الذى كان يتوهج فى لحظات الأصيل الأخيرة • وكانت نفسى حائرة معلقة بين السماء والأرض حتى اننى كنت أتوقع أن تميط لغة الصمت هذا اللثام عن حقيقة حب سام جليل •

ترى ماذا خالج نفس تلك المخلوقة المسكينة التى كانت الى جانبى فى تلك اللحظات التى لم ينبس خلالها أحدنا ببنت شفة ؟ والى أى ذروة من ذرى الآلام وصلت تلك الانسانة التعسة ؟

كان البلبل يغرد بصوته امشجى الذى كان تغريده بادىء ذى بدىء أشبه شىء باندفاع فى شجو حزين أو بمجموعة من الأنغام الخفيفة تتطاير فى الهواء فتحدث أنغاما شبيهة بأصوات ارتطام اللآلى بفتحات الناى وتلت ذلك فترة من السكون • وبعدئذ ارتفع صوت تغريده واستمر مدة طويلة بصوته الرنان كما لو كان هذا البلبل يجرب مقدرته على التغريد وقوته على رفع صوته الى أكبر حد ممكن كما لو كان فى مباراة بينه وبين غريم مجهول • ثم تلت ذلك فترة أخرى ساد فيها السكون ثم عاد البلبل الى أنشودته التى تضمنت ثلاثة أنغام مختلفة بدا فيها كأنه يتساءل عن شىء ما ، ثم تحولت هذه الأنغام الى سلسلة متصلة من الألحان الخفيفة ، وكان البلبل يكرر نغماته الأولى خمس أو ست مرات ، وكان يغير ويبدل فيها كما لو كان يعزف على ناى صغير من تلك النايات المتعددة الأصوات أو على احدى صفارات الرعاة وبعد ذلك حدثت فترة سكون ثالثة وأصبح التغريد محزنا واستحال الى نغمات خافتة ولم يلبث أن ضعف حتى أصبح كأنه الهمسات أو ترديد الأنفاس • ثم تحول

الى ما يشبه الأنين ، وكأنه يعبر عن حزن عاشق مهجور تخلت عنه حبيبته وعن رغبته الدفينة وعن انتظاره الذى لا جدوى منه • ثم ألقى دعاء أخيرا على حين غرة كان حادا كأنه صرخة من صرخات الألم ، ثم سكت • وبعدئذ سادت فترة سكون كانت أشد ايلاما • وعندئذ سمعت نبرات جديدة كان يبدو أنها لا تخرج من حنجرة ذلك البلبل وذلك لأنها كانت ذليلة خجولة ضعيفة أشبه ما تكون بأصوات العصافير عند خروجها مو بيضها وبشجو عصفور دورى صغير ، ثم تحولت هذه النبرات الضعيفة الى أصوات أخذت ترتفع بسرعة ثم ازدادت وضوحا أثناء طيرانه وتحولت الى أغاريد صداحة وكانت تضعف ثم تزداد حتى تبلغ ذروتها •

ويبدو أن ذلك العصفور الشادى كان مسرورا بتغريده ويقطع تغريده بين الفينة والفينة حتى يبدو أن هذه النغمات لن تكون لها نهاية •

وكان ينفث سروره فى تلك النغمات الشجية الحلوة الخافتة المتغيرةوالتى تقطعها طورا بعض الأنات الضعيفة الشاكية وطورا آخر بعض الترديدات الغنائية والابتهالات العالية •

ويبدو أن الحديقة تنصت هى الأخرى الى شدو البلبل الصداح وأن السماء تنحنى فوق هذه الشجرة الحزينة التى يقف على هامتها شاعر من الشعراء يختفى بين أغصانها وتنساب من فمه موجات من الشعر العذب الرقيق •

وسكون رهيب يخيم على الغابة الزاخرة بالأزهار ويفوح منها عبير قوى نواح • وكان نور خافت لا يزال يبرق فى الجهة الغربية • وكان هذا هو آخر نظرة من نظرات النهار مليئة بالحزن والأسى • على أنه سرعان ما بزغ نجم متلألىء فى كبد السماء وكان أشبه شىء بقطرة لامعة من قطرات الندى •

وهنا غمغمت قائلا وأنا أكاد أكون فى غير وعى :

ـ غدا !

وكأنى كنت بهـذه الكلمات التى كانت تنطوى فى نظرى على عـديد من الوعود أطيب خاطرى وأهدىء من روعى ٠

ولما كنا نرهف السمع فـكان من الطبيعى أن يشرئب عنق كل منا بعض الشىء وظللنا على هذا النحو دقائق قليلة ٠

وبينما نحن كذلك اذا بى أحس على حين غرة برأس جوليانا يرتطم بثقله بكتفى كما لو كان جسما جامدا لا حياة به ٠

وهنا صحت بها والفزع آخذ منى كل مأخذ قائلاً :

ـ جوليانا ! جوليانا ! ماذا بك ؟

وكانت نتيجة الحركة التى بدت منى أن هـوى رأسـها الى الخلف بكل ثقله كما لو كان جسما جامدا لا حياة فيه ٠

وهنا صحت بها ثانية قائلا :

ـ جوليانا !

لكنها مع ذلك لم تكن لتسمع صوتى ولما رأيت شحوب الموتى البادى على محياها الذى كانت تظهره خيوط الأصيل الدابر المنتشرة فى أرجاء الشرفة خطرت ببالى فكرة ارتعدت لها فرائصى وجعلتنى أنتفض انتفاضة شديدة ٠ ثم أخذت ـ دون تفكير وقد تركت جوليانا تتهاوى فوق ظهر الأريكة فاقدة الوعى ودون أن أكف عن مناداتها باسمها ـ فى أن أحل ازرار ردائها من فوق صدرها بيدين مرتعشتين وأنا قلق أتلهف الى سماع دقات قلبها ٠

وهنا حضر فيديريكو ، اذ تنـاهى الى سمعى صـوته المنطلق وهو ينادى علينا قائلا :

ـ أين أنتما أيتها الحمامتان ٠

- ١٠ -

لـم يمض وقت طويل حتى أفاقت جوليانا واستعادت رشـدها ، وما ان أصبح فى مقدورها الوقوف على قدميها حتى رغبت فى الصعود الى العـربة على وجه السرعة للعودة الى الضيعة • وكانت تتغطى بسترتينا وهى منكمشة فى مكانها صامتة لا تنبس ببنت شفه •

وكنا أنا وشقيقى فيديريكو ينظر كل منا الى الآخر بين الفينة والفينـة والقلق آخذ منا كل مأخذ • وسائق العربة يلهب صهوات الجياد بالسياط، وكان وقع سنابك الخيل يرن صـداه قويا فى أرجاء الطريق الذى تحف به من كلا الجانبين سياجات النباتات المزدهرة • وذلك فى أمسية من أمسيات شهر أبريل ، كان الجو فيها لطيفا رائعا والسماء زرقاء صافية الاديم •

وبين الحين والآخر كنا أنا وفيديريكو نسأل جوليانا قائلين :

ـ كيف حالك يا جوليانا ؟

وهى تجيبنا بقولها :

ـ أننى أشعر بتحسن طفيف •

ـ أتشعرين بشىء من البرد ؟

ـ نعم • أشعر بشىء قليل •

كانت تجيبنا وهى تبذل مجهودا واضـحا • ويبـدو أن أسئلتنا تغضبها وتضايقها حتى انها قالت لشقيقى فيديريكو • وقد ألح فى أن يتجاذب معها أطراف الحديث :

ـ معذرة يا فيديريكو •• فان الكلام يسبب لى شيئا من الضيق •

ولما كان غطاء العربة منشورا عن آخره فانها كانت قابعة فى مكان بعيد عن الضوء لا حراك بها متدثرة بالأغطية • ولقد انحنيت فوقها أكثر من مرة لأنظر الى وجهها اعتقادا منى أنها اما أن تكون أخذتها سنة من النوم أو خشية أن تكون مغشيا عليها • وفي كل هذه المرات كان يخالجني شعور واحد لم

أكن لأتوقعه بالهلع والخوف عندما كنت ألاحظ عينيها المفتوحتين المحدقتين وسط الظلام •

وانقضت بعد ذلك فترة صمت طال أمدها والتزمت أنا وفيديريكو الصمت أيضا ولم يكن يبدو لى أن الجياد كانت تركض ركضا سريعا وددت لو آمر سائق العربة أن يلهث صهواتها بالسياط لتسرع العدو حتى اننى صحت به قائلا :

ـ ألهب بسوطك ظهور الجياد يا جيوفانى •

كانت الساعة قد بلغت العاشرة الا قليلا حينما وصلنا الى الضيعة وكانت أمى فى انتظارنا وهى على مضض بسبب تأخرنا •

وما ان رأت جوليانا فى حالتها التى كانت عليها حتى قالت :

ـ اننى كنت أتوقع أن يكون العناء والتعب قد ألحق بك الضرر •

أما جوليانا فأرادت أن تطمئنها وتهدىء من روعها اذ قالت لها :

ـ لا شىء يا أماه • لسوف ترين أننى سأكون أحسن حالا فى صباح الغد• ان الأمر لا يعدو أن يكون شيئا بسيطا من التعب •

غير أن أمى عندما تطلعت اليها فى النور صاحت وقد استولى عليها الفزع والهلع قائلة :

ـ يا الهى يا الهى ! ان وجهك يبعث الرعب فى نفسى • انك لا تستطيعين الوقوف على قدميك •• هيا يا اديت وأنت يا كريستينا اصعدا بسرعة واعملا على تدفئة السرير وتعال أنت يا توليو لنحملها سويا الى فوق •

الا أن جوليانا كانت تصر وهى تبدى اعتراضها على ذلك قائلة :

ـ لكن لا ، لكن لا طبى نفسا يا أماه ولا تنزعجى اذ ليس ما يدعو الى الانزعاج •

وهنا صاح فيديريكو قائلا :

ـ سوف أذهب الى « توسى » بالعربة لاحضار الطبيب ولسوف أعود فى مدى نصف ساعة من الزمن ٠

فصاحت جوليانا واحتدت كما لو كانت استشاطت غضبا وقالت :

ـ لا يا فيديريكو لا ٠ لا أريد الطبيب فلن يستطيع أن يعمل لى شيئا ٠ وانني أعلم ماذا يجب على أن آخذه من الأدوية وعندى فى الطابق العلوى كل شيء هيا بنا يا أماه ، يا الهى ! انكم سرعان ما تنزعجون ٠ هيا بنا هيا بنا

بدا أن جوليانا استعادت قوتها دفعة واحدة وخطت بضع خطوات ثابتة وكنت أنا وأمي نسندها أثناء صعودها درج السلم ٠

وما أن وطأت قدماها أرض غرفتهـا حتى اعترتها نوبة قيء شـديدة استمرت معها بضع دقائق ـ الأمر الذى جعل النساء يأخذن فى خلع ملابسها التى اتسخت من أثر القيء ٠

وهنا توسلت الى قائلة :

ـ اذهب الآن يا توليو أرجوك أن تذهب وعد بعد قليل ٠ لتراني ولاتجشم نفسك عناء البقاء طالما أن أمي باقية معى هنا ٠

فخرجت وظللت أنتظر فى غرفة من الغرف المجـاورة حيث جلست فوق احدى الأرائك ، ارهف السمع لوقـع أقدام الخـدم من النساء اللواتى كن منهمكات فى عملهن وأعض اصـابعى من عدم الصبر وكنت أشعر بكثير من الضـيق ، وأقول لنفسى : « ترى متى أسـتطيع الدخول اليها مرة ثانية ٠ ويتسنى لى البقاء معها بمفردها ٠ أسهر عليها وأبيت آناء الليل الى جـانب سريرها ؟ ربما فى غضون سـاعات قلائل تهـدأ وتعود الى حالتها الطبيعية وتتحسن صحتها ٠ واننى اذا ما مسحت بيدى على شعر رأسها فربما يكون فى طوقى أن أجلب النوم الى جفنيها ومن يدرى ! فقد لا يمضى وقت طويل حتى تقول لى وهى بين اليقظة والمنام ٠٠ تعال الى » وكنت أثق ثقة عجيبة بسحر دعاباتى وتأثير ملاطفاتى ولا ازال آمل أن تنتهى تلك الليلة نهـاية سـعيدة ٠ وكانت تلك الصورة الخياليـة ترتسم أمام مخيلتى ولا تلبث أن

تستحيل الى رؤية واضحة تدوم بعض الوقت وذلك على غرار ما يحدث معى دائما وأنا غارق فى لجة الأحزان التى يبعث بها الى نفسى مجرد التفكير فيما تعانيه جوليانا من ألم ممض ٠ اذ كنت أتخيلها على ضوء المصباح المنير خلف ستائر سريرها شاحبة يحكى لون وجهها قميصها الأبيض عندما تصحو بعد أول غفوة قصيرة وتنظر الى بعينين مسبلتين يبدو فيهما الضعف وتغمغم قائلة : « تعال لتنام أنت أيضا » ٠

وهنا دخل فيديريكو وقال فى شىء كثير من الاشفاق :

ـ كيف حالها الآن ؟ يبدو أنه ليس هناك أمر ذو بال ٠ فلقد تحدثت مع الآنسة اديت على درج السلم ٠ ألا تريد النزول معى لتناول شىء من الطعام ؟ انهم قاموا هناك باعداده ٠٠

ـ لا ٠ فليست عندى (شهية) الآن وربما يكون ذلك فيما بعد ٠٠ اننى أنتظر هنا حتى يستدعونى للدخول الى غرفة جوليانا ٠

ـ اذن أذهب أنا اذا لم تكونوا بحاجة الى ٠

ـ اذهب كما تشاء يا فيديريكو ولسوف أنزل فيما بعد ، شكرا لك على كل حال ٠

أخذت أتعقبه بنظراتى وهو يبتعد عنى وها أنذا أشعر مرة اخرى بالثقة فى أخى الطيب ويتسع قلبى له مرة أخرى ٠

مر ما يقرب من ثلاث دقائق سجلتها بتكتكتها الرتيبة ساعة الحائط المستندة على الجدار المقابل لى وكانت عقاربها تشير الى العاشرة وخمس وأربعين دقيقة ٠ وبينما كنت أهم بالقيام وقد ضقت ذرعا بالانتظار وأتجه صوب غرفة جوليانا دلفت أمى والتأثر باد على محياها وقالت فى صوت خفيض ٠

ـ لقد هدأت وهى الآن بحاجة الى قسط من الراحة ٠ لك الله يا ابنتى المسكينة ٠

وهنا سألتها قائلا :

ـ هل أستطيع الذهاب اليها ؟

ـ نعم اذهب ولكن دعها تسترح ٠

وما ان أخذت فى التحرك حتى نادتنى قائلة :

ـ توليــو ! ! ‌

ـ ماذا تريدين يا أماه ٠

أما هى فكان يبدو عليها شىء من التردد والارتباك :

ـ قل لى ٠٠ هل تحدثت مع الطبيب بعد اجراء العملية الجراحية ؟

ـ نعم فى بعض المرات ٠ ولكن لماذا ؟

ـ هل أكد لك أن هناك ضررا ٠٠

كانت تقول هذا وهى مرتبكة ٠ ثم أردفت تقول :

ـ ان هناك ضررا قد يصيب جوليانا اذا ما وضعت مولودا آخر ٠

لم أكن تحدثت مع الطبيب ولذلك لم أكن أعرف بماذا أجيب ٠ ولذلك ما كان منى الا أن تساءلت مرة ثانية وأنا فى شىء من الاضطراب قائلا :

ـ ألم تلاحظ أن جوليانا حبلى ؟

وعندئذ أمسكتنى أمى من كلتا يدى وقالت لى :

ـ ماذا حدث لك يا توليو ؟

ـ ما كنت أعرف أن ٠

ـ ولكنك بهذا تنزل الرعب فى قلبى فان الطبيب ٠٠

ـ أجل ان الطبيب ٠٠

ـ تعال يا توليو واجلس الى جوارى ٠

قالت هذا وأجلستنى فوق الأريكة وكانت تنظر الى فى قلق واضطراب شديدين فى انتظار أن أتكلم ولكنى ظللت مدى بضع لحظات قلائل لا أرى أمى مع أنها كانت على مرأى من عينى وهنا ومض فى عقلى فجأة وعلى حين غرة نور قوى شديد وتمثلت أمامى تلك المأساة المفجعة ٠

ترى من الذى وهبنى القوة آنذاك لكى أستطيع الصمود ؟ ومن الذى حفظ لى عقلى من أن يصيبه مس من الجنون ؟ لعلنى وجدت فى شدة الألم وعظم الرعب الذى انتابنى ، الشعور البطولى الذى أنقذنى •

وما ان أفقت واستعدت كامل وعيى وفهمت حقيقة الأشياء المحيطة بى ورأيت أمى التى كانت تنظر الى عن كثب فى قلق شديد حتى أدركت أنه كان لزاما على أن أعمل قبل كل شىء آخر على أن أطمئن أمى •

فقلت لها :

ـ ما كنت أعرف •• لأن جوليانا لم تقل لى شيئا ولم ألاحظ أى تغيير عليها •• انها مفاجأة •• حقا ان الطبيب حدثنى عن أن هناك بعض الأخطار والأضرار •• ولذلك أحدث هذا النبأ الذى تلقيته منك الآن مثل هذا الأثر فى نفسى •• ولعلك تعلمين أن جوليانا الآن هى من الضعف بمكان •• وفى الحق ان الطبيب لم يقل ان هناك خطرا بالغا لأنه طالما أن العملية الجراحية نجحت •• لسوف نرى وسنستدعيه الى هنا لاستشارته •

ـ نعم نعم ان ذلك أمر لابد منه •

ـ لكن هل أنت متأكدة يا أماه من أنها حبلى ؟ هل اعترفت لك جوليانا بذلك ؟ أم أنك ••

ـ اننى استنتجت ذلك من الامارات المعهودة التى تدل على الحمل وانه لمن المستحيل أن ينخدع الانسان ازاء تلك الامارات الواضحة ، ان جوليانا منذ يومين أو ثلاثة أيام كانت تنكر أنها حبلى أو على الأقل تقول انها ليست على يقين من ذلك •• ولما كانت تعلم مدى خوفك عليها فقد رجتنى ألا أحدثك عن هذا الموضوع فى الوقت الراهن ولكننى أردت أن أخطرك بالأمر فقط •• وانك تعرف مدى اهمال جوليانا وعدم اهتمامها بصحتها ! انظر انها بدلا من أن تتحسن صحتها هنا يبدو لى أنها تمضى يوما بعد يوم من سىء الى أسوأ هذا بينما أسبوع واحد تقضيه فى الريف أيام زواجكما الأولى كان كفيلا بأن يجعلها تترعرع وتزدهر • أتذكر ذلك ؟

ـ نعم أن هذا صحيح •

ـ ان الاحتياطات فى مثل هذه الأحوال لا تعد كثيرة الى حد كبير ويتحتم عليك أن تكتب بذلك على وجه السرعة الى الطبيب « فيبستى » ٠

ـ نعم سأكتب اليه فى الحال ٠

واذ كنت أحس أنه لن يكون فى طوقى أن أتحكم فى اعصابى اكثر من ذلك نهضت من مكانى وأنا أردف قائلا :

ـ انى ذاهب الآن الى جوليانا ٠

ـ اذهب لكن دعها تسترح هذه الليلة ٠ دعها فى أمان وسلام ٠ سوف أنزل ثم أعود الى هنا مرة أخرى ٠

ـ شكرا لك يا أماه ٠

وغمغمت وهى تبتعد قائلة :

ـ بارك الله فيك يا ولدى فيالك من ولد طيب ٠

توقفت على عتبة الباب المقابل ثم استدرت ورأيت تلك الانسانة الطيبة التى كانت لا تزال تسير فى طريقها دون أن تلتفت يمنة أو يسرة تختفى من أمام عينى وهى ترتدى ثوبها الأسود الذى يخلع عليها كل معانى التجلة والنبل والاحترام ٠

وهنا اعترانى احساس لا يمكن وصفه وربما كان أشبه شىء بذلك الاحساس الذى كنت أشعر به اذا ما انهار البيت دفعة واحدة وفى لمح البصر وكان كل شىء فى نفسى ومن حولى قد أخذ ينهار ويتحطم بلا انقطاع ٠

ـ ١١ ـ

ترى من من الناس لم يسمع فى بعض الأحيان غيره من البشر الذين أخنى عليهم الدهر وقلب لهم ظهر المجن وهو ينطق بهذه العبارة : « اننى عشت فى ساعة من الزمن عشر سنوات بأكملها » وهذا لعمرى أمر لا يمكن تصوره ولو أننى أدركه حق الادراك ٠ ألم أعش اكثر من عشر سنوات فى غضون

تلك الدقائق القلائل التى جرى بينى وبين أمى خلالها ذلك الحوار فى شىء من الهدوء ؟ ان سرعة الحياة الانسانية داخل نفس الانسان لهى أعجب مظاهر الكون وأكثرها مدعاة للخوف والهلع ٠

والآن ماذا كان ينبغى عـلى أن أفعله ؟ كانت تجتاح نفسى آنذاك نوبات جنونية وكنت أفكر فى أن أهرب تحت جنح الظلام الى مكان ناء بعيد أو ان أقبع فى عقر غرفتى الخاصة لأحتبس فيها وأبقى بمفردى أتأمل فى حياتى التى أصبحت ركاما وأطلالا وأقلبها على جميع أوجهها ٠ غـير أننى استطعت أن صمد ٠ وظهر سمو طبيعتى بصورة جلية فى تلك الليلة ٠ واستطعت أن انتزع من بين الألم الممض صفة من صفاتى الأكثر شهامة ورجولة ٠ وقلت فى نفسى : « من اللازم ألا يبـدو أى عمـل من أعمـالى غريبا لا تعليل له بالنسبة لأمى وأخى أو بالنسبة لأى شخص آخر فى هذا البيت ٠

وتوقفت أمام باب غرفة جوليانا وأنا لا أجد فى نفسى القـدرة على ايقاف تلك الرعدة التى كانت تسرى فى جسدى وتهزنى هزا عنيفا ٠ ولما سمعت وقع أقدام تصـل الى الدهليز دلفت الى الغرفة بخطوات ثابتـة حيث ألفيت الآنسة « ايديت » تأتى من ناحية السرير على أطراف أصابع قدميها وأشارت الى بألا أحدث أية ضوضاء ٠

ثم قالت لى بصوت خفيض :

ـ انها على وشك النوم ٠

قالت هـــذا ثم انصرفت وأغلقت البـاب من دونها فى شىء كثـير من الهـدوء ٠

كان المصباح يشع ضوءا وهو معلق وسط القبو وكان نوره ثابتا هادئا وكان المعطف الأرجوانى موضوعا فوق أحد الكراسى وفوق كرسى آخر ذلك الحزام العريض ذو الخطوط السوداء الذى كانت جوليانا خلعته فى « فيلا ليللا » أثناء فترة غيـابى القصيرة ٠ وهنـاك فوق كرسى ثالث ذلك الرداء الأنيق الرمادى اللون الذى كانت تلبسه وتحف به أزهار الليلك اليانعـة ٠ وكانت رؤية هذه الأشياء تسبب لى ألما ممضا حتى اننى شـعرت من جديد

بحاجة شديدة الى اللواذ بالفرار والهرب • واستدرت ناحية المخدع وأزحت عنه الستائر ثم رأيت السرير ورأيت فوق الوسادة كتلة شعرها الأسود الداكن ولكنى لم أر وجهها • رأيت بروز جسدها بوضوح أسفل الأغطية وهنا تمثلت أمام مخيلتى تلك الحقيقة البشعة فى أفظع صورها وأكثرها دناءة ووحشية • وكنت أقول لنفسى : « لقد استولى عليها رجل آخر وقبلت مضاجعة رجل آخر • وأنها تحمل فى بطنها بذرة رجل آخر » ومرت أمام عينى نفسى مئات الصور الكريهة التى لم أستطع أن أحصرها ولم تكن هى صور ما حدث فحسب ولكن صور ما لابد من حدوثه • ويجب على أن أرى جوليانا أيضا فى أيامها المقبلة • تلك المرأة التى كنت أقول عنها انها الحلم الذى أحلم به والانسانة التى كانت فى نظرى المثل الأعلى للنساء • وقد شوهت جمال جسدها بطن هائلة كبيرة وقد حملت جنينا سفاحا • من ذا الذى يستطيع أن يتصور عقوبة أشد هولا من هذه العقوبة ؟ وقد كان كل شىء حقيقيا وكل شىء يقينا •

« ان الألم عندما ينهك القوى فان الرجل بغريزته يجد فى الريبة ما يخفف مؤقتا آلامه التى لا يستطيع احتمالها ويقول فى نفسه :

ـ ربما كنت مخدوعا وربما كانت كارثتى ليست كما تبدو لى وربما كان كل هذا الألم لا أساس له ثم يطيل أمد هذه الهدنة ويقنع عقله الحائر بأنه قد تلقى معلومات أكثر دقة من الواقع •

ولكن الشك لم يساورنى لحظة واحدة فلم يكن لدى أى ذرة من الشك وانه لمن المستحيل على أن أوضح تلك الظاهرة التى كانت تتفاعل فى نفسى والتى أصبحت واضحة جلية بشكل غريب •

وكان يبدو أن دلائل ذلك الأمر المريع التى لم تظهر لها بوادر من قبل تكونت منها فكرة منطقية كاملة ونهائية لا تتزعزع بسبب سر من الأسرار • ولقد ظهرت لى هذه الفكرة فجأة وتبادرت الى ذهنى فى أسرع وقت كأنها شىء غرق فى البحر ولم يجد ما يستبقيه فى قاع أليم فطفا على وجه الماء وأخذ يعوم وبقى حيث هو دون أن يعود ثانية الى القاع •

كانت كل الامارات وكافة الدلائل موجودة وظاهرة ولم أكن فى حاجة

الى أن أبذل أى مجهود للبحث عنها واختيارها وجمعها • وقد برزت فى هـذا الضوء الجديد أحداث تافهة بعيدة العهد كما أخذت أيام حياتى الأخيرة تبدو أمامي واضحة • وكانت كراهة جوليانا للزهور والعطور التى لـم أعهدها فيها من قبل ومظاهر الاضطراب الغريبة التى كانت تبدو عليها وتقززهـا الأمر الذى لم تكن تستطيع اخفاؤه والشحوب الذى كان يبدو عليها من آن لآخر وتلك الغمامة التى كانت لا تفتأ تبدو بين اهدابها وذلك التعب الشديد الذى كانت تشعر به حركاتها وتلك الصحف التى أشرت عليها بظفرها فى ذلك الكتاب الروسي وتأنيب الشيخ للكونت « بيزوكهاو » وذلك السؤال القاسى الذى وجهته الأميرة « ليزا » الصغيرة وتلك الحركة الغريبة التى انتزعت بها الكتاب من يدى • ثم مناظر « فيلا ليللا » والدموع والشهقات والعبـارات الغامضة والابتسامات الكهنوتية وتلك الرغبات التى تنم عن شيء من التشاؤم واليأس وشهواتها الجنونية وتمنيها الموت •

كل تلك الدلائل كانت تتجمع على أثر العبارات التى تفوهت بها أمى والتى انطبعت فى أعماق نفسي :

وكانت أمى قد قالت لى :

ـ انه من المستحيل على الانسان أن ينخدع ازاء هذه الامارات •

لقد كانت جوليانا حتى يومين أو ثلاثة أيام مضت تنكر أنها حبلى أو كانت على الأقل تقول انها ليست على يقين من ذلك • ولم يكن من الممكن أن تكون عليها فانها رجتنى فى ألا أحدثك عن ذلك • ولـم يكن من الممكن أن تكون الحقيقة أكثر وضوحا من ذلك ، ومن ثم كان كل شيء مؤكدا لا ريب فيه •

دخلت الى المخدع واقتربت من السرير وقد نزلت الستائر من دونى وصار النور أقل من ذى قبل وانتزع القلق أنفاسي وتجمد كل دمى فى عروقى عندما وصلت الى رأس السرير وانحنيت لكى أرى عن كثب رأس جوليانا التى كادت تكون مخبوءة فى الملاءة وانى لا أدرى ماذا كان يحدث لو أنها رفعت وجهها وأخذت تحدثنى فى تلك اللحظة •

ترى هل كانت نائمة ؟ ولم يكن ظاهـرا من وجهها سـوى جبينها حتى

حاجبيها وبقيت فى مكانى بضعة دقائق واقفا على قدمى فى الانتظار . ولكن ترى هل كانت نائمة ؟ انها لم تكن تتحرك وهى راقدة على جنبها . أما فمها الذى تخفيه الملاءة البيضاء فانه لم يصل أى نفس من أنفاسه الى مسمعى ولم يكن ظاهرا من وجهها سوى جبينها حتى حاجبيها . ماذا كنت أعمل اذا كانت قد شعرت بوجودى ؟ لم تكن تلك هى الساعة التى يصح فيها الاستجواب والتحدث ، واذا كانت قد اشتبهت في أنني عرفت كل شيء ترى الى أى مدى كانت اندفعت فى تلك الليلة ؟

هـل كان من الممكن أن أتظاهر بالحنان البرىء عليها . وهـل كان فى استطاعتى أن أظهر بمظهر من كان يجهل كل شيء ؟ وأتشبث بذلك الشعور العاطفى الذى أملى على تلك الكلمات الحلوة منذ أربع ساعات مضت فى قصر « فيلا ليللا » ؟. عندما قلت لها هذا المساء فى سريرك .. ولسوف ترين كيف أستطيع الامساك بك . لسوف أجعلك تنامين ، ولسوف تنامين طوال ليلتك فوق صدرى .

وعندما كنت أدير رأسى من حولى وأنا شارد الذهن لمحت فوق البساط حذاءها الصغير البراق كما رأيت فوق مسند أحد الكراسى جوربها الحريرى الطويل الرمادى اللون ورباطه المصنوع من قماش الموهير وأشياء أخرى من أدوات أناقتها الخاصة ، وكل هذه الأشياء كانت عيناى قد ابتهجت برؤيتها بوصفى عاشقا أثناء غرامياتى الأخيرة ، وقد أخذت الغيرة تعضنى بأنيابهـا فى شيء كثير من العنف وكانت معجزة من المعجزات قد حدثت لو أننى امتنعت عن الانقضاض على جوليانا لايقـاظها من نومها ولكى أصيح فى وجهها بتلك الكلمات الجنونية الساذجة التى كان يوحى بها الى ما شعرت به من غضب مفاجيء .

وتراجعت وأنا أترنح فى مشيتى وخرجت من المخدع وقلت في نفسي وقد أعماني الخوف والفزع :

ـ كيف ينتهى بنا الأمر ؟

كنت أتهيأ للانصراف وكنت أقول لنفسي :

ـ لسوف أنزل وسـوف أقول لوالدتي ان جوليانا نائمة وانها تنام نوما هادئا ولسوف أقول لها انني أنا أيضا في حاجة للراحة ، ولسوف أعتكف في غرفتي ثم في صباح الغد ٠

على أني وقفت في مكاني مترددا لا أجد القوة على أن أتخطى عتبة الحجرة وكانت تهاجمني آلاف المخاوف ، ثم اتجهت مرة ثانية نحو المخـدع بحركة سريعة خاطفة كما لو كنت أحسست بانسان ينظر الى ٠ وبدا لى أن الستائر تروح وتغدو في الهواء ٠

ولكن هذا كان وهما من الاوهام ٠

ومع هذا فانه كان ثمة شيء أشبه ما يكون بموجة مغناطيسية أخذ يتغلغل في نفسي من خلال الستائر وهو شيء لم أستطع مقاومته فدخلت الى المخدع مرة ثانية والرعدة تسرى في جسدى ٠

كانت جوليانا راقدة في وضعها السابق ٠

ترى هل كانت نائمة ؟

لم يكن ظاهرا من وجهها سوى جبينها حتى حاجبيها ٠

جلست على مقربة من رأس سريرها وانتظرت وكنت أرى جبينا شاحبـا يحكي لونه لون الملاءة البيضاء وكان ضعيفا وضاحا كأنه القربان المقدس تبدو فيه البراءة طالما قبلته في شيء كثير من الاحترام والتبجيل والذى قبلته شفتا أمي مرات ومرات ٠

لم يكن يبدو لى أنه مسها شيء من التلوث أو الدنس ٠ اذ أنني عندما كنت أراها كنت أجدها هي هي بعينها لم تتغير ولم تتبدل ٠ ولم يكن هناك شيء في العالم يستطيع منذ هـذه اللحظة فصاعدا أن يمحو تلك الوصمة التى كانت عينا نفسي تريانها في ذلك الشحوب ! ٠

عادت الى ذاكرتي بعض الكلمات التي تفوهت بها أثناء نشوتي الأخـيرة عندما قلت لها :

ـ لسوف أسهر الى جانبك ، ولسوف أقرأ على وجهك تلك الأحـلام التي سوف تحلمين بها •

ثم قلت لنفسي مرة ثانية :

ـ انها كانت تكرر بين الفينة والفينة كلمة نعم نعم •

وقد سألت نفسي قائلا :

ـ أية حياة تلك التي تحياها في دخيلة نفسها ؟ ترى ما هي نواياها ؟ وعلى أي شيء عولت ؟

وكنت أنظر الى جبينها ولم أعد أحس بآلامي ولكني بذلت كل ما في وسعي لكي اتصور آلامها وأفهم سر حزنها •

يقينا يجب أن يكون يأسها يأسا قاتلا لا هوادة فيه ولا حدود له •

وكانت عقوبتي هي أيضا عقوبتها وربما كانت بالنسبة لها عذابا أكثر ايلاما وأشد هولا •

وما من شك في أنها ـ عندما كانت هناك في « فيلا ليللا » وهي تسير في طرقات حديقتها أو تجلس على أريكتها أو وهي في داخل البيت ـ قد أحست بالصدق في كلماتي ولابد أن تكون قرأت الحقيقة على وجهي •

كانت على يقين من حبي العارم الشديد لها عندما قلت لها :

ـ لقد كنت في منزلي بينما كنت أبحث عنك بعيدا عنه •• قولي لي أنت •• ألا يساوي هذا اعتراف كل ما ذرفته أنت من دموع ؟ أما كنت تودين أن تذرفي دموعا أكثر من تلك الدموع وأكثر منها للحصول على دليل مثل هذا الدليل ؟

وكانت اجابتها على أقوالي نعم وأكثر من ذلك !

وكانت كل حاسة من حواسها وكل خلجة من خلجات نفسها تجيب بزفرة بدت فيها القدسية قائلة :

ـ نعم واكثر من ذلك !!

كانت تود لو استطاعت ان تذرف دموعا اخرى وان تتحمل تضحية أخرى فى سبيل الحصول على هذا الاعتراف ! .

وعندما كانت ترى تحت قدميها ذلك الرجل الذى فقدته وبكته منذ سنوات وسنوات وهو يظهر لها هيامه بها اكثر من أى وقت مضى وعندما رأت جنة مجهولة تتفتح امامها أحست بأنها غير طاهرة الذيل وشعرت بدليل لوثتها المادية وتحملت ثقل رأسى على حجرها الذى أثمرت بداخله بذرة رجل آخر .

كيف لم تستطع دموعها ان تصيب وجهى بجروح بالغة ؟ وكيف استطعت أن أرتشف هذه الدموع دون أن أصاب بالتسمم ؟

ولقد عشت فى لحظة واحدة كل ذلك اليوم السعيد الذى نعمنا فيه بالسعادة والحب ، ورأيت مرة ثانية كل تلك التغييرات الخاطفة التى بدت على وجه جوليانا منذ لحظة دخولنا من باب « فيلا ليللا » وقد فهمتها كلها على حقيقتها .

وهنا ومض نور شديد فى اعماق نفسى وكنت اقول لنفسى :

ـ لى الويل . هل عندما كنت أتحدث اليها عن الغد كنت أتحدث اليها عن المستقبل ! .. ما كان أشد وقع كلمة « الغد » عليها عندما سمعتها من فمى !

عاد الى ذاكرتى ذلك الحوار الوجيز الذى دار بينى وبينها ونحن جالسان على طرف الشرفة أمام شجرة السرو . فلقد كررت فى تذلل وخضوع وهى تبتسم ابتسامة خفيفة كلمة الموت .

فتحدثت عن النهاية القريبة وسألتنى قائلة :

ـ ماذا أنت فاعل اذا ما فقدتنى على حين غرة ؟ واذا افترضنا اننى سأموت غدا على سبيل المثال ؟

صاحت بعد ذلك ونحن فى غرفتنا وهى تلتصق بى قائلة :

ـ لا . لا ياتوليو لا يجب أن نتحدث عن المستقبل .. فكر فى يومك الذى أنت فيه وفى الساعة التى تنقضى !!

ألم تكن مثل تلك الحركات وتلك الكلمات وشروعها في الموت أشياء خداعة وعملا مسرحيا ؟

كان واضحا أنها صممت على قتل نفسها وأنها كان لابد أن تقتل نفسها ، وربما كان ذلك فى تلك الليلة بذاتها قبل أن يأتى ذلك الغد المرتقب اذ لم يكن أمامها مخرج غير ذلك ٠

وعندما زايلتنى تلك الهواجس التى كانت تساورنى من جراء التفكير فى أن هناك خطرا وشيك الوقوع أخذت أقول فى نفسى :

ـ ترى أى الأمرين تكون له عواقب وخيمة وأكثر ايلاما : موت جوليانا أم بقاؤها فى قيد الحياة ؟

ان الدمار سوف يكون دمارا نهائيا لا رجعة فيه وان هاوية المـوت هاوية سحيقة لا يسبر لها غور وان حدوث كارثة مفاجئة ربما يكون أفضـل من وقوع مأساة مريعة لها أذيال لا نهاية لها ولا يكف الناس عن الحديث عنها ٠

كنت أشاهد بخيالى تلك المراحل التى سوف تمر بها جوليانا فى امومتها الجديدة ٠

وكنت أرى ذلك المولود الجديد وذلك الوليد الذى سـوف يحمل اسمى ولابد أن يكون وريثى والذى سوف يغتصب حنـان أمى وحب ابنتى ماريا وناتاليا وعطف شقيقى فيديريكو ٠

يقينا ان الموت والموت وحده هو الذى يستطيع أن يقطع سلسلة هـذه الأحداث الرهيبة القاتلة ٠

لكن ترى هل من الممكن أن يظل انتحار جوليانا وموتها سرا من الأسرار ؟ وما هى الوسيلة التى ستستخدمها جوليانا اذا ما أقدمت على الانتحار ؟ واذا ما تأكد أن جوليانا أقدمت فعلا على الانتحار بمحض ارادتها فالى أى شىء سوف يتجه تفكير أمى وفيديريكو ؟ وأية صدمة تلك التى تصيب أمى من جراء ذلك وماذا تفعل ماريا ؟ وكيف يكون حال ناتاليـا ؟ وماذا أنا فاعل بحياتى اذ ذاك ؟

حقا اننى ما كنت أستطيع أن أتصور حياتى وقد خلت من وجود جوليانا وكنت أحب تلك المخلوقة المسكينة حتى ولو تلوث شرفهـا واذا ما ضربت صفحا عن ذلك الغضب الشديد المفاجىء الذى أثارته فى نفسى غيرتى الجسدية فاننى لم آكن أضمر لها فى تلك اللحظة أى شعور بالكراهية أو بالموجدة أو بالازدراء ولم تكن قد تبادرت الى ذهنى حتى ذلك الوقت أية فكرة فى الانتقام منها • بل كنت على النقيض من ذلك أحس ازاءها بشعور عميق من العطف والاشفاق عليها واننى كنت أسلم منذ البداية بأننى مسئول عن سقوطهـا مسئولية كاملة •

وهنا خالجنى شعور سام جليل انتشلنى من وهدة أفكارى ورفع معنوياتى الى حد كبير وقلت فى نفسى :

ـ انهـا استطاعت أن تحنى رأسـها تحت وطأة ضرباتى واستطاعت أن تتحمل وتلتزم الصمت وقدمت لى بذلك مثلا رائعا على الشـجاعة والثبات وانكار الذات بصورة بطولية •

والآن جاء دورى وأنا مدين لها بأن أرد اليها ما تحملته من أجلى ويجب أن أعمل على انقاذها بأى ثمن •

كان ارتفاع معنوياتى وتلك الأفكار السامية مردها الى جوليانا نفسها •

نظرت اليها عن كثب وكانت لا تزال جامدة لا حراك بها وفى وضعها الذى كانت عليه قبل ذلك ولم يكن ظاهرا من وجهها سوى جبينها •

وهنا قلت فى نفسى :

ـ ترى هل هى نائمة ؟ وماذا يكون العمل اذا كانت على العكس من ذلك تتظاهر بأنها نائمة لكى تبعد عن نفسها أية شبهة وتقنع من يراها بأنها هادئة ساكنة وتظل بمفردها فى غرفتها ؟

يقينا انه اذا كان فى نيتها ألا تبقى الى الغد فانها سوف تعمل بكل الوسائل على تنفيذ ما اعتزمت نيتها الاقدام عليه • انها تتصنع النعاس لأنه اذا كان هـــذا حقيقيا ما كان من الممكن أن يكون هادئا وثابتا عـلى هـــذا النحو سيما وأن أعصابها متوترة الى حد بعيد اننى سوف أقوم بهزها الآن ••

ولكنى ترددت وقلت فى نفسى :

ـ هل هى نائمة بالفعل ؟ وقد يحدث فى بعض الأحيان أن ينام الانسان نوما عميقا أشبه ما يكون بالاغماء وذلك عقب احساسه باليأس الشديد حتى وان كان يشعر بقلق نفسى بالغ ٠

ليتها تظل نائمة حتى صباح غد ويكون فى مقدورها أن تنهض وقد انتعشت وأصبحت من القوة بحيث تحتمل ذلك الحديث الذى سيجرى فيما بيننا والذى لا معدى عنه بحال من الأحوال ٠

كنت أنظر الى جبينها الشاحب الذى كان لونه يحكي لون الملاءة البيضاء وأحدق فيه بكلتا عيني ولما انحنيت فوقها انحناءة أكبر من سابقتها لاحظت أن جبينها قد أصبح نديا ٠ وكانت قطرة من قطرات عرقها تبرز فوق حاجبها وقد أثارت تلك القطرة فى نفسى ذلك العرق البارد الذى ينم عن أنها تعاطت سما من السموم المخدرة ٠

وسرعان ما ساورنى الشك وقلت فى نفسى :

ـ لابد أن تكون أخذت حقنة من حقن المورفين ، اتجهت نظراتي دون وعى منى بسرعة ناحية منضدة زينتها التى كانت قريبة من رأسها كما لو كنت أبحث فوقها عن زجاجة الحقنة الفارغة التى تميزها صورة الجمجمة الصغيرة السوداء اللون المنقوشة عليها تلك العلامة الرمزية المعروفة التى تنم عن المـوت ٠

كان هناك فوق المنضدة دورق كروى ملئ بالماء وأحد الأكواب وشمعدان صغير ومنديل وبعض أسلاك الشعر البراقة ٠ ولم يكن هناك شىء آخر سوى هذه الأشياء ٠

وهنا أجريت بحثا دقيقا وسريعا فى كافة أرجاء مخدعها وكان شعور بالقلق الأليم يقبض على قلبى ٠

وكنت أقول فى نفسى :

ـ ان جوليانا تحتفظ لديها بالمورفين السائل وطالما أخذت كميات معينة منه لتضعها في أنبوبة الحقنة ٠

انني على يقين من أنها فكرت فى أن تسمم نفسها عن طريق هذا المورفين ٠

ترى أين تخفى زجاجة المورفين ؟

وكنت أرى تلك الحقنة الزجاجية الصغيرة ماثلة أمام عينى ٠ تلك الحقنة التى رأيتها فى احدى المرات ٠ وتلك العلامة المشئومة التى يستخدمها الصيادلة لتمييز الأدوية السامة عما عداها من الأدوية الأخرى ٠

وهنا أوحى الى خيالى المفعم بالأحاسيس قائلا :

ـ لكن ترى متى تجرعت ذلك السم ؟ وكيف شربته ؟ انها لم تبق لحظة واحدة بمفردها قط ٠ لكن لحظة واحدة فيها الكفاية لافراغ حقنة المورفين ٠ غير أنه ما كان من الممكن أن تسلم من القىء ٠

ألم يأتها ذلك القىء الشديد فى اللحظة التى وطئت فيها قدماها هـــذا المكان ؟ وطالما أنها كانت قد عقدت العزم على الانتحـار فربما كانت تحمل المورفين معها ٠

أليس من الممكن أن تكون قد تجرعته قبل أن تصل الى الضيعة ونحن فى العربة دون أن يراها أحد ؟

حقا انها كانت تعارض فى أن يذهب فيديريكو لاستدعاء الطبيب ٠

انني ما كنت أعرف حق المعرفة أعراض التسمم بالمورفين ٠ كان جبينها الشاحب الرطب وعدم ابدائها أية حركة اطلاقا ينزل الرعب فى قلبى ويجعلنى فى حيرة من أمرى ٠ وكنت على وشك أن أهزها ٠

وهنا قلت فى نفسى :

ـ لكن ترى ما الذى يحدث اذا كنت مخدوعا ؟ واذا حـدث أن استيقظت فماذا أقول لها وقتئذ ٠

كان يبدو لى أن أول كلمة تنطق بها وأول نظرة نتبادلها وأول اتصـال مباشر بينى وبينها لابد أن يثير فى نفسى شعورا غريبا بالحب العارم الشديد الذى لم أكن لأتوقعه أو يخطر لى على بال ٠

كان يبدو لى أنه لن يكون فى مقدورى التحكم فى أعصابى أو اخفاء حقيقة

أمرى وأنهـا ما ان تنظر الى حتى تدرك من فورها اننى على علم بكل شىء ، لكن ماذا بعد ذلك ؟

وهنا أرهفت السمع وأنا آمل وأخشى فى الوقت نفسه أن تلحق بى أمى ثم أخذت أكشف الغطاء رويدا رويدا عن وجه جوليانا (كنت أرتعد ارتعادا ما كان من الممكن أن يحدث لو أننى قمت برفع طرف أحد الأكفان لأرى تحته وجه انسان واتته المنية)

فتحت جوليانا عينيها وقالت لى :

ـ آه ! هل أنت هنا يا توليو ؟

كانت نبرات صوتها طبيعية جدا وهو أمر لم أكن أتوقعه • ولذلك كان فى مقدورى التحدث اليها • وقلت لها وأنا أتحاشى أن أحدق فى عينيها :

ـ هل كنت نائمة ؟

ـ نعم ! أخذتنى سنة من النوم •

ـ اذن فاننى أيقظتك •• عفوا •• كنت أود أن أزيح الغطاء عن فمك • اذ كنت أخشى ألا يكون فى استطاعتك التنفس •• وأن تكتـم الأغطيـة أنفاسك •

ـ نعم ! هذا عين الصواب • اننى الآن أشعر بالحر وبشىء كثير من الحر أرجوك أن تزيح عنى بعضا من هذه الأغطية •

نهضت لكى أخفف عنها ثقل بعض تلك الأغطية وانه من المستحيل على الآن أن أصف حالتى النفسية ازاء تلك الأعمال التى كنت أقوم بها وازاء تلك الكلمات التى كنت أقولها وأسمعها وتلك الأشياء التى كانت تحدث بشكل طبيعى وكأن أمرا من الأمور لم يطرأ عليه اى تغيير • وكأننى أنا وجوليانا أحرار من كل قيد ونجهل كل شىء وكأنه ليس هناك فى ذلك المخدع الهادىء أى أثر للسفاح والخداع والضلال وتأنيب الضمير والغيرة والخوف والموت ولكل مظاهر البشاعة الانسانية •

وسألتنى جوليانا قائلة :

ـ هل نحن الآن فى ساعة متأخرة من الليل ؟

ـ لا ! فلم ينتصف الليل حتى هذه اللحظة ٠

ـ هل آوت أمك الى فراشها ؟

ـ لم تأو الى فراشها حتى الآن ٠

مرت فترة سكوت قالت بعدها :

ـ وأنت ٠٠ ألا تذهب لتنام ؟ لابد أنك متعب ٠

لم أستطع أن أجيبها بكلمة واحدة ، هل كان يتحتم على أن أجيبها بأنى أود البقاء معها ؟ وأن أرجوها أن تدعنى أمكث معها ؟ وأن اعيد على مسمعها تلك الكلمات المفعمة بالحنان والتى قلتها لها ونحن جالسان على الأريكة فى غرفتنا فى « فيلا ليللا » ٠

ولكننى اذا ما بقيت معها فكيف سأقضى طوال تلك الليلة ؟

هل أقضيها وأنا جالس على المقعد هناك لحراستها أو وأنا نائم على السرير بجوارها ؟ وكيف أتصرف حيالها ؟ وهل سيكون بوسعى أن أقوم بدور المرائى حتى النهاية ؟

ثم أردفت جوليانا قائلة :

ـ انه من الخير أن تذهب ياتوليو ٠٠ هذه الليلة ٠٠ اننى لست بحاجة الى أى شئ ! لست بحاجة الى شئ آخر سوى أن أنال قسطا من الراحة ٠ أما اذا بقيت معى ٠٠ فسوف يكون فى ذلك ما لا تحمد غقباه ٠ من الخير أن تذهب هذه الليلة يا توليو ٠

ـ ولكنك قد تكونين بحاجة الى ٠

ـ وعلى أى حال فسوف أجد « كريستينا » التى تنام على مقربة منى ٠

ـ اننى سأضطجع هناك فوق الأريكة وأتدثر بأحد الأغطية ٠ ٠

ـ لماذا تريد أن تجلب لنفسك الألم ؟ انك متعب أشد ما يكون التعب كما يشاهد ذلك بوضوح على وجهك ٠٠ ثم اننى اذا علمت أنك سوف تضطجع هناك فلن يتطرق النوم الى جفونى٠

كنت اشعر باننى أصبحت عاجزا عن أن اقاوم أكثر من ذلك أو ان

أكافح أو أن أعمل بأية طريقة مجدية • وكان احساسى بضعفى وشعورى بحتمية ما يقع وما كان على وشك الوقوع يشلان كل حركاتى • ويبدو لى أن كيانى أصيب بما يشبه الشلل الفجائى • فكنت أحس بحاجة عمياء الى التخلص من آخر وخزة من وخزات ضميرى وأخيرا استحال قلقى وجزعى الى فكرة يائسة • وقلت فى نفسى :

ـ ليكن ما يكون • فهناك الموت أيضا وقد ألجأ اليه •

قلت لها :

ـ نعم يا جوليانا • سأتركك فى سلام • نامى والى اللقاء غدا • لا تقومى من فراشك •

ـ أجل هذا صحيح لن أقوم من فراشى • وداعا طابت ليلتك •

ـ ألا تعطينى قبلة يا توليو ؟

وهنا انتابتنى رعدة اشمئزاز غريزية فترددت •

وفى هذه اللحظة دخلت أمى • وعندما رأتها صاحت قائلة :

ـ كيف حدث ذلك ؟ ألا تزالين مستيقظة •

ـ نعم ولكنى الآن سأعاود النوم •

ـ لقد ذهبت لأطمئن على الابنتين ماريا وناتاليا •

وكانت ناتاليا متيقظة وحالما رأتنى بادرتنى بالسؤال قائلة :

ـ هل عادت أمى ؟

وكانت تريد ان تأتى •

ـ لماذا لا تطلبين من الآنسة « ايديت » أن تحضرها هنا ؟ هل أوت ايديت الى فراشها ؟

ـ لا •

هنا قاطعتها قائلا :

ـ وداعا يا جوليانا •

ثم أسرعت بالاقتراب منها وانحنيت لكى اقبل وجنتها التى مدتها نحوى بعد أن نهضت قليلا وهى تعتمد على مرفقيها •

ثم نظرت الى والدتى وقلت لها :

ـ وداعا يا أمى • اننى ذاهب لأنام لأنى أشعر بنعاس يكاد يعميتى •

ـ ألا تتناول شيئا من الطعام ؟ ان فيديريكو ما زال فى انتظارك بالطابق الأسفل •

ـ لا يا أمى ليست لدى شهية لتناول الطعام طاب ليلتك ؟

وقبلتها هى الأخرى على وجنتها وخرجت من فورى دون ان ألقى أية نظرة على جوليانا •

استجمعت ما تبقى لدى من قوة قليلة • وما ان تخطت العتبة حتى أخذت فى العدو الى غرفتى خوفا من أن أقع قبل أن أبلغ بابها •

ارتميت على وجهى فوق سريرى وكان ذلك الاضطراب الذى يسبق شهقات البكاء يهزنى هزا عندما كانت عقدة الألم على وشك التفكك• وعندما كان توتر اعصابى على وشك الهدوء •

ولكن الاضطراب قد ازداد دون أن يأتى الشهيق •

كان الألم شديدا وكنت أشعر بأن حملا ثقيلا ينوء تحت وطأته كل جزء من أجزاء جسدى ولم أكن أشعر بهذا الحمل الثقيل من خوفى فحسب بل كنت أحس به أيضا فى داخلى كما لو كانت عظامى وعضلاتى قد استحالت الى قطع من الرصاص المطروق •

كان راسى لا يزال يفكر ، وكان ضميرى لا يزال واعيا •

وهنا قلت فى نفسى :

ـ كلا ، ما كان ينبغى أن أتركها • وكان لزاما على ألا أوافق على الانصراف بهذه الصورة • فليس ثمة شك فى أنها سوف تقتل نفسها بعد أن تتركها أمى • ما أجمل نغمات صوتها عندما أعربت عن رغبتها فى رؤية ناتاليا مرة ثانية •

استولت على فجاة فكرة هاجسة • سوف تخرج أمى من الغرفة وتنهض

جوليانا للجلوس فوق سريرها وترهف السمع • ثم عندما تطمئن الى أنهـا أصبحت بمفردها تخرج من درج منضدة الزينة زجاجة المورفين ولا تتردد لحظة واحدة وتفرغها دفعة واحدة وبحركة حاسمة ثم تعود الى مكانها تحت الأغطية مرة ثانية وتنام على ظهرها فى انتظار الموت •

ظهرت صورة الجثة الخيالية فى مخيلتى فى شىء كثير من الوضوح حتى انى نهضت من فراشى كمن أصابه مس من الجنون ودرت ثلاث مرات أو أربع حول الغرفة وأنا أصطدم بالأثاثات وأتعثر بالأبسطة وأتحرك فى شىء من الهلع •

فتحت احدى النوافذ وكان الليل هادئا لا يقطع سكونه الا نقيق الضفادع الرتيب المستمر • وكانت النجوم تخفق فى كبد السماء •

وكان الدب الأصغر يلمع أمامى واضحا جليا • وكان الجو لطيفا وبقيت بضع دقائق أمام جلسة النـافذة فى الانتظار وأنا أحدق فى مجموعة النجوم الكبرى التى كانت تبدو أمام أنظارى المرهقة تقترب من بعضها •

وفى الحق اننى لم أكن أعلم ما الذى أنتظره ، كنت شارد الذهن يخالجنى احساس خاص بفراغ تلك السماء الهائلة • وفجأة ووسط ذلك الهدوء المريب تبادر الى ذهنى ذلك السؤال الذى لم أكن قد فهمته حق الفهم حتى هـــذه الساعة وهو :

ـ ماذا فعلت بى ؟

ثم أطلت من جديد صورة الجثة بعد أن غابت عن مخيلتى فترة وجيزة • واستبد بى الرعب الى حد أننى بالرغم من عدم معرفتى بالعمل الذى كنت أود القيام به • استدرت وخرجت دون تردد واتجهت صوب غرفة جوليانا ، والتقيت بالآنسة « ايديت » فى الردهة وسألتها قائلا :

ـ من أين تأتين يا اديت ؟

وادركت أنها قد اندهشت لمنظرى •

ـ لقد أحضرت ناتاليا الى سيدتى لأنها كانت تريد رؤيتها • ولكنى اضطررت الى تركها هنالك ولم يكن من الممكن اقناعها بضرورة العودة الى فراشها • لقد

بكيت كثيرا حتى ان سيدتى وافقت على ابقائها معها. وهى تتمنى ألا تستيقظ « ماريا » الآن ..

– يالله اذن ..

كان قلبى يدق دقا شديدا الى حد أننى لم أستطع مواصلة الكلام .

– يالله اذن لقد بقيت ناتاليا فى سرير أمها .

– نعم يا سيدى .

– ماذا فعلت ماريا هيا بنا لنرى ماريا .

كان التأثر يخنقنى خنقا وكانت جوليانا قد نجت من الموت فى تلك الليلة. لم يكن من الممكن أن تفكر فى الموت فى تلك الليلة نظرا لوجود الطفلة الى جانبها . وبمعجزة من المعجزات أنقذت ناتاليا بشقاوتها الحلوة حياة أمها بارك الله فيها بارك الله فيها . وقبل أن أنظر الى ماريا التى غلبها النوم نظرت الى السرير الصغير الخاوى الذى ظهر فيه تجويف صغير. وهنا شعرت برغبات غريبة فى أن أقبل الوسادة وفى أن أتحسس لكى أعرف ما اذا كان ذلك التجويف لا يزال دافئا . وكان وجود اديت يقيد حريتى بعض الشىء . واتجهت الى ماريا وانحنيت فوقها وأنا أحبس أنفاسى وأخذت أتأمل فى وجهها طويلا وأبحث عن أوجه الشبه بين ملامحى وملامحها واحدة بعد الأخرى وكدت أحصر العروق الدقيقة التى كانت تظهر على صدغها وعلى خدها وعلى حلقها . وكانت تنام على جنبها وتدع رأسها مائلا الى الخلف حتى كانت رقبتها تبدو عارية أسفل ذقنها البارزة . أما أسنانها الدقيقة التى كانت تحكى حبات الأرز الناصعة البياض فقد كانت تلمع من خلال شفتيها وأما أهدابها التى كانت طويلة كأهداب امها فقد كانت تنشر منه على محاجر عينيها ظلا كان يصل الى أعلى وجنتيها .

كانت رشاقة هذه الزهرة اليانعة وجمال تقاطيعها المتناهى يميزان ذلك الجسم الصغير الذى كنت أشعر بخيوط رفيعة من دمى تسرى فى عروقه .

لم يحدث قط منذ جاءت الى هذه الدنيا هاتان المخلوقتان ان أحسست نحوهما بحب عميق مثل هذا الحب الحلو الحزين ..

انتزعت نفسى من هذا المكان بكل جهد • وكنت أود لو استطعت أن أجلس بين هذين السريرين الصغيرين وأضع رأسى على حافة السرير الخالى فى انتظار الغد • وقلت وأنا أخرج للآنسة ايديت :

ـ طابت ليلتك • وكان صوتى يرتجف رجفة أخرى تختلف عن رجفته الأولى •

ولما وصلت الى غرفتى انكفأت مرة ثانية على وجهى فوق سريرى وأخذت أشهق بالبكاء دون وعى •

ـ ١٢ ـ

عندما استيقظت من نومى العميق والقاسى الى حد ما ، ذلك النوم الذى غلبنى وانقض على فى ساعة معينة من ساعات الليل وحطمنى تحطيما ، وجدت صعوبة فى أن أتبين من جديد حقيقة الأشياء بشكل واضح دقيق •

وان هى الا لحظات حتى تمثلت الحقيقة عارية جامدة لا حياة فيها كما هى دون أن يطرأ عليها تغيير أو تبديل وظهرت أمام ذهنى الذى كان خاليا من كل أثر من آثار الهواجس الليلية • ترى ماذا تكون تلك الآلام التى كنت أعانيها منذ عهد قريب اذا قيست بذلك الفزع والرعب الذى انتابنى آنذاك ؟ كان لابد أن أعيش وكنت أتصور كأن شخصا ما يقدم الى كأسا كبيرة ويقول لى :

ـ اذا كنت تريد أن تشرب اليوم واذا كنت تريد أن تعيش فيجب عليك أن تفرغ فى هذا الكأس دم قلبك حتى آخر قطرة من قطراته •

وهنا أحسست بشعور من الاشمئزاز والامتعاض والرعدة لم أدرك له كنها ولم أعرف له تعليلا ينبعث من قرارة نفسى • ومع ذلك كان لزاما على أن أعيش ويجب أن أتقبل حياتى أيضا فى صبيحة ذلك اليوم ، وينبغى قبل كل شىء أن اقوم بعمل ما •

وكان من شأن المقارنة التى قمت بعملها بين تلك اليقظة الحقيقية وتلك اليقظة التى حلمت بها وتمنيتها فى قصر « فيلا ليللا » فى الليلة السابقة أن زادت من وطأة آلامى وقلت فى نفسى :

ـ انه من المستحيل أن أقبل مثل هذه الحالة ، ومن المستحيل أن أقوم وأرتدى ملابسى وأخرج من هنا وأرى جوليانا مرة ثانية وأتحدث اليها وأستمر فى اخفاء حقيقة الأمر أمام أمى وأنتظر الساعة المواتية التى أتحدث فيها حديثا حاسما وأن أقرر فى هذا الحديث الشروط التى تسير بمقتضاها حياتنا المقبلة ، ان هذا مستحيل ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ وان تحطيم كل ما يؤلمنى تحطيما كاملا وفى لحظة واحدة ٠٠ وتخليصى وفرارى ٠٠ وهذا كل شىء ٠٠

ولما فكرت فى سهولة الأمر وتصورت سرعة العمل وصوت السلام وأثر الرصاص السريع والظلام الذى يخيم بعد ذلك احسست فى جسدى كله بتوتر لم أشعر بمثله من قبل ، وكان ذلك التوتر مؤلما يشوبه احساس بالانتعاش وبشىء من الحلاوة ، وهذا كل شىء ٠

ورغما من أن تلهفى على المعرفة كان يجعلنى اضطرب الا أننى فكرت فى فى شىء من الارتياح فى أننى لن أستطيع أن أعرف أى شىء وأن كل شىء لابد ان تكون له نهاية ٠

سمعت من يطرق الباب وصاح صوت أخى قائلا :

ـ ألم تستيقظ حتى الآن يا توليو ؟ لقد بلغت التاسعة ، هل أستطيع الدخول ؟

ـ أدخل يا فيديريكو ٠

فدخل وقال :

ـ أتعرف أن الوقت متأخر ؟ لقد أربت الساعة على التاسعة ٠

ـ لقد نمت فى ساعة متأخرة وكنت متعبا أشد ما يكون التعب ٠

ـ وكيف حالك الآن ؟

ـ لا بأس ٠

ـ لقد استيقظت أمى وقالت لى ان جوليانا بخير ، أتريد أن افتح لك النافذة ؟ انه لصباح بديع ٠

فتحت النافذة على مصراعيها ٠ وعندئذ دخل الغرفة نسيم عليل وملأ أرجاءها وانتفخت الستائر كأنها شراعان وبدت من فتحة النافذة زرقة السماء ،

ـ أترى ؟

وربما ان الضوء القوى أظهر ما كان باديا عـلى وجهى من امارات الحزن والأسى اذ أردف قائلا :

ـ ولكن هل شعرت أنت أيضا بشىء من الألم فى هذه الليلة ؟

ـ أعتقد أنه أصابنى شىء من الحمى ٠

كان فيديريكو ينظر الىّ بعينيه الصافيتين اللازورديتين وقد بدا لى فى تلك اللحظة اننى أشعر بثقل النفاق والأكاذيب المقبلة على نفسى ٠

يالله ليته عرف ٠

على أن وجود أخى معى أبعد عنى على غرار ما كان يحدث دائما تلك الخسة التى كانت تسيطر على ٠ وهنا سرت فى بدنى قوة وهمية أنعشتنى كما لو كنت فى حفلة لطيفة شربت فيها نخب السعادة والهناء ٠ وقلت فى نفسى :

ـ ماذا يكون مسلكه اذا كان فى مثل موقفى ؟ ان سجل حياتى الماضية وتربيتى وجوهر طبيعتى كانت تتعارض مع أية مقارنة محتملة ٠ ومع هـــذا فانه من المؤكد أنه فى حالة كارثة من الكوارث مماثلة أو غير مماثلة كان مسلكه يجب أن يكون مسلك الرجل القوى المحسن ، وكان لابد له أن يجابه الألـم ببطولة ولكان قد آثر تضحيته بنفسه على التضحية بغيره ٠

قال لى وهو يقترب منى :

ـ دعنى أسمع ٠

ولمس جبينى بكف يده وأمسك بمعصمى ٠

ـ انك الآن سليم على ما يبدو لى ٠ ولكننى ألاحظ أن نبضاتك غير منتظمة ٠

ـ دعنى أقم يا فيديريكو ٠ لقد صار الوقت متأخرا ٠

ـ اننى ذاهب اليوم بعد الظهر الى غابات نهر « آسورو » فاذا أردت المجىء معى فانى سوف أعد لك الحصان « أورلاندو » ٠ هل تذكر تلك الأحراش ؟ يا للخسارة ٠ ان ما يؤسف له أن جوليانا ليست بصحة جيدة ، والا لأخذناها هى أيضا معنا ٠ ولرأت الفحم كيف يحترق ٠

عندما ذكر اسم جوليانا كان يبدو أن صوته أصبح أكثر حنوا وأشد حلاوة

أو بالأحرى أكثر اخاء • يالله ليته كان قد عرف !

ـ وداعا يا توليو اننى ذاهب للعمل متى تبدأ فى معاونتى ؟

ـ اليوم بالذات أو غدا أو متى شئت •

وهنا أخذ فى الضحك •

ـ يا لك من بطل ! كفى سوف أراك عند التجربة ، وداعا يا توليو •

خرج يسير بخطواته العاجلة الطليقة اذ كانت تحفزه باستمرار تلك العبارة المكتوبة فى المربع الشمسي وهي « طوبى لمن أتقن عمله » ••

ـ ١٣ ـ

كانت الساعة قد بلغت العاشرة عندما خرجت وكان ضوء صباح ذلك اليوم المشرق من أيام شهر أبريل يغمر أرجاء الضيعة ويدخل دورها من خلال فتحات نوافذها وأبوابها المفتوحة على مصاريعها ويستحثنى على العمل ، فكيف يتسنى لى أن أرتدى الملابس الثقيلة فى ذلك الجو ؟

بحثت عن والدتى قبل ذهابى الى غرفة جوليانا وعندما شاهدتنى قالت لى :

ـ انك صحوت متأخرا • كيف حالك ؟

ـ أنا بخير •

ـ مالى أراك شاحب الوجه •

ـ أعتقد أننى كنت أشعر بشىء من الحمى فى هذه الليلة • ولكنى الآن بخير •

ـ هل رأيت جوليانا ؟

ـ لم أرها بعد •

ـ أرادت هذه البنت الطيبة أن تستيقظ من نومها وتقول انها لا تشعر بشىء ولكن وجهها ••

ـ انني ذاهب اليها •

ـ يجب ألا تهمل الكتابة الى الطبيب ، ولا يجب أن تستمع لما تقوله جوليانا .. أكتب اليوم بالذات .

ـ هل قلت لها انني عرفت .

ـ نعم قلت لها انك عرفت .

ـ انني ذاهب يا أماه .

فذهبت وتركتها أمام دواليبها الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز والتى تفوح منها رائحة العطور حيث كانت هناك امرأتان تضعان البياضات النظيفة المغسولة القطعة فوق الأخرى تلك البياضات التى هى مفخرة بيت آل هيرميل. وكانت ماريا تتلقى درسا فى الموسيقى على الآنسة ايديت فى غرفة البيانو . وكنت أسمع الأنغام الموسيقية البدائية تتوالى وتتلاحق متماثلة وسريعة . ومر اذ ذاك « بيترو » وهو أكثر الخدم اخلاصا بشعره الأشيب وظهره المقوس وهو يحمل صينية مليئة بالأوانى البللورية التى كانت ترتطم ببعضها نظرا لارتجاف سواعد ذلك الشيخ الطاعن فى السن . وكانت الضيعة المليئة بالضوء والهواء يخيم عليها جو من النعيم والترف والهدوء . وفيها شيء ينم عن الطيبة والصلاح لا أعرف كنهه ينتشر فى كافة أرجائها وكان أشبه مايكون بابتسامة الآلهة اللطيفة الغامضة .

ولم يحدث قط أن نفد ذلك الشعور وتلك الابتسامة الى أعماق نفسى وأثرتا فيها كما حدث فى ذلك اليوم .

كان ذلك السر الحقير الذى علينا أن نخفيه أنا وجوليانا اخفاء تاما يحيط به كثير من الهدوء والاخلاص .

وهنا قلت فى نفسى :

ـ والآن ماذا أعمل ؟

ولقد بلغ بى الأمل ذروته وأخذت أذرع الردهة جيئة وذهابا كما لو كنت رجلا غريبا ضل الطريق إذ لم أكن أستطيع أن أتوجه بخطواتى نحو المكان المخوف كما لو كان جسدى أبى أن ينصاع الى دافع ارادتى .

كنت أقول :

ـ والآن ماذا اعمل ؟ انها تعلم أننى أعرف الحقيقة • اذ أصبح كل رياء يبديه أحدنا أمام الآخر أمرا عديم الجدوى • ومن اللازم أن ننظر الى بعضنا وجها لوجه وأن نتكلم عن الأمر الخطير • ولكن ليس من الممكن أن تقوم هـذه المبارزة هذا الصباح ، اذ أن نتائج ذلك ستكون على خلاف ما تتوقعه • ومن اللازم الآن أكثر من أى وقت مضى الا يظهر اى عمل من اعمالنا غريبا لا يمكن تأويله أمام أمى وأمام أخى وأمام أى فرد من أفراد هذا المنزل • ومن الممكن تأويل الاضطراب الذى اعترانى فى الليلة الماضية وقلقى وحزنى بأنه ناشىء عن الخطر الذى تتعرض له جوليانا وهى حبلى ، ولكن هذا الانشغال كان لابد أن يجعلنى بطبيعة الحال فى نظر الآخرين أكثر عطفا عليها وأكثر اهتماما وشغفا بها أكثر من اى وقت مضى ، يجب أن يكون حذرى شديدا من الآن فصاعدا وأن أتجنب أى لقاء بينى وبين جوليانا اليوم • ويجب أن أتحاشى أية فرصة للبقاء معها بمفردها •

ولكن يجب على أنا أيضا أن أجد الوسيلة اللازمة لافهامها ذلك الشعور الذى يحدد مسلكى ازاءها وغرضى من هذا المسلك •

لكن ترى ما العمل اذا أصرت على تنفيذ رغبتها فى الانتحار ؟

واذا كانت لم تعمل شيئا سوى أن قررت تأجيل تنفيذ قرارها بضع ساعات؟ واذا كانت تنتظر الفرصة المواتية لذلك ؟

قطع هذا الخوف ترددى وحفزنى على العمل •

اتجهت صوب غرفة البيانو وعندما رأتنى ماريا توقفت عن مواصلة تمريناتها الموسيقية وهرعت نحوى فى خفة ومرح كما لو كانت تفزع الى منقذ ينقذها •

كان الله قد حباها باللطف والظرف والنشـاط وخفة المخلوقات المجنحة رفعتها بين ذراعى لتقبيلها • وفيما هى كذلك سألتنى قائلة :

ـ أتأخذنى معك ؟ اننى متعبة • ان مس ايديت تستبقينى هنا منذ ساعة من الزمن •• واننى لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك خذنى معك الى الخارج •

ــ دعنا نتنزه قليلا قبل تناول الأفطار ٠

ــ أين ؟

ــ حيث تشاء ٠ ان جميع الأماكن عندى سواء ٠

ــ ولكن لنذهب أولا الى أمى ٠

ــ انكما ذهبتما بالأمس الى قصر « فيلا ليللا » وبقينا نحن هنا فى الضيعة وانك أنت وأنت بالذات الذى لم ترد أن تأخذنا معك اليها لأن أمى كانت تريد ذلك ٠ يا لك من شقى ! اننا نود الذهاب الى هنـاك قل لى كيف متعتما أنفسكما ٠٠

وأخذت تغنى بلغة غير لغتها الأصلية ، فكانت كأنها عصفور يغرد تغريدا حلوا لذيذا يشنف الآذان ، وكان ذلك الشدو المتواصل يصحب شـعورى بالقلق ونحن فى طريقنا الى غرفة جوليانا ، واذ كنت مترددا طرقت ماريا باب الغرفة وهى تنادى قائلة :

ــ يا أماه ٠

فتحت جوليانا الباب بنفسها وهى لا تتوقع حضورى ٠ وما أن رأتنى حتى اخذت ترتعد جزعا وفرقا كما لو كانت قد رأت خيالا من الخيالات أو شبحا من الأشباح أو شيئا يبعث على الجزع والهلع ، وقالت وهى متلعثمة وبصوت خفيض كنت أسمعه بالكاد ٠ بينما كانت شـفتاها عندما تتحركان تفقدان حمرتهما وكانت هى بعد هذه الرعدة قد صارت على حين غرة كأنها جلمود من الصخر :

ــ هل انت يا توليو ؟

نظر كل منا الى الآخر هناك على عتبة الباب واخذت احدق فيها وتحدق فى ٠

وأخذ كل منا يحاول معرفة ما يجول بخاطر الآخر واختفى كل شىء من حولنا ٠ وكنا كأننا قد قلنا كل شىء وفهمنا كل شىء وقررنا كل شىء فى لحظة واحدة ٠

ولكن ترى ما الذى حدث بعد ذلك ؟ اننى لا أدرى شيئا ولا أذكر شيئا على وجه الدقة ٠ وكل ما اذكره هو أنه نبتت عندى مدى فترة من الزمن عما كان

يحدث فكرة مشوشة كما لو كان قد غشي ذاكرتي شيء من الخسوف لا يلبث أن يتبدد ثم يعود ·

ولقد كان هذا ــ على ما أعتقد ــ ظاهرة تشبه فى جانب منها تلك الظاهرة التى تنجم عن ضعف التنبه الاختيارى الذى يصيب بعض المرضى ·

كنت أفتقر الى المقدرة على التنبه فلم أكن أرى ولا أسمع ولا ادرك معنى الكلمات ولا افهم شيئا ·

وما هى الا لحظة حتى كنت أستعيد تلك المقدرة وأتبين حقيقة الأشياء والأشخاص الذين كانوا من حولى وأصبحت مرة ثانية متنبها وواعيا ·

كانت جوليانا جالسة وقد وضعت ناتاليا فوق ركبتيها وكنت أنا أيضا جالسا ، وكانت ماريا تتركنى وتذهب اليها ثم لا تلبث أن تتركها وتأتى الى فى خفة مستمرة ، وهى لا تكف عن الكلام وتحث اختها على الكلام والحركة وتداعبها وتوجه الينا وابلا من الأسئلة كنا لا نجيب عليها ، اللهم الا بايماءة من رأسينا · وكانت هذه الثرثرة المستمرة تخيم على سلوكنا وكان من بين العبارات التى سمعتها تلك العبارة التى قالتها ماريا لأختها وهى :

ــ طوبى لك · لقد نمت هذه الليلة مع أمك ، أليس هذا صحيحا ؟

وقد ردت عليها ناتاليا بقولها :

ــ نعم لأننى صغيرة ·

ــ ولكن ليكن فى علمك أننى سوف أنام أنا بدورى معها فى الليلة المقبلة · أليس هذا صحيحا يا أمى ؟ · خذينى معك فى سريرك فى الليلة المقبلة ·

كانت جوليانا صامتة لا تبتسم ومستغرقة فى أفكارها ·

ولما كانت جوليانا جالسة على ركبتيها وتدير أكتافها اليها كانت هى تحيط خصرها بذراعيها وكانت يداها مستقرتين وهما مضمومتان فوق حجر الطفلة الصغيرة ، وكانتا أكثر بياضا من الرداء الصغير الأبيض الذى كانتا تستقران عليه · كما كانتا نحيلتين مرتخيتين وكان منظرهما وحده ينبىء عما تشعر به من حزن عميق ·

ولما كان راس ناتاليا يصل الى طرف ذقنها فكانت وهى منحنية تبـدو كأنها تضغط بفمها فوق خصل شعر ابنتها حتى اننى عندما كنت القى عليها نظرة من نظراتى لم أكن أرى الجزء الأسفل من وجهها ولم أكن أرى ملامح فمها ولم تكن عيناى تلتقيان بعينيها بأية حال من الأحوال · ولكنى كنت كل مرة أنظر اليها أشاهد جفونها مسبلة وقد بدا عليها شىء من الاحمرار وكانت رؤيتى لتلك الجفون المحمرة كلما شاهدتها تسبب لى اضطرابا شديدا فى نفسى كما لو كانت تنبىء عن تحديق تلك العيون التى كانت تحجبها ·

ترى هل كانت تنتظر أن أقول لها شيئا ؟ وهل كانت تتبادر الى شفتيها المخبوءتين بعض الكلمات المكتومة التى لا يمكن النطق بها ؟

وعندما استطعت أخيرا أن أتخلص من حالة الجمود والخمول التى كانت مسيطرة على والتى كانت تتغلب عليها موجات من النور والظلام قلت (وأعتقد أنه كان يبدو فى نبرات صوتى ما يدل على أننى أود مواصلة حديث كنت قد بدأته من قبل وأضيف بعض كلمات على ما سبق أن قلته) ·

قلت فى شىء من التؤدة :

ـ ان أمى تريد أن أخطر الطبيب « فيبيستى » · ولقد وعدتها بأن أكتب اليه ولسوف أكتب ·

لم ترفع جفونها وبقيت صامتة ·

أما ماريا التى كانت لا تدرى شـيئا مما يحدث حولهـا فقد نظرت اليها والدهشة آخذة منها كل مأخذ · ثم حولت نظرها نحوى ·

قمت على قدمى وهممت بالخروج وقلت :

ـ سأذهب اليوم بعد الظهر الى غابة «اسورو» وسأصطحب معى فيديريكو· ترى هل سنلتقى هذا المساء بعد عودتى ؟

ولما لم تكن تبدى أية اشارة أو تحير جوابا قلت ثانية بصوت كان يعبر عن كل الأشياء التى لم أوضحها :

ـ ترى هل سنلتقى هذا المساء بعد عودتى ؟

وهنا ثمتمت بشفتيها اللتين كانتا غائرتين بين خصل شعر ناتاليا قائلة :

ــ نعم ٠

ــ ١٤ ــ

في غمرة اضطراباتي المختلفة المتعارضة وفى أول نوبة من نوبات الألـم وتحت التهديد بالأخطار المحدقة لم أكن توقفت عن التفكير فى ذلك « الآخر » ولكنى منذ اللحظة الأولى لم يكن لدى أدنى شك حول صحة ما كنت أرتاب فيه من زمن بعيد ٠ وسرعان ما اتخذ ذلك « الآخر » فى ذهنى صورة « فيليبو اربوريو » ٠ وكانت تلك الصورة الكريهة منذ اللحظة الأولى التى شعرت فيها بالغيرة القاتلة الشديدة التى انتابتنى فى داخل المخدع قد اجتمعت الى جانب صورة جوليانا فى سلسلة من المناظر المريعة ٠

والآن ونحن ذاهبان أنا وفيديريكو فوق ظهرى جوادينا نحو الغابة بحذاء ذلك النهر المتعرج الذى كنت تأملته فى ظهيرة يوم سبت النور ، كان ذلك «الآخر» آتيا معنا ولا تفارقنى صورته ٠ وكانت تقف بينى وبين أخى صورة « فيليبو اربوريو » التى كان يحسدها حقدى عليه والتى كان مقتى له يجعلها تبـدو حيـة أمام عينى ، حتى اننى كنت أحس به وألمسه وأنا أنظر اليها وأشـعر باضطراب فى جسدى أو بما يشبه الرعدة الشديدة التى كانت انتابتنى فى بعض الأحيان عندما كنت فى النادى أمام خصمى الذى كان عاريا من قميصه عند اشارة البدء بالمبارزة ٠

كان وجود أخي على مقربة مني يزيد فى آلامى بشكل لم أعهده من قبل ٠

وكانت صورة ذلك الرجل النحيل العصبي المزاج المخنث اذا ما قيست بصورة فيديريكو تبدو ضئيلة بائسة تعسة ، وتبدو فى نظرى كريهة محتقرة دنيئة ٠ وكنت تحت تأثير هذه الأفكار التى كان مبعثها الشهامة والرجولة التى أوحى بها الى المثل الذى ضربه لى أخى ولم أكن أكره هذا الرجل فحسب ، بل كنت ازدرى ذلك المخلوق المعقد الغامض الذى كان مع شديد الأسف من أبناء جنسى ويشترك معى فى بعض الصفات الفكرية الخاصة ٠ ويتضح ذلك من أعماله الأدبية ٠ كنت أتصوره وأرى فيه شبها لاحدى الشخصيات التى

صورها فى أحد مؤلفاته وأراه مصابا بأشد الأمراض العقلية ومنحرفا ومزدوج الشخصية فضوليا بشكل غريب جعله موضع استخفاف الغير به وسخريتهم منه وكشفهم لعيوبه ويبدو على حقيقته انسانا مجدبا لا خير فيه ، شغله الشاغل قلب للحقائق رأسا على عقب ٠ اعتاد أن يتخذ من أى مخلوق بشرى موضوعا لتخيلاته الفكرية السخيفة ، غير جدير بالحب وعاجزا عن القيام بأى عمل كريم أو الزهد فى شىء من الأشياء أو تقديم أية تضحية ، منغمسا فى الأكاذيب ، موضع التقزز والنفور من الجميع ، شهوانيا منحطا دنيئا ٠

انخدعت جوليانا بهذا الرجل وقد غواها ومما لاشك فيه أنه لم يحببها ، ألم تظهر تلك الوسيلة التى استعملها فى هذا الاهداء المكتوب على أول صفحة من صفحات قصة « السر » ، ذلك الاهداء المبالغ فيه الذى هو الوثيقة الوحيدة التى اكتشفتها والمتصلة بالعلاقة القديمة بين ذلك القصصى وزوجتى ؟ يقينا انها كانت بين يدى ذلك الرجل شيئا اشتهاه ولا شىء غير ذلك ٠ ان اقتحامه لبرج عاجى وافساد امرأة يمتدح الجميع فيها العفة والشرف ويشيدون بطهارة ذيلها وتجربة طريقة من طرق الغواية فى امرأة نادرة المثال هو عمل شاق ولكنه أمر يسترعى الأنظار ، جدير بفنان بارع وبالعالم النفسانى الذى كتب قصة « الكاثوليكية المتزمتة » وقصة « انجيليكا دونى » ٠

كانت الأحداث تبدو أمامى فى أبشع صورها كلما فكرت فيها ٠ فلم يكن ثمة شك فى أن « فيليبو اربوريو » التقى بزوجتى جوليانا فى فترة من تلك الفترات التى تكون المرأة فيها فى حالة من الروحانية ٠ وبعد أن عانت آلام الحرمان الجنسى الطويل وأثرت فى نفسها تلك الأمانى الخيالية والرغبات الدفينة والآلام الغامضة التى لا تعدو أن تكون مجرد ظلال تختفى وراءها أحط الشهوات الجنسية ٠ فاستغل « فيليبو اربوريو » ــ وهو الرجل ذو الخبرة والتجربة ــ بعد أن أدرك حالة تلك المرأة الخاصة التى أراد الاستحواذ عليها أنسب الطرق وأكثرها ضمانا وهى أن يتحدث عن المثالية والأخلاق السامية والعلاقات الروحية ، ويعمل فى الوقت نفسه على اكتشاف أسرار أخرى غير ذلك وأن يجمع ما بين الأسلوب العادى والأسلوب الرقيق الذى يستطيع أن ينفذ من خلاله الى قلب محدثه ٠ وكانت « جوليانا » التى لم تكن سوى بطلة قصة « توريس ايبورينا » التى وضعها « فيليبو اربوريو » تلك المرأة الصامتة

والمخلوقة التى قدت من الذهب الخالص والفولاذ المتين والانسانة الوحيدة فاستسلمت لهذه اللعبة القديمة المكشوفة وتركت نفسها فريسة لهذه الخدعة البالية وانصاعت هى أيضا لشريعة ضعف النساء المعروفة من قديم الزمن • وقد انتهى هذا اللقاء العاطفى بزلة ••

كانت سخرية مريعة تحز فى نفسى حزا وتعصر أحشائى ويبدو لى أنه أصابنى لا فى فمى ولكن فى أعماق نفسى ذلك التشنج الذى تحدثه تلك الأعشاب التى تجعلنا نموت ونحن فى هيئة من هو مستغرق فى الضحك •

فغمزت جوادى بمهمازى وجعلته يرمح رمحا على طول شاطئ النهر •

كان السير على هذا الشاطئ من أخطر الأمور • فقد كان ضيقا الى حد بعيد فى منحنيات ويهدد بالسقوط فى الحفر التى تكثر فى بعض أجزائه بالاصطدام ببعض غصون أشجاره العوجاء وتبرز على سطحه فى بعض أجزائه جذور هائلة • وكنت على علم تام بذلك الخطر الذى أتعرض له وبدلا من أن أكبح جماح الجواد كنت أدفعه دفعا لا لكى ألقى حتفى بل لأنى كنت أريد أن أجد فى غمرة هذا القلق مهادنة مع هذا الاضطراب الذى لم يكن يزايلنى • وكنت أعرف من قبل أثر مثل هذا الجنون •

فقد حدث منذ عشرة أعوام خلت وأنا فى ميعة الصبا وكنت أعمل ملحقا فى سفارتنا بمدينة القسطنطينية اننى أردت التخلص من بعض نوبات حزنى الذى كان نتيجة التفكير فى ذكرياتى الغرامية الماضية ، فدخلت فى احدى الليالى المقمرة وأنا أمتطى صهوة جوادى فى احدى الجبانات الاسلامية المكتظة بالقبور فوق أرض منحدرة مغطاة بالحصى والحجارة الناعمة وأنا أغامر آلاف المرات بالوقوع على الأرض ميتا • ولما كان الموت يلاحقنى فى كل لحظة فانه كان يمنعنى من الاهتمام بأى شئ آخر •

كان فيديريكو يصيح بى من بعيد قائلا :

ـ قف يا توليو • قف يا توليو !

لم أكن أصغى اليه او أستمع لرجائه • وحدث أكثر من مرة أن تجنبت

بمعجزة من المعجزات أن اصطدم بجبينى ببعض الأغصان الأفقية • كما حدث أكثر من مرة أن منعت الحصـان بمعجزة من المعجزات من أن يتعثر بأحـد جذوع الأشجار ورأيت أكثر من مرة أثناء مرورى فى منحنيات الشاطىء الضيقة أن سقوطى فى اليم الذى كان يلمع من تحتى أمرا لا معدى عنه• ولكنى عندما سمعت وقع سنابك جواد آخر يرمح من خلفى ولاحظت أن فيديريكو يتبعنى فى هذا المحجر أوقفت جوادى الشارد بشد لجامه شدة قوية خوفا على حياة أخى ، فبقى الجواد لحظة جامدا فى مكانه كما لو كان على وشك الاندفاع فى الماء ثم سقط مرة ثانية ، أما أنا فلم يصبنى أى شىء •

صاح بى فيديريكو عندما ادركنى وقد شحب لونه قائلا :

ـ ولكن هل أصابك مس من الجنون ؟

ـ هل أنزلت الرعب فى قلبك ؟ أرجو المعذرة • كنت أعتقد أنه ليس ثمة خطر • كنت أريد تجربة الجواد •• ثم لم أستطع ايقافه •• انه جواد صعب المراس •

ـ عجبا هل جوادك « أورلاندو » صعب المراس •

ألا يبدو لك ذلك ؟

نظر الى وحدق فى وجهى والقلق باد على محياه • فحاولت أن أبتسم وكان شحوبه العادى يؤلمنى ويجعلنى أشعر بالاشفاق عليه •

ـ اننى أستغرب كيف لم يرتطم رأسك باحدى هـذه الأشجار ويتحطم ويتفتت وكيف لم تسقط فى اليم أثناء اندفاعك ؟

ـ وأنت ؟

كان وهو يتعقبنى يتعرض للخطر بذاته وربما كان يتعرض لخطر أكبـر وذلك لأن جواده أضخم جسما من جوادى وأضطرالى جعله يعدو بكل ما أوتيت من سرعة لكى يلحق بى فى الوقت المناسب ، وكان كلانا ينظر الى الطريق من خلفه •

وعندئذ قال لى :

ـ انها لمعجزة حقـا • اذ أن النجاة من السقوط فى نهر « اسورو » أمر مستحيل • ألا ترى ؟

كان كل منا ينظر من تحته الى ذلك النهر القاتل · ونهر « اسورو » العميق اللامع السريع الملىء بطواحين الهواء والدوامات يجرى بين الشواطىء الطينية فى صمت يجعله رهيبا مخيفا ، ومناظر الريف تتجاوب مع ذلك المنظر الخادع الغدار ، كما كانت سماء الأصيل معبأة بالأبخرة وتسطع فى شىء من العناء وتبعث الحرارة والدفء فوق رقعة فسيحة امتلأت ببقع كبيرة حمراء باهتة لم يكن الربيع قهرها واستطاع محوها · أما الأوراق الجافة فاختلطت هناك مع الأوراق الجديدة ، أما الأعواد العارية فامتزجت بالأوراق الصغيرة الخضراء · كما اجتمعت الجثث النباتية بالمواليد الجديدة فى اطار رمزى كثيف ·

وكانت السماء تضىء وتتبدد غيومها رويدا رويدا فوق النهر الهادر وفوق تلك الغابة الكثيفة المليئة بالمتناقضات ·

وقلت فى نفسى :

« لو أننى سقطت فى اليم لكنت قد أحدثت حركة مفاجئة فى الماء وما كنت أفكر فى شىء أو أشعر بأى ألم أو أحمل ثقل جسدى التعس بل ربما كنت أجر معى الى الهاوية أخى المسكين ، ذلك الرجل الذى يعتبر صورة نبيلة للانسان الكامل · وقد نجوت بأعجوبة كما نجا هو الآخر بأعجوبة · لقد عرضه جنونى لخطر جسيم · وهكذا كان لابد أن يختفى باختفائه عالم من الأشياء الجميلة والأشياء الطيبة · ترى ما هو ذلك القدر الذى أراد أن يجعلنى أجلب الكثير من الأذى للأشخاص الذين يحبوننى ؟

نظرت الى فيديريكو وقد بدا عليه التفكير والعبوس، ولم أجرؤ على الاستفسار منه عما أصابه · ولكننى أحسست بشىء كثير من المرارة والألم لأننى سببت له الحزن والأسى · ترى فيم كان يفكر ؟ أية فكرة تلك التى كانت تزيد فى اضطرابه ؟ هل من الممكن أن يكون خمن اننى أخفى شيئا مؤلما لا يمكننى الاعتراف به ؟ أم أن وخز فكرة محددة دفعنى الى أن أعدو ذلك العدو المميت ؟

تابعنا سيرنا الواحد منا تلو الآخر ، ثم دخلنا طريقا تغمره الأوحال · ولما كان هذا الطريق فسيحا بما فيه الكفاية فقد سرنا من جديد فوق جوادينا الواحد منا الى جانب الآخر · بينما كان الجوادان ينفخان ويقرب كل منهما أنفه من أنف الآخر ، كما لو كان يريد أن يتحدث اليه همسا ويسر اليه ببعض

الحـديث ويخلطان ما كان يتساقط من فميهما من زبد تحت تأثـير وطأة لجاميهما ٠

كنت أقول لنفسى وأنا ألقى بين الفينة والفينة نظرة على فيديريكو وأراه لا يزال عابس الوجه :

ـ « يقينا انه لن يصدقنى اذا ما كشفت له عن الحقيقة ، وليس من الممكن أن يصدق ما أقوله له عن خطيئة جوليانا وتلوث الأخت بهذا العار لم أستطع أن أحكم فى الحق بين حبه لجوليانا وحب أمى لها وأقرر أيهما أقوى ٠ ألم يضع دائما فوق مكتبه صورة شقيقتنا المسكينة « كوستانزا » الى جانب صورة جوليانا كما لو كانتا صحيفتين متقابلتين من صحف الكتاب المقـدس ؟ ٠ واليوم أيضا ما أحلى صوته وهو ينطق باسمها ، ولكن سرعان ما تمثلت زلتها أمام عينى من جديد فى أبشع صورة ٠ كما تراءى لى ذلك الجسد العارى الذى شاهدته فى غرفة خلع الملابس بنادى السلاح ٠ وكان حقدى بكل أسف ينصب على تلك الصورة كما ينصب حامض الأزوت فوق لوحة من النحاس فأصبح ما كان محفورا عليها أكثر وضوحا ٠

وبينما كان أثر العـدو لا يزال فى دمى نتيجة لذلك المجهود الجسمانى ونتيجة لغريزة حب القتال الموروثة التى كثيرا ما كانت تستيقظ فى نفسى عند اصطدامى برجال آخرين شـعرت بأنه لا يليق بى أن أزهد فى مواجهة « فيليبو اربوريو » وكنت أقول فى نفسى : « لسوف أذهب الى روما وأبحث عنه وأستفزه بأية طريقة من الطرق وأدعوه الى المبارزة وأعمل كل مافى وسعى لقتله أو لجعله عاجزا » ٠ وكنت أتصوره جبانا رعديدا وعادت بى الذاكرة الى حركة مضحكة بدت منه عن غير قصـد فى نادى السلاح عندما تلقى فى صميم صدره طعنة من المدرب ، وعادت بى الذاكرة الى فضوله عنـدما كان يسألنى عن أخبار مبارزتى ذلك الفضول الصبيانى الذى يبهر عيون من لـم يعرف المغامرة فى حيـاته قط ٠ وتذكرت أنه أثناء هجومى كان يصـوب نظراته نحوى دائما وكانت معرفتى بتفوقى وتأكدى من أننى سوف أستطيع التغلب عليه اذا ما قمت بمبارزته قد رفعا معنوياتى وتراءى لى كأن جدولا من المياه الحمراء سطر جلده الشاحب الكريه ، وبعض أجزاء من الاحساسات الحقيقية التى شعرت بها فى لحظات أخرى أمام رجال آخرين قد ساعدت على

توضيح تلك الصورة الخيالية التى كنت مستغرقا فيها • وشاهدت ذلك الرجل يسيل الدم من جسده وهو عاجز عن الحركة فوق حشوة من القش فى بيت بعيد والطبيبان العابسان ينحنيان فوقه •

وكم من المرات سرنى أنا الرجل المفكر المدقق السفسطائى فى فترة من فترات الانحطاط أن أكون سليل « رايموندو هيرميل دى بينيدو » الذى أبلى فى معركة « جوليتا » بلاء حسنا وأتى بأعمال باهرة وبمعجزة من معجزات البسالة والشهامة والجبروت بمرأى من الملك « كارلو الخامس » ولم يستطع اتساع آفاق مداركى وحيويتى المتعددة الجوانب أن يغيرا شيئا من جوهر تكوينى أو أن يبدلا من أغوار نفسى الدفينة التى نقشت عليها كل صفات سلالتنا الموروثة • وكان فكر أخى ـ ذلك الانسان المتزن ـ يصاحبه دائما أثناء عمله ، أما أنا فان الفكر عندى كان دائما المسيطر • ولكن دون أن يحطم مقدرتى على العمل التى كثيرا ما كانت تنبىء عنها فيما مضى قوتى الجبارة • وقصارى القول اننى كنت عنيفا ورجلا عاطفيا ذا ضمير جعل تضخم بعض خلايا مخه من المستحيل ايجاد ذلك الانسجام اللازم للحياة الذهنية العادية •

ولما كنت متنبها وواعيا لنفسى فقد كانت لدى كل ما فى الطبائع البدائية الجامحة من قوة وعنف • وكثيرا ما ساورتنى ايحاءات شريرة على غير انتظار وكثيرا ما فوجئت بثورة أوحت بها غريزتى القاسية •

وهنا قال أخى وهو يهدىء من سير جواده :

ـ ها هى ذى غابات أخشاب الفحم •

كنا نسمع ضربات المعاول وسط الغابة ونرى حلقات الدخان وهى تتصاعد من بين الأشجار •

وعندما رآنا العاملون فى هذه الغابة قدموا لنا التحية ، وكان فيديريكو يسأل العمال عن سير العمل ، ويسدى اليهم النصح ويحذرهم ويلاحظ المواقد بعناية الرجل المدقق الخبير ، وكانوا جميعا يقفون أمامه فى احترام وينصتون اليه فى انتباه شديد ، وكان العمل يبدو وكأنه صار أكثر حيوية ونشاطا وسهولة ويسرا ، وأشبه شىء باستعار النار فى الهشيم • وكان الرجال

يجرون من مكان الى آخر لالقاء الأتربة على الأماكن التى يتصاعد منها الدخان بكميات كبيرة ويغطون الحفر التى أحدثتها النيران على سطح الأرض المستوية بكتل من الطين • كانوا يجرون ويهللون وأصوات حناجر الحطابين تختلط بتلك الأصوات الخشنة • كما يسمع صوت ارتطام الأشجار المتهاوية داخل الغابة • وكانت الشحارير تغرد فى فترات الهدوء والغابة الهائلة الجامدة تتأمل بحسرة تلك الأغصان المتهاوية التى ترعرت على يديها •

وبينما كان أخي يتفقد سـير الأعمال ابتعدت بعد أن تركت للجـواد أمر اختيار المسالك التي تتفرع من خلال تلك الغابة الكثيفة ، والضجيج يخف من خلفى كما كانت الأصوات تتبدد فى الهواء ، وكان الصمت العميق يخيم على هامات الأشجار • كنت أقول لنفسى :

– ماذا أفعل لرفع معنوياتى من جديد ؟ وكيف أكون من الغد فصاعدا ؟ ترى هل أستطيع أن أواصل الحياة فى بيت أمى وأنا احتفظ بسرى الدفين ؟ وهل يكون فى مقدورى أن أمزج حياتى بحياة فيديريكو ؟ من ذا الذى وأى شىء فى هذه الدنيا يستطيع أن يبعث فى نفسى مرة ثانية شرارة من الثقة ؟

كان ضجيج العمل يخفت من خلفى وكانت الوحدة كاملة والسكون مخيما •

كنت أقول فى نفسى :

– هل أستطيع أن أجد الآن فى العمل وفعل الخير والعيش من أجل الغير معنى الحياة الحقيقى ؟ وهل حقا أن معنى الحياة لا يكون كاملا فى السـعادة الشخصية بل فى هذه الأشياء وحدها •

كنت أعتقد بالأمس عندما كان أخى يتكلم أننى أفهم كلامه •

وكنت أعتقد أن حكمة الحقيقة ستبدو لى على لسانه وكانت حكمة الحقيقة فى نظر أخى ليست فى القوانين ولا فى المبادىء ولكنها ببساطة فى المعنى الذى يعطيه الانسان للحياة دون غيره •

كان يبدو لى اننى قد فهمت ذلك ولكن هانذا أعود بغتة الى الظلام وقد عدت أعمى مرة ثانية ولا افهم شيئا أكثر من ذلك •

من ذا الذى وأى شىء فى هذه الدنيا يستطيع تعزيتى عن ذلك الخير الذى فقدته ؟

وبدا المستقبل أمامى مرعبا دون أى أمل ٠

ان صورة الجنين غير الواضحة قد كبرت واتسعت وأصبحت مثل تلك الأشياء المرعبة الغريبة التكوين التى نراها فى بعض الأحيان فى أحلامنا المزعجة وشغلت كل تفكيرى ٠

غير أن الأمر لم يكن متعلقا بحسرة وبتأنيب الضمير أو بذكرى من الذكريات التى لا تمحى أو بأى شىء مرير أشعر به فى أعماق نفسى فحسب ، ولكنه يتعلق بكائن حى ٠

كان مستقبلى قد ارتبط بكائن حى وبروح شريرة عنيدة ، ارتبط بغريب وبمولود دخيل وبمخلوق كريه لعين لا تضمر له نفسى وحدها بل كل لحمى ودمى وعروقى عداوة وحشية قاسية لا تهدأ ثائرتها حتى الموت وحتى ما بعد المـوت ٠

كنت أقول لنفسى :

ـ من ذا الذى كان يستطيع أن يتصور عذابا أسوأ من هذا لكى يعذبنى جسدا ونفسا ، عذابا ماديا وأدبيا ؟

ان أشد الطغاة والظالمين ضراوة ما كان ليخطر بباله مثل هـذه القسوة الساخرة التى هى من خصائص القدر وحده ٠

كان من المفروض أن يجعل المرض جوليانا امرأة عقيم ، الا أنها قد استسلمت لرجل وارتكبت أول خطيئة لهـا وحملت سـفاحا (على غرار أولئك النسـاء الشهوانيات اللاتى يغتصبن الرجال الأنذال خلف الأسوار فوق الحشائش فى أوقات الظلمة) ٠

وبينما كانت هى ممتلئة بالتقزز والاشمئزاز من نفسها كنت أتغذى بالأحلام وأرتوى بالأفكار والمثل العليا وأستعيد ذكريات براءة الصبا ولا أهتم بأي شيء آخر سوي قطف الزهور ٠٠

(آه يا لهـا من زهـور تلك التى استسلمت فى شىء كثـير من الجبـن والخنوع) ٠

وهانذا بعد سكرة كبيرة عاطفية وحسية أتلقى النبأ الحلو ، ولكن ممن أتلقـاه ؟

من أمى ؟

وبعد هذا الخبر شعرت باحساس كريم وقلت فى نفسى :

ـ لأعمل بنية حسنة وأقوم بدور الرجل النبيل واضحى فى صمت وسكون كبطل من أبطال قصة « أوكتاف فيويه » ولكن أى بطل ! أى بطل !

كانت السخرية تحز فى نفسى حزا وتؤجج النيران فى عروقى وساورتنى من جديد فكرة جنونية هى اللواذ بالفرار ٠

نظرت أمامى فوجدت نهر « اسورو » يلمع على مقربة منى من خلال سيقان الأشجار الهائلة وكان يبدو لى أننى واهم وأن ما أراه انما هو نتيجة خـداع الرؤية ٠

وكنت أقول فى نفسى وأنا أحس برعدة لا عهد لى بها من قبل :

ـ يا للغرابة ٠

اننى لم ألاحظ قبل هذه المرة أن الجواد قد سار دون مرشد فى الطريق المؤدى الى النهر وكان يبدو أن نهر « اسورو » قد اجتذبنى اليه ٠

بقيت فى شك مدى لحظة واحدة ٠ هل أواصل السير حتى النهر أو أعود أدراجى من حيث أتيت وهزنى سحر الماء وسوء الظن فأدرت الجواد ٠

شعرت بالذلة والانكسار على اثر ما انتابنى من تشنج نفسانى وبدا لى فجأة أن نفسى قد صارت شيئا زهيدا قبيحا مرذولا وشيئا دنيئا تعسا ، وعندئذ استرخيت وشعرت بالشفقة على نفسى وأحسست بالاشفاق على جوليانا وعلى جميع المخلوقات التي يترك عليها الألم طابعه وأثره ، وعلى تلك المخلوقات التي

ترتعد والتى تجمع بينها الحياة العامة كما يرتعد المقهور تحت التهديد بقبضة قاهره الشديد المراس ٠

وكنت أقول فى نفسى :

ـ ماذا عسانا أن نكون ؟ وما الذى نعرفه ؟ وماذا نريد ؟

ان أحدا لم يحصل قط على ما اشتهاه ولن يحصل أحد على ما يشتهيه ٠ لنبحث عن الصلاح والكرم والفضيلة والحماس والحب الذى يغمر نفوسنا والايمان الذى يهدىء من ضيقنا والفكرة التى ندافع عنها بكل ما أوتينا من قوة وشجاعة والعمل الذى نضطلع به ونكرس نفوسنا من أجله والقضية التى نموت فى سبيلها بسرور وبنفس راضية ٠ وان نهاية كل هذه المجهودات هى التعب الضائع والشعور بالقوة التى تتبدد والوقت الذى ينقضى ويضيع سدى ٠٠

بدت الحياة أمامى فى تلك الساعة أشبه ما تكون برؤية بعيدة مضطربة مريعة الى حد بعيد وتمثلت أمامى اذ ذاك مظاهر الجنون والغباء والفقر والعمى وجميع الأمراض وكل الكوارث واضطراب القوى الدفينة المستمر الغامض والوحشية الكامنة فى جوهر كياننا والموروثة عن الأجداد وأسمى مظاهر الفكر المزعزعة الخاطفة التى تكون دائما نتيجة لحالة جسمانية مرتبطة بنشاط عضو من الأعضاء والتغيير الشكلى المؤقت الناتج عن مسألة غير محسوسة أو عن مسألة ليست بذى بال والجانب الثابت من الأنانية فى أنبل الأعمال وأشرفها وعقم كثير من الطاقات الأدبية المتجهة الى هدف غير مضمون وتفاهة الحب الذى يعتقد الانسان أنه دائم وضعف الفضائل التى كان من المعتقد أنها لن تتدهور ووهن أقوى الارادات وأصدقها وكل الفضائح وشتى التعاسات ٠

وكنت أقول لنفسى :

ـ كيف يستطيع الانسان أن يعيش فى هذا العالم ؟ وكيف يستطيع أن يحب ؟

كان صوت المعاول يرن صداه فى الغابة وكانت تصحب كل ضربة من ضرباتها صيحة قصيرة عاتية وكان الدخان يتصاعد من تلك الأكوام الكبيرة

التى كانت مخروطية الشكل أو فى صورة أهرامات مربعة القواعد التى كانت ملقاة فى جميع الأماكن الخالية •

كانت أعمدة الدخان ترتفع فى أجواز الفضاء كثيفة عالية كأنها سيقان الأشجار ، وتتصاعد فى الهواء فى وقت خلا من هبوب الرياح ، كأن كل شىء فى نظرى غامضا ورمزيا فى تلك الساعة •

وجهت جوادى نحو مكان قريب يحرق فيه الفحم عندما رأيت فيديريكو عنده • كان قد ترجل عن صهوة جواده وكان يتحدث مع شيخ مديد القامة حليق اللحية ، ولما رآنى صاح بى قائلا :

ـ لك الله ! انك جئت أخيرا عندما رأيتنى •

ـ كنت أخشى أن تكون قد ضللت الطريق •

ـ لا اننى لم أبتعد كثيرا •

ثم قال وهو يضع احدى يديه على كتف الشيخ :

ـ انظر • ان لدينا هنا « جيوفانى دى سكوريو » وهو رجل بمعنى الكلمة•

نظرت الى ذلك الشيخ الذى ذكر اسمه ، وهنا افترت شفتا ذلك الشيخ عن ابتسامة حلوة عابرة وانى لم أجد قط تحت جبين أى مخلوق بشرى عينين حزينتين مثل عينى هذا الرجل •

وهنا أردف أخى قائلا بذلك الصوت الذى كان يبدو أن لديه المقدرة فى بعض الأحيان على زيادة الحيوية وكان أشبه ما يكون ببعض المشروبات الروحية المقوية :

ـ وداعا يا جيوفانى تشجع ! ونحن يا توليو نستطيع أن نستأنف السير فى طريق الضيعة • لقد صار الوقت متأخرا ، وانهم ينتظروننا •

امتطى صهوة جواده وحيا الشيخ مرة ثانية •

وعندما كنا نمر على مقربة من المواقد « الأفران » كان يعطى بعض التعليمات

للعمال عن الأعمال التى سيقومون بها فى الليلة التالية التى كان يجب أن تظهر فيها النيران الكبيرة ، ثم ابتعدنا وكل منا الى جانب الآخر على صهوة جواده .

كانت السماء تظهر بصعوبة من فوق رؤوسنا اذ كانت سحب الدخان تنتشر فى كافة الأرجاء ثم لا تلبث أن تتبدد ثم تعود الى التجمع حتى يبدو أن زرقة السماء تأخذ فى الشحوب باستمرار كما لو أن هناك شيئا أشبه ما يكون باللبن ينتشر باستمرار على صفحتها ثم لا يلبث أن يتبدد وقد اقتربت تلك الساعة بذاتها التى كنا فيها أنا وجوليانا فى الليلة الماضية فى قصر « فيلا ليللا » نرى الحديقة يغمرها ضوء عجيب . وبدأت الغابة من حولنا تصطبغ بلون الذهب ، وكانت العصافير تغرد ونحن لا نراها .

سألنى فيديريكو ونحن سائران قائلا :

ـ هل تمعنت جيدا فى وجه ذلك الشيخ « جيوفانى دى سكورديو » .

فأجبته قائلا :

ـ نعم وأعتقد أننى لن أنسى ابتسامته ولا عينيه .

واستطرد أخى قائلا :

ـ ان ذلك الشيخ هو رجل قديس . ليس هناك انسان عمل واحتمل الآلام وعانى ما عانه ذلك الشيخ . لقد أنجب أربعة عشر ولدا وقد فارقوه الواحد تلو الآخر كما تفترق الفواكه الناضجة عن أغصانها أما زوجته التى كانت امرأة قاسية القلب أشبه ما تكون بالجلادين فقد ماتت وبقى وحيدا وجرده أبناؤه من كل شيء وتنكروا له وتحالفت كل معانى العقوق ونكران الجميل عليه . انه لم يذق طعم الفقر على أيدى أناس أجانب ولكنه ذاقه على أيدى أبنائه الذين خرجوا من صلبه. أتفهم ما أقول؟ صار أولاده كالحيات والأفاعى وقد أحبهم دائما وعاونهم ولا يزال يحبهم . ولم يلعنهم قط وليس ثمة شك فى أنه سوف يباركهم ويدعو لهم بالخير فى الساعة التى يموت فيها حتى ولو تركوه يموت وحيدا . أليست غريبة وأمرا لا يستطيع أحد تصديقه هذه المبالغة فى الطيبة من جانب ذلك الرجل ؟ وأنه بعد كل ما احتمله من آلام قد استطاع أن يحتفظ بتلك الابتسامة التي رأيتها . انك تحسن صنعا يا توليو اذا لم تنس تلك الإبتسامة .

- ١٥ -

كانت ساعة المحنة وهي الساعة التي أخشاها وأتمناها في وقت معا تقترب. وكانت جوليانا على أهبة الاستعداد ، وتعارض باصرار ما تبديه « ماريا » من أعمال صبيانية وتريد أن تبقى بمفردها في غرفتها لانتظارى . « ترى ماذا أقول لها ؟ وماذا تقول لى ؟ وماذا يكون مسلكى ازاءها ؟ » كانت جميع الأوهام والنوايا تتبدد ولم يتبق لى سوى شوق متأجج .

ترى من ذا الذى كان يتوقع سلفا نتيجة هذا الحديث ؟ لم أكن أشعر بأننى أحتفظ بكيانى أو أسيطر على نفسى ولا على أقوالى ولا على أعمالى . وكل ما أشعر به في نفسى هو اضطراب كثير من الأشياء القائمة المتعارضة ويجب أن يظهر عند أول صدمة ألاقيها .

لم أر قط كما رأيت في مثل هذه المرة تلك الخلافات الدفينة التى تعذبنى واضحة جلية . ولم أدرك تلك العناصر المتضاربة التى تضطرب في كيانى والتى تتصارع باستمرار في قرارة نفسى كما أدركتها الآن دون أن أستطيع السيطرة عليها . ويضاف الى ما أصاب أفكارى من تأثر وانفعال شديدين اضطراب جديد في حواسى أثارته تلك الصور والتخيلات التى كانت تعذبنى في ذلك اليوم دون هوادة وبغير رحمة ولا شفقة . كنت أعرف وأعرف حق المعرفة ذلك الاضطراب الذى يثير ما في الانسان من حمى مسنون . كما أعرف أيضا حق المعرفة ذلك النوع الحقير من الشهوة الدنيئة التى ليس هناك من يستطيع أن يحمينا منها وتلك الحمى الجنسية الشديدة التى جعلتنى مدى عدة شهور أسيرا لامرأة حقيرة ممقوتة هى « تيريزا رافو » . وهنا تتحرك في نفسى مشاعر الطيبة والشفقة والقوة التى كانت تلزمنى لمواجهة جوليانا وللاصرار على مشروعى الأول ، كما تتحرك الأبخرة الهائمة فوق قاع موحل ملىء بالمياه المتدفقة التى تصم الآذان .

لم يكن بقى الا القليل على منتصف الليل عندما خرجت من غرفتى للتوجه الى حجرة جوليانا . وقد خمدت الضوضاء . والضيعة يخيم عليها سكون عميق . فوقفت أسترق السمع وكان يبدو لى أننى أكاد أسمع وسط هذا

الصمت تردد انفاس أمى وأخى وبنتى والكائنات البريئة الطاهرة • وبدا لى وجه « ماريا » وهى نائمة كما رأيته فى الليلة السابقة كما بدت لى الوجوه الأخرى كذلك وتبدو على كل منها امارات الاطمئنان والسلام والطيبة • وعندئذ سيطر على نفسى شعور بالحنان الدافق كما اجتاحت نفسى فى سرعة البرق سعادة غامرة كانت شملتنى لحظة بالأمس ثم اختفت • ترى أية ليلة كان يجب أن تكون تلك اذا لم يكن حدث شىء ، واذا بقيت فى ضلالى القديم ؟ كان بودى أن أذهب الى جوليانا ، كما لو كنت متوجها الى مخلوقة قدسية • وأى شىء كنت أصبو اليه وأرغب فيه أكثر عذوبة من ذلك الصمت المحيط بما أشعر به من الوله والحب ؟

مررت بالحجرة التى سمعت فيها من أمى فى الليلة السابقة ذلك النبأ المفاجىء • وسمعت دقات ساعة الحائط التى عرفت منها الوقت ، ولا أدرى لماذا زاد صوت تحرك رقاصها الرتيب من ضيقى • ولا أدرى لماذا بدا لى أنه يتجاوب مع ما أشعر به من الضيق من جوليانا من خلال ذلك الفضاء الذى يفصل بيننا مع دقات قلبى السريعة • سرت قدما فى طريقى دون أن أتوقف لحظة ودون أن أتحاشى صوت وقع أقدامى • لم أطرق البـاب ولكنى فتحته فجأة ودخلت وكانت جوليانا موجودة هنالك أمامى واقفة عـلى قدميها وقد أسندت احدى يديها على أحد أركان المنضدة دون حركة ، فبدت كأنها تمثال من التماثيل •

كنت أرى أيضا كل شىء ولم يغب عن ناظرى أى شىء فى ذلك الوقت ولم يفتنى أى شىء • كان العالم الواقعى قد انقشع وتبدد ولم يبق أمامى سوى عالـم مصطنع كنت أتنفس فيه فى شىء كثـير من القلق ، وقد انكسر قلبى وأصبحت لا أقوى على التفوه بكلمة واحدة • ولكنى مع ذلك كنت متنبها تنبها فريدا فى نوعه كما لو كنت واقفا أمام مشهد من مشاهد احدى المسرحيات •

كانت هناك شمعة متقدة فوق المائدة ونورها يزيد فى وضوح هذا الموقف المسرحى وذلك لأن شعلتها المتحركة يبـدو أنها تثير من حولهـا ذلك الفزع الغامض الذى يتركه الممثلون فى احدى المسرحيات فى الجو بحركة كبـيرة من الحركات الدالة على اليأس أو التهديد •

وتبدد ذلك الاحساس الغريب عندما تفوهت بأولى كلماتى اذ لم أستطع أن أحتمل ذلك الصمت وجمود جوليانا الذى كان أشبه ما يكون بجمود تمثال من الرخام • فكانت نبرات صوتى تختلف كثيرا عما كنت أعتقد فى اللحظة التى انفرجت فيها شفتاى وأصبح صوتى بالرغم منى حلوا مرتعشا ويكاد تبـدو فيه علامات الذعر •

قلت لها :

ـ أكنت تنتظريننى ؟

وكانت فى تلك الساعة مسبلة الجفنين ، وأجابتنى دون أن ترفعهما قائلة :

ـ أجل •

كنت أنظر الى ذراعها الذى كان جامدا كأنه احدى الركائز التى تستند على تلك اليد المبسوطة فوق ركن المائدة • وكنت أخشى أن تنهار تلك الركيزة التى تستند اليها بكل جسمها وأن تهوى على الأرض فجأة وتتحطم •

واستطردت قائلا فى شىء كثير من التؤدة وأنا أنتزع من قلبى الكلمات الواحدة تلوَ الأخرى :

ـ انك تعلمين لماذا جئت هنا •

وعندئذ التزمت الصمت •

وأردفت أنا قائلا :

ـ هل صحيح ما عرفته من أمى ؟ •• هل هذا صحيح ؟

ولكنها استمرت فى صمتها • وبدا لى أنها تستجمع كل قواها •

يا له من شىء غريب • فى تلك الفترة لم أعتقد مطلقا أنه من المستحيل أن تجيب اجابة سلبية •

لكنها أجابتنى قائلة :

ـ هذا صحيح (واننى بدلا من أن أسمع هذه العبارة بأذنى رأيتها ترتسم على شفتيها الباهتتين) •

تلقيت فى صميم قلبى صدمة ربما كانت أشد وأقسى من تلك الصدمة التى سببتها لى كلمات أمى • مع أنى على علم بكل شىء وعشت أربعا وعشرين ساعة وأنا على يقين ومع هذا فان ذلك التأكيد الصريح والدقيق حطمنى تحطيما كما لو كانت الحقيقة الدامغة انكشفت لى للمرة الأولى •

وهنا أعدت فيما بينى وبين نفسى عبارة :

ـ هذا صحيح •

وكنت وأنا أكرر هذه العبارة أشعر باحساس ربما كان أشبه ما يكون بذلك الاحساس الذى كان لابد أن أشعر به اذا ما وجدت نفسى حيا وواعيا وأنا فى هاوية سحيقة •

عندئذ رفعت جوليانا جفنيها الى الأعلى وحدقت بعينيها فى عينى بشدة • وقالت :

ـ اصغ الى يا توليو •

ولكن الاختناق حبس صوتها فى حلقها •

قالت لى :

ـ اصغ الى •• اننى أعرف ما يجب على أن أفعله • كنت قد عقدت العزم على كل شىء لكى أوفر عليك هذه الساعة ، ولكن القدر شاء أن أعيش حتى هذه الساعة لكى أتحمل أشد الآلام من ذلك الأمر الذى كنت اخشاه وأخاف منه أكثر من خوفى من الموت وانك لتفهمنى •• اسمع يا توليو • اسمع يا توليو •• ان نظرتك ••

أوقفها عن مواصلة الحديث اختناق آخر فى الوقت الذى أصبح فيه صوتها متقطعا مؤلما جعلنى أعتقد أنها أصيبت بتمزق فى ألياف حلقها الداخلية •• وعندئذ تركت نفسى أتهاوى فوق أحد المقاعد الى جانب المنضدة وأمسكت برأسى بين كفى فى انتظار أن تتم حديثها •

وهنا قالت :

ـ كان يجب على أن أموت قبل أن أعيش الى هذه الساعة • كان يجب على أن أموت منذ زمن بعيد • يقينا كان هذا خيرا لى من أن آتى هنا • وكان خيرا لى ألا تجدنى هنا بعد عودتك من مدينة البندقية •

كنت أود لو أننى مت قبل هذا وألا تكون عرفت هذه الفضيحة وأن تبكينى وربما تبقى الى الأبد تحبنى وتعبدنى وربما أكون الى الأبد حبيبتك الكبرى وحبيبتك الوحيدة كما كنت تقول بالأمس •

انك تعرف اننى كنت لا أخشى الموت واننى لا أخافه فعلا ، ولكن تفكيرى فيما تؤول اليه حالة طفلتى وأمك جعلنى أؤجل موتى من يوم الى آخر • لقد كان هذا عذابا أليما لى يا توليو وعذابا قاتلا لم يكن كافيا للقضاء على حيـاة نفس واحدة بل كان فيه ما يكفى للقضاء على حيـاة آلاف النفوس • واننى لا أزال فى قيد الحياة •

ثم أردفت قائلة بعد أن التزمت الصمت فترة قصيرة :

ـ كيف أمكننى بالرغم من ضعف صحتى المنهكة الخائرة أن أقاوم الآلام كل هذه المقاومة ؟ اننى تعسة سيئة الحظ حتى فى هذا • انظر • اننى كنت أفكر فى أن أوافق على المجىء هنا معك • كنت أقول فى نفسى : يقينا اننى سوف أمرض وتسوء صحتى واننى عندما أصل الى هناك سوف ألزم الفراش ولن أفارقه بعد ذلك ، واسوف يبدو للناس اننى مت ميتة طبيعية وكنت أقول ان توليو لن يعرف شيئا عن ذلك قط ولن يساوره الشك فى أى شىء • وأن كل شىء سوف ينتهى بسلام ولكنى بدلا من ذلك أجد نفسى واقفة عـلى قدمى وأجدك عرفت كل شىء وأن كل شىء ضاع ولا أمل فى اصلاحه •

كان صوتها الضعيف خفتا ينم عن كثير من التذلل والاستسلام ، ولو أنه كان متقطعا مؤلما كأنه صرخة حادة متكررة •

وهنا ضغطت بكفى على صدغى وكنت أشعر بدقات قوية تسبب لى رعشة شديدة كما لو كانت شرايينى انفجرت خارج بشرة وجهى واصبحت عارية تحت كفى • وأحسست بحرارة غلافها الرخو •

استطردت جوليانا حديثها قائلة :

ـ كان همى الوحيد وشغلى الشاغل أن أخفى عنك الحقيقة لا من أجلى بل من أجلك ولأجل سلامتك • انك لن تعرف الى الأبد ما هى تلك المخاوف التى جعلت الدم يجمد فى عروقى وتلك الأحزان والآلام التى خنقتنى وكتمت أنفاسى • انك منذ اليوم الذى جئنا فيه الى هنا حتى الأمس كنت تؤمل كثيرا وتحلم كثيرا وكنت سعيدا • ولكن لك أن تتصور حياتى هنا وسرى دفين فى قلبى وأنا الى جانب أمك فى هذا البيت المبارك ؟ لقد قلت لى أمس ونحن فى « فيلا ليللا » عندما كنا جالسين الى المائدة وتقص على تلك الأشياء الكثيرة الحلاوة التى كانت تعذبنى • قلت لى : « انك لم تكونى تعلمين شيئا أو تلاحظين شيئا » • يالله • ان هذا ليس صحيحا ! اننى كنت أعرف كل شىء وأتصور كل شىء ، وعندما لاحظت فى عينيك ذلك الجنان كنت أشعر بنفسى تهوى وتنهار • أصغ الى ما أقول يا توليو • ان الحقيقة والحقيقة الخالصة على أطراف شفتى • اننى هنا أمامك كانسانة محتضرة وعلى وشك الموت ولا أستطيع أن أكذب • وصدق كل ما أقوله لك • واننى لا أحاول تبرئة نفسى ولا أريد الدفاع عن نفسى • اذ أن كل شىء انتهى الآن • ولكنى أريد أن أقول لك شيئا وهو الحقيقة • انك تعرف كيف أحببتك من أول يوم رأيتك فيه • وكنت وفية مخلصة فى حبى مدى سنين طويلة ، وكنت أحبك حبا أعمى ولم يكن حبى هذا فى سنوات السعادة ، السعادة وحدها ، بل كنت أحبك أيضا فى سنوات التعاسة والشقاء عندما كان حبك لى قد فتر وكاد ينضب معينه • وانك تعرف ذلك يا توليو • ولقد استطعت دائما أن تفعل بى كل ما أردت ووجدت فى شخصى دائما الصديقة الوفية والأخت الشقيقة والزوجة المخلصة والعشيقة الوالهة • كما وجدتنى دائما على استعداد للتضحية بكل شىء فى سبيل سعادتك •

لا تصدق ياتوليو ولا تعتقد أننى أذكرك بوفائى واخلاصى طوال السنين لكى أتهمك بعدم الاخلاص لى • كلا وحاشا • إننى لا أحمل لك أية ذرة من الضغينة فى نفسى • أتفهم ذلك ؟ لا أحمل لك أية ذرة من الضغينة • ولكن دعنى فى هذه الساعة أذكرك بالوفاء والحنان اللذين داما سنوات وسنوات وأحدثك عن الحب الدائم الذى لم يفتر يوما واحدا والذى لم يتوقف يوما من الأيام •• أتفهم ذلك ؟ انه لم يتوقف يوما من الأيام • واننى أعتقد أن حبى لم يكن شديدا عارما فى أى يوم من الأيام كما هو فى هذه الأسابيع الأخيرة • لقد كنت تقص على بالأمس كل هذه الأشياء ؟

لى الويل • ليتنى كنت أستطيع أن أقص عليك أحداث حياتى فى هــذه الأيام الأخيرة ! • لقد كنت أعرف كل شيء عنك وأخمن كل شيء وكنت مضطرة الى تجنبك والتهرب من أحضانك لكى أغمض عينى وأترك نفسى لك وذلك فى لحظات الضعف والتعب الشديد • وفى ذلك الصباح ، أى صباح يوم السبت، عندما دخلت هنا وأنت تحمل تلك الزهور نظرت اليك وظهرت لى كأنك كما كنت من قبل ، كنت متهلل الوجه باسما رقيقا ، عيناك تلمعان • وقد أريتنى تلك الخمشات التى أحدثتها أشواك الورد فى يديك ! وهنا انتابتنى نشوة شديدة وشعرت برغبة جامحة فى أن أمسك بيديك وأنهال عليها لثما وتقبيلا • ترى من الذى كان يمدنى بالقوة على أن أتملك عواطفى ؟ كنت لا أشعر بأننى جديرة بالقيام بهذا العمل ، ورأيت فى لمح البصر تلك السعادة التى تقدمها الى مع هذه الزهور كل تلك السعادة التى كان يجب على أن أرفضها الى الأبد •، لى الله ياتوليو • ليت قلبى يستطيع أن يقاوم كل ما أحس به من انقباض • ان حياتى صلبة عنيدة •

نطقت بهذه العبارة الأخيرة بصوت هامس لا تكاد تسمعه الآذان وفى نبرات لا يمكن وصفها أو التعبير عنها •

كانت تبدو فيها فى وقت معا علامات السخرية وامارات الغضب ولم أكن أجرؤ على أن أرفع وجهى لكى أنظر اليها • فان كلماتها سببت لى آلاما مريعة• ومع ذلك فانى كنت أرتعد عندما كانت تتوقف عن الحديث ، كنت أخشى أن تفقد قواها بغتة ولا تستطيع الاستمرار فى الحـديث وكنت أنتظر من فمها اعترافات أخرى وتعبيرات تنم على ما فى نفسها •

استمرت فى حديثها قائلة :

ــ لقد كانت غلطة كبرى وخطيئة لا تغتفر اننى لم أمت قبــل عودتك من مدينة « البندقية » ولكن كيف كنت أستطيع أن أترك ابنتينا المسكينتين ماريا وناتاليا ؟

وهنا توقفت قليلا ثم أردفت قائلة :

ــ وأنت أيضا ربما كان فراقى يحدث لك شيئا من الألم ويجعلك تشعر

بشيء من تأنيب الضمير • ولابد أن الناس كانوا يتهمونك • وما كنا لنستطيع أن نخفي الأمر عن أمنا • وكان لابد لها من أن تسألك ولابد لها أن تقول لك : « لماذا أرادت جوليانا أن تموت ؟ » وكان لابد أن ينتهي بها الأمر الى أن تعرف الحقيقة التي أخفيناها عنها حتى هذه الساعة •• يا لهـا من امرأة مسكينة طيبة !

ربما كانت حنجرتها قد انسدت وذلك لأن صوتها خفت وأخذ يضعف رويدا رويدا وانتابته نوبة من نوبات النحيب الصامتة • وكانت هذه العقدة تغلق حلقي أنا أيضا •

ثم استطردت في حديثها قائلة :

ـ فكرت في ذلك • وكذلك فكرت عندما أردت أن تأتي بي الى هنا في أنني لست جديرة بك ولست جديرة بأن تقبلني في جبيني وبأن تناديني أمك بقولهـا يا ابنتي ، ولكنك تعرف كيف أننا معشر النسـاء ضعيفات وكيف نستسلم بسهولة لقوة الأشياء • انني لم أكن أؤمل في شيء وكنت أعلم أنه ليس لي مخلص الا بالموت وأعلم حق العلم أن الحلقة تضيق الخناق على كل يوم • ومع هذا فكنت أترك الأيام تمر وتنقضي يوما بعد يوم دون أن أتخذ قرارا حاسما ، وكانت لدي وسيلة أكيدة للموت •

وهنا توقفت عن الحديث ونزولا على شعور مفاجيء رفعت وجهي وحدقت في وجهها وانتابتها هزة عنيفة وظهر عليها الألم الذي سببته لها بنظري اليها واضحا جليـا حتى اضطررت من جديد الى أن أطأطيء رأسي وأتخـذ موقفي السابق •

كانت هي لا تزال واقفة على قدميها ثم جلست •

وسادت فترة صمت طويلة •

سألتني بعدها في شيء كثير من الخوف قائلة :

ـ أتعتقد أن الخطيئة تكون عظيمة عندما لا ترضى النفس عنها ؟

كان في هـذه الاشارة الى الخطيئة ما كان كافيا لكي يثير في نفسي ذلك

الاضطراب الشديد الذىهدأت ثائرته وشعرتفى فمى بمرارة شديدة وخرجت من شفتى دون قصد هذه العبارة الساخرة • وأنا أتصنع الابتسام :

ـ يالك من مخلوقة مسكينة !

فبدت على وجه جوليانا امارات الألم الشديد واضحة جلية مما جعلنىأشعر بشىء كثير من الندم على هذه الكلمة التى صدرت منى عفوا • وأدركت أننى ما كنت أستطيع أن أصيبها بجرح أشد ايلاما وأن السخرية فى تلك اللحظة من تلك المخلوقة المغلوبة على أمرها كانت دناءة ما بعدها دناءة •

قالت لى وقد بدا على وجهها كأنها أصيبت باصابة مميتة •

(وقد بدا لى فعلا أن عينيها كانتا هادئتين حزينتين بريئتين كأعين أولئك الجرحى الذين طالما شاهدتهم فوق النقالات) •

ـ سامحنى واعف عنى • انك أنت أيضا تحدثت بالأمس من صميم قلبك•• وأنك تفكر الآن وتقول فى نفسك :

« ان هـذه الأشياء التى تقولها النساء لكى ينلن الصفح والغفران ولكيلا أحاول الحصول عـلى غفرانك ولأنى أعرف أن الغفران أمر مسـتحيل وأنه لا مجال للنسيان وأعرف أنه لا مفر ولا مخلص • أتفهم ذلك ؟

لم أكن أريد الا أن تغفر لى تلك القبلات التى قبلتنى بها أمك ••

كان صوتها لا يزال خافتا وغاية فى الضعف • ومع ذلك كان متقطعا كأنه صرخة حادة متكررة • ثم قالت :

ـ كنت أشعر فوق جبهتى بألم ممض وكان هذا الألم عظيما • وانى لـم اقبل ياتوليو قبلات أمك التى طبعتها على جبينى من أجلى أنا • بل من أجـل ذلك الألم الشديد الذى كنت أشعر به • ومن أجل ذلك الألم وحده • واننى اذا لم أكن جديرة بتلك القبلات فان ذلك الألم كان يستحقها • انك تستطيع أن تعفو عنى •

شعرت بشىء من الرحمة والشفقة • ولكننى لم أستسلم • لم أكن أحدق فى عينيها بل ان نظراتى كانت تتجه دون قصد الى حجرها ، كما لو كنت

أريد أن أكتشف سر ذلك الأمر المريع . وكنت أبذل جهودا هائلة كي لا أنغمس فى لجج الحزن والألم . ولا أقوم بأى عمل من أعمال الحماقة .

استمرت جوليانا فى حديثها قائلة :

ــ كنت أؤجل فى بعض الأيام من ساعة الى أخرى تنفيذ ماعزمت عليه ولكن تفكيرى فى ذلك البيت وفيما كان لابد أن يحدث فيما بعد فى هذا البيت كان ينتزع منى شجاعتى . وهكذا تبدد ذلك الأمل الذى كنت أؤمله فى أن أخفى الحقيقة عنك وفى أن أستطيع انقاذك لأن أمك منذ الأيام الأولى خمنت حالتى . هــل تذكر أنت ذلك اليوم الذى شــعرت فيه هنالك عند النافذة بشىء من الاضطراب من رائحة البنفسج ؟ . ان أمك أدركت كل شىء منذ تلك اللحظة ولك أن تتصور مقدار مخاوفى وفزعى . وكنت أقول لنفسى :

ــ اننى اذا قتلت نفسى فلسوف يعرف توليو السر . فكنت أحترق وتذوب نفسى ليل نهار لكى أجد الوسيلة لانقاذك . وعندما سألتنى يوم الأحد قائلا : « أتريدين أن نذهب يوم الثلاثاء الى « فيلا ليللا » وافقت على ذلك دون أن أفكر فى الأمر وسلمت أمرى لله يفعل بى ما يشاء وتركت نفسى لرحمة الحظ والمقادير . وكنت واثقة من أن ذلك لابد أن يكون آخر يوم من أيام حياتى . وكانت هذه الثقة تثيرنى وتصيبنى بنوع من الجنون . أستحلفك بالله ياتوليو أن تفكر مرة أخرى فى كلماتك التى قلتها بالأمس . وقل لى اذا كنت فهمت الآن مقدار تضحيتى .. أتفهمها ؟

هنا انحنت قليلا ومالت نحوى كما لو كانت تريد أن تدفع الى قرارة نفسى سؤالها المؤلم . وكانت فى ذلك الوقت تحك كفيها ببعضهما وقد اشتبكت أصابع كل يد باليد الأخرى .

ثم قالت :

ــ انك لم تحدثنى قبل اليوم كما تحدثنى الآن . واننى لم أسمع منك قط هذا الصوت .

وعندما كنا جالسين على الأريكة سألتنى قائلا : « ربما تأخر الوقت » .

ــ هل كان فى وسعى أن أرد عليك بقولى « نعم قد تأخر الوقت ؟ وأحطم

قلبك على حين غرة ؟ وما الذى يجب أن يحدث لنا ؟ وعندئذ اردت أن امنح نفسى آخر نشوة من نشواتي وصرت كمن أصابها مس من الجنون • ولم أر شيئا آخر سوى الموت وحبى •

فى هذه اللحظة صارت جوليانا ضعيفة منهوكة القوى • وكنت أنظر اليها ويبدو لى أننى لا أستطيع التعرف عليها بسبب تغير ملامحها • فقد كانت علامات التشنج بادية فى كل جزء من أجزاء وجهها • وشفتها السفلى ترتجف ارتجافا شديدا وعيناها تستعران وتقدحان شررا •

وسألتنى فى شيء كثير من التذلل والمرارة قائلة :

ـ هل تديننى ؟ وهل تحتقرنى من أجل ما فعلته بالأمس ؟

وهنا غطت وجهها بكلتا يديها ، وبعد برهة قصيرة قالت بكلمات تدل نبراتها على الألم الشديد وعلى الشهوة وعلى الفزع وبنبرات كأنها صادرة من هاوية سحيقة لا يعرف مكانها الا الله •

اننى بالأمس كنت أفكر فى أن أتناول السم وحتى لا أحطم ما كان باقيا منك فى دمى ترددت فى الأمر •

ارتخت يداها الى جانبها مرة ثانية ، ثم نفضت عن نفسها غبار الضعف والوهن وأبدت حركة تدل على الحزم والتصميم وأصبح صوتها أكثر قوة ووضوحا عندما قالت :

ـ شاء القدر لى أن أعيش حتى هذه الساعة ، وشاء القدر أن تعرف الحقيقة كلها من أمك ومن أمك بالذات ! انك عندما كنت تدخل هنا مساء أمس كنت تعرف كل شيء ، ولكنك التزمت الصمت • وقبلت خدى الذى أدرته نحو فمك أمام أمك • دعنى أقبل يديك قبل أن أموت • وانى لا أطلب اليك شيئا آخر • لقد انتظرتك لكى أنزل على ارادتك وانى مستعدة لكل شيء • تكلم •

قلت لها :

ـ انه من اللازم أن تبقى على قيد الحياة •

ولكنها صاحت قائلة :

ـ هذا مستحيل • هذا مستحيل يا توليو •• هل فكرت فيما يجب أن يحدث اذا بقيت على قيد الحياة ؟

ـ لقد فكرت ومن اللازم أن تعيشى ٠

ـ يا للفزع ٠

وهنا انتابتها نوبة شديدة وبدت منها حركة غريزية تنم عن الألم والفزع٠ وربما كان ذلك لأنها أحست بالجنين يتحرك فى أحشائها :

ـ أصغ الى ما أقول يا توليو ٠ انك الآن عرفت كل شيء ٠ والآن لا أريد أن أقتل نفسى لكى أخفى عنك تلك الفضيحة ولكى أتحاشى الوقوف أمامك ٠ انك تعرف كل شيء ونحن الآن هنا ويستطيع كل منا أن ينظر فى وجه الآخر ونستطيع أيضا أن نتكلم ٠ ان الأمر يتعلق بشيء آخر ٠

اننى لا أفكر فى أن أتملص من رقابتك لكى أقتل نفسى بل انى بالأحرى أريد أن تساعدنى على أن أختفى واموت بطريقة طبيعية بقدر الامكان حتى لا أثير شكوك أحد فى هذه الدار ٠ لدى نوعان من السم وهما المورفين ونوع آخر من السموم الفتاكة ٠ وربما كان هذان النوعان لا يفيدان ٠ وربما كان من غير الممكن اخفاء جريمة التسمم ٠ ويجب أن يبدو موتى وفاة طبيعية تسبب عن حادث ما أو نتيجة كارثة من الكوارث ٠ أتفهم ذلك ؟ وبهذه الطريقة نصل الى هدفنا المنشـود ويبقى السر مقصـورا علينا لا يعرفه أحد سـوانا نحن الاثنين ٠

كانت فى تلك اللحظة تتحدث بسرعة فى شيء كثير من الثبات والوضوح كما لو كانت تحاول أن تقنعنى بقبول اتفاق على شيء نافع وليس على اتفاق على الموت ولا على قبول دور الشريك فى تنفيذ عمل من أعمال الحماقة ٠ وكنت أدعها تسترسل فى حديثها ٠ وهناك شيء من الذهول الغريب يبقينى جامدا فى مكانى أنظر وأستمع الى تلك المخلوقة الضعيفة الهزيلة الشاحبـة اللون المريضة التى تنتابها نوبات شديدة من نوبات القوة المعنوية ٠

وكانت تقول :

ـ استمع الى ما اقول ياتوليو ٠ لدى فكرة أريد أن أعرضها عليك لقد قص على شقيقك فيديريكو قصة فعلتك الجنونية التي اقترفتها اليوم والخطر الذى

تعرضت له على جسر نهر « اوسورو » • روى لى كل شىء وكنت أقول لنفسى وأنا أرتعد غرقا وجزعا : من يدرى لأى ألم شديد غامر بنفسه فى ذلك الخطر؟

وعندما كنت أفكر فى ذلك بدا لى اننى فهمت السبب • فقد تنبأت بنبوءة وأطلت على نفسى جميع آلامك الأخرى المستقبلة تلك الآلام التى لا يستطيع شىء فى العالم أن يحميك منها • تلك الآلام التى يجب أن تتزايد يوما بعد يوم ولا ينفع فيها عزاء ولا سلوى •

لاشك ياتوليو انك توقعت هذه الألام سلفا وفكرت فى أنك لن تستطيع احتمالها •

هناك وسيلة واحدة نستطيع أن نخلص بها أنا وانت نفوسنا وحبنا • نعم دعنى أقل حبنا • ودعنى أثق بكلماتك التى قلتها لى بالأمس • ودعنى أقل لك مرة ثانية اننى أحبك الآن أكثر من أى وقت مضى •

نعم من أجل هذا ولأن كلا منا يحب الآخر يجب أن أختفى من هذا العالم ويجب ألا ترانى بعد اليوم •

كانت روحها المعنوية قوية الى حد أنها جعلت القوة تبدو فى صوتها • بل وفى كل أجزاء جسدها فى تلك اللحظة • وهنا اعترتنى رجفة شديدة واستولى على ذهنى وهم خاطف واعتقدت أن حبى وحب تلك المرأة وقفا حقا فى هـــذه اللحظة شامخين وبلغا درجة لا حد لها من السمو بعيدين عن جميع التعاسات البشرية لم تلوثهما الخطيئة ولم يمسسهما أى سوء • وعاد الى مدى لحظات قليلة ذلك الاحساس الذى كنت أشعر به فى البداية عندما كان عالم الواقع يبدو لى كأنه شىء تبدد ولم يبق له أثر •

وبعد ذلك وقع الأمر الذى لا مفر منه كما يحدث دائما وأصبحت لا أسيطر على نفسى وخرجت عن وعيى •

استطردت جوليانا فى حديثها بعد ان خفضت من صوتها كما لو كانت تخشى أن يسمعها أحد قائلة :

ـ أصغ الى ياتوليو • أبديت لشقيقك فيديريكو رغبتى الشديدة فى أن أرى الأحراش ومصنع الفحم وكل تلك الأمكنة • ولكن فيديريكو لن يستطيع أن يصحبنا الى هذه الأماكن فى صباح الغد لأنه يتحتم عليه العودة الى « كرال كالدورى » • فلنذهب نحن وحدنا •

ولقد قال لى فيديريكو اننى أستطيع أن أتسلق جسر « فافيلا » • وعندما نكون فوق الجسر •• سوف أعمل ما عملته أنت فى هذا الصباح •

ولسوف تقع عندئذ الكارثة •

ولقد قال فيديريكو انه يستحيل على أى انسان أن ينجو بحياته اذا ما وقع فى نهر « اسورى » • هل تريد ذلك ؟

وبالرغم من أنها كانت تتفوه بعبارات أخرى من هذا القبيل فانه كان يبدو لى أنه انتابها شىء من الهذيان • وعلا الاحمرار وجنتيها وأخذت عيناها تبرقان بريقا غريبا •

وهنا تراءت أمام ذهنى بسرعة البرق صورة ذلك النهر الكئيب أخذت تكرر وهى تميل نحوى بكلمة :

ـ هل تريد ؟

وهنا نهضت من مكانى وأمسكت بيديها وكنت أريد أن أهدىء من ثورتها وكنت أشعر بشىء كثير من الألم والاشفاق عليها • وصار صوتى أكثر حلاوة وأكثر لطفا وحنانا • وكان يرتجف من فرط الاشفاق والحنان •

ـ لك الله ياجوليانا ! لا تضطربى على هذا النحو أيتها المسكينة انك تتألمين كثيرا • ان الألم يجعلك عديمة الادراك أيتها المخلوقة المسكينة ! يجب أن يكون لديك شىء كثير من الشجاعة ويجب ألا تفكرى أكثر من ذلك فى تلك الأشياء التي تحدثت عنها •• فكرى فى ابنتك ماريا وشقيقتها ناتاليا • اننى قبلت هذه العقوبة وربما كنت أستحقها من أجل كل ما اقترفته من اثم • لقد قبلتها ولسوف أتحملها • ولكن من اللازم أن تعيشى •• أتعديننى ياجوليانا ؟

من أجل ماريا وناتاليا ومن أجل خاطر أمي أرجو ألا تحاولي بأية طريقة أن تضعي حدا لحياتك ؟

كانت فى تلك اللحظة مطاطئة الراس · ولكنها عـلى حين غرة سحبت يديها وامسكت بها يدى بقوة وأخذت تنهال عليهما لثمـا بشكل جنونى · وكنت أشعر فوق جلدى بحرارة أنفاسها · وعنـدما حاولت التخلص منها وقعت من فوق الأريكة على ركبتيها دون أن تترك يدى وهى تشهق بالبكاء · وقد بدت علامات التشنج على وجهها الذى كانت تنهمر الدموع عليه كالأنهار وكان تقلص فمها الشديد ينم عن الألم الذى أصاب جسدها كله بالتشنج والاضطراب · أما أنا فاننى دون أن أسـتطيع انهاضها ودون أن أستطيع التحدث اليها بكلمة انتابتنى نوبة شديدة من نوبات الضيق والضجر واستبد بى ألم شديد من رؤية ذلك الفم المتقلص · ولم أشعر بشىء من الحقد والضغينة عليها · أو بأى شىء من الاعتزاز بالنفس ·

•

ولما كنت لا أشعر الا بالخوف الأعمى من الحياة ولا أدرى فى تلك المـرأة المنهوكة القوى الا أمارات العذاب والألم ومنتهى الشقاء الانسانى وسوء عاقبة الخطايا التى لم يكن هناك مفر منها وبثقل أجسادنا وبفزع القدر المسطر على جبيننا الذى لا يمكن محوه أو تبديله وبكل أحزان حبنا الجسدية فاننى ركعت أنا أيضا على ركبتى أمامها نظرا لحاجتى الغريزية فى الخضوع والاستعطاف وأن أعمل ما تعمله تلك المخلوقة التى كانت تتألم وتجعلنى أتألم · وسرعان ما انفجرت أنا أيضا بالشهيق والبكاء · وهكذا عدنا بعد كل ما حدث نمزج دموعنا ببعضها ·· ويلاه ! لقد كانت دموعا سخينة ولكن لم يكن فى مقدورها أن تغير من مصيرنا المحتوم ·

ـ ١٦ ـ

من ذا الذى يستطيع أن يعبر بالـكلام عن ذلك الشعور بالوحدة المجدبة والدهشة والذهول اللذين يبقيان فى نفس المرء بعد أن يذرف كثيرا من الدموع غير المجدية · وبعد نوبة شديدة من نوبات اليأس الخـادع ؟ ان البكاء هو ظاهرة عابرة وأن كل أزمة يجب أن تجد لها حلا وكل نوبة مهما اشتدت لابد أن تكون قصيرة الأجل · ويجد الانسان نفسه عاجزا خائر القوى · أو بالأحرى جامدا مقتنعا أكثر من ذى قبل بعجزه وضعفه ويصير واهن الجسـد حزين النفس أمام الحقيقة الدامغة ·

كنت أنا البادىء بالتوقف عن البكاء وكنت أول من عاد النور الى عينيه كما كنت أنا السابق فى التنبه الى الوضع الذى كنا فيه والى الوضع الذى كانت فيه جوليانا • والى الأشياء المحيطة بنا •

كنا لا نزال راكعين على ركبنا الواحد أمام الآخر فوق البساط • وكان لا يزال هنـاك شىء من النوبة يجعل جوليانا تنتفض ويهزها هزا • وكانت الشمعة تشتعل فوق المنضدة وترتجف شعلتها بين الفينة والفينة كما لو كان هناك من ينفخ فيها • وفى وسط هذا السكون سمعت أذناى صـوت حركة رقاص ساعة الحائط التى كانت بالغرفة قائمة فى أحد أركانها • كانت الحياة تمر والوقت ينقضى وكانت نفسى مقفرة وحيدة •

وبعد أن انقضت فترة شدة العاطفة وانقضت فترة الألـم الشديد لم يعد لموقفنا هذا أى معنى ولم يكن هناك سبب لبقائه • وكان يجب أن أنهض وأقف على قدمى وأن أقوم بانهاض جوليانا وأن أقول لها أى شىء وأن تكون لهـذا المشهد خاتمة نهائية • ولكننى كنت أشعر من كل هذا بشىء من الاشمئزاز الغريب • ويبدو لى أننى لست جديرا بأن أقوم بأقل مجهود معنوى أو مادى ، وكان يحزننى أن أجد نفسى هنالك فى مثل تلك الظروف الحرجة • وفى وسط هـذه الصعوبات مضطرا الى الاستمرار فيما أنا فيه • وبدأ شىء من الحقـد الصامت على جوليانا يتغلغل بشكل غامض فى أعماق نفسى •

نهضت ووقفت على قدمى وساعدتها على النهوض وكانت بعض الشهقات التى كانت تعاودها بين الفينة والفينة تزيد فى حقدى عليها • ذلك الحقد الذى ليس فى مقدورى أن أصفه •

كان صحيحا اذ أن شيئا من الحقد يختفى فى أعماق كل عاطفة من العواطف التى تجمع بين مخلوقين من المخلوقات البشرية والتى تقرب بين أنانيتين • وصحيح اذ أن ذلك الشىء من الحقد يشوه ويعيب أسمى عواطفنا • ان كل ما فى النفس من أشياء جميلة يحمل فى طياته جرثومة من الجراثيم الكامنة والتى يجب أن تفسد بعضها البعض •

قلت لها (وكنت اذ ذاك أخشى الا يكون صوتى بالرغم منى رقيقا) :

– اهـدئى بالا وقرى عينا ياجوليانا • يجب أن تكونى الآن قوية رابطة الجأش • تعالى واجلسى هنـا • سكنى من روعك • أتريدين قليلا من المـاء لتشربيه ؟ أتريدين شيئا من الروائح العطرية تشمينه ؟ قولى لى انت •

– نعم أريد قليلا من الماء • ابحث عن كوب فى المخدع فوق المنضدة •

كان لا يزال فى صوتها شيء من أثر البكاء ، وكانت تجفف وجهها بمنديلها وهى جالسة على أريكة عريضة واطئة فى مواجهة مرآة الدولاب الكبيرة وكانت الشهقات لا تزال تعاودها •

دخلت الى المخدع لاحضار الكوب ولمحت الفراش فى الظلام الذى كان معدا للنوم • وكان طرف الغطاء مرفوعا وملقى الى أحـد الجوانب كما أن هنـاك قميصا طويلا أبيض اللون كان موضـوعا على مقربة من الوسادة ، وسرعان ما أدرك احساسى المرهف رائحة القماش الذى كانت لا تزال عالقة به رائحة السوسن والبنفسج التى كنت أعرفها والتى اعتادت جوليانا أن تضمخ بهـا ملابسها • وسبب لى منظر الفراش ورائحة العطور اضطرابا شديدا • وسرعان ما صببت المـاء فى الـكوب وخرجت وأنا أحمله الى جوليـانا التى كانت فى الانتظار •

فشربت جوليانا بعض رشفات على دفعات بينما كنت واقفا أمامها أنظر اليها وألاحظ حركة فمها وقالت :

– شكرا لك يا توليو •

ردت الى الكوب ولم تكن قد أفرغت كل ما فيه اذ لم تشرب الا نصف ما كان فيه من ماء • ولما كنت أشعر اذ ذاك بشيء من العطش شربت ما تبقى فى الكوب، وكان هذا الأمر الذى قمت بالاتيان به دون تفكير كافيا لزيادة الاضطراب فى نفسى • فجلست أنا الآخر فوق الأريكة ولزم كل منا الصمت واستغرق كلانا فى أفكاره وكان كل منا يجلس على مسافة صغيرة من الآخر •

كانت صورة الأريكة ونحن جالسان عليها تنعكس على صفحة المرآة وهكذا كان كل منا يستطيع أن يرى وجه الآخر دون أن يحاول النظر اليه ولكن فى غير وضوح وذلك لقلة الاضاءة وارتجاف لهب الشمعة • وكنت أتأمل بمنتهى الدقة على سطح المرآة وجه جوليانا الذى كان يتخذ رويدا رويدا منظرا غريبا

تبدو فيه بعض علامات الأنوثة وكأنها قد اختفت بفعل الزمن وخلع عليها الضوء صورة مصطنعة ولم تلبث تلك الصورة أن صارت رويدا رويدا أكثر حيوية من صاحبتها كما حدث أننى رأيت رويدا رويدا فى هذه الصورة المرأة اللعوب والمرأة الشهوانية والعاشقة والمرأة الخائنة .

واغمضت عينى فبدت لى الصورة الأخرى ، وسرعان ما ظهر أحد المناظر المألوفة .

كنت أقول لنفسى :

ـ انها لم تشر حتى الآن الى سقطتها والى كيفية سقوطها ولم تتفوه الا بعبارة واحدة لها مغزاها ، اذ قالت :

ـ هل تعتقد أن الخطيئة تكون عظيمة عندما لا ترضى عنها النفس ؟

يا لهـا من عبارة ! ترى ماذا كانت تقصـد بها ؟ ان الأمر يتعلق باحدى العبارات الدقيقة التى يقصد بها الاعتذار وتخفيف أثر كل الخيانات وكل الفضائح . ولكن ترى ماذا عسى أن تكون تلك العلاقة بينها وبين فيليبو اربوريو ان لم تكن تلك العلاقة الجسدية التى لا يمكن انكارها ؟ وفى أى الظروف استسلمت له هذا الاستسلام ؟ وهنا شعرت بحب الاستطلاع يحز فى نفسى حزا وكانت الايحاءات تأتينى من تجاربى الماضية وعادت الى ذاكرتى بعض طرق الاغراء الخاصة وبدت لى واضحة جلية تلك الطرق التى استعملتها مع بعض عشيقاتى السابقات وكانت التخيلات تبدو وتتغير وتتتابع واضحة وسريعة . وكنت أرى جوليانا كما رأيتها فى الأيام السالفة وهى بمفردها فى فتحة احدى النوافذ وقد وضعت كتابا فوق ركبتيها وبدت عليها علامات الضعف الشديد وأمارات الشحوب كأنها أصبحت على وشك الموت ، بينما كان هناك شىء من التغيير الذى لا يمكن وصفه كما لو كانت هناك أشياء كثيرة مكبوتة تبدو فى عينيها الحالكتى السواد . ترى هل يكون ذلك الرجل فاجأها وهى فى احدى حالات الضعف فى بيتى بالذات وأذعنت لاغتصابه لها فى حالة من حالات عدم الوعى والادراك وعندما أفاقت أحست بالفزع والاشمئزاز من هذه الفعلة التى لا يمكن اصلاحها فطردت ذلك الرجل من بيتها ولم تره بعد ذلك أبدا ؟ أو ربما تكون قد قبلت الذهاب معه الى بعض الأماكن السرية فى مسـكن من

المساكن الصغيرة البعيدة أو ربما ذهبت معه الى احدى الغرف المفروشة التى يتردد عليها مئات الشبان والشابات لاشباع رغباتهم الدنيئة وتلقت على خديها مئات اللثمات والقبلات وربما لم يحدث ذلك مرة واحدة بل مرتين أو ثلاثا أو أياما كثيرة متوالية فى ساعات محددة وهما فى مأمن بفضل عدم عنايتى واهمالى ٠ وقد رأيت مرة ثانية صورتها وهى واقفة فى يوم من أيام نوفمبر أمام المرآة وتثبت فى قبعتها القناع الشفاف ورأيت ثوبها الذى كانت ترتديه اذ ذاك ثم خطواتها السريعة « فوق الرصيف فىالجانبالذى تغمره الشمس» ٠ هل كانت تذهب فى ذلك الصباح الى موعد فى مكان معين ؟

كنت أتحمل عذابا لا يوصف وكانت رغبتى فى معرفة ذلك تعذب نفسى وهذه التخيلات تجعلنى أغيب عن وعيى ٠ كما كان حقدى على جوليانا يزداد ويصير أكثر عنفا وكانت ذكرى لذتى الأخيرة وذكرى سرير العرس الذى رأيته فى « فيلا ليللا » وكل ما بقى فى دمى من جوليانا يحدث فى قلبى شعلة محرقة ٠ وقد أدركت من ذلك الاحساس الذى أوجده اقترابى من جسد جوليانا ومن الرجفة الغريبة التى شعرت بها بأننى وقعت فريسة لحمى الغيرة الجنسية المعروفة وأنه يجب على حتى لا أقوم بعمل من أعمال الجبروت الحمقاء أن ألوذ بالفرار ٠ ولكن يبدو أن ارادتى أصيبت بالشلل وأننى لا أسيطر على نفسى ٠ وبقيت فى مكانى تتنازعنى قوتان متعارضتان وبدافع يدفعنى دفعا وبجاذبية تشد جسدى شدا وبشهوة مشوبة بشىء كثير من التقزز والاشمئزاز كما شعرت بتعارض غامض لم أستطع تهدئة ثائرته والسيطرة عليه لأنه كان متغلغلا فى أعمق جزء من كيانى ٠

أما الرجل الآخر فانه منذ اللحظة التى ظهر فيها بقى باستمرار ماثلا أمام عينى ٠ ترى هل كان ذلك الرجل هو فيليبو اربوريو ؟ ترى هل هو الذى خمنته ؟ ألم أكن مخدوعا فى ظنى ٠

استدرت نحو جوليانا فجأة فنظرت الى وقد وقف السؤال المفاجىء فى حلقى وعندئذ أخفضت عينى وطأطأت رأسى وجرؤت على أن أسألها ولكن فى كلمات بدت فيها علامات الحزن الشديد قائلا :

ـ ما اسم ذلك الرجل ؟

كان صوتى مرتجفا وخشنا وكان يسبب الأذى حتى لى أنا نفسى .

انتفضت جوليانا عندما سمعت هذا السؤال الذى لم تكن تنتظره ولكنها التزمت الصمت .

بذلت مجهودا كبيرا لكى أكظم الغيظ الذى كاد يستولى على . ذلك الغيظ الأعمى الذى شعرت به فى الليلة السابقة بطريقة عابرة عندما كنت فى غرفة النوم وأسرعت بسؤالها قائلا :

ـ ألا تجيبين ؟

وهنا صاحت فى شىء كثير من الحزن وهى تسقط على جنبها وتخفى وجهها فى احدى الوسائد قائلة :

ـ رحمتك يا الهى . رحمتك يا الهى .

ولكننى كنت أريد أن أعرف الحقيقة وكنت أريد أن أنتزع منها اعترافها بأى ثمن . فاستطردت فى حديثى قائلا :

ـ هل تذكرين ؟ هل تذكرين ذلك الصباح عندما دخلت عليك فى غرفتك على حين غرة فى أوائل شهر نوفمبر ؟ هل تذكرين ؟ اننى دخلت ولا أدرى لماذا دخلت . دخلت لأنك كنت تغنين . كنت تغنين أنشودة « أورفيو » . وكنت اذ ذاك على أهبة الخروج أتذكرين ذلك ؟ وشاهدت كتابا فوق مكتبك وفتحته وقرأت على صفحته الأولى اهداء ... كان هذا الكتاب قصة عنوانها « السر » .. هل تذكرين ؟

كانت جوليانا لا تزال باقية مرتمية فوق الوسادة دون أن تجيب بكلمة . وعندئذ انحنيت فوقها وكنت أرتجف من رعدة أشبه بتلك الرعدة التى تسبق برودة الحمى . وأردفت قائلا :

ـ هل من الممكن أن يكون هو ذلك الرجل ؟

لم ترد بكلمة على أسئلتى ولكنها نهضت بقوة يائسة وكانت تبدو كمن أصابها مس من الجنون وهمت بأن ترتمى فوقى ولكنها تراجعت وصاحت قائلة :

ـ لتكن لديك رحمة بى ! ارحمنى ! دعنى أمت ! ان ما تجعلنى أتألم منه هو أسوأ من أى نوع من أنواع الموت • لقد تحملت كل شىء وفى استطاعتى ان أتحمل كل شىء ، ولكن هذا الأمر لا أستطيع أن أتحمله ولن أستطيع•• واننى اذا عشت سيكون هذا عذابا دائما لنا • وكلما مر يوم زاد هذا العذاب وأصبح أشد ضراوة • ولسوف تكرهنى وسينصب على جام حقدك وغضبك • اننى أعرف ذلك وأعرفه حق المعرفة • لقد أحسست بالحقد فى صوتك • لتكن لديك رحمة بى • دعنى أموت أولا •

كان يبـدو أنها جن جنونها • وكانت لديها رغبة عارمة فى أن تتعلق بى بشدة • ولما كانت لا تجرؤ على ذلك فقد شبكت يديها ببعضهما لكى تتوقف عما تريد أن تفعله • فبدا الاضطراب على كل جزء من أجزاء جسدها ولكنى امسكت بذراعيها وجذبتها نحوى •

وقلت لها وفمى يكاد يمس فمها بعد أن جن جنونى وحفزتنى غريزة قاسية كانت تجعل يدى غاية فى الخشونة :

ـ اذن لن أعرف شيئا مما حدث ؟

فردت على قائلة :

ـ اننى أحبك وأحببتك دائما • وكنت دائما وفية لك • اننى بهذا الجحيم الذى أعيش فيه • أكفر عن دقيقة من دقائق الضعف •• أتفهـم ما أقول ؟ دقيقة من الضعف •• هذه هى الحقيقة • ألا تشعر بأن هذه هى الحقيقة »

مرت بنا بعد ذلك لحظة سكون ظهرت بعدها نتيجة دافع من الدوافع القوية البهيمية التى لا يمكن مقاومتها •

سقطت فوق الوسادة منكفئة على وجهها وكانت شفتاى تكتمان صيحتها •

ـ ١٧ ـ

صنع هذا العناق القوى حدوث كثير من الأشياء اذ قالت لى :

ـ يانك من وحشي ! يالك من وحشي !

ورأيت مرة ثانية الدموع الغزيرة التى كانت حائرة فى عينى جوليانا وتملأ مآقيها وكنت أسمع للمرة الثانية تلك الحشرجة التى كانت صدرت منها أثناء النوبة الشديدة التى اعترتها وكانت حشرجة انسانة على شفا الموت . وسرعان ما غمرت نفسى موجة من الحزن والأسى لا عهد لى بها من قبل ولاتشبه أية نوبة أخرى اعترتنى بعد قولها (حقا يا لك من وحش !) ترى هل كان أول ايحاء لى بالجريمة لم يتغلغل فى قلبى فى ذلك الوقت ؟ وألم تطل على ضميرى أثناء غضبى أية فكرة قاتلة ؟

كنت أفكر فى عبارات جوليانا المريرة عندما قالت لى :

ـ ان حياتى عنيدة .

لم يكن يبدو لى عناد حياتها أمرا غريبا . ولكن الغريب كان تلك الحياة الأخرى التى أخذت تدب فى أحشائها . وكنت حاقدا على « هذه الحياة » كل الحقد وأضيق بها ذرعا وأكاد أجن بسببها وبدأت أفكر فى طريقة للتخلص منها .

لم تكن قد بدت بعد على جوليانا مظاهر الحمل الخارجية أى اتساع جانبها وكبر حجم بطنها . لقد كانت لا تزال اذن فى الأشهر الأولى ، وربما كانت فى الشهر الثالث أو فى بداية الشهر الرابع . واللزوجة التى تربط الجنين بالرحم لا تزال ضعيفة ، فالاجهاض يجب أن يكون من أيسر الأمور . وكنت أعجب وأقول لنفسى : كيف ان الانفعالات الشديدة التى شعرت بها نهار الأمس فى « فيلا ليللا » وهذه الليلة والمجهودات والأحزان والتقلصات لم تؤثر فى هذا الجنين وتقلقه ؟ كل شىء يعاكسنى كما كانت كل الأحداث تتحالف ضدى وتتآمر على . ولذلك سرعان ما اشتد حقدى عليها وزادت عداوتى لها .

كان غرضى الخفى ونيتى التى عقدت العزم عليها هى منع ولادة الجنين حيا . فكل ما نشعر به من الهول والفزع مرجعه توقع هذه الولادة وتهديدنا بهذا المكروه . ترى لماذا لم تحاول جوليانا عند أول اشتباه التخلص بأية طريقة من هذا الحمل الفاضح ؟ وهل منعها من ذلك وهم من الأوهام أو خوف من المخاوف أو اشمئزاز مبعثه غريزة الأمومة ؟ وهل كانت تشعر بحنان الأمومة حتى على هذا الجنين الذى جاء نتيجة السفاح ؟

كنت أعتبر أن حياتى المقبلة وضحت معالمها فلسوف تضع جوليانا مولودا ذكرا هو الوارث الوحيد لاسم أسرتنا القديمة ، وأن الولد الذى لست أنا أباه سوف يترعرع ويخرج الى الحياة سليما معافى ويغتصب حب أمي وشقيقى وعطفهما • ولسوف يكون محل عناية ابنتى ماريا وناتاليا وعبادتهما •

وقوة التعود سوف تهدىء من ثائرة جوليانا وتخفف من تأنيب ضميرها لها • ولسوف تستسلم لشعور الأمومة دون تحفظ • ويترعرع الولد الذى لا شأن لى به مشمولا بحمايتها وبما تضفيه عليه من رعاية • ولسوف يصبح قوى الجسم جميل الصورة • ويصير شقيا أرعن كأنه طاغية صغير • ولسوف يستولى على بيتى •

أخذت هذه الخيالات تتركز رويدا رويدا ، وكانت بعض التصورات الخيالية تأخذ شكل المناظر والمشاهد والحركات الواقعية • وبعض ملامح هذا الجنين غير الشرعى تنطبع بشكل واضح فى مخيلتى وتبقى ملحوظة فترة من الزمن كأنها حقيقة واقعة • وكانت صورة الطفل متغيرة متقلبة ، وكانت حركاته وأعماله كثيرة متعددة وكنت تارة أراه هزيل الجسم شاحب اللون منطويا على نفسه له رأس كبير ثقيل مائل على صدره وتارة أراه وردى اللون سمين البدن مرحا فصيح اللسان مليئا باللطف والبشاشة وطيب القلب يخصنى بمحبته ووده • كما كنت أراه طورا عصبى المزاج مشاكسا شديد المراس مليئا بالذكاء وبالغرائز الشريرة شديدا مع أختيه يسىء معاملتهما قاسيا على الحيوانات ، لا أثر للحنان فى قلبه ، لا يعرف النظام • ثم تأخذ هذه الصورة الأخيرة رويدا رويدا فى السيطرة على الصور الأخرى وتمحوها من جذورها وتبقى هى وحدها وتتبين معالمها فى صورة واضحة دقيقة وتحركها حياة وهمية قوية الى حد أن يطلق على هذا المولود اسم من الأسماء • وكان الاسم الذى اختارته العائلة لأى مولود ذكر يرزقنى الله به هو اسم والدى « رايموندو » •

كان ذلك الطيف الصغير الجموح محل حقدى الشديد ، وكان يبادلنى تلك العداوة والكراهية اللتين كنت أشعر بهما نحوه • فكان بالجملة عدوا وخصما ، كنت على وشك اعلان الحرب عليه وكان ضحيتى ، وكنت أنا ضحيته ، وكنت لا أستطيع أن أتخلص منه ولا يستطيع هو أن يتخلص منى • كنت أنا وهو محتبسان داخل حلقة من الفولاذ •

وكانت عيناه رماديتين كعينى « فيليبو اربوريو » ومن بين نظراته نظرة كثيرا ما تصيبنى فى الصميم فى مشهد من المشاهد الخيالية التى تتكرر أمام عينى فى كل لحظة • وكان هذا المشهد يتلخص فيما يلى : أدخل دون أن أشعر بأى شيء من الريبة فى غرفة غارقة فى الظلام يخيم عليها صمت القبور وكنت أعتقد أننى بمفردى بداخلها ولكنى ألحظ على حين غرة اننى فى حضرة « ريموندو » الذى ينظر الى محدقا بعينيه الرماديتين الشريرتين •

وسرعان ما يهاجمنى محاولا الاعتداء على وارتكاب جريمة ضدى مما يجعلنى ألوذ بالفرار لكى لا أنقض على ذلك الصغير الشرير •

— ١٨ —

تم الاتفاق اذن بينى وبين جوليانا على أن تبقى على قيد الحياة وعلى ان نتابع حياتنا ونتظاهر بأن شيئا لم يحدث • ونعيش معيشتين متباينتين مختلفتين • نعيش احداهما أحيانا والثانية أحيانا أخرى عيشة هادئة ملؤها المظاهر الحلوة والمودة والأعمال الطيبة والأخرى عيشة مضطربة هوجاء شقية قلقة لا أمل فيها ولا هناء وتسيطر عليها فكرة محددة لا تخلو دائما من التهديد والوعيد تجرى نحو هاوية مجهولة •

وكانت تمر بى لحظات نادرة تتخلص نفسى فيها من كثير من الأفكارالشريرة التى تسيطر عليها وتتخلص من ذلك الذى يحيط بها من كل جانب وتندفع فيها بقوة نحو فكرة الطيبة المثالية والتسامح اللذين كثيرا ماكانا يخطران ببالى — وتعود الى ذاكرتى تلك الكلمات الفريدة التى قالها أخى ونحن على أطراف غابة « اسورو » عن « جوفانى دى سكورديو » وهى قوله :

— انك تحسن صنعا ياتوليو اذا لم تنس هذه الابتسامة •

وكانت تلك الابتسامة العريضة التى افتر عنها ثغر الشيخ لها مغزى عميق وأصبح لها اشراق عجيب وتبدو لى كانها تكشف اللثام عن حقيقة دامغة •
وكثيرا ما كانت تبدو لى فى تلك اللحظات النادرة ابتسامة أخرى هى ابتسامة جوليانا عند ما كانت طريحة الفراش ورأسها فوق وسادتها • تلك الابتسامة غير المنتظرة التي كانت تخفت رويدا رويدا دون أن تبدو واضحة

وذكرى تلك الأمسية الهادئة التى كانت فيها الناقهة المسكينة ذات اليدين الشاحبتين الناحلتين تنتشى نشوة كاذبة وذكرى ذلك الصباح الذى زايلت فيه للمرة الأولى فراشها عندما خارت قواها ووقعت فى منتصف الغرفة بين ذراعى وهى تضحك وتلهث من التعب • وذكرى تلك الحركة القدسية التى قدمت لى بها حبها وتسامحها وعبرت لى بها عن رضاها وآمالها وأحلامها ونسيانها وعن كل ما هو جميل وكل ما هو طيب • وكانت هذه الأشياء تجعلنى أشعر بالشىء الكثير من تأنيب الضمير والحزن الشديد الذى لا حد له ولا نهاية • وكنت أقرأ دائما على وجه جوليانا ذلك السؤال الحلو المريع الذى قرأه « اندريا بولكونسكى » على وجه الأميرة « ليزا » الذابل عند ما كانت لا تزال فى قيد الحياة وهو قولها :

ـ ماذا فعلت بى ؟

ولم تخرج جوليانا من فمها أية عبارة تدل على اللوم والتقريع ولكنها لكى تخفف من فظاعة جريمتها لم تستطع أن تواجهنى بأى اثم من آثامى • كانت خاضعة ذليلة أمام جلادها ولم تشوه كلماتها أية كلمة من كلمات الحب • ومع ذلك فقد كانت عيناها تكرران لى عبارة « ماذا فعلت بى » •

كانت حماسة غريبة للتضحية تلهب مشاعرى فى ذلك الوقت وتدفعنى الى أن أعانق معبودتى • وكانت عظمة التفكير تبدو لى جديرة بشجاعتى • وكنت أشعر بمزيد من القوة وبروح البطولة تدب فى نفسى ، وبصفاء عظيم فى أفكارى • وعندما كنت أتجه نحو الأخت المتألمة كنت أقول فى نفسى :

ـ لسوف أجد الكلمة الطيبة التى تدخل على قلبها العزاء والسلوى ولسوف أجد النبرات الحنونة الجديرة بتلطيف آلامها والتى تجعلها ترفع جبينها » •

ولكننى عندما صرت أمامها لم أتحدث بشىء • وكأن شفتى أصيبتا بشىء من الشلل ، وكأن كيانى كله أصيب بمرض خطير وانطفأ ذلك النور الداخلى بغتة كما لو أن هبت عليه عاصفة ثلجية لا أعرف مصدرها أو منشأها • وبدأ يتحرك فى هذا الظلام الدامس ذلك الحقد الشديد الذى كنت أشعر به من قبل ولا أستطيع السيطرة عليه •

كان هذا دليلاً على نوبة تكاد تصيبني • وكنت أتمتم ببعض الكلمات وأنا أكاد أفقد رشدى وأتجنب النظر الى عيني جوليانا وتركتها ولذت بالفرار •

بقيت بعد ذلك أكثر من مرة معها • وعندما كان يزداد اضطرابى ولا أقوى على احتماله كنت أتجه الى فم جوليانا وأنهال عليه تقبيلا • وكانت قبلاتى طويلة تكاد تخنقها وقوية محمومة يتمثل فيها شىء من الغضب ، وتتركنا صرعى وأكثر حزنا تفصل بيننا هاوية سحيقة وتزيدنا ذلة وانكسارا وشعورا بالخسة والدناءة •

« يالى من وحش ! يا لى من وحش ! » كان هذا العنف ينم عن نية قاتلة وهى نية لم أكن أجرؤ على أن أعترف بها لنفسى • ألا يمكن أن تنفصل هذه الجرثومة العنيدة عن رحمها فى احدى هذه المرات نتيجة هــذه الانفعالات الشديدة ؟ لم أكن أعمل حسابا لذلك الخطر المميت الذى أعرض جوليانا له • وكان واضحا أنه اذا حدث أمر كهذا لتعرضت حياة الأم لخطر شديد ومع هذا فانى كنت قبل كل شىء لا أفكر أثناء ثورتى الا فى احتمال تحطيم هذا الجنين ومحو كل أثر من آثاره • وقد أدركت فيما بعد أن حياة أحدهما تتوقف عـلى حياة الآخر ، وانني كنت بمحاولاتى الجنونية أتآمر على حياة كل منهما فى وقت معا •

أما جوليانا التى كانت ترتاب فيما قد تخبئه رغبتى الشديدة وانفعالاتى من بعض النيات السيئة ، فانها لم تكن تبدى شيئا من المقاومة • ولم تكن دموع قلبها الصامتة تملأ محاجرها وكانت ترد على حماستى بحماسة تنم عن الحزن والأسى ويتصبب منها فى بعض الأحيان عرق المحتضرين وتبدو كأنها جثة من جثث الموتى • وكان ذلك يصيبنى برعب شديد • وحدث فى احـدى المرات أن صاحت فى وجهى بصوت مختنق قائلة :

ـ نعم نعم اقتلنى !

فهمت عندئذ ماذا تريد أن تقول : فانها كانت تتمنى الموت وتنتظره على يدى •

لم يكن أحد يصدق مقدرتها على التظاهر والتصنع أمام الذين لا يعرفون من الأمر شيئا . فانها لا تزال لديها المقدرة على أن تبتسم ! .

كانت مخاوفها الملحوظة على حياتها تجعلنى أجدا مبررا لبعض الأحزان التى لم أكن أستطيع اخفاءها . وهذه المخاوف التى كان يشعر بها أيضا كل من أمى وأخى من شأنها ألا يحتفل أحد فى البيت بهذا الحمل الجديد ، كما حدث فى المرتين السابقتين . ولم يتحدث أحد عن تاريخ اليوم الذى يتم فيه الوضع أو عن أى شىء يشير اليه . وهذا من حسن الحظ

ولكن حدث أن جاء الى الضيعة بعد ذلك الدكتور « فيبستى » .

وكانت زيارته مطمئنة فقد وجد جوليانا فى حالة شديدة من الضعف ولاحظ عليها أنها مصابة ببعض اضطرابات عصبية وشىء من فقر الدم وباضطراب فى الجهاز الهضمى ولكنه أكد أن الحمل طبيعى وليس فيه شىء من الشذوذ وأنه اذا تحسنت صحتها العامة فان عملية الوضع من الممكن أن تتم بطريقة طبيعية . وأبدى فضلا عن ذلك أنه متأكد كل التأكد من قوة بنية جوليانا التى دلت فى الماضى على مقدرتها على المقاومة وأمر باعطائها علاجا صحيا وبأن تتبع نظاما خاصا فى التغذية من الممكن أن يساعد على تحسين صحتها . كما وافق على أن تقيم فى الضيعة وأوصاها بالاعتدال فى كل شىء وبأن تريح فكرها ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

قال لى الطبيب فى شىء كثير من الرزانة :

- اننى أعتمد بوجه خاص عليك أنت .

بقيت مذهولا من قوله هذا اذ كنت أعلق عليه كل أمل فى الخلاص . وهأنذا أفقد هذا الأمل . كنت أؤمل قبل وصوله وأقول لنفسى : « ليته يرى من اللازم التضحية بالمولود وهو لا يزال غير متكامل الخلقة ولم تدب فيه الحياة فى سبيل انقاذ الأم وليته يرى من اللازم العمل على الاجهاض لكى يتجنب

وقوع الكارثة عندما يكبر الجنين » .. وهكذا تنجو جوليانا وتبرأ من مرضها، وأنا أيضا أتخلص مما أعانيه ومما قد يقع بعد ذلك واشعر بأنني قد ولدت من جديد . وأعتقد انني سيكون في استطاعتي أن أنسى كل شيء أو على الأقل أن يهدأ بالي . وأن الزمن لكفيل بالشفاء من كثير من الجروح . وكنت أعتقد أن العمل فيه سلوى وعزاء عن الكثير من الأحزان . وأعتقد انني سيكون في مقدوري الاستقرار والعيش في سلام رويدا رويدا واصلاح شئوني واتباع الطريق الذى سار فيه أخي وأن أصير أحسن من ذى قبل وأصير « رجلا » وأعيش للعمل من أجل الآخرين وأعتنق الدين الجديد . وأعتقد انني أستطيع أن أستعيد في هذه الأيام كرامتي . فان الرجل الذى يتاح له أن يتألم أكثر من غيره لجدير بأن يتألم أكثر ممن عداه . أليس أخي هذا أشبه شيء بآية من آيات الانجيل ؟ اذن فهناك اختيار في الآلام . وأن من يمتلك تلك الابتسامة يمتلك موهبة قدسية . واني أعتقد انني سأكون جديرا بتلك الموهبة .

كنت قد أملت كثيرا . أملت وأنا اخالف فكرة التفكير التي كنت متحمسا لها في انقاص ما كنت أشعر به من ألم . ولما كنت اريد أن أستعيد قوتي ورجولتي في غمرة الآلام . فقد كنت أخشى الألم وأشعر بخوف مريع من مواجهة الألم الحقيقي . وكانت نفسي قد تحطمت . وبالرغم من أنها تبينت الطريق السوى واضطربت بالالهامات المسيحية فانها تسير في طريق معوج ، في أعماقه تلك الهاوية السحيقة التي لا مفر من الوقوع فيها .

وعندما كنت أتحدث الى الطبيب وأظهر له عدم ايماني بآرائه المطمئنة وأبدى له شيئا من القلق ووجدت الوسيلة للتعبير عن آرائي جعلته يفهم رغبتي في تجنيب جوليانا كل خطر مهما كان الثمن ، وانني مستعد بالتضحية بمولودى الثالث دون أن أشعر بشيء من الألم والمرارة ورجوته في ألا يخفي عني شيئا ، أكد لى الطبيب مرة ثانية ما قاله من قبل وصرح لى بأنه في حالة اليأس لا يحب الالتجاء الى اجراء عملية الاجهاض لأن حالة جوليانا لا تسمح لها بهذه العملية ولأن أى نزيف دموى يحدث لها قد يكون قاتلا مميتا .

وكرر لى قوله من انه يجب قبل شيء العمل على تجديد دمائها وتقوية بنيتها التي أصيبت بالضعف والعمل بكل طريقة على أن تصل الحامل الى فترة الولادة

وقد استعادت قواها واستردت كامل صحتها وأصبحت تنعم بالراحة والطمأنينة وتثق بقدرتها على الولادة • وأردف قائلا :

ـ أعتقـد أن السـيدة فى حاجة الى كثـير من السلوى والراحة النفسية والاستقرار والهدوء • وانني أقول ذلك بوصفي صديقا قديما لأسرتكم وأعلم أنها قد تحملت الشيء الكثير وأنك تستطيع تحسين حالتها المعنوية وانقاذها •

ـ ٢٠ ـ

كانت أمي تتحمس من جديد وتزيد فى اظهار المزيد من حنانها ومودتها لزوجتي جوليانا وتعبر لهـا عن حلمها العزيز وعن تكهناتها • وهي تنتظر حفيدها « رايموندو » الصغير •

كانت واثقة فى هذه المرة •

وكان أخي أيضا ينتظر « رايموندو » •

وكثـيرا ما كانت « ماريا وناتاليا » توجهان الى والى أمهما أسـئلة بريئة ولطيفة عن المولود المقبل •

وهكذا بدأ حب الأسرة وعطفها يحيط الثمرة التى لم تخرج الى حيز النور والمخلوق الدخيـل الذى لم يستكمل خلقته • وكثـرت التكهنات والتمنيات والآمال وأخذت جوانب جوليانا تتضخم رويدا رويدا •

وفى يوم من الأيام كنا جالسين أنا وجوليانا تحت الخمائل ، وأمي تركتنا من وقت قليل • وكانت قد ذكرت فى أحاديثها اللطيفة التى تتحدث بها اسم « رايموندو » بل انها ذكرته مصحوبا باسم « التدليل » قائلة :

ـ « موندينو » •

وانتهى بها الأمر الى الاشـارة الى بعض ذكريات والدى البعيدة وكنا قد ابتسمنا عند سماعنا لأقوالها • وكانت قد اعتقدت أن ما تحلم به هو ما كنا نحن ايضا نحلم به ، وتركتنا في مكاننا لكي نستمر في أحلامنا •

كانت الساعة اذ ذاك هى الساعة التى تلى غروب الشمس ، وهى ساعة منيرة وهادئة ، وكانت أوراق الأشجار فى حقولنا لا تتحرك • وكان سرب من العصافير الدورية تشق الهواء بين الفينة والفينة برفرفة أجنحتها وبصيحاتها العالية • كما كانت تفعل ذلك فى « فيلا ليللا » •

وقد تتبعنا أمى بنظراتنا حتى اختفت عن انظارنا • وعندئذ نظر كل منا الى الآخر فى صمت • وبدت علينا علائم الحزن الشديد وخيم علينا الصمت مدة طويلة • وعندئذ ابتعدت عن جوليانا بعد أن انتابتنى هزة شديدة سرت فى جميع أجزاء جسدى ، وأحسست اننى أعيش الى جانب تلك المخلوقة التى ابتعدت عنها كما لو لم يكن هناك أحد يعيش الى جانبى ، ولم يكن هـــذا الاحساس خياليا بل شعورا حقيقيا عميقا • واحساسا بفزع تغلغل فى جميع أجزاء جسدى • ولذلك انتفضت انتفاضة شديدة ورفعت نظرى مرة ثانية الى وجه رفيقتى وذلك لكى أبدد ما شعرت به من فزع • ونظر كل منا الى الآخر فى شىء من الذهول دون أن يعرف أحد منا ماذا يجب عليه أن يقوله للآخر وأن يفعل للترويح عن نفسه وازالة هذا الفزع • وكنت أرى ما أشعر به من الألم ينعكس على وجهها وأتصور هيئتى • ولما اتجهت عيناى بغريزتهما نحو حجرها ثم رفعتهما مرة ثانية لمحت فى وجهها تعبيرا عن رعب شـديد أشبه ما يكون بذلك الرعب الذى يشعر به المرضى العاجزون عن الحركة من مرض عضال عندما يلاحظ أحد الجزء الذى شوهه ذلك المرض •

قالت لى بصوت خافت بعد فترة من الزمن حاول كل منا أن يضع فى أثنائها حدا لما يشعر به من ألم لم نجد له نهاية :

ـ هل فكرت فى أن هذه الحالة يمكن أن تستمر طويلا •

لم أفتح فمى بكلمة واحدة • ولكن الاجابة كانت تتردد فى قرارة نفسى قوية حاسمة وأود أن أقول :

ـ لا ! ان هذه الحالة لن تدوم •

استطردت جوليانا قائلة :

ـ يجب أن تذكر أنك تستطيع بكلمة أن تحسم كل أمر وأن تجد لك مخلصا واننى على تمام الاستعداد وتذكر ذلك جيدا •

التزمت الصمت ولكنى كنت اقول فى نفسى :

ـ لا يجب أن تموتى ٠

وأردفت هى قائلة بصوت بدت فيه الرعدة والحنان الحزين ٠

ـ اننى أستطيع مواساتك ! وليست هناك أية مواساة لك ولا لى ولا يمكن أن تكون هناك ٠٠ هل فكرت فى أن مخلوقا سوف يكون دائما حائلا بينى وبينك ؟ ليت الأمنية التى تمنتها أمك لا تتحقق ٠٠ فكر ! فكر !

ولكن نفسى كانت ترتجف من فكرة محزنة ترددت على خاطرى كالبرق الخاطف وقلت لها :

ـ لقد قضى الأمر ، ان الجميع يحبون هذا المخلوق الجديد ٠

ترددت هنيهة ثم القيت على جوليانا نظرة سريعة ثم أغمضت أجفانى وأحنيت راسى وسالتها فى عبارة احتبست نبراتها بين شفتى قائلا :

ـ هل تحبينه أنت أيضا ؟

ـ آه ياله من سؤال غريب هذا الذى تلقيه على !

لم أستطع الا أن أصر على سؤالى ولو أنى كنت أشعر بشىء كثير من الألم يسرى فى جسدى ، كما لو كنت أنهش بأظافرى فى جرح حديث وقلت لها :

ـ هل تحبينه ؟

ـ لا ٠ لا اننى أشعر نحوه بشىء من الفزع ٠

وعندئذ شعرت بنوبة من البهجة الغريزية كما لو كنت حصلت بهذا الاعتراف على موافقة منها على ما كنت أفكر فيه فى سرى وحصلت على موافقتها على اشتراكها فيما كنت أنوى عمله ٠ ولكن ترى هل كانت اجابتها تدل على حقيقة شعورها ؟ وهل كان صحيحا ما تقول ؟ أو تكون قد كذبت اشفاقا منها على ورحمة بى ؟

وعندئذ اجتاحتنى رغبة شديدة فى الاستمرار على الاصرار وفى أن افرض عليها أن تدلى لى باعتراف مستفيض كامل ، وفى أن أتغلغل فى صميم نفسها لاعرف منها حقيقة شعورها ٠

ولكن منظرها منعني من ذلك • فعدلت عما كنت انتويته ، وكنت اشعر تارة بالرأفة عليها بالرغم من انها تحمل في أحشائها تلك النفس التي يتوقف عليها ما أصدره من حكم، كما كنت تارة أخرى أميل اليها واشعر نحوها بالجميل • وكان يبدو لى أن ذلك الفزع الذى اعترفت به وهى ترتجف يجب أن يبعدها عن ذلك المخلوق الذى تغذيه فى أحشائها ويقربها منى • وكنت أشعر بحاجة شديدة الى افهامها هذه الأشياء والى أن أزيد فيها الحقد على هذا الوليد المقبل، كما لو كان عدوا لدودا لكلينا •

فأمسكت بيدها وقلت لها :

ـ انك ترفعين من حالتي المعنوية قليلا • وانني شاكر لك ذلك وأنت تفهمين •

ثم أردفت قائلا وأنا اخفى نيتى الاجرامية التى انتويتها •

ـ ان هناك عناية الهية • ومن يدرى ماذا يجيء به الغد ! • فلقد يكون هناك مخلص لنا من هـــذا المأزق •• وأنت تفهمين ماذا أقصد • من يدرى ! تضرعي الى الله •

كان هذا دعاء بموت ذلك الوليد • وبأمنية تمنيتها • وبينما كنت أستحث جوليانا على التضرع لله بأن يموت ذلك الجنين كنت أهيئها لتلقى نبأ حادث وفاته • وكنت أحصل منها بذلك على نوع من الاشتراك الفكرى فى الجريمة • وقد وصل بى الأمر الى أن أقول لنفسي :

ـ « ليتها تشعر بالايحاء بالجريمة بعد عباراتي هذه وتصير رويدا رويدا فى درجة من القوة بحيث تستطيع أن تضعه موضع التنفيذ » • يقينا انها تستطيع أن تقنع نفسها بهذه الضرورة المريعة وتعمل على التفكير فى تخليصى من هذا المأزق وأن يكون لديها شيء من القـدرة الوحشية وتقوم بالتضحية الكبرى • ألم تكرر لى من قبل أنها على استعداد للموت ؟ ان موتها يعنى موت طفلها • ولذلك فانها لم تمتنع عن قتل نفسها بوازع دينى أو بالخوف من ارتكاب خطيئة من الخطايا• ولما كانت على استعداد للموت ، فانها على استعداد لارتكاب جريمة مزدوجة ضـد نفسـها وضـد ثمرة خطيئتها المستكنة فى أحشائها •

ولكنها كانت مقتنعة بأن وجودها أمر نافع فى هذه الدنيا بل هو أمر لابد منه للأشخاص الذين يحبونها والذين تحبهم ومقتنعة بأن حياة الطفل الذى ليس طفلى سوف تجعل حياتنا جحيما لا يطاق وتعرف أننا نستطيع ان نلتقى مرة ثانية وأن نجد فى الغفران والنسـيان شيئا من الحـلاوة والهناء وأننا نستطيع أن نؤمل أن يكون فى الزمن الشفاء من جروحنا اذا لم يكن هناك بينى وبينها ذلك المخلوق الغريب ٠ لذلك يكفى أن تنظر هى فى تلك الأمور لكى تتحول أمنية كاذبة أو دعاء غير مجد فجأة الى مشروع والى عمل ٠

كنت أنا أفكر وكانت هى الأخرى تفكر مثلى وهى مطأطئة الرأس تمسك يدى بيدها بينما تغمرنا ظلال الخمائل الكبيرة الجامدة ٠

ترى فيم كانت تفكر هى ؟ كان جبينها دائما شاحب اللون ، وكانت أشبه شىء بضحية من الضحايا التى تقدم قرابين للآلهة ٠ ترى هل كان يخيم عليها ظلام آخر سوى ظلام الليل ؟

كان يتراءى لى « رايموندو » لا فى شكل الصبى العنيد المشاكس بعينيه الرماديتين ، بل فى شكل صبى له جسم صغير يميل وجهه الى الحمرة ، طرى البدن بدأ يخرج أنفاسه الأولى وأن اقل ضغط عليه كفيل بأن يجعله يفقـد حياته ٠

دق جرس كنيسة الضيعة أول دقة من دقات صلاة العشاء وعندئذ سحبت جوليانا يدها من يدى وأشارت بأصبعها فى الهواء علامة الصليب ٠

ـ ٢١ ـ

بعد أن انقضى الشهر الرابع ثم الخامس أخذ الحمل يظهر بسرعة وأخذ قوام جوليانا الفارع الرشـيق يتضـخم وأصبحت كمـا لو أصيبت بمرض الاستسقاء ٠ وكان سببا فى اذلالها أمامى ، كما لو أن بها عاهة فاضـحة ٠ كان يبدو على وجهها شىء كثير من الألم الممض عندما تلمح عينى وهما مصوبتان الى بطنها المتضخمة ٠

وكنت أشعر بانهيار شديد ولا أستطيع أن أتحمل ثقل هـــذه الحياة التعيسة ، وكل صباح عندما أفتح عينى بعد نوم مضطرب يبدو لى كأن انسانا يقدم لىّ كوبا عميقا ويقول لى :

« اذا كنت تريد أن تشرب ، واذا كنت تريد أن تعيش · فيجب أن تعصر هنا فى داخل هذا الكوب قلبك حتى آخر نقطة من دمائه » · فينتابنى شيء كثير من الاشمئزاز والتقزز والرعدة التى لا يمكن وصفها كلما استيقظت من نومى · ومع ذلك كان من الواجب علىّ أن أعيش ·

كانت الأيام تمر بطيئة قاسية ولم يكن الوقت يمر بسرعة كالسيل المنهمر· بل كالماء الذى ينساب قطرة بعد قطرة فى كسل وتثاقل · ولا يزال أمامى فصل الصيف وجانب من فصل الخريف ووقت لا نهاية له · وكنت أجتهد فى أن ارافق شقيقى وأساعده فى أعماله الزراعية التى بدأ القيام بها وبأن أتحمس لعقيدته ·

وكنت أبقى فوق صهوة جوادى أياما كاملة كحراس الماشية ·

وأجهد نفسى فى القيام بعمل من الأعمال اليدوية وفى بعض الشئون السهلة الرتيبة ·

وأحاول تأخير أمد تعذيب ضميرى ببقائى على اتصال باوزارعين وبالرجال البسطاء المستقيمين وبأولئك الذين كانوا بفضل ما ورثوه من الفضائل يقومون بتأدية أعمالهم فى تعاون كامل كأنهم أعضاء جسم واحد · وحدث أكثر من مرة أن قمت بزيارة جوفانى دى سكورديو · ذلك الرجـل القديس المنعزل وأردت أن أسمع صوته وأردت أن استفسر منه عما أصـــابه من كوارث · وأن أرى مرة أخرى عينيه الحزينتين وابتسامته الكثيرة الحلاوة · ولكنه كان صامتا يشعر بشيء من الخجل منى ، ولم يكن يجيب عـلى استفساراتى الا بكلمات معدودة غامضة ، ولا يطيب له أن يتحدث عن نفسه ، أو يروق له أن يشـكو ولا ينقطـع عن عمـله الذى يقوم بأدائه · وكانت يداه الجافتـان السمراوان اللتان برزت عظامهما واللتان يبدو أنهما قدتا من معدن البرونز المصهور لا تتوقفان عن العمل قط · وربما لا تعرفان ما هو التعب · وفى يوم من الأيام صحت به قائلا :

ـ ولكى قل لى متى تسترح يداك ؟

نظر الرجل الأمين اليهما وهو يبتسم • ونظر الى ظهريهما وكفيهما ثم أدار وجهيهما وظهريهما للشمس • كانت تلك النظرة وتلك الابتسامة وتلك الشمس وتلك الحركة التى صدرت منه تخلع على هاتين اليدين الغليظتين شرفا ما بعده شرف • وكانت هاتان اليدان اللتان غلظت أكفهما من أثر استعمالهما للآلات الزراعية واللتان بارك الله فيهما من أجل ذلك الخير الذى بذرتاه ومن أجل ذلك العمل الواسع المدى الذى قدمتاه هاتان اليدان فأصبحتا الآن جديرتين بحمل راية النصر •

ضم الشيخ يديه الى صدره حسب العادات الجنائزية المسيحية وأجابنى والابتسامة لا تفارق شفتيه بقوله :

ـ بعد قليل يا سيدى ان شاء الله • عندما يضعونهما لى على هذا النحو وأنا فى صندوق الموتى ليكن ذلك ••

ـ ٢٢ ـ

كان كل علاج بدون جدوى • ولم يساعدنى العمل أية مساعدة ولم يكن لى فيه شىء من السلوى ، وذلك لأنه كان مرهقا غير متعادل ومختلفا وغير منظم وغير متواصل تفصل بينه فترات من الزمن كنت أشعر فيها بالعجز الذى لم أستطع التغلب عليه والذى كان مصدره تعبى وانهاك قوتى وجدب الأرض •

كان أخى ينذرنى ويحذرنى :

ـ ليس هذا هو ما جرت به العادة • انك تستنفد فى أسبوع واحد طاقة ستة أشهر ثم لا تلبث أن تشعر بالكسل ثم تعود من جديد الى ارهاق نفسك دون توقف • ليس هذا هو ما جرت به العـادة يجب أن يكون عملنا هادئا متوافقا ومنسـجما حتى يصبح فعـالا • أتفهم ذلك ؟ يجب أن نضع طريقة وأسلوبا للعمل ، ولكنك لا تزال فيك عيوب التلاميذ الذين يتحمسون للدراسة أكثر مما يجب • ولسوف تهدأ فيما بعد •

كان أخي يقول :

ـ انك لم تحصل على الاتزان حتى هذه الساعة . ولاتشعر حتى الآن بالأرض الثابتة تحت قدميك . لا تخش شيئا . لسوف تعثر ان عاجلا أو آجلا على أسلوبك الذى تسير عليه . ولسوف يحدث له هذا فجأة وعلى غير انتظار فى الوقت المناسب .

ويقول لى أيضا :

ـ يقينا ان جوليانا سوف تعطيك فى هذه المرة وريثا ذكرا هو «رايموندو». واننى فكرت فيمن سيكون شبيها له . لسوف يقوم جوفانى دى سكورديا بتعميد ولدك . وليس من الممكن أن يكون له شبيها خيرا منه أو من هو أجدر منه بهذا الشرف . ولسوف يغرس « جوفانى » فيه الطيبة والصلاح والقوة . وعندما يكبر « رايموندو » ويترعرع لسوف تحدثه عن ذلك الشيخ العظيم ولسوف يكون ابنك فى حالة لم نستطع أن نبلغها نحن .

وكثيرا ما كان أخي يعود الى التحدث فى هذا الموضوع ، وكثيرا ما يذكر اسم « رايموندو » ويتمنى للوليد أن يتجسد فيه المثل الأعلى للانسان الكامل الذى يفكر فيه والانسان المثالى الفريد فى نوعه . ولم يكن يعرف أن كل كلمة من كلماته كانت طعنة مؤلمة لى وتزيد من حدة كراهيتى وتضاعف يأسى .

كان الجميع يتآمرون ضدى دون علم منهم ودون وعى ، والجميع يتبارون فى طعنى وجرحى . وعندما أقترب من أحد أقاربى كانت أشعر بالقلق والخوف كما لو كنت مضطرا للبقاء الى جانب شخص يمسك بيديه أسلحة مريعة ولا يعرف طريقة استعمالها ولا خطورتها . ودائما فى انتظار طعنة تصيبنى ، وكان لزاما على أن أبحث عن الوحدة والعزلة وأن أهرب بعيدا عن الجميع لكى أجد شيئا من الراحة والمهادنة . على أنى كنت أثناء عزلتى أجدنى وجها لوجه أمام عدوى اللدود أى مع نفسى . وأشعر بأننى أموت خفية . ويبدو لى أننى أفقد حياتى التى تتسرب من جميع مسام جسمى وتنتابنى فى بعض الأحيان آلام تتصل بأحلك أيام حياتى السالفة التى أصبحت الآن بعيدة العهد . ولم أكن أحتفظ بشيء آخر فى نفسى الا بشعورى بعزلتى فى هذه الحياة بين خيالات

كل الأشياء • ولم أشعر مدى ساعات طويلة الا بجمود الحياة الساحق وبضربات عروق رأسى الخافتة •

ثم يستولى الغضب على ، وأعود فأشعر بالسخرية من نفسى وبالرغبة الجامحة فى الهدم والتحطيم وبالسخرية التى لا تعرف الشفقة ولا الرحمة والمكائد القاسية • وبرعدة شديدة من جماعة الغوغاء •

ويبدو لى أننى أصبحت لا أعرف معنى للتسامح والرحمة والحنان والطيبة • وكانت جميع الموارد الطيبة الداخلية تغلق وينضب معينها وأصبحت كأنها ينابيع انصبت عليها اللعنات • وعندئذ لم أكن أرى فى جوليانا الا فعلتها الوحشية وبطنها المنتفخة نتيجة اتصال رجل آخر بها • ولم أكن أرى فى نفسى الا شخصية مضحكة والزوج المغفل المخدوع والبطل العاطفى الغبى فى قصة سخيفة ولم تكن السخرية الداخلية لينجو منها أى عمل من أعمالى أو أى عمل تقوم به جوليانا • وكانت الدراما تتغير فى نظرى وتتحول الى كوميديا مريرة ساخرة • ولم يكن هناك ما يوقف اندفاعى ويرجعنى الى حالتى ، وجميع الروابط تتقطع وتتفتت ويقع فيها انفصال شديد •

وكنت أقول فى نفسى :

ــ لماذا أبقى هنا لتمثيل هذا الدور الكريه ؟ لسوف أنصرف من هنا وأعود الى العالم والى الحياة التى كنت أحياها من قبل والى حياة الحرية والمرح والسرور • ولسوف أفقد صوابى وأضل سواء السبيل • وماذا يهمنى بعد ذلك ؟ اننى لا أريد أن أكون الا فى الحالة التى انا فيها أو حال من الأحوال • وليكن ما يكون » •

ــ ٢٣ ــ

قررت فى احدى هذه النوبات مبارحة الضيعة والسفر الى روما وترك نفسى للمقادير تفعل بى ما تشاء •

ووجدت المعاذير التى استندت اليها لتنفيذ ما عزمت عليه •

ولما كنت لا أتوقع غيبة طويلة عن الضيعة فقد تركنا الدار بصفة مؤقتة . كان غيابنا يجب أن يكون الى أجل غير مسمى .

أعلنت خبر سفرى وأقنعت أمي وأخي وجوليانا بهـذه الضرورة ووعدت بانهاء أعمالى فى أيام قليلة وأعددت العدة للسفر .

وفى ليلة السـفر بينما كنت أغلق الحقيبة فى سـاعة متأخرة من المساء سمعت من يدق على باب حجرتى وصحت قائلا :

ـ هيا . ادخل !

رأيت والدهشـة آخذة منى كل مأخـذ أن جوليـانا هى التى دخلت ، وقلت لها :

ـ يالله . هل أنت ؟

اتجهت نحوها وكانت تلهث قليلا وربما ذلك نتيجة لما شعرت به من التعب من صعود درج السلم فأجلستها فوق أحد المقاعد وقدمت لها فنجانا من الشاى البارد مع كوب صغير من عصير الليمون وهو الشراب المحبب اليها من عهـد بعيد والذى كنت قد أعددته لنفسى ، لم تشرب منه الا رشفة واحدة بللت بها شفتيها ثم ردته الى ثانية . وكانت عيناها تنبئان عما تشعر به من ضيق . وأخيرا قالت لى فى شيء من الخجل :

فأجبتها قائلا :

ـ اذن هل تسافر ؟

فأجبتها قائلا :

ـ نعم فى صباح الغد كما تعرفين .

فكرت وفى فترة صمت طويلة وكان يدخل من النوافذ المفتوحة نسيم بارد لطيف وأنوار البدر تغمر جلسات النوافذ ويصل الى أسماعنا من مسافة بعيدة صرير (الجداجد) وهو أشبه ما يكون بعزف ناى غليظ الصوت .

وسألتنى بصوت متهدج قائلة :

ـ متى تعد ؟ قل لى الحقيقة .

فأجبتها قائلاً :

ـ لا أدرى ٠

مرت فتـرة صمت أخرى وكان النسـيم العليـل يترقرق من آن لآخر ٠ وانستائر تنتفخ عند هبوبه الذى كان يذكرنا بجمال ليالى الصيف ٠

وقالت لى :

ـ أتتركنى ؟

وفى صوتها شيء كثير من الحزن والتذلل كان من شأنه أن تفككت جميع العقد التى كانت كامنة فى نفسى على غير انتظار ٠ وغمرتنى موجة من الحزن والاشفاق ٠

فأجبتها قائلا :

ـ لا ٠٠ لا تخافى يا جوليانا ولا تحزنى ٠ ولكننى فى حاجة الى شيء من الراحة ولا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك ٠ انى فى حاجة الى التنفس ٠

قالت لى :

ـ انك على حق ٠

ـ أعتقد أننى سأعود سريعا كما وعدت ولسوف أكتب اليك ٠ وانك أيضا ربما عند ما لا ترينني أتألم تشعرين بشيء من الراحة ٠

فقالت لى :

ـ انني لن أجد أى شيء من الراحة قط ٠

كان البكاء المختنق يبدو من خلال كلماتها وأردفت قائلة على حين بغتة وكان يبدو فى نبرات صوتها حزن يقطع نياط القلوب :

ـ قل لى ياتوليو ٠ قل لى الحقيقة ٠ أتكرهنى ؟ قل لى الحقيقة !

كانت تستجوبنى بعينيها اللتين يبدو فيهما من الحزن أكثر مما يبدو فى كلماتها ٠ وكان يبدو أنها تحدق فى وجهى بروحها وعينيها المبهورتين وذلك

الجبين الوضاح وذلك الفم المتقلص وتلك الذقن النحيلة وكل ذلك الوجه الهزيل الذى يبدو فيه الألم يتعارض كل التعارض مع ذلك التشويه الذى بدا فى النصف الأسفل الفاضح من جسمها ، ويداها الضعيفتان المتألمتان اللتان كانتا تمتدان نحوى بحركة تنم على الضراعة والتذلل تسببان لى ألما شديدا لم أشعر بمثله من قبل ، وكانتا تبثان فى نفسى شيئا كثيرا من الشفقة والحنان •

وقلت لها :

ـ صدقينى يا جوليانا • صدقينى دائما • اننى لا أحمل لك أية ضغينة ولن أحمل لك أية ضغينة ما حييت • وانى لا أنسى انى مدين لك بأنك لا تحملين لى أية ضغينة • وانى لن أنسى أى شيء • ألم أقدم لك الدليل على ذلك ؟ اهدئى بالا • فكرى الآن فى التخلص •• ثم بعد ذلك •• من يدرى ! ولكننى على كل حال لن أستغنى عنك ياجوليانا • والآن دعينى أسافر ، ربما كان لى فى اليوم الذى أبتعد فيه عنك الخير ولسوف أعود مطمئنا هادىء البال ، وسيكون من اللازم لى الكثير من الهدوء فيما بعد • ولسوف تكونين فى حاجة الى مساعدتى وعنايتى •

وهنا قالت :

ـ شكرا • اعمل بى ما شئت •

وصل الى مسمعى فى تلك الساعة صوت غناء انسان أثناء الليل • وهنا تعرفت على صوت الناى الريفى • وربما كان هذا هو صوت مجموعة من الفلاحين العاملين فى « تذرية » القمح فى بعض الأجران البعيدة على ضوء القمر •

فقلت :

ـ أتسمعين ؟

ارهفنا السمع وكان النسيم العليل يهب علينا كما كان جمال الليل الصيفى ينعش قلبى •

فسألت جوليانا فى شيء من اللطف قائلا :

ـ أتريدين أن تذهبى لنجلس هنالك فى الغرفة ؟

وافقت على طلبى ونهضت من مكانها ومررنا بالغرفة الثانية التى لم يكن ينيرها ضوء آخر سوى ضوء البدر • وكانت هناك موجة كبيرة ناصعة البياض يكاد يحكى لونها بياض اللبن تغمر أرضيتها • وسارت جوليانا أمامى فى الضوء الناصع البياض فى طريقها الى الشرفة •

وهكذا استطعت أن أرى ظلها المشوه يرتسم واضحا فوق هـذا الضوء • ويلاه ! أين ذهبت تلك المخلوقة الرشيقة الهيفاء التى كان بودى أن أحملها بين ذراعى ؟ وهكذا شعرت فى قلبى فى لحظة وجيزة فى وقت معا بشىء كثير من الأسف والرغبة واليأس •

جلست جوليانا وأسندت رأسها على حديد حاجز الشرفة وكان وجهها المشرق المتلألىء أكثر بياضا من كل ما حولها وأنصع بياضا من الجدار • وقد أسبلت جفنيها ، وأهدابها تنشر فوق أعلا خديها ظلا يزعجنى أكثر مما كانت تزعجنى أية نظرة من النظرات •

ترى كيف أمكننى أن أتحدث ؟

استدرت نحو الوادى وانثنيت فوق الحاجز وضغطت على حديده البـارد بأصابعى وشاهدت فى أسفل كتلة كبيرة من المناظر المضطربة التى لم أستطع أن أميز منها الا بريق مياه نهر « اسورو » • وكان الغناء يصل طورا ويتوقف طورا آخر حسب هبوب النسيم • ونسمع أثناء فترة الصمت أنغام ذلك الناى الذى فيه شىء من الخشونة والذى كان يأتى من مسافة بعيدة •

وانى لأذكر أنه لم تمر بى ليلة فى حياتى كلها مليئة بالسعادة وبالحزن مثل هذه الليلة • وانطلقت من أعماق قلبى صرخة عالية ، ولو أنها لم تكن مسموعة من أجل هذه السعادة المفقودة •

ـ ٢٤ ـ

ما ان وصلت الى روما حتى ندمت على سفرى • فقد وجدت المدينة مشتعلة وملتهبة • وتكاد تكون خاوية على عروشها • وعندئذ شعرت بالخوف والقلق •

ووجدت بيتى يخيم عليه سكون القبور وكان لما فيه من متاع وأشياء اعرفها حق المعرفة شكل يختلف كل الاختلاف مع ما كان لها من شكلها السابق وكنت أراه غريبا على واحس بالخوف منه • وهكذا كنت أشعر بنفسى وحيدا وأعيش فى عزلة مخيفة ، ولكننى مع ذلك لم أذهب للبحث عن الأصدقاء ولم اشأ ان أذكر أو أعرف أحدا من أصدقائى • وكل ما كنت أعمله اننى اخذت فى البحث عن رجل • كنت أكن له حقدا شديدا •• فى البحث عن « فيليبو اربوريو »•

كنت أؤمل أن أراه فى أسرع وقت فى أحد المحال العامة • وذهبت الى المطعم الذى كنت أعرف أنه يتردد عليه • وانتظرته أمسية كاملة وأنا أفكر فى الطريقة التى أواجهه بها • وكان وقع أقدام كل قادم من القادمين الى المطعم يثير الدم فى عروقى • ولكن فيليبو لم يظهر له أثر • فسألت عنه خدم المطعم وقالوا لى انهم لم يشاهدوه منذ زمن طويل •

قمت بزيارة لنادى السلاح وكان النادى خاويا يغط فى ظلام داكن ونوافذه مغلقة ، وكان مليئا بتلك الرائحة الخاصة التى يثيرها الرى بالماء من الأرض المرصوفة • واستقبلنى « المدرب » الذى هجره تلاميذه بشىء كثير من اللطف• واستمعت فى كثير من الانتباه الى قصة الانتصارات التى حصل أعضاء النادى عليها فى المسابقة الأخيرة • تلك القصة التى كان يرويها فى شىء كثير من الاسهاب •

ثم سألته عن اخبار بعض أصدقائى الذين كانوا يترددون على النادى ، وأخيرا سألته عن اخبار « فيليبو اربوريو » •

فأجابنى بقوله :

ـ انه ليس فى روما منذ أربعة أو خمسة أشهر •

وسمعت أنه مصاب بمرض عصبى شديد الوطأة وانه من العسير أن يبرأ منه كما قال لى ذلك الكونت « جاليفا » ولكننى لا أعلم عنه اى شىء آخر •

ثم أردف قائلا :

ـ كان فى الحق هزيلا وفى منتهى الضعف وقد جاء الى النادى وتلقى على

يدى دروسا قليلة وكان يخشى ضربات « الشيش » ولم يكن يستطيع رؤية طرف « الشيش » أمام عينيه .

ولقد سألته قائلا :

ـ ألا يزال « جاليفا » فى روما حتى الآن ؟

ـ لا . انما فى « ريميني » .

بعد لحظات وجيزة انصرفت .

صعقنى هذا الخبر غير المنتظر .

وقلت فى نفسى :

ـ ربما كان هذا الخبر صحيحا . وتمنيت أن يكون مرضه من تلك الأمراض الشديدة التى تصيب النخاع الشوكى وجوهر المخ التى تؤدى بالرجل الى أسوأ الحالات والى التدهور والى الغباء والى أسوأ حالات الجنون ، ومن ثم الى الموت . وان المعلومات التى استقيناها من مكتب العلوم وذكرى زيارتى لأحد البيمارستات والصورة التى انطبعت فى ذهنى عن حالة أحد أصدقائى وهو « سبينيللى » المسكين ، كل ذلك سرعان ما عاد الى ذاكرتى ، وكنت أرى اذ ذاك مرة أخرى « سبينيللى » المسكين وهو يجلس فوق المقعد الكبير المصنوع من الجلد الأحمر وهو شاحب اللون يحكى لون وجهه وجه الأرض وقد تقلصت جميع ملامحه وانحرف فمه وانفتح وامتلأ باللعاب المستمر الذى كان يسيل من جوانب فمه . كذلك كنت أرى مرة أخرى صورة شقيقته الشقراء النحيلة والتى يبدو عليها الألم الشديد وهى تضع للمريض « الفوطة » أسفل ذقنه كما لو كانت تضعها لأحد الأطفال . وتضع الملعقة فى فمه لتدخل اليه الطعام الذى كان لا يريد ابتلاعه .

وكنت أقول لنفسى :

ـ لقد ربحت كثيرا . فاننى اذا كان أمامى خصم معروف يتحتم على أن أبارزه فاننى اذا ما أصبته بجرح بليغ أو قتلته لما بقى الأمر سرا ما فى ذلك شك ، فان هذا الخبر سيجرى على جميع الأفواه وسوف ينتشر ويعرفه الجميع .

ولسوف تعلق عليه جميع الجرائد . ويكون من الممكن أيضا معرفة السبب الحقيقى فى هذه المبارزة . أما هذا المرض الذى أرادته العناية الالهية فان فيه نجاة من كل خطر ومخلصا من كل ضيق واجتنابا لكل الصغائر . وفى استطاعتى أن أصرف النظر عن شهوة اراقة الدماء وعن عقوبة أوقعها بيدى ؟ ثم هل أنا متأكد من نتيجة المبارزة ؟) عندما أعلم أن الرجل الذى أحقد عليه مريض مشلول وأن المرض أقعده عن الحركة .

ولكن ترى هل هـــذا الخبر الذى سمعته صـــحيح ؟ أو أن الأمر يتعلق باضطراب مؤقت ؟ خطرت ببالى فكرة طيبة فركبت عربة وأمرت السائق بأن يوصلنى الى مكتبة الناشر . وأثناء الطريق كنت أضع محل الاعتبار الأمرين اللذين يضايقان أكثر من غيرهما أديبا من الأدباء أو كاتبا من الكتاب : وهما نقد الكلمة بسبب عيب فى الجهاز العصبى وعدم المقدرة على الكتابة . وكانت تتراءى أمام مخيلتى أعراضهما بادية على وجهه .

ودخلت المكتبة فلم أميز شيئا فى بادىء الأمر بسبب النور القوى الخارجى الذى كان يبهر عينى وسمعت صوتا أخنف تتخلله نبرات أجنبية يسألنى قائلا :

ــ ماذا يريد السيد ؟

وهنا لمحت خلف المكتب رجلا لم أتمكن من معرفة عمره الحقيقى أشقر اللون نحيف البدن نظيف الملبس . فاتجهت اليه وأشرت له الى عناوين بعض الكتب واشتريت كثيرا منها ثم طلبت منه آخر قصة للكاتب « فيليبو اربوريو » . فقدم لى الرجل الأشــقر قصة « السر » . وعنــدئذ تظاهرت بأننى من غلاة المعجبين بذلك الكاتب الروائى وسألته قائلا :

ــ هل هذا هو آخر كتاب وضعه ؟

ــ نعم يا سيدى . وقد أعلنت دار النشر التى نمثلها عن قرب ظهور كتاب جديد منذ بضعة أشهر وهو كتاب « توريس أوربورينوا » .

ــ ماذا تقول ؟ توريس أوبورينوا ؟

هنا هزنى قلبى هزة عنيفة .

ـ ولكنى أعتقد أننا لن نستطيع نشره •

ـ لماذا لا تستطيعون ؟

ـ ان الكاتب مصاب بمرض خطير •

ـ مريض هو ؟ وما ذلك المرض ؟

رد على الرجل الأشقر قائلا بكلمات متقطعة وبلهجة تنم عن أنه رجل من أهل الخبرة والمعرفة : بشلل خطير •

« يالله انه المرض الذى أصيب به « جوليوصبيننلى » •

ـ اذن فحالته خطيرة ؟

رد على الرجل الأشقر قائلا :

ـ انه مرض غاية فى الخطورة ، وسيادتكم تعلمون ان الشلل لا علاج له وتزداد حالة المصاب به سوءا يوما بعد يوم •

ـ ولكنه الآن فى البداية •

ـ نعم فى البداية • ولكن ليس ثمة شك فى طبيعة هذا المرض وخطورته • لقد سمعته فى المرة الأخيرة التى كان هنا وهو يتحدث وكان ينطق بصعوبة بعض الكلمات •

ـ يالله • هل سمعته ؟

ـ نعم يا سيدى • كان نطقه متقطعا وصوته يرتجف فى بعض الكلمات •

كنت أشجع الرجل الأشقر بمنتهى الحرص كما لو كنت معجبا به ، وأنصت لاجاباته وأهتم بها • واعتقد انه كان يود أن يظهر لى الأحرف التى كان الروائى الشهير يجد صعوبة فى النطق بها •

ـ أين هو الآن ؟

ـ انه فى مدينة « نابولى » لأن الأطباء وصفوا له علاجا كهربيا •

وهنا قلت وأنا أتظاهر بالدهشة البريئة كما لو كنت رجلا لا أعرف عنه شيئا حيث كنت أريد تشجيع غرور ذلك الرجل الأشقر وأطيل الحديث معه •

ـ يالله . علاج بالكهرباء ؟

وفى الحق انه كان يهب فى المكتبة الضيقة المستطيلة التى كانت اشسبه بدهليز طويل شىء من النسيم الرطب بسبب وجود مسقط هوائى . وكان الضوء خافتا وأحد المستخدمين يغط فى النوم فى سلام فوق أحد المقاعد وقد التصقت ذقنه بصدره فى ظل « كرة أرضية » . لم يكن أحد يدخل اذ ذاك فى هذه المكتبة . وفى صاحب المكتبة جانب يدعو الى الضحك . كنت أجد فيه شيئا من التسلية والترفية ،وهو بياض لونه الشديد وفمه الذى يجتر باستمرار وصوته الأخنف . ومن المستظرف كثيرا أن يسمعه الانسان وهو يتحدث بتأكيد فى هدوء المكتبة وسكونها عن ذلك الداء العضال الذى أصيب به الرجل الذى أمقته .

وكنت أقول لكى أستحث الرجل الأشقر :

ـ ان لدى الأطباء الأمل فى انقاذ حياته .

ـ هذا مستحيل !

ـ يجب أن نؤمل فى أن يكون شفاؤه ممكنا حبا فى مجد الأدب ورفعة شأنه .

ـ هذا مستحيل !

ـ ولكنى أعتقد أن هناك احتمالا للشفاء فى حالة الشلل المتزايد .

ـ لا ياسيدى . لا . ان المصاب به قد يعيش أيضا سنتين أو ثلاثا أو أربعا. ولكنه لن يشفى .

ـ وأنا أيضا أعتقد .

وفى الحق اننى لا أدرى من أين جاءنى هذا المرح الذى جعلنى أسخر من محدثى وذلك السرور العجيب الذى شعرت به وأنا اعانى من ذلك الشعور بالقسوة . يقينا اننى كنت أستمتع بهذا الحديث . أما الرجل الأشقر الذى أستحثه حديثى دون أن يبدى أى اعتراض فانه صعد فوق السلم الخشبى الصغير الموضوع على أحد الأرفف المرتفعة . ويبدو بجسمه النحيل كأنه قط من تلك القطط الشاردة قليلة اللحم والوبر التى تتدلى من فوق أطراف الأسطح .

وبينما كان يصعد على السلم صدم برأسه شريطا ممتدا من أحد أركان المكتبة الى الركن الآخر لكى يستقر عليه الذباب • وهنا قامت غمامة من الذباب واخذت تدور من حولى ، وكان يسمع لها طنين شديد • وبعد ذلك نزل وهو يحمل أحد الكتب وهو كتاب « حق طلب المحاكمة لصالح المتوفى » • ونزل معه الذباب الثائر الذى لا يسكن •

أرانى الرجل الأشقر غلاف الكتاب الداخلى ، كان مكتوبا عليه رسالة فى علم الأمراض « الباثالوجية » وقال لى :

ــ الآن سوف تسمع •

بحث فى صفحات الكتاب • ولما كان الكتاب لم يفتح من قبل فانه فصل بأصابه ورقتين من أوراقه كانتا متصلتين وحدق بعينيه بينهما وأخذ يقرأ العبارة التالية :

« ان الحكم على نتيجة مرض الشلل النصفى المتزايد مقطوع به » •

ثم أردف قائلا :

ــ هل أنت الآن مقتنع ؟

ــ نعم ولكن يا للخسارة ! انه لذكاء نادر •

لم يهدأ الذباب وكان يصدر منه مجتمعا طنين مقلق

وكان الذباب يهاجمنى كما يهاجم الرجل الأشقر والمستخدم النائم أسفل الكرة الأرضية •

سألته وأنا اغير دون قصد زمن الفعل ، كما لو كنت أتحدث عن أحد الموتى قائلا :

ــ كم كان عمره ؟

ــ من هو يا سيدى ؟

ــ فيليبوا اربوديو ■

ـ خمسة وثلاثين عاما على ما أعتقد .

ـ يالله ، في ريعان الشباب !

كنت أشعر بحاجة عجيبة للضحك ، حاجة صبيانية للضحك من أنف ذلك الرجل الأشقر وتركته مكانه مذهولا . وكان هذا استفزازا فريدا فى نوعه لم أجربه من قبل ولم أعرف كنهه ، وكان يثير تفكيرى شيء أشبه ما يكون بتلك البهجة العجيبة التى تعتمل فى نفوسنا بعض الأحيان على أثر حلم غامض . وكان الكتاب لا يزال مفتوحا فوق المنضــدة فانحنيت لكى أرى عــلى احدى صفحاته صورة كاريكاتورية هي وجه انسان مقطب الجبين انقلبت سحنته .

وكنت أقول لنفسى : انه تقلص محزن فى الوجه .

وكانت أسراب الذباب الثائرة تطن طنينا لا هوادة فيه .

ولكن سرعان ما عاد الى القلق من جديد .

فسألت الرجل قائلا :

ـ ألم يتسلم الناشر حتى الآن مخطوط قصة « توريس ايبورينا ؟ »

ـ لا ياســيدى . لقــد تم نشر الاعــلان عنها ، ولكن ليس لدينا منها الا عنوانها .

ـ أليس لديكم من القصة سوى عنوانها ؟

ـ نعم ياسيدى ان الاعلان قد تم طبعه فعلا .

ـ شكرا . أرجو أن ترسل هذه الكتب الى بيتى اليوم .

واعطيته عنوانى وخرجب .

وبينما أنا لا أزال على الرصيف شعرت بأننى صرت كالتائه . وكان يبدو لى أنى تركت من خلفى رجلا كثير التكلف والكذب كما كان يبــدو لى أن كل ما فعلته وكل ما قلته وكل ما احسست به وصورة الرجل الأشقر وحركاته انما هي أشياء زائفة كأنها حلم من الأحلام أو أشبه شيء بذلك الانطباع الناجم

عن قراءة أحد الكتب الحديثة وليس عن الاتصال بحقائق الحيـاة اتصـالا مباشرا •

ركبت العربة وعدت الى بيتى ، وما ان وطئت أقدامى باب‌البيت حتى زايلنى ذلك الإحساس الغامض فاستجمعت قواى وأخذت أفكر وأيقنت عندئذ أن كل شيء كان حقيقيا لا يتطرق اليه الشك بحال من الأحوال • ولم تجد صورة ذلك الرجل المريض صعوبة فى أن تتخذ فى أعماق نفسى تلك الصورة التى كانت تبعثها الى ذهنى ذكرى « سبينللى » المسكين •

وهنا تبادرت الى ذهنى فكرة جديدة وقلت على أثرها لنفسى :

– ترى هل أذهب الى مدينة نابولى لأراه ؟

وعندئذ تمثلت أمامى صورة ذلك الرجل المفكر التعس الذى حطمه المرض وجعله يتلعثم فى الكلام وكأنه رجل أبله •

لم أعد أشعر بعد تلك اللحظة بأى نوع من البهجة والسرور ، وكان كل احساسى بالحقد وما يسببه من الاضطراب قد ذهب الى غير رجعة وأصبح أثرا بعد عين وانصب الحزن والأسى العميق فوق رأسى ولم يكن الدمار الذى حل بذلك الرجل ليؤثر فى نفسى أو يخفف مما أصابنى من حزن وألم ولم يطرأ أى تغيير على نفسى أو فى أسلوب حياتى أو بالنسبة الى نظرتى للمستقبل •

أخذت أفكر من جديد فى عنوان قصة فيليبو اربوريو المذكورة وهو «توريس ايبورينا » •

وهنا تزاحمت جحافل الشك فى ذهنى وتساءلت قائلا :

– ترى هـل كان الأمر يتعلق بلقاء تـم بمحض الصـدفة بين زوجـتى وبين صاحب ذلك الاهداء المعروف ؟ أم أن الكاتب أراد أن يختلق شـخصية أدبية شبيهة بزوجتى جوليانا هرميل • وأن يسرد قصة مغامرتها الأخـيرة ؟ وهنا تمثل أمامى من جديد ذلك التساؤل الذى كان يعذبنى عن الكيفية التى تمت بها تلك المغامرة من البداية حتى النهاية •

ثم خيل الى اننى أسمع مرة ثانية تلك الكلمات التى قالتها جوليانا فى تلك الليلة والتى لا تنسى وهى :

ـ اننى أحبك • لقد أحببتك دائما • وكنت دائما طوع ارادتك • هل يعادل هذا الجحيم الذى أعيش فيه لحظة من لحظات السعادة • أتفهم ذلك ؟ لحظة من لحظات السعادة •• انها الحقيقة ألا تحس بأنها الحقيقة ؟

ويلاه ما أكثر ما نعتقد بأننا نحس بالصدق فيما يرد على لسان انسان يكذب ليس هناك ما يمكن أن يحمينا من هذا الخداع ، ولكن اذا كان ماسمعته من لسان جوليانا هو الصدق والحقيقة الناصعة ، فهل يكون ذلك الرجل حقا هو الذى فاجأها فى عقر دارى وهى فى لحظة من لحظات ضعفت حواسها وأنها تحملت ذلك الاكراه فى حالة من حالات عدم وعيها • وعندما تنبهت أحسنت بفزع شديد وتقزز من تلك الفعلة النكراء والخطيئة التى لا يمكن اصلاحها وطردت ذلك الرجل ولم تره بعد ذلك ؟

لم يكن هناك فى هذه الفكرة فى حد ذاتها أية مظاهر تدل على ما يخالفها، تلك المظاهر التى تجعلنى أفترض أن أية علاقة بينه وبين جوليانا لا بد أن تكون قد انفصمت بصفة حاسمة منذ عهد بعيد •

وكنت أفكر فى نفسى :

ـ هل كان ذلك • وفى دارى نفسها •

وتلاحقنى هذه الفكرة الراسخة فى بيتى الذى كان يخيم عليه سكون القبور وفى الغرف المقفرة المليئة بالهواء الخانق •

ـ ٢٥ ـ

ما العمل ؟ هل أبقى فترة أخرى فى روما لانتظار انفجار فى مخى يؤدى بى الى الجنون ووسط تلك النيران وتحت وطأة هذا الغضب الضارى الشديد ؟ هل أقوم برحلة بحرية أو أسافر الى بعض الأقاليم الجبلية أو أذهب الى حيث أجد سبيلا الى النسيان بين من أخالطه من النـاس فى بعض المجتمعـات أو النوادى الصيفية ؟ او أوقظ فى نفسى شخصية ذلك الرجل الشهوانى العتيق

بحثا عن امرأة من طراز معشوقتي القديمة « تيريزا رافو » أو اية عشيقة أخرى أيا كانت ؟

ترددت مرتين أو ثلاث مرات في تذكر تلك المرأة الشقراء ولو أنها كانت قد سقطت من عيني ولم يعد لها مكان في قلبي • كما لم يبق لها أثر في ذاكرتي منذ مدة طويلة •

كنت أقول في نفسي :

– ترى أين هي الآن ؟ هل لا تزال على صلة بصديقها « ايوجينيو ايجانو »؟ وما عسى يكون شعوري نحوها عندما أراها مرة ثانية ؟ كنت أقول ذلك على سبيل حب الاستطلاع ولا شيء غير ذلك • وأدركت أن رغبتي الوحيدة العميقة التي لم أستطع التغلب عليها هي العودة من حيث أتيت الى داري التي أجد فيها أشد صنوف العذاب والألم •

اتخذت كافة الاحتياطات اللازمة بمنتهى الحذر والعناية ، وقمت بزيارة للطبيب « فيبستي » وأبرقت الى الضيعة بموعد عودتي ثم سافرت • كان الضجر ونفاد الصبر ينهشان قلبي نهشا ، والقلق يستبد بي ويدفعني دفعا كما لو كنت ذاهبا لتلقي خبر جديد غير معتاد وبدت لي رحلتي كأنها لا آخر لها ولا نهاية • وأنا ممدد فوق الوسائد يكتم الحر أنفاسي ويختفي الغبار الذي يتسرب من بين نوافذ القطار • بينما ضجيجه الرتيب يصاحبه غناء حشرة الصرار الرتيب دون أن يهدىء أو يمحو ما أشعر به من الضيق • وكنت أفكر في الأحداث المقبلة وأتصور ما قد يسفر عنه الغد ، وأحاول أن أكشف مايخبئه هذا الظلام الكثيف • وكنت أقول في نفسي وأنا أفكر في ذلك الحنين : ان الأب أصيب بمرض عضال • ترى ماذا يكون حظ الابن ؟

– ٢٦ –

لم أجد أي خبر جديد في الضيعة ، وكانت غيبتي قصيرة الأجل ، واحتفى الجميع بمقدمي احتفاء كبيرا • وكانت أول نظرة ألقتها جوليانا تنبىء عن عظيم الشكر والامتنان الذي لا حد له • وقالت لي أمي وهي تبتسم :

ـ انك أحسنت صنعا باسراعك فى العودة · فان جوليانا لم تعرف طعم الراحة والهدوء مذ فارقتها · ونأمل ألا تسافر بعد اليوم ·

ثم أردفت وهى تشير الى بطن امرأتى الحبلى قائلة :

ـ ألا ترى أن هناك شيئا من التقدم ؟ وبهذه المناسبة ، هل تذكرت الشحارير ؟ ألم تذكر ؟ انك لا بد أن تكون قد نسيت ؟

وهكذا بدأ العذاب سريعا منذ اللحظات الأولى ، وما أن انفردت بجوليانا حتى قالت لى :

ـ اننى لم أكن أؤمل أن تعود الينا بمثل هذه السرعة · ما أعظم امتنانى لك ·

كانت امارات الخجل والذلة والانكسار بادية سواء فى حركاتها أو فى صوتها وبدا لى أيضا أن هناك تعارضا ظاهرا بين وجهها وبقية جسمها · وكنت أرى باستمرار على وجهها تعبيرا واضحا ينم عما كانت تشعر به باستمرار من الألم بسبب حملها المزعج المشين · ذلك الحمل الذى أرهق جسمها · ولم يكن هذا التعبير ليتخلى عنها لحظة واحدة ويبدو واضحا من خلال التأثرات العابرة التى لم تستطع رغم قوتها أن تمحو آثاره ·

كانت جوليانا بطيئة الحركة مبهورة العينين · مما يجعلنى أشعر بالرثاء لها والاشفاق عليها · وكان من شأن ذلك أن موجدتى عليها كشفت لى عن قسوة سخريتى منها · تلك السخرية التى كانت تظهر واضحة جلية فى بعض الأحيان ·

وسألتها قائلا :

ـ ماذا فعلت فى هذه الأيام ؟

ـ انتظرتك ، وماذا فعلت أنت ؟

ـ لا شىء · لقد تاقت نفسى الى العودة ·

وهنا سألتنى فى شىء من الخجل والذلة والانكسار قائلة :

ـ العودة · من أجلى ؟

ـ نعم من أجلك ·

أسبلت جفنيها وافترت شفتاها عن ابتسامة خفيفة أضاءت وجهها .

وهنا شعرت بأنني لم أكن محبوبا من أحد كما كنت في تلك الساعة · فقد قالت بعد فترة سكون وهي تنظر الى وعيناها مبللتان بالدموع :

ـ شكرا لك ·

كانت نبرات صوتها وما أبدته من عاطفة جياشة قد ذكراني بكلمة «شكرا» الأخرى التي تفوهت بها في صبيحة يوم بعيد من أيام نقاهتها في صبيحة يوم جريمتي الأولى ·

ـ ٢٧ ـ

على هذا النحو بدأت متاعبي في الضيعة من جديد واستمرت أحزاني دون أن يقع أي حادث يذكر بينما كانت الساعات تمر متثاقلة ويزيدها ثقلا صوت الصراصير التي كانت تغني فوق الخمائل بنغماتها الرتيبة · فأقول في نفسي:

« طوبى لمن أحسن عملا ! »

وكان يتردد على ذهني من آن لآخر ما كنت أشعر به من اضطراب وضعف وسخرية ووهم وضلال وأزمات متعارضة وتسامح وقسوة · وكنت كلما فكرت في ذلك الشيء الرمادي اللون الضعيف القوي الجبار أي ذلك الجنين كنت أقول في نفسي :

ـ من يدري ! ان الانسان هو قبل كل شيء وليد الوهم وليس هناك مايقف حائلا دون ذلك وقد أكون أنا ضحية هذا الوهم ومن يدري ؟

كنت أذوب من جراء ما كنت أشعر به من سخرية شديدة · وكنت أقول في نفسي : « من يدري · فربما يكون ابن « فيليبـــو اربوريو » كما يقولون يشبهني في هيئتي تمام الشبه · وعندئذ يكون الوهم جاءها من أقرب الطرق» وكنت افكر ثانية في رغبتي المؤسفة في الضحك · تلك الرغبة التي شعرت بها في احدى المرات عندما سمعتهم يقولون عن طفل (كنت أعرف أنه ابن سفاح)

أمام الزوجين الشرعيين ـ انه يشبه أباه كل الشبه ـ وكانت المشابهة حقا عجيبة بسبب ذلك القانون العجيب الذى يقول العلماء الفسيولوجيون انه وراثة التأثير ٠

ونتيجة لهذا القانون يحدث فى بعض الأحيان ألا يكون الابن مشابها لأبيه ولا لأمه وانما يشبه الرجل الذى كان له بأمه اتصال سابق على الحمل، وحدث أن تزوجت امرأة للمرة الثانية بعد انقضاء ثلاثة أعوام على وفاة زوجها الأول ووضعت أولادا فيهم جميعا ملامح الزوج المتوفى وليس فيهم أى شيء يشبه الزوج الذى أنجبهم ٠

« من الممكن اذن أن يحمل الطفل « رايموندو » شبهى ويبدو كأنه أحد سلالة « آل هيرميل » الحقيقيين » ٠ وكنت أفكر : « وقد يحدث أن أتلقى تهانى حارة وخاصة لأننى تركت فى الوليد طابع الأسرة المميز ٠

لكن ماذا يحدث اذا خاب ظن أمى وأخى ولم يصدق حدسهما ؟ ووضعت جوليانا ابنة ثالثة ؟

كان هذا الاحتمال يبعث الطمأنينة الى نفسى ويهدىء ثائرتى ويبدو لى اننى اذ ذاك أشعر بحقد أقل نحو المولودة الجديدة ، وقد يكون من الممكن أيضا أن أتحملها ٠ فانها بعد مضى فترة من الزمن لابد وأن تبتعد عن منزلى وتتخذ اسما آخر وتعيش وسط أسرة أخرى ٠

وكنت كلما اقترب وقت الوضع يزداد ضيقى وألمى وقد ضقت ذرعا وتعبت من رؤية تلك البطن الهائلة التى تنمو وتتضخم من غير حساب ، وقد مللت ما كنت أعانيه من اضطراب وحزن لا جدوى منهما بين المخاوف ذاتها والحيرة نفسها ٠ وأود أن تتلاحق الحوادث وأن تسفر فى النهاية عن أية كارثة ٠ فان أية كارثة مهما عظمت كانت أفضل من ذلك الألم الممض ٠

وقد حدث فى ذات يوم أن سأل أخى زوجتى جوليانا قائلا :

ـ كيف حالك ؟ كم من الزمن لا يزال باقيا ؟

فأجابته قائلة :

ـ لا يزال أمامى شهر كامل ٠

فقلت فى نفسى :

ـ اذا كانت قصة لحظة الضعف هى قصة حقيقية فانها لابد أن تعرف تاريخ يوم الحمل على وجه الدقة ٠

كنا فى شهر سبتمبر والصيف على وشك الانتهاء وقد اقترب فصل الخريف وهو أجمل أوقات السنة وهو الوقت الذى يبدو أنه يحمل فى طياته نوعا من النشوة الجوية التى تنفثها رائحة الأعناب الناضجة ٠ وسحر تلك الفترة يتغلغل فى نفسى رويدا رويدا ويهدىء أعصابى المتوترة ٠ وفى بعض الأحيان يجعلنى بحاجة ملحة الى الشعور بالحنان والتفريج عن نفسى ٠ وكانت ماريا وناتاليا تقضيان ساعات طويلة وتبقيان وحدهما الى جانبى فى غرفتى أو فى خارجها فى الخلاء ٠ ولم أكن قد أحببتهما من قبل حبا عميقا ورقيقا مثل هذا الحب الذى شعرت به ازاءهما فى هذا الوقت ٠ ويصل من عيونهما المليئة بفكرة جديدة الى أعماق نفسى شعاع من الأمن والطمأنينة ٠

ـ ٢٨ ـ

كنت ذاهبا فى ذات يوم الى الضيعة لرؤية جوليانا ٠ وذلك فى الساعات الأولى التى تلى منتصف النهار ٠ ولما لم أجدها فى غرفاتها ولم أجدها فى أى مكان آخر دخلت مسكن والدتى حيث كانت أبوابه مفتوحة ، ولم تكن تسمع أية أصوات أو أى ضجيج من خلالها ، وكانت ستائر النوافذ الخفيفة تخفق فى الهواء ، وتشاهد من خلال فتحات النوافذ تلك الخمائل الخضراء ٠ ونسمة جميلة تهب بين الجدران الناصعة البياض ٠

تقدمت نحو مخدع أمى فى حذر ٠ ولما كنت أتوقع أن تكون نائمة فقد كنت أسير على مهل حتى لا أزعجها وأزحت ستائر الباب وأطللت برأسى من فوق العتبة وسمعت بالفعل أنفاس شخص نائم ورأيت أمى راقدة فوق احدى الأرائك الى جانب النافذة ، ورأيت خلف ظهر أريكة أخرى شعر جوليانا فدخلت ٠

كانت كل منهما نائمة تجاه الأخرى ، وكانت تفصلهما عن بعضهما منضدة واطئة فوقها سلة مملوءة بعدة أوشحة صغيرة • وكانت أمى لا تزال تمسك بين أصابعها بأحد هذه الأوشحة التى كانت تلمع بين طياتها ابرة وقد غلبها النعاس بينما كانت تشتغل واضطرها النوم الى احناء رأسها فنامت وذقنها ملتصقة بصدرها ، وربما كانت فى هذه الساعة مستغرقة فى حلم من الأحلام قبل أن تكتمل الغرزة البيضاء ، وربما كانت تغزل فى الحلم غزلا أجمل من هذا الغزل وأثمن •

كانت جوليانا هى الأخرى نائمة ولكن رأسها كان مستندا الى ظهر الأريكة• ويداها موضوعتان على مسنديها • وكانت ملامحها تنم على أنها مستغرقة فى حلم من الأحلام اللذيذة • ولو أن فمها لا يزال محتفظا بحركة تنبى عن الحزن وتخيم عليه غمامة من الكآبة • ولا يرى من خلال شفتيها الا جزء قليل من أسنانها ولثتها الباهتة ، وتشاهد فى أعلى فمها امارات الألم الممض ، وجبينها ينضح بالعرق الذى كانت قطرة منه تسيل فوق صدغها ، أما يداها اللتان كانتا أكثر بياضا من ملابسها الحريرية البيضاء التى تلبسها فانه يبدو أنهما كانتا وحدهما تنمان بالوضع الذى كانتا فيه عما تشعر به من تعب شديد •

ولم يسترع انتباهى شىء من هذه المظاهر كلها أكثر من تلك البطن التى كانت تستوعب ذلك الجنين الذى استكمل خلقته • وبعد أن حولت نظرى عن هذه المناظر وعن جوليانا شعرت بحياة ذلك المخلوق المنعزل كما لو لم يكن هناك فى تلك اللحظة شىء سواه يعيش الى جانبى أو من حولى • ولم يكن هذا احساسا وهميا بل كان شعورا حقيقيا عميقا وفكرة شريرة أحدثت اضطرابا فى أعصابى كلها •

ثم أدرت نظراتى الى الجهة الأخرى فرأيت بين أصابع أمى ذلك الوشاح الذى كانت تلمع فيه الابرة ، ورأيت فى السلة كل تلك الأوشحة الخفيفة وتلك الخيوط الوردية والزرقاء التى كانت تتطاير عند هبوب النسيم • وهنا شعرت بانقباض شديد فى قلبى حتى اعتقدت بأننى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الموت • يالله ما كان أعظم ذلك الحنان الذى تنم عنه أصابع أمى الحاملة وهى تمسك بذلك الشىء الأبيض الرقيق الذى يجب أن يغطى رأس ذلك الابن الذى ليس ابنى •

بقيت فى مكانى بضع دقائق وكان ذلك المكان فى الحق هو محراب المنزل وأقدس مكان فيه • فقد كانت تتدلى فوق أحد جدرانه صورة أبى الذى يشبه فيديريكو كل الشبه ، وكانت توجد فوق الجدار الآخر صورة شقيقتى « كوستانزا » التى كانت تشبه « ماريا » الى حد ما وكانت للصورتين اللتين كانتا فى عليائهما واللتين كانتا تذكارا للأعزاء المفقودين عيون مغناطيسية نفاذة ثاقبة • وهناك بقايا وتذكارات أخرى للفقيدين العزيزين تضفيان شيئا من القداسة على هذا المكان • اذ فى ركن من أركان هذه الغرفة فوق قاعدة مربعة ناووس يضم آخر شكل لوجه ذلك الرجل الذى أحبته أمى حبا أقوى من الموت داخل صندوق كبير من البللور مغطى بغطاء أسود • ومع هذا فلم يكن فى هذه الغرفة شيء يبعث على الحزن والكآبة • فالهدوء والسكينة يسيطران على المكان ، وكان يبدو أنهما ينبعثان فى كافة أرجاء البيت كما تنبعث الحياة من القلب فى شيء كثير من الانسجام •

— ٢٩ —

هأنذا أذكر رحلتنا الى « فيلا ليللا » مع كل من « ماريا وناتاليا » والآنسة « اديت » فى صبيحة يوم كثير الغيوم • انها لذكرى ملبدة هى الأخرى بالغيوم • وفى الحق انها ذكرى غامضة مضطربة وكأنها حلم من الأحلام الفريدة الحلوة المتقطعة •

لم تعد بالبستان أعنابه ذات العناقيد الزرقاء • ولم تكن به أزهاره الرقيقة ولا رائحته العطرة التى تحكى فى انسجامها أنغام الموسيقى ، ولا ابتسامته الظاهرة ولا صيحات عصافيره الدورية ولا زقزقتها المرحة ، ولم يكن فيه ما يسر الخاطر سوى أصوات الطفلتين البريئتين ومرحهما •

كان الكثير من عصافير الدورية قد رحل • وكان البعض الآخر يأخذ فى الرحيل • وكنا قد حضرنا فى الوقت المناسب لتحية آخر سرب منها •

كانت كل عشوشها مهجورة ، خالية ، لا أثر فيها للحياة • كان بعضها متهدما وكان ينتشر فوق أطرافه بعض الريش الصغير يداعبه الهواء • وكان

السرب الأخير من هذه العصافير متجمعا على السطح على طول حافة السقيفة وكان لا يزال فى انتظار بعض العصافير المتخلفة ٠

كانت الطيور المهاجرة واقفة فى صف واحد على حافة القناة بعضها متجه الى البعض بمنقاره والبعض الآخر بظهره بحيث كانت تتقابل الذيول الصغيرة الزرقاء والصدور الصغيرة الناصعة البياض ٠ وبينما تنتظر على هذه الحالة كانت تلقى فى الهواء الهادىء بصيحاتها ونداءاتها المتواصلة المتلاحقة ٠ وكانت الرفيقات المتأخرات تصل على حين غرة الفينة بين الفينة ٠ وكانت ساعة الرحيل تقترب ٠ وهنا أخذت النداءات والصيحات تتوقف ٠ وكانت أشعة الشمس الخافتة تتساقط على البيت المغلق فوق العشوش المقفرة ، ولم يكن هناك ما هو أتعس من ذلك الريش الصغير المنعزل الملتصق هنا وهناك ببقايا العشوش والذى كان يرتعد كلما هب عليه النسيم ٠

ارتفع السرب فى الهواء كما لو كان قد رفعته الى الجو ريح صرصر عاتية وأخذت أجنحته تصفق فى الهواء ، وقد ظهر فى الجو شىء أشبه ما يكون بالعاصفة ٠

بقى لحظة أفقيا فوق المنزل ثم سرعان ما ابتعد دون أن يترك أى أثر ٠ واستمر متجمعا فى رحلته البعيدة ثم أخذ يبتعد رويدا رويدا حتى اختفى ولم يبق له أى أثر ٠

كانت « ماريا » و « ناتاليا » تقفان فوق أحد المقاعد وتتبعان بنظراتهما تلك الجموع الهاربة وكانتا تمدان سواعدهما وتصيحان قائلتين :

ــ الوداع ٠٠ الوداع ٠٠ أيتها العصافير الدورية الصغيرة ٠

اننى لا أزال أحتفظ فيما عدا ذلك بذكرى مبهجة غير واضحة كأنها حلم من الأحلام ٠

أرادت «ماريا» أن تدخل الى المنزل ، ففتحت لها الباب أنا بنفسى٠ وها هى ذى تسرع الى الأعلى وتتخطى درجات السلم الثلاث ٠ وكانت جوليانا تتبعنى

خفية دون أن أشعر بوجودها وكانت خفيفة الحركة كأنها طيف من الأطياف والتصقت بى وهمست فى أذنى قائلة :

ـ ادخل · ادخل ·

وكانت أثناء سيرها فى المدخل تطل على غرفة نومها وأخذت تهمس فى أذنى دون أن تبتعد عن عنقى وهى تستدير لكى ترتمى فى أحضانى ولكى تلتقى بفمى قائلة :

ـ انني الآن لك ورهن اشارتك وطوع أمرك ·

كان الدهليز صامتا وكان درج السلم ساكنا وكان الهدوء يخيم على البيت بأجمعه · وهناك سمعت صوتا حادا بعيدا كان أشبه ما يكون بذلك الصوت الذى ينبعث من بعض القواقع الغائرة ·

ولكن هذا الصمت سرعان ما تحول الى صمت أشبه ما يكون بصمت القبور · وفى هذا المكان دفنت سعادتى التى أصبحت أثرا بعد عين ·

كانت ناتاليا وماريا تهرجان دون هوادة ، ولم تنقطعا قط عن الاستفسار حتى كأنهما كانتا تريدان معرفة كل شىء ·

كانتا تذهبان لفتح الصناديق والدواليب وكانت الآنسة أديت تسير فى أثرهما لكى توقفهما عند حدودهما ·

وهنا صاحت ماريا وهى تهرول نحوى قائلة :

ـ انظروا ·· انظروا ·· ماذا وجدت ··

كانت قد وجدت فى أسفل أحد الصناديق باقة من زهر « اللاوندا » وقفازا كان هو قفاز جوليانا وكانت هناك بعض بقع سوداء على أطراف أصابعه · كما كانت هناك كتابة بداخله عند المعصم لا تزال مقروءة هذا نصها :

« غابة التوت فى ٢٧ أغسطس ١٨٨٠ » ·

وقد تبادر الى ذهنى بوضوح فى لمح البصر حادث التوت ، وهو حدث من أسعد أحداث سعادتنا الأولى ، وجانب من جوانب غرامنا وحبنا ·

سألتنى ماريا قائلة :

ـ أليس هذا قفاز أمى ؟ أعطنيه ، أعطنى اياه · أريد أن أحمله انا الى أمى ·

لا أزال أحتفظ فيما عدا هذا بذكرى غامضة كأنها حلم من الأحلام .

حدثني « كالستو » الحارس العجوز عن أشياء كثيرة ، ولكنى كنت أكاد لا أفهم شيئا مما قال . وكثيرا ما كان يكرر بعض التمنيات والدعوات وكان يتمنى أن يرزقنى الله بطفل ذكر وبمولود جميل ويدعو الله أن يبارك فيه .

وعندما صرنا خارج الباب أغلق « كاليستو » المنزل وقال لى وهو يهز رأسه الأبيض :

ــ وماذا نفعل بهذه العشوش المباركة ؟

فقلت له :

ــ لا تمسسها يا « كاليستو » .

كانت كل العشوش مهجورة خالية لا أثر للحياة فيها . وكانت اشعة الشمس الخافتة تسطع على المنزل المغلق . وعلى العشوش المقفرة . ولم يكن هناك ما هو أتعس من ذلك الريش الذابل المنعزل الذى كانت تداعبه الرياح وهو ملتصق بالطين الذى قدمت منه العشوش .

ــ ٣٠ ــ

كان موعد الولادة يقترب ، وكان قد انقضى النصف الأول من شهر أكتوبر وكنت قد أخطرت الدكتور فيبستى بذلك ، وكانت آلام الوضع الشديدة من الممكن أن تحدث بين يوم وآخر .

وكان قلقى يزداد من ساعة الى أخرى حتى وصل الى درجة لا تحتمل ، وكثيرا ما كانت تنتابنى نوبة من نوبات الجنون العاتية أشبه ما تكون بتلك النوبة التى ألمت بى فى ذات يوم وأنا واقف على شاطىء نهر « اسورو » فكنت أفر بعيدا عن الضيعة وأقضى ساعات طويلة فوق صهوة جوادى « أورلاندو » الذى كنت أستحثه على القفز من فوق الحواجز والحفر وأستحثه أيضا على الرمح فى بعض الطرقات الوعرة والمسالك الخطرة ، وكنت أعود أنا والحيوان المسكين نتصبب عرقا منهوكي القوى ولكن دون أن يلحق بنا أى أذى .

وصل الدكتور فيبستى • وعندئذ تنفس الصعداء جميع من بالضيعة ، وعادت اليهم طمأنينتهم وامتلأوا بالأمل • ولكن جوليانا وحدها كانت هى التى لم تنتعش ولم تدب فيها الحياة من جديد ، وقد لمحت فى عينيها أكثر من مرة غمامة تنبىء عن شعورها بالحزن والأسى ، وكان يشع منهما نور قاتم يدلل على تلك الفكرة الراسخة فى رأسها وعلى الفزع من هاجس مؤلم كئيب لا يفارق ذهنها •

بدأت آلام الوضع واستمرت يوما كاملا كانت تتخلله بعض فترات تهدأ فيها بعض الشيء وكانت هذه الآلام تشتد ساعة وتخف وطأتها ساعة أخرى ، وكانت تارة هينة محتملة وتارة أخرى عاتية مرهقة •

كانت جوليانا تقف على قدميها وهى تستند بيديها على احدى المناضد ومن خلفها دولاب كبير وتضغط على أسنانها لكى تحبس صراخها أو تجلس فوق أريكة وتبقى فوقها وهي تكاد تكون جامدة فى مكانها وقد وضعت وجهها بين كفيها وتطلق بين الفينة والفينة أنة شديدة أو تنتقل باستمرار من مكان الى آخر ، فتذهب من ركن من أركان الغرفة الى الركن الآخر ثم تتوقف فى هذا المكان أو ذلك لكى تضغط على أى شيء بأصابعها المتشنجة • وكان منظر تألمها يوجعني ويحز فى نفسى •

ولما كنت لا أستطيع الصمود فقد كنت أهرب من الغرفة وأبتعد عنها بضع دقائق ثم أعود بالرغم منى كأن هناك قوة مغناطيسية هائلة تجتذبنى اليها • وكنت أبقى الى جانبها لكى أنظر اليها وهى تتألم هذا الألم دون أن أجد السبيل الى مساعدتها ودون أن أستطيع أن أقول لها كلمة ترفه عنها أو تسليها •

كانت تقول لى :

ـ ما أفظع ما أعانيه ياتوليو : ما أفظع ما أعانيه ! اننى لم أتألم قط مثل هذا الألم فى حياتى أبدا ، أبدا •

كان ذلك عند حلول المساء ، وكانت أمى والآنسة « ايديت » والطبيب قد نزلوا الى غرفة الطعام ، وكنت قد بقيت أنا وجوليانا بمفردنا ولم يكن الخدم قد أوقدوا المصابيح بعد ، وكان ضوء الشفق البنفسجى اللون الذى يظهر عادة

فى شـهر أكتوبر يدخل الغرفة كما كانت الرياح تهز الزجـاج بين الفينة والفينة ٠

وهنا صاحت بى جوليانا وقد خرجت عن وعيها من شـدة الألم وهى تمد ذراعيها نحوى وتنظر الى بعينيها الزائغتين اللتين كان بياضهما ناصعا فى ذلك الظلام الذى يصبغ وجهها بلون أزرق قاتم قائلة :

ـ ساعدنى ياتوليو ! ساعدنى بالله عليك ٠

وكنت أقول لها ، وقد كدت افقد رشدى ولا أدرى ماذا أعمل وأنا أربت على شعورها المتهدلة فوق صدغها بحركة كنت أريد أن أودعها قوة خارقة :

ـ قولى لى أنت ! قولى لى أنت ! ماذا أستطيع أن افعله لكى أساعدك ؟ قولى لى أنت ! قولى لى أنت ! ماذا أصنع ؟

كفت جوليانا عن الشكوى والأنين منذ تلك اللحظة وأخذت تنظر الى وتصغى لمـا أقول كما لو كانت قد نسيت آلامها وكانت كالمشدوهة وربما كانت قد تأثرت تأثرا بالغا برنين صوتى وبما بدا على وجهى من علائم الحزن والألم وشرود الذهن وبارتجاف أصابعى عندما وضعتها فوق شعرها وبما بدا من الحنان فى تلك الحركة التى لا جدوى منها ٠

قالت لى وهى لا تفتأ تنظر الى وجهى كما لو كانت تريد ألا تفقد أى دليل على تأثرى :

ـ انك تحبنى ٠ أليس هذا صحيحا ؟ انك قد صفحت عن كل شىء وقع منى ٠

قالت هذا ثم انفجرت وقد انتفضت مرة أخرى قائلة :

يجب أن تحبنى ويجب أن تحبنى كثيرا فى هذه اللحظة لأننى فى الغد لن أكون فى قيد الحياة ، لأننى فى هذه الليلة سأموت ، وربما قضيت نحبى فى هذا المساء ، ولابد أن تندم لأنك لـم تحبنى ولـم تصفح عنى يقينا لابد أن تندم ٠

كان يبدو أنها متأكدة كل التأكد من أنها ستموت حتى أن الدم سرعان ما جمد فى عروقى من شدة الفزع ٠

ثم قالت لى :

ـ يجب أن تحبنى ، انظر • من الممكن ألا تكون قد صدقت ما قلته لك فى احدى الليالى • ومن الممكن ألا تصدقنى الآن ، ولكن لاشك انك سوف تصدقنى عندما أكون قد فارقت هذه الحياة • وعند ذاك سوف يتجلى لك الأمر وتعرف الحقيقة ، وتندم على أنك لم تحببنى بما فيه الكفاية وعلى أنك لم تصفح عنى •

وهنا خنقتها العبرات •

وقالت :

ـ أتعرف لماذا يسوءنى أن أموت ؟ لأننى أموت قبل أن تعرف مدى حبى الشديد لك •• ومقدار الحب الذى أكنه لك ، وخاصة بعد •• ويلاه ، ما أشد هذا العقاب ! هل كنت أستحق هذه النهاية ؟

ثم أخفت وجهها بين كفيها • ولكنها سرعان ما رفعته وحدقت فى وجهى وقد بدا على وجهها شحوب شديد • وكان يبدو أن فكرة أشد هولا ورعبا قد صعقتها •

بعد ذلك أخذت تتمتم قائلة :

ـ واذا أنا مت وتركت فى قيد الحياة ذلك ••

ـ اسكتى !

ـ انك تفهم أن •

ـ اسكتى يا جوليانا •

كنت أكثر ضعفا منها ، وكان الفزع قد استولى على وقلب كيانى رأسا على عقب ولم يترك لى القوة على التفوه بكلمة فيها شىء من الترفيه والعزاء أو على الاعتراض على كلماتها التى تتحدث فيها عن الموت بكلمة واحدة تشجع على الحياة • وكنت أنا أيضا على ثقة من هذه النهاية المريعة • فأخذت أنظر فى ضوء المساء الداكن الى وجه جوليانا التى كانت تنظر هى الأخرى الى وجهى ، وبدا لى أننى ألمح فى ذلك الوجه المسكين الذابل علامات الاحتضار وامارات التدهور السريع الذى لا يمكن ايقافه عند حد ، ولم تكن تستطيع التوقف عن

الولولة التى كانت تنساب من فمها دون عقل أو تفكير ثم تعلقت بذراعى وقالت :

ــ ساعدنى ياتوليو ساعدنى !

كانت تضغط على ذراعى بقوة وبقوة شديدة حتى اننى لم أكتف بأننى قد أردت أن أشعر بأظافرها تتغلغل فى لحمى وانا شديد الرغبة فى أن ينتابنى اضطراب جسمانى يجعلنى أشاركها اضطرابها ، وكانت لا تكف عن الأنين وهى تضغط بجبينها على كتفى وكانت تلك النغمة هى التى تجعل صوتينا ونحن فى غمرة آلامنا الجسدية لا يمكن تمييزهما عن بعضهما تلك النغمة التى تجعل الانسان الذى يتألم أشبه ما يكون بالحيوان الذى يتألم وهى ذلك الأنين الغريزى الذى يكون نتيجة أى ألم يصيب جسم الانسان أو الحيوان على حد سواء ٠

كانت بين الحين والآخر تجد فى صوتها القوة على أن تقول لى :

ــ ساعدنى ٠

وكانت بهذا توصل الى جسدى ما تشعر به من ألم ممض فى جسدها ، وكنت أحس ببطنها التى كانت تحتوى على ذلك الكائن الصغير الشرير الذى كان يهدد حياة أمه باستمرار ويعذبها بلا هوادة ٠

وعندئذ انبعثت من أعماق نفسى موجة من موجات الحقد العارم ، وبدا لى انه ينصب كله فى يدى ويحفزنى الى أن أسدد الى بطنها ضربة قاتلة ٠ ولكن تلك الضربة فى غير موعدها وكانت صورة الجريمة بعد أن يتم ارتكابها تراود أفكارى ٠ وكنت أقول فى نفسى :

ــ انك لن تعيش أيها الجنين ٠

كانت جوليانا تقول :

ــ بالله عليك ياتوليو اخنقنى ٠٠ دعنى أمت وأفارق الحياة ٠٠ اننى لا استطيع ٠٠ لا أستطيع ٠٠ اتفهم ذلك ؟ لا أستطيع الصمود أكثر من ذلك، ولا اريد أن أتالم أكثر من هذا الألم ٠

كانت تصيح وقد فقدت رشدها وتنظر من حولها بعينين كأعين المجانين كما لو كانت تبحث عن أى شىء أو عن أى انسان يقدم لها المساعدة التى لم أستطع أن أقدمها اليها ٠

ـ اهدئى ياجوليانا وهدئى من روعك ٠٠ ربما تكون قد حانت لحظة الوضع ٠٠ تشجعى ٠ اجلسى هنا تشجعى ياحبيبتى ، اصبرى قليلا ٠٠ اننى هنا معك لا تخافى شيئا ٠

ثم هرعت لكى أدق الجرس وصحت قائلا :

ـ أين الطبيب ؟ ليأت الطبيب حالا ٠

كانت جوليانا قد كفت عن الأنين ، وكان يبدو أنها قد صارت فجأة سليمة لا تعانى شيئا من الألم أو أنها على الأقل لا تحس بسوء حالتها ، أو كأن فكرة جديدة قد استولت عليها ٠

وكان من الواضح أن هناك شيئا يشغل بالها ٠ فقد كانت مستغرقة فى التفكير واستطعت بالكاد أن أرى ذلك التغيير السريع الذى بدا عليها ٠

وقالت لى :

ـ اسمع ياتوليو ٠ اذا أصابنى الهذيان ٠٠

ـ ماذا تقولين ؟

ـ اذا جاءنى الهذيان وأنا تحت وطأة الحمى ، واذا مت وأنا أهذى ٠٠

ـ ماذا تقولين ؟

كانت نبراتها تدل على شىء كثير من الفزع والرعب ٠ وكان ترديدها للكلام مؤلما الى حد كبير مما جعلنى ارتعد جزعا وفرقا كما لو كان الرعب قد استبد بى ايما استبداد اذ لم أكن أفهم الى أى حد تريد أن تصل ٠

ـ ماذا تقولين ؟

ـ ان الجميع سوف يكونون هنا من حولى ٠٠ واذا أنا أثناء هذيانى قد قلت شيئا أو أمطت اللثام عن أى شىء ٠٠ أتفهم ما أقول ؟ أتفهم ما أقول ؟

فان كلمة واحدة فيها ما يكفى • ومن المعلوم أن الانسان أثناء هذيانه لا يعى ما يقول • وفى هذه الحالة يجب عليك ان ••

حضرت أمى والطبيب والمولدة فى تلك اللحظة •

وهنا صاحت جوليانا قائلة :

ـ بالله عليك ياسيدى الطبيب اننى كنت أعتقد اننى سأموت •

فرد عليها الطبيب بصوته الحنون قائلا :

ـ تشجعى • تشجعى ! ولا تخافى شيئا فان كل شىء سوف يتم على ما يرام •

وبعد أن قال ذلك نظر الى ثم توجه اليها بنظراته وهو يبتسم وقال لها :

ـ اننى أعتقد أن زوجك أسوأ حالا منك •

ثم أشار الى الباب وقال :

ـ هيا هيا لا ينبغى أن تبقى هنا •

وعندئذ التقت عيناى بعينى أمى القلقتين المذعورتين الحنونتين • فقالت لى:

ـ نعم ياتوليو من الخير أن تذهب • ان فيديريكو فى انتظارك •

نظرت الى جوليانا التى كانت تحدق فى وجهى دون أن تهتم بمن كانوا حاضرين بعينيها اللامعتين المملوءتين ببريق لم يكن لى عهد به من قبل •

كان فى هذه النظرة ما ينم على كل ما ينتوى عليه الانسان اليائس •

وعندئذ قلت فى حزم وتصميم وأنا مستمر فى النظر الى جوليانا :

ـ لن أتحرك من الغرفة المجاورة •

وبينما أنا خارج من الغرفة لمحت المولدة التى كانت تمهد الوسائد فوق سرير الألم والشقاء والذى أعد لذلك الوليد • فشعرت برعدة شديدة في جسدي وأحسست كأنني على وشك الموت •

- ٣١ -

كانت الساعة ما بين الرابعة والخامسة صباحا ، وآلام الوضع استمرت حتى تلك الساعة المبكرة ، ولم تهجع وطأتها الا فى بعض فترات قليلة • وغلبنى النعاس حوالى الساعة الثالثة صباحا على حين غرة ، فنمت حيث كنت جالسا فوق الأريكة فى الغرفة المجاورة لغرفة جوليانا •

أيقظتنى « كريستينا » وقالت لى :

ـ ان جوليانا ترغب فى رؤيتك •

فانتفضت واقفا على قدمى وأنا مضطرب لا يزال أثر النعاس باديا على عينى وتساءلت قائلا :

ـ هل نمت ؟ ترى ماذا حدث ؟ هل جوليانا ••

ـ لا تخف وطب نفسا فلم يحدث شىء • ان الآلام خفت حدتها •• تعال معى لترى بنفسك •

دخلت وسرعان ما رأيت جوليانا مستلقية فوق الوسائد يحكى شحوب وجهها لون قميصها الأبيض وهى أقرب الى الموت منها الى الحياة • وسرعان ما التقت عيناى بعينيها لأنهما كانتا متجهتين ناحية الباب فى انتظارى ، وكانتا تبدوان واسعتين أكثر من ذى قبل غائرتين أكثر من أى وقت مضى تحيط بهما حلقة كبيرة من الظلال •

وعندما رأتنى قالت لى بصوت خافت :

ـ انظر • اننى ما زلت على هذا الحال •

وكانت لا تكف عن النظر الى ، وكانت عيناها تقولان لى كما كانت تقول عينا الأميرة « ليزا » :

ـ كنت أنتظر أن تقدم الى يد العون والمساعدة ، ولكنك أنت أيضا لم تساعدنى •

سألت أمى التى كانت واقفة هنـاك تبـدو عليها امارات الكآبة والحزن قائلا :

ـ أين الطبيب ؟

فأشارت الى أحد الأبواب واتجهت صوبه ودخلت حيث رأيت الطبيب الى جانب احدى المناضد التى كان فوقها مختلف الأدوية ومظروف أسود وميزان للحرارة وبعض الأربطة والأقراص والزجاجات والأنابيب ذات الشكل الخاص، وكان الطبـيب يمسك بين يديه أنبـوبة من المطاط • ويعطى تعليماته الى « كريستينا » فى صوت خافت •

فسألته فى شيء من الجفاء قائلا :

ـ ماذا فى الأمر ؟

ـ ليس هناك ما يزعج فى الوقت الحاضر •

ـ ولم اذن كل هذه الاستعدادات ؟

ـ انها مجرد احتياطات •

ـ ولكن متى يستمر هذا العذاب ؟

ـ اننا فى النهاية •

ـ أرجو أن تحدثنى بصراحة • هل تتوقع حدوث خطب جسيم ؟ حدثنى فى صراحة بالله عليك •

ـ ليس هناك الآن ما ينبيء عن وجود خطر بالغ • الا أننى أخشى حدوث نزيف دموى • ولذا فاننى أتخذ احتياطاتى وسوف أوقفه اذا ما حدث • كن واثقا وهدىء من روعك • اننى لاحظت أن وجودك يسبب اضطرابا شـديدا لجوليانا وأنا فى هذه الفترة الأخيرة والقصيرة فى حاجة الى الحفاظ على ما تبقى لديها من قوة • ولذلك فانه من الضرورى أن تبتعد عنها ، أعطنى وعدا بأنك سوف تصدع بأمرى • وانك لن تتدخل الا حينما أستدعيك •

واننا لكذلك واذا بصرخة مدوية تتناهى الى مسامعنا •

وهنا قال الطبيب :

ـ لقد بدأت الآلام من جديد وهان الأمر • اهدأ اذن •

ثم اتجه نحو الباب وسرت فى أثره واقتربنا نحن الاثنان من سرير جوليانا التى أمسكت بذراعى بقوة وضغطت عليه بشدة فكان كأنه واقع بين فكى منجلة • ترى هل كانت لا تزال تحتفظ بتلك القوة ؟

وهنا قلت لها :

ـ تشجعى ؟ تشجعى • لقد هان الأمر • وأن كل شىء سوف يسير على ما يرام أليس كذلك ياسيدى الطبيب ؟

ـ نعم نعم ، ليس هناك وقت لنضيعه • اترك جوليانا وتفضل من هنا •

نظرت جوليانا الى الطبيب والى أنا بعينين مشدوهتين ، ثم تركت ذراعى •

قلت لها مرة ثانية والعبرات تخنقنى :

ـ تشجعى !

ثم طبعت قبلة على جبينها الذى كان يتصبب عرقا ، واستدرت لأنصرف •

وهنا صاحت من خلفى صيحة تمزق نياط القلوب وكأنها تقول من خلالها :

ـ انى لن أراك بعد الآن • آه ياتوليو !

فأبديت لها حركة تعنى اننى سأعود اليها •

ولكن الطبيب قال بلهجة آمرة حاسمة :

ـ هيا هيا واخرج من الغرفة •

أردت اطاعة أوامر الطبيب • فخرجت وأغلق أحدهم الباب من دونى ، وبقيت بضع لحظات واقفا فى مكانى أسترق السمع ، وكانت ركبتاى ترتجفان •

كان صوت دقات قلبى يفوق صوت أية جلبة أخرى •

ذهبت لألقى بنفسى فوق الأريكة ووضعت منديلى بين أسنانى ودفنت وجهى فى احدى الوسائد •

كنت أعانى أنا ايضا ألاما مبرحة فى جسدى ، وربما كانت أشبه شىء بتلك الآلام الناجمة عن عملية بتر أجريت فى بطء شديد وبطريقة سيئة ٠

كانت صرخات جوليانا أثناء الوضع تتناهى الى مسمعى من خلال البـاب وعند كل صرخة من تلك الصرخات كنت أقول فى نفسى :

ـ ان هذه هى الصرخة الأخيرة ٠

وكنت أسمع خلال الفترات التى تكف فيها جوليانا عن الصراخ غمغمة الأصوات النسائية ٠ وربما كانت تلك هى كلمات التشجيع والتسلية والنصائح التى كانت أمى والمولدة تسديانها الى جوليانا ٠

سمعت بعد ذلك صرخة أكثر قوة وضراوة من سابقاتها ٠ وعندئذ قلت فى نفسى :

ـ ان هذه هى الصرخة الأخيرة ما فى ذلك شك ٠

ومن ثم انتفضت واقفا على قدمى وأنا أرتعد جزعا وفرقا ٠

لم يكن فى طوقى أن أخطو خطوة واحدة الى الأمام ٠

انقضت بضع دقائق ومضت فترة من الوقت لم أحسب لها حسابا ومرت فى ذهنى أفكار وتصورات عديدة كأنها ومضات البرق الخاطف ٠

فكنت أتساءل قائلا :

ـ هل جاء الوليد ؟ وهل ماتت جوليانا ؟ أم مات كلاهما ؟ هل ماتت الأم والابن معا ؟ كلا كلا ٠٠ ليس ثمة شك فى أنها قضت نحبها أما هو فحى يرزق ٠ لكن لماذا لا أسمع نشيج الطفل ؟ ان النزيف والدم ٠٠

تصورت أمامى بركة من الدماء وجوليانا فى وسطها فاغرة فاها ٠ بيد اننى تغلبت على ذلك الرعب الذى جمدنى فى مكانى واندفعت نحو الباب ففتحته ودخلت ، ولكننى سرعان ما سمعت صـوت الطبيب الجراح يصـيح بى فى خشونة قائلا :

ـ لا تقترب منها ولا تهزها ٠ هل تريد قتلها ؟

كانت جوليانا تبدو كالميتة أكثر شحوبا من وسادتها البيضاء جامدة لاتبدى حراكا ، وكانت أمى منحنية فوقها وهى تمسك فى يدها باحدى الكمادات وكانت هناك بقع كبيرة من الدماء تلطخ ملاءة السرير وتصبغ أرضية الغرفة باللون الأحمر · أما الجراح فكان يجهز محلولا بمنتهى السرعة والدقة والهدوء ، ولم تكن يداه ترتعشان ولو أنه كان مقطب الجبين ، وفى ركن من أركان الغرفة كان يتصاعد البخار من حوض به ماء مغلى ، وكانت « كريستينا » تصب قدرا آخر من الماء بأحد الأوعية فى حوض آخر كان به ميزان الحرارة ، وهناك امرأة أخرى تحمل رباطا من القطن المندوف فى الغرفة المجاورة ، والهواء معبأ برائحة النشادر والخل ·

بقيت أدق تفاصيل هـــذا المنظر الذى رأيته من خلال نظرة واحدة فقط منطبعة فى نفسى بحيث لا يمكن أن تمحى بحال من الأحوال ·

قال الطبيب وهو يتجه ناحية « كريستينا » :

ـ خذى حذرك عندما تصل الحرارة الى خمسين درجة مئوية ·

أما أنا فكنت أبحث من حولى ، اذ لم أكن أسمع نشيج الطفل مما يدل على أنه كان هناك « شخص » غائب ·

وهنا سألت والرعدة آخذة منى كل مأخذ قائلا :

ـ أين الطفل ؟

فرد على الطبيب بقوله :

ـ انه هناك فى الغرفة الأخرى ، اذهب لرؤيته وابق هناك ·

ثم أشرت له الى جوليانا بحركة يائسة ·

فقال لى :

ـ لا تخش شيئا ·

ثم اتجه الى كريستينا وقال لها :

ـ احضرى الماء يا « كريستينا » ٠

دلفت الى الحجرة الأخرى حيث تناهى الى سمعى نشيج خافت ضعيف كنت لا أكاد أسمعه ٠ ثم رأيت فوق طبقة من طبقات القطن المندوف جسما صغيرا ضاربا الى الحمرة الباهتة ، تنتشر فوق أجزاء من جسمه بقع زرقاء بين يدى المولدة النحيلتين اللتين كانتا تربتان على ظهر الطفل وعلى أصابع قدميه ٠ وما ان رأتنى حتى قالت لى وهى لا تزال مستمرة فى ربتها :

ـ تفضل تفضل ياسيدى وتعال لترى ٠ تفضل لتشاهد جمال هذا الوليد الذكر ، انه لم يكن يتنفس عند خروجه من بطن أمه ٠ ولكن ليس هناك خطر يخشى عليه فى الوقت الحاضر ٠ انظر ٠٠ يا له من ولد جميل ؟

قالت هذا ثم أدارت ثانية الطفل وأرقدته على ظهره وكشفت لى عن عضو التناسل فيه وقالت لى :

ـ انظر ٠

وأمسكت بالطفل وأخذت تهزه بين يديها فى الهواء ٠ وهنا اشتد صوت نشيجه وصار أقوى من ذى قبل ٠

بيد ان عينى كانتا تقدحان شررا عجيبا كان يحول بينى وبين رؤية الأشياء واضحة جلية ، وكانت تشمل كيانى كله موجة من الغباوة والبله لم أعهدها من قبل ، فكانت تمنعنى من أن أدرك حقيقة كل ما يقع من أحداث ملموسة عنيفة تمام ادراك ٠

قالت لى المولدة مرة أخرى وهى ترقد الطفل الذى كان ينشج فوق طبقة القطن من جديد :

ـ انظر ياسيدى ٠

كان الطفل فى تلك اللحظة ينشج نشيجا قويا ، ويتنفس تنفسا عاليا ويدب فيه دبيب الحياة ٠

انحنيت فوق ذلك الجسد الصغير المرتعش الذى تفوح من رائحته الأدوية

المطهرة • انحنيت لأتطلع اليه وأمعن النظر فيه وأتعرف على وجه المشابهة المقوتة بينى وبينه •

غير أن وجهه الصغير المتورم الذى كان لا يزال داكن اللون الى حد ما ذا العينين الكرويتين البارزتين والفم المنتفخ والذقن المعوجة المشوهة لم يكن ليدل على أنه وجه انسان آدمى ولم يكن يوحى الى بشىء سوى بالرعدة والقشعريرة•

قلت لكريستينا وأنا أتلعثم :

ـ انه لم يكن يتنفس عندما خرج من بطن أمه • أليس كذلك ؟

ـ لا ياسيدى انه كان مصابا بشىء من داء السكتة •

ـ كيف حدث ذلك ؟

ـ نزل من بطن أمه و « الحبل السرى » يحيط بعنقه احاطة السوار بالمعصم ويخنقه خنقا • ثم ان صمام الدم الفاسد ربما كان ••

كانت تتحدث وهى تولى كل عنايتها بالطفل • أما أنا فكنت أنظر الى تلك اليدين النحيلتين اللتين أنقذتاه من خطر محدق وكانتا فى تلك اللحظة تدهنان فى منتهى الدقة والرقة سرة الطفل بقطعة من القماش المبللة بالزيت •

ثم نادت على « جوليا » وقالت لها :

ـ اعطنى الرباط يا « جوليا » •

وبعد أن لفت بطن الطفل بالأربطة أردفت تقول :

ـ انه الآن فى مأمن من الأخطار ، ليباركه الله •

ثم أخذت بين يديها المحنكتين رأس الطفل البض الصغير كما لو كانت تعمل على اعطاء ذلك الدماغ الطرى الشكل الذى تريد •

كان نشيج الطفل تتزايد قوته باستمرار ، ينشج فى شىء من الغضب وهو يهتز بجسمه كله • وتبدو عليه أعراض داء السكتة بوضوح وتعلو وجهه تلك الزرقة الشديدة •

وهكذا كان يتخذ منظر شىء يبعث على التقزز والاشمئزاز •

كان نشيجه تتزايد قوته باستمرار كما لو كان يريد أن يقدم الى دليلا على حيويته وقوته وجبروته • أو يريد أن يستفزنى ويثير موجدتى عليه ويجعلنى أستشيط غضبا وحنقا •

انه ينعم بالحياة •• ينعم بالحياة ، ولكن كيف حال الأم ؟

دلفت فجأة الى الحجرة الأخرى كالمجنون •

وهنا سمعت من ينادينى قائلا :

— ياتوليو •

وكان ذلك صوت جوليانا الضعيف الذى كان أشبه ما يكون بصوت امرأة تعانى سكرات الموت •

— ٣٢ —

كان تيار الماء المغلى المستمر قد أوقف الدم الذى كان ينزف من جوليانا بعد فترة تقرب من عشر دقائق ، وكانت المرأة النفساء تستريح فى سريرها داخل مخدعها وكان ذلك اليوم من الأيام الجميلة المشرقة •

كنت جالسا الى جانب سريرها وكنت أتطلع اليها فى صمت وألم شديد وربما لم تكن نائمة • ولكن ضعفها المتناهى كان يشل كل حركة من حركاتها ويمحو من وجهها كل أثر من آثار الحياة ، وكان يجعلها تبدو فى صورة أقرب الى الموت منها الى الحياة •

عندما كنت أنظر الى شحوبها المقبض الشديد كنت لا أزال أرى تلك البقع الدموية وكل ذلك الدم المسكين المراق الذى كان قد لطخ ملاءات سريرها وتغلغل الى حشواته وصبغ يدى الجراح • وكنت أقول فى نفسى :

— ترى من ذا الذى يستطيع أن يعيد اليها كل ذلك الدم ؟

قمت بحركة غريزية لكى ألمسها ، اذ كان يبدو لى أنها لابد أن يكون جسمها

قد صار باردا برود الثلج • ولكن كان يمنعنى عن ذلك خوفى من ازعاجها • وقد حدث أكثر من مرة أثناء تمعنى فى وجهها أن ساورنى خوف مفاجىء •

هممت بالنهوض من مكانى لكى أذهب لاستدعاء الطبيب • وبينما كنت أفكر فى ذلك كنت أقلب بين أصابعى قطعة من القطن وأنشفها بمنتهى الدقة وأقربها بين الفينة والفينة بمنتهى الحيطة والحذر من شفتى جوليانا بسبب ما كنت أشعر به من القلق الشديد عليها • وكنت أقيس قوة تنفسها من خلال خفقان خيوط قطعة القطن الرقيقة •

كانت راقدة على ظهرها ورأسها فوق احدى الوسائد الواطئة وشعرها الكستنائى المتهدل يحيط بوجهها ويجعل ملامحها تبدو أكثر وضوحا ودقة •

كانت ترتدى قميصا مقفولا من فوق عنقها ويغطى معصميها ويداها مبسوطتان فوق الملاءة وهما مقلوبتان يبدو عليهما شحوب كبير ولم يكن يميزها من الملاءة البيضاء الا عروقهما الزرقاء • وكان ينبعث من تلك المخلوقة المسكينة التى نزف دمها ورقدت جامدة لا تتحرك اشراق الصلاح والطيبة الخارقة • وكانت هذه الطيبة تتغلغل فى كل جزء من أجزاء جسدى وتغمر فؤادى • وكان يبدو لى أنها تكرر عبارتها العتيدة :

« ماذا فعلت بى ياتوليو ؟ »

كان فمها الذابل ذو الجوانب المرتخية والذى ينبىء عما تشعر به من تعب شديد مميت وما تحملت من عذاب شديد وما أنهك قواها من صراخ مستمر — يبدو دائما وكأنه يكرر عبارة :

« ماذا فعلت بى ياتوليو ؟ »

كنت أتطلع الى نحول تلك الانسانة التى كانت تكاد لا ترى وهى نائمة فوق سريرها •

ولما كانت الولادة قد تمت وكانت قد تخلصت أخيرا من ذلك الحمل الثقيل الذى كانت تنوء تحته ، وكان الوليد قد انفصل عن جسد والدته الى الأبد ، فان تلك الحركات الاشمئزازية الغريزية وموجات الحقد العابرة لم تعد تكدر

صفو حنانى واشفاقى عليها ، ولم أعد أحس نحوها الا بشعور دافق من الحنان والاشفاق العظيم ، كما لو كانت أكثر المخلوقات البشرية صلاحا وأشدهن تعاسة وأصبحت نفسى كلها وقفا على تلك الشفاه الذابلة التى كان من الممكن أن تلفظ بين الفينة والفينة آخر أنفاسـها وكنت أقول فى نفسى فى منتهى الاخلاص عندما كنت أنظر الى ذلك الشحوب البادى على وجهها :

ـ ما كان أسعدنى لو استطعت أن أصب نصف دمى فى عروقها !

كنت أقول فى نفسى عندما كنت أسمع تكتكة ساعة دقاقة صغيرة موضوعة فوق منضدة الزينة وأشعر بسرعة انقضاء الزمن من خلال هـذه الدقات الرتيبة :

ـ ولكنه (أى الجنين) لا يزال فى قيد الحياة ٠

وكان مرور الزمن يسبب لى قلقا لا عهد لى بمثله ولا أعرف كنهه يختلف كل الاختلاف عن ذلك القلق الذى كنت أشعر به فى المرات السالفة ٠

كنت أقول فى نفسى :

ـ انه يعيش وأن حياته عنيدة ٠

انه لم يكن يتنفس عند ولادته وكانت لا تزال على جسده عندما رأيته كل علامات الاختناق ٠ واذا لم تكن المولدة قد أولته كل عنايتها وعملت على انقاذه لما كان الآن سوى جثة صغيرة هامدة زرقاء اللون وشىء تافه لا ضرر منه ٠ ربما كان مصيره الاهمال والنسيان ، وما كان يجب على أن أهتم بشىء آخر عنـد شفاء جوليانا وأن أبقى فى مكانى لكى أكون أكثر الممرضين مواظبة على خدمتها وأشدهم عطفا عليها ، ولسوف يكون فى وسعى اذ ذاك أن أنفث فيها الحياة وآتى بالمعجزة بفضل ما أشعر لها به من حب ٠

انها لن تستطيع الا أن تبرأ من مرضـها ، ولسوف يكون فى مقـدورها النهوض من فراشها رويدا رويدا حتى تعود الى الحياة كأنها قد ولدت من جديد يجرى فى عروقها دم جديد ٠ ولسوف تبدو كأنها مخلوقة أخرى سليمة من كل دنس ٠ ولسوف يشعر كل منا أنه تطهر من خطاياه وأنه جدير بصاحبه

بعد فترة تفكير واستغفار طويلة الأمد شديدة الألم . ولسوف يعمل المرض والنقاهة على ابعاد شبح تلك الذكرى الأليمة ابعادا تاما . وانى أود من صميم قلبى لو استطعت أن أمحو من نفسها أدنى ظل من ظلال تلك الذكرى ، أريد أن أجعلها فى غمرة الحب تنسى كل شىء نسيانا تاما ولسوف يبدو كل حب بشرى آخر تافها ازاء حبنا بعد هذه المحنة الكبيرة وتلك التجربة القاسية .

كنت أكاد أذوب فى صورة ذلك المستقبل المرتقب التى كانت لا تفارق خيالى . بينما كان وجه جوليانا وهى تحدق فى وجهى لا يغيب عن نظرى لحظة واحدة ، ويتخذ صورة روحانية فيها تعبير عن الطيبة التى لا حد لها ، كما لو كانت انفصلت عن هذا العالم وأصبحت ملاكا من الملائكة ، وكما لو كانت بذلك السيل من الدماء التى نزفت منها قد طردت ما كان لا يزال فى جوهرها من شر ودنس واستحالت الى مجرد جوهر روحانى ازاء الموت . وكان ذلك السؤال الصامت الذى كان يبـدو لى أنها توجهه الى وهو : ماذا فعلت بى ؟ " لم يعد يؤلمنى ويؤثر فى نفسى أى تأثير ولم يعد يبدو لى سؤالا مرعبا .

كنت أرد على هذا السؤال بقولى :

ـ ألم تصيرى أنت بسببى شقيقة الألم أليفة الأحزان ؟ ألم ترتفع روحك عن طريق الألم الى مرتبة مذهلة من مراتب السمو استطعت أن تنظرى منها الى العالم وهو يسطع بنور وضـاح لا عهد له بمثله ؟ وألم أكشف لك عن الحقيقة الكبرى ؟ وما قيمة أخطائنا وسقطاتنا وذنوبنا اذا استطعنا أن نزيح عن عيوننا بعض الغشاوات واذا استطعنا أن نطرد ما فى جوهـر نفوسـنا التعسة من خسة ودناءة ؟ سوف يمنحنا الله البهجة العظمى التى يشتهيها كل من اصطفاه من عباده وهى البعث فى هذه الحياة الدنيا من جديد .

كنت أتحرق شوقا ، وكان السكون يخيم على مخدع جوليانا . وكان الظلام غريبا وكان وجهها يبدو لى وكأن الحياة قد دبت فيه من جديد ، كما كان يبدو لى أن تأملى لها كان رهيبا وذلك لأنى كنت أشعر فى الجو بأن شبح المـوت قد صار أثرا بعد عين .

كانت نفسى كلها متعلقة بشفتيها الباهتتين اللتين كان من الممكن أن تلفظا النفس الأخـير بين لحظـة وأخرى وقد انكمشت هاتان الشفتان وأطلقتا آنة

موجعة . أحدث انكماشها تغييرا كبيرا فى ملامح وجهها استمر بعض الوقت ، وكانت تجاعيد جبينها قد ظهرت بوضوح وكان جلد جفنيها يرتجف ارتجافا خفيفا وبدا شيء من البياض بين أهدابها .

انحنيت فوق المرأة المتألمة ففتحت عينيها ثم لم تلبث أن أغلقتهما .

كان يبدو أنها لم ترنى . كانت عيناها قد خلتا من الرؤية وكأنهما قد أصيبتا بالعمى .

ترى هل كانت قد أصيبت فجأة بهذا النوع من مرض فقر الدم الذى يذهب بالبصر ؟

ترى هل صارت عمياء على حين غرة ؟

لاحظت أن أناسا قد دخلوا الغرفة . ترى هل كان الطبيب هو الذى دخل ؟

خرجت من المخدع ورأيت بالفعل الطبيب وأمى والمولدة الذين دخلوا على مهل وكريستينا فى أثرهم .

وهنا سأل الطبيب بصوت خافت قائلا :

ـ هل هى نائمة ؟

ـ انها تشكو ومن يدرى الى متى تتألم ؟

ـ هل تكلمت ؟

ـ كلا .

ـ لا يجب اثارتها بأى حال من الأحوال . تذكر ذلك جيدا .

ـ لقد فتحت عينيها منذ قليل مدى لحظة واحدة ، وكان يبدو أنها لاتبصر .

دخل الطبيب الى المخدع وهو يشير لنا بأن نبقي في مكاننا .

وهنا قالت لى أمي :

ـ تعال . انه من الواجب أن يغيروا لها الآن على الجرح . تعال بعيدا هيا بنا لنرى الطفل « موندينو » (١) . ان فيديريكو هناك .

ثم أخذتني من يدى . فسرت معها واردفت قائلة :

ـ لقد نام وهو يغط فى نومه ولسوف تحضر المرضع بعد ظهر اليوم .

ورغما من حزنها وقلقها لحالة جوليانا فان عينيها كانتا تبتسمان عندما كانت تتحدث عن الطفل ، وكان وجهها كله يشع منه الحنان .

ولقد وقع اختيارنا بامر الطبيب على غرفة للمرضع بعيدة عن غرفة النفساء وهى غرفة كبيرة صحية تحتفظ بذكريات عديدة من ذكريات طفولتنا .

وما ان دلفت اليها حتى رأيت حول السرير الصغير كلا من فيديريكو وناتاليا وماريا الذين كانوا فى وقت معا ينحنون وينظرون الى الصغير النائم .

وهنا استدار فيديريكو نحوى وقال لى قبل أى شىء آخر :

ـ كيف حال جوليانا ؟

ـ انها فى حالة سيئة .

ـ ألا تنام ؟

ـ انها تتألم .

كنت أرد عليه بردود فيها شىء من الجفاء بالرغم منى . وكان شىء من اليأس قد ملأ نفسى فجأة ولم أكن أحس بشىء الا بعداوة شديدة ظاهرة لذلك الوليد وبشىء كثير من المرارة والضيق من ذلك العذاب الذى كان يسببه لى هؤلاء الأشخاص دون قصد .

ورغما من الجهود التى كنت ابذلها لم أستطع اخفاء شعورى .

---

(١) اسم التدليل الذي يطلق على من يحمل اسم « رايموندو » .

اجتمعنا أنا وأمي وفيديريكو وماريا وناتاليا في تلك اللحظة ووقفنا حول السرير الصغير لنرى « رايموندو » أثناء نومه . وكان اذ ذاك ملفوفا في « اللفة » ورأسه مغطى بوشاح يزدان بالأشرطة والزخارف . وكان وجهه يبدو أقل تورما ولكنه كان لا يزال أحمر اللون . وكان خداه يلمعان لمعان بشرة الجروح التي التأمت منذ عهد قريب . وكان قليل من اللعاب يخرج من طرفي فمه المقفول ، وكانت جفونه التي خلت من الأهداب والتي تورمت أطرافها تغطي حبات عيونه البارزة ، وكان شيء من الزرقة يحيط بأنفه التي كانت لا تزال مشوهة ولم تتخذ شكل الأنف الطبيعية .

وهنا قالت أمي :

ـ ولكن ترى لمن يشبه هذا الطفل ؟ انني لم أستطع حتى الآن أن أجد شبيها به .

وقال فيديريكو :

ـ انه لا يزال صغيرا ويجب أن ننتظر بضعة أيام حتى تظهر ملامح وجهه .

نظرت أمي مرتين أو ثلاث مرات الى والى الطفل كما لو كانت تريد أن تقارن مقارنة دقيقة بين ملامحي وملامحه .

ثم قالت :

ـ لا ، ربما كان أشبه بزوجتك جوليانا .

وعندئذ قاطعتهم بقولي :

ـ انه الآن لا يشبه أحدا .

ـ انه رائع ألا ترى ؟

ـ انه رائع وفي منتهى الجمال . انظرى الى شعره .

رفعت أمي بأصابعها الوشاح عن وجه الطفل رويدا رويدا وكشفت جمجمته الندية التي التصقت بها بعض الشعرات السوداء .

وهنا قالت ماريا وهي تمد يدها نحو رأس أخيها :

ـ دعينى ألمس شعره يا جدتى ٠

ـ لا لا هل تريدين أن توقظيه من نومه ؟

كان يبدو أن تلك الجمجمة أشبه شيء بشمعة أذابتها الحرارة وأحالتها الى كتلة سوداء ، وكان يبدو أن أقل لمسة قد تترك عليها أثرا ملحوظا ٠

وعندئذ غطتها أمى مرة ثانية ثم انحنت فوق الطفل الدخيل على الأسرة فى شيء كثير من الرقة والحنان ٠

وهنا صاحت ماريا قائلة :

ـ وأنا أيضا ياجدتى أريد أن أقبله ٠

ـ لا بأس قبليه ولكن فى رفق بالله عليك ٠

كان السرير الصغير عاليا مما جعل ماريا تقول لأخى فيديريكو :

ـ احملنى يا عمى ٠

وهنا رفعها فيديريكو بذراعيه ثم رأيت فـم ابنتى الوردى الجميل يتهيأ للقبلة قبل أن يلمس جبين الطفل ، ورأيت خصل شعرها الطويلة تتهدل فوق اللفة البيضاء ٠

طبع فيديريكو هو الآخر قبلة على جبين « رايموندو » ثم نظر الى ولكنى لم ابتسم ٠ ولـم تلبث ناتاليا التى كانت تتعلق بحافة السرير أن صاحت قائلة :

ـ وأنا أيضا ٠ وأنا أيضا !

ـ لا بأس ٠ قبليه ولكن فى رفق بالله عليك ٠

وعندئذ رفعها فيديريكو هى الأخرى بين يديه ٠ ثم رأيت من جديد خصل شعرها الطويلة تتهدل فوق اللفة البيضاء وهي تنحني فوق الطفل هـذه الإنحناءة الحلوة الأخيرة ٠

وكنت أنا واقفا فى مكانى لا أتحرك • ونظراتى لاشك تعبر عما أشعر به من الحزن • فان تلك القبل التى طبعتها شفاه ابنتى العزيزتين على نفسى لم تنتزع من الوليد ذلك المنظر الذى يبعث على التقزز والاشمئزاز منه فحسب• بل انها جعلته فى نظرى أدعى الى الكراهية والحقد •

كنت أشعر أنه من المستحيل على أن ألمس بيدى ذلك الجسد الغريب أو أن أظهر حياله أى دليل على الحب الأبوى •

كانت أمى تنظر الى فى شىء كثير من القلق والاضطراب • وسألتنى قائلة :

ـ ألا تطبع أنت أيضا قبلة على جبينه ؟

ـ لا يا أمى ، لا • لأنه سبب كثيرا من الألم والتعب لأمه ولا يمكننى أن أصفح عنه •

ثم تراجعت الى الخلف بحركة غريزية تدل على اشمئزاز ظاهر •

وهنا بقيت أمى لحظة فى دهشة وذهول دون أن تنبس ببنت شفه وقالت :

ـ ماذا تقول ياتوليو ؟ وأى ذنب اقترفه هـذا الطفل المسكين ؟ •• كن عادلا !

ليس ثمة شك فى أن أمى قد لاحظت صدقى فيما كنت أضمر له من حقد وكراهية ولـم أكن لأستطيع السيطرة على نفسى • وكانت اعصابى كلهـا مضطربة • وقلت :

ـ لا أستطيع أن أقبله الآن •• لا أستطيع •• دعينى يا أمى ، لسـوف يزايلنى هذ الضيق •

كان صوتى اذ ذاك خشنا وجافا • وكان جسمى كله متشنجا • والعبرات تخنقنى وعضلات وجهى تتلوى • وجسدى بعد أن قضيت ساعات طويلة فى ألم ممض فى أشد الحاجة الى الاسترخاء • وكنت أعتقد أننى اذا ما انفجرت فى البكاء فلسـوف أشـعر براحة نفسية وليساعدني البكاء عـلى الهـدوء والاطمئنان •

ولكن العبرات كانت جامدة حبيسة فى عينى •

وعندما أدركت أمى حقيقة حالتى قالت لى :

ـ انك تسبب لى كثيرا من الألم ياتوليو •

فقاطعتها دون وعى قائلا :

ـ أتريدين أن أقوم بتقبيله ؟

وبعد أن قلت ذلك اقتربت من السرير الصغير وانحنيت فوق الطفل وطبعت قبلة على جبينه •

استيقظ الطفل وأخذ فى النشيج ، وكان نشيجه بادىء ذى بدء ضعيفا خافتا ثم لم يلبث أن استحال الى صراخ متزايد •

ورأيت أن جلد وجهه صار أشد احمرارا ، وكان ينكمش مع ما يبذله الطفل من مجهود بينما لسانه الأبيض يرتجف فوق فمه الفاغر • وشعرت رغما مما كنت أحس به من اليأس الشديد بذلك الخطأ الذى ارتكبته ، اذ شعرت بنظرات كل من فيديريكو وناتاليا تتسلط على وتحملق فى وجهى فى شىء من القسوة •

وهنا قلت لأمى :

ـ عفوا يا أماه ، فاننى لا أدرى ماذا أفعل ، ضاع رشدى فاصفحى عنى •

كانت أمى قد أخرجت الطفل من سريره وحملته بين ذراعيها دون أن تستطيع تهدئته • وكان نشيجه يقطع نياط قلبى ويؤلمنى أشد الألم • وقلت لأخى :

ـ هيا بنا يا فيديريكو •

ثم خرجت مسرعا وفيديريكو فى أثرى

ـ ان جوليانا فى أسوأ حالة ، ولا أفهم كيف افكر في شيء آخر سواها في هذه اللحظات •

قلت وكأنى أبرر تصرفى :

ـ انك لم ترها ، ويبدو أنها فى ساعتها الأخيرة ٠

ـ ٣٣ ـ

كانت جوليانا مدى بضعة أيام تتأرجح بين الحياة والموت ، وضعفها شديد الى حد أن أقل مجهود تبذله يتبعه اغماء شـديد ٠ ويتحتـم علينا أن تبقى باستمرار راقدة على ظهرها دون أن تتحرك أدنى حركة ٠ وأية محاولة تحاولها للنهوض من فراشها تظهر عليها أعراض مرض فقر الدم الشديد ٠ ولم يكن هناك شئ يستطيع أن يتغلب على نوبات التقزز التى تنتابها أو أن يزيح ذلك الكابوس الرهيب الجاثم فوق صدرها أو أن يبعد ذلك الطنين الذى كان يرن فى آذانها باستمرار ٠

وكنت أبقى طوال ساعات الليل والنهار الى جانب سريرها وأنا ساهر عليها أقف عـلى قدمى بقوة لا تعرف الكلل ، كانت موضـع دهشتى واستغرابى وأعمل بكل ما فى روحى من قوة لكى أعاون تلك الروح التى هى على وشك الهلاك ٠ وكان يبدو لى وأنا جالس الى جانب سريرها أن الموت جاثم على طرفه الآخر وأنه متربص ومتهيئ لانتهاز الفرصة الملائمة للانقضاض على فريسته ٠ وأشعر فى بعض الأحيان بأننى أذوب فى جسم المريضة المسكينة النحيل ، وأننى أنفث فيه من قوتى ، وأننى أدفع قلبها المتعب الى الحركة ٠ ولم تكن أعراض المرض الكريهة تسبب لى قط شيئا من التقزز أو الاشمئزاز ٠ ولـم يكن أى شئ من الأشياء المادية الناجمة عن مرضها تجرح احساساتى الرقيقة ٠ ولم تكن حواسى اليقظة تهتم بأى شئ آخر اللهم الا بملاحظة أقل التغييرات التى تطرأ على هذه المريضة العاجزة عن الحركة ٠ وكنت قبل أن تنطق هى بكلمة أو تبدى اشارة أفهم رغبتها وأعرف ما هى فى حاجة اليه ومقدار ماتشعر به من ألم ٠ وقد وصل بى الأمر الى حد أننى بطريق الالهام ودون أى تكليف من الطبيب أجد طرقا جديدة وبسيطة لتخفيف ما تشعر به من ألم وتهدئة ما ينتابها من اضطراب ٠ وكنت أنا الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يقنعها بضرورة تناول الطعام ويشجعها على النوم ٠ وكنت ألجأ الى كل الفنون والطرق من صلوات وأدعيات وملاطفات لكى أجعلها ترتشف بعض رشـفات من دواء

منعش للقلب • وأضيق عليها الخناق حتى تتجرع الدواء الذى أقدمه لهـا وتتغلب على اشمئزازها منه عندما لا تجد لها مخلصا منى • ولم يكن هناك شىء أحلى فى نظرى من ابتسامتها العذبة الرقيقة التى كانت تفتر عنها شفتاها نزولا على رغبتى ، وكانت كل حركة من حركاتها التى تنبىء عن طاعتها لى تؤثر فى نفسى تأثيرا عميقا وتنزل على قلبى بردا وسلاما •

وعندما كانت تسألنى بصوتها الضعيف قائلة :

ـ هل أحسنت صنعا ؟ هل أنا طيبة مطيعة ؟

كانت تخنقنى العبرات وتظلم الدنيا فى عينى •

كثيرا ما كانت تشكو من ألم فى عروق صدغها • يلازمها ولا يفارقها لحظة واحدة • فأمر بأطراف أصابعى على كل جزء من أجزاء صدغها لتسكين ألمها • أمسح بيدى على شعرها فى رفق لكى أجعل النوم يتطرق الى جفونها ، وعندما أشعر من أنفاسها المترددة بأنها نامت أحس احساسا واهما بالبهجة والانشراح • كما لو أن نعمة النوم غورتنى أنا أيضا وأسعدتنى • وكانت أمام هذا النوم أشعر بأننى صرت رجلا من رجال الدين وتأخذنى حماسة لا حد لها وأشـعر بالحاجة الى الايمان بالاله جل وعلا القادر على كل شىء والمطلع على كل شىء الذى كنت أتوجه اليه بدعواتى وابتهالاتى • وتنبعث من أعماق نفسى على حين غرة مقدمات بعض الصلوات والأدعيات الدينية • وهذه الدعوات الصادرة من القلب تقودنى فى بعض الأحيان الى أسمى درجات الايمان الحقيقى ، وتستيقظ فى نفسى جميع ميولى التصوفية التى انتقلت الى عن طريق الوراثة من أجدادى الأقدمين المتدينين •

وبنما كنت أتلو هذه الأدعيات سرا أتأمل وجه النائمة • ووجهها الشاحب يحكى لونه لون قميصها الأبيض ، وبسبب شفافية جلدها أحاول أن أحصر عدد عروق خديها وذقنها وعنقها •

كنت أتمعن فى وجهها وأنا أؤمل أن أرى آثار النوم الطيبة ودبيب الدم الجديد البطىء الناجم عن الغذاء وبوادر الشفاء الأولى بادية على هـذا الوجه الشاحب •

كنت أود أن تكون لى مقدرة خارقة للعادة تجعلنى أشترك فى هذا العمل الاصلاحى الغريب الذى يتم فى ذلك الجسد المهدود • وكنت عظيم التفاؤل وأقول فى نفسى :

ـ انها عندما تستيقظ سوف تكون أكثر قوة مما كانت •

ويبدو أنها تشعر بارتفاع روحها المعنوية عندما تمسك بيدى بين يديها الباردتين وفى بعض الأحيان تمسك بها وتضعها فوق الوسادة وتضع خدها فوقها كما يفعل الأطفال • وتبقى على هذه الحالة حتى يغلبها النوم • وكنت قادرا على أن أبقى ذراعى أطول مدة من الزمن دون أن أحركه من مكانه رغم ما أشعر به من تعب ، وذلك لكى لا أوقظها من نومها •

وكانت تقول لى فى بعض الأحيان :

ـ لماذا لا تنام أنت أيضا هنا معى ؟ انك لا تنام أبدا !

وتريد منى أن أضع رأسى على وسادتها •

وهنا كنت أقول لها :

ـ لننم اذن •

وكنت أتظاهر بالنوم لكى أكون لها القدوة الحسنة • وعندما كنت أفتح عينى كنت ألتقى بعينيها المفتوحتين اللتين كانتا تحدقان فى وجهى •

وكنت أقول لها :

ـ ماذا هناك ؟ وماذا تفعلين ؟

وتجيب قائلة :

ـ وأنت ماذا تفعل ؟

كان يبدو فى عينيها ما يدل على فرط الحنان والاشفاق بى ، حتى اننى أشعر بأن قلبى يتحطم بين ضلوعى • وأمد شفتى وأقبلها بهما فوق جفونها وتريد أن تعمل الشىء بذاته معى وتقبلنى ثم تكرر قولها :

ـ لننم الآن ٠

وكان ينسدل فى بعض الأحيان ستار من النسيان على الكارثة التى ألمت بنا ٠ وكثيرا ما كانت تتجمد قدماها الضعيفتان فى مكانهما ، فكنت أتحسسهما من أسفل الأغطية ٠ وكانتا تبدوان لى كأنهما قد قدتا من المرمر ٠ وكانت تقول عن ذلك أنهما ميتتان ٠

كانتا نحيلتين دقيقتين صغيرتين الى حد أن قبضة يدى كادت تضمهما وكنت أشعر وأنا أمسكهما بشىء كثير من الاشفاق عليهما ٠ فكنت أدفىء من أجلهما فوق الموقد الغطاء الصوفى ، ولم أكن أشعر بشىء من التعب من العناية بهما٠

كنت أود لو استطعت أن أدفنهما بأنفاسى وأغطيهما بقبلاتى ٠

وكانت تمتزج باشفاقى هـــذا ذكريات غرامى القديمة ، ذكريات العهد السعيد عندما كنت لا أهمل قط فى وضع حذائها فى قدميها فى كل صباح ، وأخلعه عنهما فى كل مساء بيدى جريا على عادة ألفتها وأنا راكع على ركبتى٠

وفى يوم من الأيام بعد ليال طوال لم أذق فيها طعم النوم بلغ بى التعب حدا كبـيرا حتى غلبنى النوم على أمرى بينما كنت أضع يدى تحت الأغطية وألف فى الجوخ الدافىء القدمين الصغيرتين الميتتين فأحنيت رأسى وبقيت نائما على هذه الصورة ٠

وعنـدما استيقظت رأيت فى المخـدع أمى وأخى والطبيب الذين كانوا ينظرون الينا وهم يبتسمون ٠ فارتبكت وخجلت من نفسى ٠

وعندما رأتنى أمى على هذه الحالة قالت لى وهى تمر بيدها على شعرى فى حركة من حركاتها التى تنم عن منتهى الحب والعطف ٠

ـ لك الله ياولدى المسكين ! انك لن تستطيع الاستمرار على هذه الحالة ٠

أما جوليانا فقالت :

ـ يا أمى ٠ خذيه أنت من هنا ٠ وأنت أيضا يا فيديريكو خذه بعيدا بالله عليك ٠

ولكنى كنت أقول للجميع :

ـ لا ! لا ! لست متعبا اننى لست متعبا !

أخطرنا الطبيب بعزمه على السفر وقال أن النفساء قد تعدت مرحلة الخطر وأنها فى طريق التحسن الأكيد ٠

وقال ان من اللازم الاستمرار فى نقل الدم اليها بكافة الوسائل ، وأن زميله الدكتور « جيما » طبيب بلدة « توسى » الذى تحدث معه ووجده على اتفاق معه فى الرأى يستطيع الاستمرار فى علاجها الذى أصبح الآن أمرا ميسورا ٠

كانت له ثقة كبيرة فى مراعاة مختلف التعليمات الصحية والغذائية التى كان قد وضعها وفى تطبيقها بمنتهى الدقة أكثر من ثقته بالأدوية والعقاقير ٠

أردف قائلا وهو يشير الى :

ـ وفى الحق اننى لا أستطيع أن أجد ممرضا أذكى وأقدر اخلاصا منه ٠ لقد أتى بالمعجزات ولسوف يأتى بمعجزات أخرى ٠ اننى أرحل من هنا وأنا مطمئن البال ٠

بدا لى كأن قلبى قفز الى حلقى وأخذ يخنقنى ٠ فان الاطراء غير المتوقع الذى كاله لى ذلك الرجل الشديد فى حضرة أمى وأخى كان له فى نفسى أبلغ الأثر ٠ وكان هذا الاطراء مكافأة غريبة ٠ فنظرت الى جوليانا ورأيت عينيها أغرورقتا بالدموع ، ثم لم تلبث أن انفجرت بالبكاء فجأة أمام عينى ٠

بذلت جهدا فوق الطاقة للتحكم فى أعصابى ، ولكننى لم أستطع الى ذلك سبيلا ٠ وبدا لى أن نفسى تبدلت ، فان كل ما فى العالم من طيبة وصلاح وحنان تجمع فى صدرى فى تلك الساعة التى لا تنسى ٠

ـ ٣٤ ـ

كانت جوليانا تستعيد قواها من يوم الى آخر فى شىء من البطء ، ولم

تكن مواظبتى فى السهر عليها ورعايتها لتفتر أو تقل. واتخذت من التصريحات والنصائح التى أسداها الطبيب « فيبستى » ذريعة لمضاعفة جهودى وسهرى عليها . ولكى لا أدع غيرى يحل محلى فى هذا الشأن ، وأقف فى وجه أمى وأخى اللذين كانا ينصحان لى بالراحة ، وكان جسمى قد اعتاد ذلك النظام القاسى، وما يشعر بالكلل أو الملل من جراء ذلك ، وحياتى بجملتها حبيسة جدران تلك الحجرة الأربعة وذلك المخدع الصغير وتلك الدائرة التى تتنفس فى محيطها تلك المريضة العزيزة .

لما كانت جوليانا بحاجة الى السكون الشامل . وكان لزاما عليها أن تتحدث الا قليــلا حتى لا تشعر بالتعب ، فاننى كنت أسعى جهــدى لكى أبعد عن سريرها أى شخص حتى لو كان من أفراد عائلتنا أو المقربين الينا ، ومن ثم بقى ذلك المخدع سرا من الأسرار المحرمة على بقية من فى منزلنا وهكذا كنا نبقى أنا وجوليانا ساعات وساعات بمفردنا . ولمــا كان المرض أقعدها عن الحركة وأنا منهمك فى مهمتى الرحيمة ـ كان يحدث فى بعض الأحيان أن ننسى الكارثة التى حلت بنا وتغيب عن ذهننا حقيقة ما حــدث ، ولا نذكر شيئا آخر سوى حبنا العظيم . ويبدو لى من آن لآخر أنه ليس ثمة شىء يشغل بالى خارج نطاق ســتائر ذلك المخــدع نظرا لما أحس به ازاء المرأة المريضة المسكينة من حب وعطف شديدين ولم يكن هنــاك ما يثير فى نفسى ذكرى ذلك الحادث المروح وكنت أرى أمامى أختا تعانى الكثير من الآلام ، فلا أهتم بشىء آخر سوى العمل على تخفيف آلامها .

كثيرا ما كان ستار النسيان يتمزق فى شىء كثير من العنف عندما كانت تتحدث أمى عن « رايموندو » ، وعندما تزاح الستائر لتسمح للطفل بالمرور.

حملت أمى الطفل على ذراعيها . وكنت اذ ذاك حاضرا هنالك وشــعرت بأننى أصبحت شاحب اللون ، وذلك لأن دمى كله تدفق فى قلبى .

ترى بماذا أحست جوليانا فى تلك اللحظة ؟

كنت أنظر الى ذلك الوجه الضخم الأحمر اللون وهو أشبه ما يكون بقبضة يد رجل ، وكان نصفه مختبئا أسفل الوشاح الثقيل وكنت أشعر نحوه بعداوة ضارية تزيل من نفسى أثر أى شعور آخر .

وكنت أقول فى نفسى :

ــ ماذا أفعل لكى أتخلص منك ؟ لماذا لم تمت مختنقا وأنت فى بطن أمك ؟

لم يكن لحقدى عليه حدود يقف عندها ، بل كان حقدا غريزيا أعمى لايمكن كبته أو بالأحرى حقدا قاتلا • ويبدو أن هذا الحقد استقر فى جسدى وأنه ينبعث من كل عروقى ومن أعصابى وكل شريان من شراييني ، ولم يكن هناك ما يستطيع أن يخمده أو يحطمه ويمحو آثاره ، وحضور الوليد الدخيل فى أية ساعة وفى أية ظروف كاف لكى يحـدث فى نفسى اضطرابا شـديدا ، ويجعلنى لا أشعر بشعور واحد ، هو شعور الحقد عليه •

توجهت أمى بالحديث الى جوليانا قائلة :

ــ انظرى كيف تغير هــذا الطفل تغيرا كبيرا فى مدى أيام قليلة ! انه يشبهك أكثر مما يشبه أباه ، ولكنه ليس كبير الشبه بأى واحد منكما • ومع هــذا فانه لا يزال صغيرا ، ولسوف نرى فيما بعد •• أتريدين أن تعطيه قبلة ؟

وقربت جبين الطفل من شفتى المريضة •

ترى بماذا أحست جوليانا فى هذه اللحظة ؟

ولكن الطفل بدأ فى البكاء • فكانت لدى الشجاعة لكى أقول لأمى فى شيء من اللطف :

ــ أرجوك أن تأخذيه بعيـدا يا أماه • ان جوليانا فى حاجة الى الراحـة والهدوء • وأن هذه الاضطرابات تسبب لها كثيرا من الألم •

خرجت أمى من المخدع ، وبكاء الطفل يزداد باستمرار ، ويسبب لى آلاما مبرحة تمزق أحشائى ، وكنت أود أن أهرع اليه لخنقه حتى لا أسمع نشيجه مرة أخرى • وسمعنا هذا الصياح مدى فترة من الزمن بينما كانوا يذهبون به بعيدا ، وعندما توقف نشيج الطفل تماما ولم نعد نسمعه خيم سكون بدا لى أنه كان رهيبا انصب فوق رأسى كما لو كان كتلة من الصخر وسبب لى انقباضا شديدا • على أننى لم أستسلم لهذا الألم ، اذ سرعان ما فكرت فى أن جوليانا فى حاجة الى اسعاف •

وهنا قالت لى :

ـ بالله عليك ياتوليو • ياتوليو •• ليس من الممكن أن ••

ـ اسكتى ، اسكتى بالله عليك • اذا كنت تحبيننى ياجوليانا ، أرجوك أن تسكتى •

كنت أتضرع اليها أن تلتزم الصمت سواء بلسانى أو باشاراتى ، وكل ما أشعر به من اضطراب وعداوة خمد وأصبح أثرا بعد عين • وما كنت أتألم لشىء آخر سوى ما تشعر به من ألـم • ولم أكن أخشى الا مما كان يصيب المريضة من ضرر ومن تلك الصدمة التى صدمنا بها ذلك الوليد الصغير •

قلت لها :

ـ اذا كنت تحبيننى فيجب عليك ألا تفكرى فى أى شىء آخر سـوى فى الشفاء من مرضك • انظرى ، اننى لا أفكر الا فيك ولا أتألم الا من أجلك • يجب ألا تعذبى نفسك ، ويجب أن تستسلمى كلك لحنانى لكى تنالى الشفاء •

وهنا قالت لى بصوتها المرتجف الضعيف :

ـ ولكن من يدرى بماذا تحس فى دخيلة نفسك أيها المخلوق المسكين ؟

ـ لا لا ياجوليانا • لا تعذبى نفسك بمثل هذه الأفكار ! اننى لا أتألم الا من أجلك عنـدما أراك تتألمين ، واننى أنسى كـل شىء اذا ما ابتسمت لى ، واذا ما تحسنت صحتك فاننى سوف أكون أسعد انسان فى هذه الدنيا • ولذلك فانك اذا كنت تحبيننى حقا فيجب أن تساعدينى على شفائك • ويجب أن تكونى هادئة مطيعة صبورة • وعندما تبرئين وتصبحين أشد قوة منك الآن فعندئذ •• من يدرى ! فان الله كريم واسع الرحمة •

وهنا غمغمت قائلة :

ـ يا الهى اشملنا برحمتك •

كنت أقول فى نفسى :

ـ ولكن بأية وسيلة ؟ انه لا يشملنا برحمته الا بموت هذا الوليد ؟

دعونا الله أنا وهى فى وقت معا بموت هذا الطفل ، وكانت هى الأخرى لا ترى مخلصا من هذا المأزق الا بموت ابنها وفى أنه لم يكن هناك مخلص بغير ذلك .

وهنا عادت بى الذاكرة الى ذلك الحوار الوجيز الذى دار بيننا فى غروب يوم بعيد ونحن جالسان تحت الخمائل كما عادت بى الذاكرة الى ذلك الاعتراف الأليم .

ـ كنت أقول لنفسى :

ـ ولكن مادام هذا الوليد قد ولد . فهل لازلت نمقته ؟ هل أستطيع أن أشعر بعداوة حقة ضد قطعة من لحمها ؟ وهل أدعو الله مخلصا بأن يأخذ مخلوقه الذى أعطاه لها ؟

كذلك عاد الى نفسى ذلك الأمل الجنونى الذى راودنى فى تلك الأمسية الحزينة وهو أن يوحى اليها بالجريمة فتكون لديها القوة لتنفيذها .

الم أفكر أنا نفسى فترة من الزمن فى محاولة اجرامية فاشلة عندما رأيت المولدة تربت على ظهر ذلك الجسد الصغير الذى كان بين الحياة والموت وعلى أطراف أصابعه ؟

ولقد كانت تلك الفكرة هى الأخرى فكرة جنونية .

يقينا ان جوليانا ما كانت لتجرؤ قط على ..

كنت أنظر الى يديها فوق ملاءة سريرها وهما مقلوبتان شاحبتان ، ولم يكن يميزهما عن الملاءة البيضاء سوى عروقهما الزرقاء .

ـ ٣٥ ـ

كان شعور غريب بالمرارة والألم يحز فى نفسى بعد أن أخذت صحة المريضة تتقدم يوما بعد يوم ، وكنت أحس فى صميم قلبى بشىء من الحسرة على تلك الأيام الحزينة التى قضيناها داخل المخدع بينما صوت انهمار أمطار الخريف الغزيرة الرتيبة يصل الينا من الحقول المجاورة . فان تلك الأيام وتلك

الأمسيات وتلك الليالى رغما مما كان فيها من الألم لها حلاوتها وبهجتها ، ويبدو لى أن ذلك العمل الخير الذى كنت أقوم به كل يوم أكثر جمالا ، وكانت موجة من الحب تغمر نفسى وتبدو فى بعض الأحيان تلك الأفكار المظلمة وتجعلنى أنسى ذلك الأمر المروع وتثير فى نفسى بعض الأوهام التى تدخل شيئا من العزاء الى قلبى وتوقظ بعض الأحلام الغريبة الغامضة • وأشعر فى بعض الأحيان بشعور أشبه ما يكون بذلك الشعور الذى يشعر به الانسان فى ظلال تلك الكنائس المخبوءة • وأحس بأننى أصبحت فى ملجأ يقينى من عاديات الزمن ويحمينى من الوقوع فى الخطيئة • وكان يبدو لى فى بعض الأحيان أن تلك الستائر الخفيفة تفصلنى عن هاوية سحيقة وتهاجمنى على حين غرة بعض المخاوف مما يخبئه لى ذلك المستقبل المجهول • وأحس أثناء الليل بسكون البيت كله يخيم من حولى ، وأرى بعينى قلبى فى آخر غرفة بعيدة على ضوء أحد المصابيح ذلك السرير الصغير الذى ينام فيه المولود الدخيل معبود والدتى وويريثى • وأشعر برعدة شديدة مفزعة تجعلنى أنتفض انتفاضا وأبقى وقتا طويلا مذهولا ازاء فكرة حزينة تخطر ببالى • والستائر تفصل بينى وبين هاوية سحيقة •

ولكنى الآن وصحة جوليانا آخذة فى التحسن يوما بعد يوم • أخذت تتبدد احساساتى بالوحدة والعزلة وأخذت الحياة الزوجية المألوفة تغزو الغرفة الهادئة • وكانت أمى وأخى وماريا وناتاليا والآنسة ايديت يترددون على الغرفة أكثر من ذى قبل ويبقون فيها زمنا أطول من الزمن الذى كانوا يقضونه فى المدة السابقة • وكان ريموندو مفروضا على حنان الأمومة فرضا • ولم يكن من الممكن لأى واحد منا أنا وجوليانا أن نتجنبه • ويجب أن نسرف فى تقبيله وفى الابتسام له ، والتظاهر والتصنع واخفاء شعورنا الحقيقى بمهارة وأن نتحمل ما يفرضه علينا الموقف من قسوة وأن نموت رويدا رويدا •

ولما كان « رايموندو » يتغذى بلبن دسم سليم ويجد العناية التى لا حد لها من الجميع ، فقد أخذ يفقد رويدا رويدا منظره الذى كان يبعث على التقزز والاشمئزاز وبدأ يسمن ويتورد لونه وتصبح ملامحه أكثر وضوحا ويستطيع أن يفتح عينيه الرماديتين بسهولة ويبقيهما مفتوحتين زمنا طويلا •

على أن كل حركة يبديها كانت ممقوتة فى نظرى سواء فى ذلك حركات شفتيه ورأسه أو حركات يديه الصغيرتين اللتين كانتا مضطربتين دائما ، ولم أر فيه شيئا قط يدل على اللطف أو على الجمال ، ولم أشعر له بأى شعور آخر غير شعور العداوة والبغضاء • وعندما كنت أضطر الى لمسه حينما كانت أمي تقدمه لى بين ذراعيها لكى أقبله كنت أحس بذلك الشعور الذى أشعر به اذا ما اقتربت من أحد الوحوش الضارية فتثور عروقى كلها عليه وكنت أشعر بالحزن واليأس الشديدين فكان هذا الطفل اللعين يسبب لى كل يوم عذابا جديدا ، وأمي هى الجلاد الأعظم الذى يتولى تعذيبى • وحدث فى احدى المرات عندما كنت أدلف الى الغرفة فجأة وأزيح الستائر عن مخدع جوليانا اننى لاحظت وجود الطفل راقدا الى جانبها • ولم يكن أحد حاضرا اذ ذاك • واجتمع ثلاثتنا بمفردنا • وكان الطفل ينام فى هدوء وهو ملفوف بلفائفه البيضاء • وعندئذ تمتمت جوليانا قائلة :

– لقد تركته هنا أمك •

وعندئذ تركت المخدع وفررت كمن أصابه مس من الجنون •

وفى مرة أخرى جاءت « كريستينا » لاستدعائى فسرت فى أثرها الى غرفة الطفل • وكانت أمي جالسة هناك وهي تحمل على ركبتيها الطفل عاريا وقالت لى :

– اننى أردت أن أجعلك تراه قبل لفه باللفائف • انظر اليه •

وعندما شعر الطفل بأنه تخلص من لفائه أخذ يحرك ساقيه وذراعيه ويدير عينيه يمنة ويسرة ويدخل أصابعه فى فمه ويمتصها ، وكان لحمه حول معصميه وأسفل كعبيه وخلف ركبتيه وفوق خصريه يتحول الى حلقات مستديرة تغطيها بقايا المساحيق البيضاء ، وكانت سترته المشوهة والتى كان يعلوها شيء من المساحيق البيضاء لا تزال بارزة فوق بطنه المنتفخ ، ويدا والدتى تربت على أعضاء الطفل الصغير برفق وهى فى منتهى السعادة ، وكانتا تشيران لى الى كل تفاصيل أعضائه عضوا عضوا وتستقران فوق جلده الأبيض الناعم بعد الاستحمام الأخير ، ويبدو أن الطفل يتلذذ بهذه الحركات •

كانت أمي تقول لي وهي تستحثني على أن أربت عليه :

ـ انظر • انظر ما أحلظه •

وكان لزاما على آنذاك أن ألمسه •

ـ انظر ما أثقل وزنه •

وكان من اللازم أن أرفعه بين يدى وأن أشعر بتحرك ذلك الجسد الفاتر واللين بين يدى اللتين تنتابهما رعدة ، ليست هى رعدة الحنان •

وكانت تقول لى :

ـ انظر •

كانت أمى تمسك بين سبابتها وابهامها وهى تبتسم بثدى الطفـل فوق صدره الرقيق الذى يضم بين جنبيه روحا من الأرواح الشريرة العنيدة •

كانت تكرر قولها وهى تحرك بأحد أصابعها ذقن الطفل الذى لم يكن يعرف الضحك :

ـ بارك الله فيك ياحبيبى ، ياحبيبى ، ياحبيب جدتك !

كان راس أمى الذى وخطه الشيب والذى طالما انحنى فوق سريرين صغيرين مباركين من قبل ينحنى الآن وقد اشتعل شيبا فى غير ادراك فوق ابن رجـل آخر وفوق طفل غريب • ويبدو لى أنها لم تظهر كل ذلك الحنان ولم تعطف كل هذا العطف على كل من ماريا وناتاليا اللتين من صلبى ومن لحمى ودمى•

وأرادت أن تلفه بيديها ورسمت علامة الصليب بأصبعها على بطنه وهى تقول له ، انك لم تتعمد بعد •

ثم استدارت نحوى وقالت :

ـ يجب أن نحدد من الآن يوم التعميد •

حمل الدكتـور « جيبا » الحائز على لقب فارس من فرسان القبر المقدس

بمدينة أورشـليم والذى هو رجل مسن جميل الصورة حسن المعشر هـدية قدمها الى جوليانا فى صبيحة يوم الوضع هى باقة من زهر الزئبق الأبيض ٠

فقالت له جوليانا :

ـ يالله ! ان هذه هى الزهور التى أوثرها على غيرها ٠ شكرا لك ٠

ثم أخذت الباقة ونظرت اليها طويلا وهى تتحسسها بأصابعها الممتدة وهناك تشابه حزين بين بياضها وبياض تلك الزهور الخريفية ٠ وكانت زنبقات كبيرة كأنها الورود المتفتحة كثيفة وثقيلة كان لونها يحكى لون جلود أجسام المرضى الذين على وشك المـوت أو ذلك البياض الأزرق الذى يغطى وجنـات السلالات الصغيرات اللائى تجمدت أجسادهن من أثر الثلوج ٠

وكان فى بعض هذه الزنبقات بعض عروق خفيفة بنفسجية اللون وكان البعض الآخر يميل الى الاصفرار الخفيف ٠

قالت لى جوليانا :

ـ امسك هذه الزنبقات وضعها فى الماء ٠

كان ذلك فى صبيحة يوم من أيام شـهر نوفمبر ، ولم تمض سوى أيام قلائل على الذكرى السنوية ليوم منحوس أحيت هذه الزهور ذكراه من جديد وهو ذلك اليوم الذى سمعتها فيه تغنى أنشودة :

ملذا أعمل بدون يوريديتشى ؟

رن فى ذهنى لحن أنشودة « أورفيو » بينما أضع فى أحـد الأوانى تلك الزنبقات البيضاء وأثارت فى مخيلتى بعض أجزاء من ذلك المنظر الفريد الذى رأيته منذ عام مضى ورأيت جوليانا مرة ثانية فى ذلك الجو المشرق الدافىء ووسـط ذلك العبير الفواح وبين تلك الأشـياء التى انطبعت بطابع الرقة النسائية حيث كان يبدو أن شبح تلك النغمة المحزنة القديمة يضفى عليها ما ينبىء عن وجود حياة خفية ويثير الشبهة فى وجود لغز من الألغاز ٠

ترى هل أثارت تلك الزهور فيها هي الأخرى بعض الذكريات ؟

وهنا شعرت بحزن شديد انقبض له قلبى ، حزن رجل عاشـق لا يجد العزاء أو السلوى ، وظهر مرة ثانية ذلك الرجل «الآخر» وكانت عيناه رماديتين كعينى ذلك الطفل الغريب.

قال لى الطبيب داخل المخدع :

ـ يمكنك أن تفتح النافذة . فمن الخـير أن يدخل الهواء الى الغرفة وأن تدخل أشعة الشمس فيها بكثرة .

وعندئذ صاحت المريضة قائلة :

ـ نعم ! نعم ! افتح !

فتحت النافذة وهنا دخلت أمى ومعها المرضع وهى تحمل « رايموندو » على ذراعيها . أما أنا فبقيت بين الستائر وانحنيت فوق جلسة النافذة واخذت أنظر الى الحقول وكنت أسمع من خلفى تلك الأصوات المألوفة .

كان ذلك فى أواخر شهر نوفمبر وقد انقضت أيضا « أعياد الموتى » وهناك نور قوى ينتشر فى الحقول الرطبة وفوق قمم التلال العالية وجنباتها ويبدو أن بخارا فضيا قد غمر هامات أشجار الزيتون المتشابهة . وخط من الدخان المنتشر هنا وهناك يسطع تحت أشعة الشمس . والريح تحمل بين الحين والآخر مجموعة من أوراق الأشجار الجافة . أما ما عدا ذلك فقد كان يسوده السكون والسلام .

كنت أقول فى نفسى :

ـ ترى لماذا كانت تغنى فى ذلك الصباح ؟ ولماذا شعرت عندما سمعتها تغنى بذلك الاضطراب وذلك القلق ؟ كانت تبدو لى كأنها امرأة أخرى . ترى هل كانت تحب ذلك الرجل ؟

ومع أية حالة من حالاتها النفسية كانت تتجاوب تلك النشوة غير العادية ؟ لقد كانت تغنى لأنها كانت تحب وربما أكون مخدوعا فيما ذهبت اليه ولكننى لن أعرف الحقيقة أبدا ! ولم تكن غيرة الحواس المضطربة هى التى تنبعث من صميم قلبي ، بل انها الحسرة والمرارة الشديدة . وكنت أقول لنفسى :

ـ أية ذكرى لديها الآن عن ذلك الرجل ؟ وكم مرة وخزتها هذه الذكرى ؟ ان الابن هو رابطة حية بينهما • ولسوف ترى في « رايموندو » شيئا من ذلك الرجل الذى استحوذ عليها وتجد في ابنها شبها أكيدا له وليس من الممكن أن تنسى والد « رايموندو » • ربما تراه دائما ماثلا أمام عينيها • وما الذى تحس به اذا علمت أن العدالة الالهية اقتصت منه ؟

كنت أتوغل في تصور مضاعفات مرض الشلل الذى أصابه وأتصوره وهو يبدو في الشكل الذى توحى به الى ذكرى « سبينيللى » المسكين • وأتمثله وهو جالس فوق أريكة كبيرة من الجلد الأحمر وقد تلون جلده بلون الأرض وتجمدت جميع ملامح وجهه وفغر فاه وانحرف وامتلأ باللعاب وبالتمتمات غير المفهومة •

وأراه يقوم بين لحظة وأخرى بالحركة ذاتها لكى يجمع في منديله ذلك اللعاب المستمر الذى يسيل من جانبى فمه •

سمعت من ينادى قائلا :

ـ يا توليو •

وكان هذا هو صوت أمى • فاستدرت واتجهت نحو المخدع •

كانت جوليانا راقدة على ظهرها وقد خارت قواها والتزمت الصمت والسكون والطبيب يفحص في رأس الطفل مبادىء أكزيما لبنية •

وهنا قالت أمى :

ـ اذن فسوف نحتفل بالتعميد بعد غد •

ثم أردفت قائلة :

ـ ان الطبيب يرى أن جوليانا يجب أن تلازم الفراش أياما أخرى •

سألت الطبيب العجوز وأنا أشير الى المريضة قائلا :

ـ كيف وجدتها ياسيدى الطبيب ؟

فرد على وهو يهز رأسه الجميل الذى اشتعل شيبا قائلا :

ـ يبدو لى أنه حدث شيء من التوقف فى ذلك التحسن الذى كان مطردا ٠ اننى أجدها ضعيفة وضعيفة جدا يجب العمل على زيادة تغذيتها وبذل الجهد فى سبيل ذلك ٠

وهنا قاطعته جوليانا وهى تنظر الى وتبتسم ابتسامة تنم عن منتهى الضعف قائلة :

ـ لقد فحص قلبى ٠

فاتجهت نحو الطبيب بسرعة وسألته قائلا :

ـ وماذا وجدت ؟

وكان يبدو لى أن هناك غمامة تمر على جبينه وأجابنى بقوله :

ـ ان قلبها سليم جدا ٠ وليس فى حاجة الا الى التغذية ٠٠ والهدوء ٠٠

ثم اتجه نحو المريضة وقال :

ـ هيا هيا تشجعى ! كيف كانت شهيتك فى هذا الصباح ؟

مطت المريضة بفقر الدم شفتيها فى هيئة تدل على التقزز وأخذت تحدق النظر فى النافذة المفتوحة وذلك الجزء من السماء البادى من خلالها ٠ وسألت فى شيء من الخجل وهى تدس يديها بين أغطيتها قائلة :

ـ هل الجو بارد اليوم ؟

ثم سرت فى جسمها رعدة واضحة ٠

ـ ٣٧ ـ

ذهبنا فى اليوم التالى أنا وفيديريكو لزيارة « جيوفانى دى سكورديو » وكان ذلك فى آخر أمسية من أمسيات شهر نوفمبر ٠

ذهبنا سيرا على الأقدام من خلال الحقول المحروثة ٠

كنا نسير فى صمت وسكون ونحن مستغرقان فى التفكير ، والشمس تميل نحو المغيب فى شىء كثير من البطء ، وهناك شىء أشبه ما يكون بغبار الذهب ينتشر فى الهواء الساكن من فوق رؤوسنا وكان للأرض الرطبة لون أسمر فاقع ، ولها شكل بركة ركدت فيها المياه تنبىء عن جودتها ومعدنها الطيب . ويتصاعد من الكتل الطينية بخار واضح أشبه بذلك البخار الذى يخرج من خياشيم العجول . والأشياء البيضاء فى هذا الضوء الهادىء يتخذ بياضها شكلا غريبا أشبه ما يكون ببياض الثلوج الناصع . هناك بقرة آتية من بعيد وقميص أحد الفلاحين وجلباب منشور وأسوار مصنع من مصانع الجبن والزبد تتلألأ من بعيد ، كما لو كانت تغمرها أنوار القمر عندما يكون بدرا .

قال لى فيديريكو فى شىء من اللطف :

ـ انك حزين .

ـ نعم ياصديقى اننى جد حزين ويائس من حياتى .

مرت فترة أخرى ساد فيها الصمت الطويل ، وكانت تقوم من فوق الأشجار الخضراء أسراب العصافير التى تأخذ فى التحليق فى الهواء ، ويصل الى أسماعنا صوت قطيع بعيد من الماشية ضعيفا خافتا .

سألنى أخى بلطفه المعهود قائلا :

ـ من أى شىء تيأس ؟

ـ من نجاة جوليانا ومن نجاتى .

وعندئذ سكت ولم ينطق بكلمة أجد فيها شيئا من العزاء ، وربما كان الألم يحز فى نفسه . وأردفت قائلا :

ـ اننى أحس بأن جوليانا لن تبرأ من علتها .

وعندما سمع ذلك سكت ولم يتكلم .

كنا نمر من طريق تحف به الأشجار من كلا الجانبين ، وأوراق الأشجار الجافة تتهشم تحت أقدامنا ، والأرض فى الأماكن التى خلت من هذه الأوراق ترى كما لو كان أسفلها سرداب عميق .

واستطردت قائلا :

ـ واذا ماتت فماذا أنت فاعل ؟

وهنا استولى على اضطراب مفاجىء ونوع من الهلع • فنظرت الى أخى الذى يلزم الصمت ويقطب جبينه ، كما نظرت من حولى من خلال العزلة الصامتة التى كنا فيها فى تلك الساعة من ساعات النهار •

لم أشعر قط فى ساعة مثل هذه الساعة بمثل هذا الفراغ المخيف فى حياتى •

وأخيرا قال لى أخى :

ـ لا • لا ياتوليو ان جوليانا لا يمكن أن تموت •

كان يؤكد أمرا محالا لا أهمية له قط ازاء حكم القدر •

ومع ذلك نطق هذه الكلمات ببساطة جعلتنى أنتفض وبدت لى أنها بساطة غريبة لم أعهدها فيه من قبل • فقد يحدث أحيانا أن ينطق الصبية بغتة بكلمات شديدة لا يتوقعها أحد تصيبنا فى صميم قلوبنا ويبدو أن صوتا من أصوات القدر يتحدث على شفاههم غير الواعية •

فسألته دون أن يكون فى كلامى أى ظل للسخرية :

ـ هل تعلم الغيب ؟

ـ لا ولكن هذا هو احساسى وانى أعتقد ذلك •

تسربت الى نفسى مرة أخرى من أخى الطيب ومضة من الثقة وانفتحت من جديد تلك الحلقة المستحكمة التى كانت تضيق الخناق على قلبى • كان تنفسى قصيرا وكان أخى فيما بقى من الطريق لا يفتأ يحدثنى عن « رايموندو » •

ولما صرنا على مقربة من المكان الذى يسكن فيه « جيوفانى دى سكورديو » لمح فى الحقل قامة الشيخ المدببة وقال لى :

ـ انظر انه هنالك • انه يبذر الحب • اننا نحمل اليه الدعوة فى ساعة من الساعات الجليلة •

اقتربنا منه وكنت أشعر برعدة شديدة تسرى فى جسدى ، كما لو كنت أتهيأ للقيام بعمل من أعمال الكفر واندنس · وفى الحق اننى كنت ذاهبا لتدنيس عمل من أجل الأعمال وأعظمها شأنا ، ذاهبا لأطلب من ذلك الشيخ الجليل أن يكون أبا روحيا لهذا الغلام الذى جاء نتيجة السفاح ·

صاح فيديريكو وقد توقف وأشار الى الرجل وهو يبذر الحب :

ـ انظر ما أجمل شكله وما أجمله ! · ان قامته لا تزيد عن قامة أى رجل ولكنه يبدو كأنه عملاق ·

وقفنا خلف احدى الأشجار عند طرف الحقل وأخذنا ننظر اليه ·

كان « جيوفانى » منهمكا فى عمله ولم يكن رآنا حتى هذه اللحظة ، وهو يذرع الحقل جيئة وذهابا بخطوات وئيدة · وتغطى رأسه قلنسوة من الصوف الأبيض والأسود ، لها طرفان يتدليان خلف أذنيه على الطريقة القديمة ، وهناك كيس يتدلى من عنقه بشريط من الجلد يصل الى حزامه ملىء بالحبوب· ويبقى الكيس مفتوحا بيده اليسرى ويأخذ بيده اليمنى الحب وينثره فى أرض الحقل ·

كانت حركاته المتماثلة وهو يبذر الحبوب تنم عن سخائه وجرأته وخبرته والحبوب تتطاير من قبضة يده فى بعض الأحيان تلمع فى الهواء كأنها ومضات ذهبية وتتساقط فوق الأرض الرطبة المقسمة الى أجزاء متساوية ·

كان هذا الزارع يتقدم ببطء وتغوص أقدامه العارية فى الأرض الرخوة وهو يرفع رأسه فى الهواء الطلق فى النور الالهى · وحركاته تنم على السخاء والجرأة والخبرة ، وشخصيته برمتها شخصية بسيطة جليلة وعظيمة ·

دلفنا الى الحقل ، وصاح فيديريكو وهو يتقدم نحو الشيخ قائلا :

ـ السلام عليك ياجيوفانى ! بارك الله فى بذورك وليبارك الله خبز المستقبل الذى تعمل من أجله ·

كذلك حييته قائلا :

ـ السلام عليكم ·

بوقف الشيخ عن عمله ورفع قلنسوته عن رأسه · فقال له فيديريكو :

ـ ضع قلنسوتك ياجيوفاني الا اذا أردت أن نرفع لك قبعاتنا ·

وعندئذ غطى الشيخ رأسه بقلنسوته في شيء من الخجل والارتباك وهو يبتسم · وقال في ذلة وانكسار :

ـ لماذا كل هذه الاحترامات ؟

قلت له في صوت بذلت جهدى لكى أبدو من خلاله ثابت الجنان رابط الجأش :

ـ لقد جئت لأرجوك لتشترك في تعميد ابنى ·

وهنا نظر الى الشيخ والدهشة آخذة منه كل مأخذ · ثم نظر الى أخى فزاد ارتباكه وغمغم قائلا :

ـ ان هذا شرف عظيم لى ·

ـ ماذا تقول ؟

ـ انني خادمك ، جزاك الله خير الجزاء عن هذا الشرف الذى توليني اياه اليوم وأحمد الله على هذا السرور الذى حباني به في شيخوختي وأرجوه تعالى أن يصب كل بركاته على ابنك ·

ـ شكرا لك ياجيوفاني ·

ثم مددت اليه يدى ورأيت أن تلك العيون الحزينة الغائرة اغرورقت بدموع الحنان وامتلأ قلبى بألم لا حد له ·

سألني الشيخ قائلا :

ـ أى اسم ستطلقونه عليه ؟

ـ رايموندو ·

ـ انه اسم أبيك · ما أسعدها من ذكرى ، ان أباك كان رجلا بكل معنى الكلمة ، وانك لتشبهه تمام الشبه ·

فقال له أخى :

ـ ولكنك أنت الوحيد الذى تبذر القمح • أليس كذلك ؟

ـ نعم أنا وحدى ، وأنا الذى أبذره ، وأنا الذى أدمدم عليه بقدمى •

وأشار بسبابته الى الجرافة والفأس اللذين يلمعان فوق الأرض السمراء وكانت ترى من حوله البذور التى لم تتم تغطيتها والبذور الطيبة التى ستنبت السنابل المقبلة •

قال له أخى :

ـ استمر فى عملك اذن • اننا نتركك لعملك الذى تعمله • تعال صباح الغد الى الضيعة • وداعا يا « جيوفانى » بارك الله فى بذورك •

صافحت أنا وأخى هاتين اليدين اللتين لا تكلان واللتين باركهما الله بسبب ما تبذران من بذور طيبة ، ومن أجل الخير الذى بذرتاه •

هم الشيخ لمرافقتنا حتى الطريق العام ، ولكنه وقف مترددا وقال :

ـ اننى أطلب منكما معروفا •

ـ تكلم ياجيوفانى •

فتح الكيس الذى كان يتدلى من عنقه وقال :

ـ ليأخذ كل منكما قبضة من القمح وليبذرها فى حقلى •

وضعت يدى قبل أخى فى كيس القمح وأخذت منه بقدر ما استطعت وبذرته • وقام أخى بمثل ما قمت •

وهنا أردف « جيوفانى دى سكورديو » بصوت بدا فيه التأثر وهو ينظر الى الأرض المبذورة قائلا :

ـ اننى أقول لكما الآن • أرجو الله أن يجعل ابنى بالتعميد (يقصد الطفل رايموندو) طيبا كالخبز الذى سوف يصنع من هذه الحبوب • وليحقق الله رجائى هذا •

- ٣٨ -

في صبيحة اليوم التالي تمت حفلة التعميد في صمت وسكون دون اظهار شيء من البهجة والسرور نظرا لحالة جوليانا الصحية · وقد حمل الطفل الى الكنيسة لاقامة الحفلة الدينية ، وذهبت أمي وشقيقي وابنتاي ماريا وناتاليا والآنسة اديت والمولدة والمرضع والكافاليري « جيما » لحضور هذه الحفلة · وبقيت أنا الى جانب سرير المريضة ·

كانت جوليانا تغط في نوم عميق ، وأنفاسـها المضطربة تخرج من فمها الموروب الذى كان شاحب اللون شحوب الورود المزدهرة في الظلام · وكان الظلام يملأ المخدع ، وكنت أقول في نفسى وأنا أتطلع اليها :

ـ هل لن أستطيع اذن أن أنقذها ؟ · لقد أبعدت الموت عنها · وهاهو ذا الموت يعود اليها من جديد · يقينا أنها ستموت اذا لم يحدث أى تغيير مفاجيء على صحتها · انني عندما استطعت في باديء الأمر ابعاد « رايموندو » عنها · وعندما استطعت أن أدخل عليها بعض الأوهام وأجلعها تنسى حالتها بفضل ما أظهرته نحوها من حنان · كان يبدو أنها تريد أن تبرأ من علتها ولكنها مذ رأت ابنها وبدأ عذابها من جديد أخذت حالتها تزداد سوءا يوما بعد يوم · وكان انقطاع النزيف أسوأ من استمراره · انني أحضر احتضارها · انهـا أصبحت لا تسمعني كما كانت من قبل · ولكن ممن سيأتيها الموت ؟ سوف يأتيها منه هو · انه سوف يقتلها ما في ذلك شك ··

وهنا انبعثت موجة من الحقد في أعماق نفسى ، وبدا لى أن أصبها كلهـا على رأسها · ورأيت هـذا الوليد الصغير الشرير الذى كان ينتفخ من كثرة ما يتناوله من لبن والذى كان ينمو بسلام دون أن يتعرض لأى خطر بفضل ما يحيطه به الجميع من عنايتهم واهتمامهم الزائد ·

« ترى هل تحبه أمي أكثر مما تحب جوليانا ؟ انها تهتم به أكثر من اهتمامها بهذه المحتضرة المسكينة · ويلاه · يجب أن أنتزعه انتزاعا مهما كلفنى ذلك من ثمن » ·

كان شبح الجريمة يراود مخيلتى كما كانت صورة الميت الصغير الذى لايزال على القماط والخرق وصورة تلك الجثة الصغيرة محمولة فى نعشها تتراءى أمام عينى . وكنت أقول فى نفسى :

« لعل حفلة التعميد هى حفلة الوداع الأخير » .

وكان يتراءى لى كأن جيوفانى يرفعه الى الأعلى بين ذراعيه .

شعرت بحب الاستطلاع يوخزنى وخزا . واجتذبنى ذلك المشهد الأليم ، وكانت لا تزال جوليانا فى نوم عميق . فتركت المخدع وأنا أسير على مهل وخرجت من الغرفة وناديت على « كريستينا » وكلفتها البقاء الى جانب جوليانا . ثم اتجهت بخطوات سريعة الى حيث كان المرتلون ، بينما كنت أشعر بشىء كثير من القلق يخنقنى خنقا .

كان الباب مفتوحا ولمحت رجلا راكعا على ركبتيه أمام النافذة المطلة على الكنيسة ، واذا هو « بيترو » خادمنا الأمين العجوز الذى حضر ولادتى واشترك فى حفلة التعميد . وما ان رآنى حتى نهض فى شىء من التعب . فقلت له بصوت خفيض بعد أن وضعت احدى يدى على كتفه لالزامه بالركوع كما كان:

ـ ابق . ابق فى مكانك يا « بيترو » .

وركعت أنا أيضا الى جانبه وأسندت جبينى على النافذة ونظرت الى الكنيسة امامى . وكنت أرى كل شىء فى وضوح كامل . كما أسمع التراتيل الدينية.

كانت الحفلة بدأت ، وعلمت من « بيترو » أن الطفل تلقى الملح الذى نثر عليه ، وكان خورى بلدة « توسى » المدعو « جورجيو ارتيزى » الذى أشرف على الحفلة ، وكان هو وامشبين يرتلان الأنشودة الدينية المعتادة فى مثل هذه الطقوس . الأول بصوت مرتفع والثانى من بعده بصوت منخفض . وكان جوفانى يرفع الطفل على ذراعه الأيمن . وعلى يده التى بذرت الحنطة فى اليوم السابق ويضع يده الأخرى فوق الأشرطة الناصعة البياض . كانت يداه النحيلتان والسمراوان اللتان برزت عظامهما واللتان كانتا كأنهما صهرتا من البرونز المذاب . هاتان اليدان اللتان أخشوشنت كفاهما من تأثير أدوات العمل واللتان تباركتا بذلك الخير الذى بذرتاه وبالعمل الكبير الذى قدمتاه ،

هاتان اليدان ، فيهما وهما ترفعان الى الأعلى هذا الطفل رقة وشيء من الخجل الرقيق • وفيهما شيء كثير من اللطف والحلاوة حتى انى لم أستطع التوقف عن النظر اليهما لحظة واحدة • ولم يكن الطفل « رايموندو » يبكى كما يفعل بعض الأطفال عند تعميدهم ويحرك باستمرار فمـه الذى كان مليئا بلعاب سائل ينساب من ذقنه فوق المريلة •

وبعد أن ألقى الخورى موعظته بل أصبعه بريقه ولمس به فى أذنى الطفـل الورديتيى اللون وهو يقول :

ـ افتح أذنيك •

ثم لمس بعد ذلك خياشيمه وهو يقول :

ـ لتشتم الروائح الحلوة •

ثم غمس بعد ذلك ابهامه فى الزيت المقدس •

وبينما كان « جوفانى » يحمل الطفل وهو ممدد على ذراعيه اقترب الخورى منه ورسم بالزيت صليبا صغيرا على صدر الطفل •

ولما أداره جوفانى على وجهه رســم الخورى على أعلى ظهره وبين ضلوعه صورة الصليب وهو يقول :

ـ اننى أدهنك بزيت السلامة باسم سيدنا المسيح •

ثم مسح الأجزاء التى دهنها بالزيت بقطعة من القطن الخـام وخلع رداءه البنفسجى اللون الذى هو لباس الحـداد والأحزان وارتدى الرداء الأبيض علامة على البهجة والسرور ، وهو يعلن أن الوصمة الأصيلة على وشك الزوال• ونادى على الطفل « رايموندو » باسمه ووجه اليه الأسئلة الثلاثة المقدسة • وعندئذ أجاب الشبين قائلا :

ـ آمنت • آمنت • آمنت •

كانت الكنيسة فى ذلك الوقت ممتلئة بأصوات كثيرة على غير العادة • وكان شعاع من الشمس يتسلل اليها من أحد النوافذ البيضاوية العليا ، وصل الى

لافتة رخامية مقامة فوق الأرضية التى حفرت أسفلها القبور العميقة حيث كان كثيرون من أجدادى يرقدون فى سلام · وكانت أمى وأخى واقفين الواحد منهما بجوار الآخر من وراء « جوفانى » · أما ابنتاى « ماريا وناتاليا » فكانتا تقفان على أطراف أصابعهما لكى تستطيعا رؤية الوليد الصغير يدفعهما حب الاستطلاع وتبتسمان بين الفينة والفينة وتتهامسان فيما بينهما ·

كان « جوفانى » فى بعض الأحيان يستدير قليلا عندما يسمع تلك الهمسات فى شيء كثير من اللطف ينم على ما كان يشعر به من حنان الشيخوخة نحو الأطفال · ذلك الحنان النابع من هذا القلب الكبير بوصفه جدا بقى فى هذه الدنيا وحيدا ·

وهنا سأل الخورى :

ـ هل تريد يا « رايموندو » أن تتعمد ؟

وهنا أجاب الشبين قائلا :

ـ أريد ·

وكرر الكلمة التى لقنت له ·

وهنا قدم رجل الاكليروس الاناء الفضى الذى يلمع فيه ماء التعميد المقدس· وعندئذ خلعت أمى وشاحها على الطفل الذى يحتفل بتعميده بينما كان الشبين يحمله وهو منكفيء على وجهه أثناء غسله بالماء المقدس · والرأس المستدير الذى استطعت أن أميز فيه البقع التى يضرب لونها الى البياض يتدلى نحو الاناء · وكان الخورى وهو يغترف الماء بكوب معدنى ويصبه ثلاث مرات فوق ذلك الرأس ويرسم فى كل مرة فى الهواء علامة الصليب يقول :

ـ اننى أعمدك باسم الأب والابن والروح القدس ·

وهنا أخذ « رايموندو » يصرخ بصوت عال · وكان صراخه يزداد ويعلو عندما كانوا يجففون رأسه من الماء · وعندما كان « جوفانى » يرفعه الى الأعلى مرة ثانية ، رأيت ذلك الوجه الذي احمر من فورة الدم والجهد ، والذي ظهرت

فيه ثنايا على أثر حركات فمه • وكان هو أيضا ملوثا ببقع بيضاء انتشرت على جبينه • وشعرت من بكائه وعويله بجسمي يتمزق وبقلبي يتألم • وبشيء كثير من السخط والغضب • ولم يكن ثمة شيء يضايقني بقدر ما كان يضايقني صوته وذلك العويل المستطيل الذى أقلقني كثيرا فى المرة الأولى • وكان فى فجر يوم أكتوبر المشئوم وبالنسبة لأعصابى صدمة شديدة لا تحتمل •

غمس القس ابهامه فى الماء المقدس ودهن به جبين الطفل وهو يتلو النص الدينى المعتاد الذى كان صياح الطفل وعويله يغطيان عليه ثم ألبسه الثوب الأبيض رمز البراءة •

وقال له :

ـ البس اللباس الأبيض •

ثم أعطى الشمعة المقدسة الى الشبين • وقال له :

ـ خذ المصباح المشتعل •

وهنا هدأ البرىء واتجهت عيناه نحو الشعلة الصغيرة التى كانت ترتجف فى أعلى الشمعة الملونة • وعندئذ أجلس « جوفانى سكورديو » المسيحى الجديد فوق ذراعه الأيمن وأمسك بيده اليسرى رمز النار المقدسة فى بساطة ورزانة وهو ينظر الى الراهب الذى يتلو النص الدينى • وكان يتقدم برأسه على جميع الحاضرين ، ولم يكن هناك شيء حوله ناصع البياض مثل شعره الأشيب حتى ولا ذلك اللباس الأبيض الذى ارتداه ذلك البرىء الصغير •

وعندما قال الخورى :

ـ اذهب فى سلام وسوف يكون الله معك •

رد عليه الحاضرون بقولهم :

ـ آمين •

أخذت أمى « البرىء » من يدى الشيخ وضمته الى صدرها وقبلته • وكذلك قبله أخي ، وبعده قبله جميع الحاضرين ، الواحد تلو الآخر •

أما « بيترو » الذى كان راكعا الى جانبى فكان يبكى ، وانقلبت سحنته ، وعندئذ وقفت على قدمى وخرجت واخترقت الدهاليز وأنا أعدو عدوا ودخلت فجأة الى غرفة جوليانا ٠

وهنا سألتنى « كريستينا » بصوت خافت وهى ترتعد قائلة :

ـ ماذا حدث ياسيدى ؟

ـ لا شيء لا شيء ٠ هل استيقظت ؟

ـ لا ياسيدى يبدو أنها لا تزال نائمة ٠

أزحت الستائر ودخلت مخدعها ٠ ولم ألمح فى بادىء الأمر الا بياض الوسائد ولكننى اقتربت منها وانحنيت فوقها ٠

كانت عينا « جوليانا » مفتوحتين ، وكانت تنظر الى وتحملق فى وجهى ٠ وربما خمنت من مظهرى كل ما أشعر به من ألم ، ولكنها لم تتكلم ثم أغمضت عينيها كما لو كانت لا تريد أن تفتحهما مرة ثانية ٠

ـ ٣٩ ـ

بدأت منذ ذلك اليوم الفترة الأخيرة الخاطفة من فترات ذلك الجنون الصامت الذى كان يجب أن يجرنى الى الجريمة ٠ ففيه بدأ التفكير فى أسهل وسيلة مؤكدة للقضاء على البرىء ٠

وكان فيه الاصرار البارد الحاد والمتصل الذى استولى على جميع مشاعرى الداخلية ٠ واستولت على الفكرة المحـددة استيلاء تاما بقوة وعناد لا يمكن تصورهما ٠ وبينما كان كيانى كله يضطرب بالغضب الشديد كانت الفكرة المحددة تقوده الى الأمام نحو الهدف كما لو أنه يسير صوب سلاح مسنون من الصلب بتار لا يخطىء الهدف ٠ ويبدو أن ادراكى ازداد وتضاعف ٠ ولم يكن يغيب عنى شيء فى داخلى ولا فى الخارج ٠ ولم يهدأ تحفظى لحظة واحدة ، ولم أقل شيئا أو أفعل شيئا يثير ريبة من هـم حولى أو يوجب الدهشة من تصرفى ٠ فتصنعت وتظاهرت بالهدوء باستمرار ودون انقطاع ٠ لا أمام أمي

وحـدها وأخي والآخرين الذين كانوا لا يعرفون شيئا • بل وأمام جوليانا أيضا •

كنت أبدو أمام جوليانا هادئا ساكنا وفي بعض الأحيان أبدو أمامها كأني لا أذكر شيئا مما مضى • وتجنبت بكل حرص كل اشارة الى ذلك الوليد ، وحاولت بكل الوسائل أن أرفع معنوياتها وأبث فيها الثقة بي وأطلب اليها مراعاة القواعد التي يجب أن ترد اليها صحتها • وزدت في اهتمامي بها •

أردت أن أشعر نحوها بحنان عميق ينسيني كل ما مضى حتى تستطيع أن تتذوق من جديد مباهج الحياة في شيء من الاخـلاص والصدق ووددت مرة أخرى لو أنني استطعت أن أذوب ويختلط جسدي بجسم هذه المريضة النحيل وأن أنفث فيها قليلا من قوتي وأن أهز قلبها الضعيف لأبعث فيه الحركة • وكان يبدو أنني أدفعها الى الحيـــاة يوما بيوم كما لو كنت أبث فيها قوة اصطناعية في انتظار ساعة خلاصها الأليمة • وكنت أقول في نفسي باستمرار « غدا » • وكان الغد يصل ويمر وينقضي دون أن تدق الساعة وأكرر كلمة « غدا » •

كنت مقتنعا بأن خلاص الأم هو في وفاة ابنها • كنت مقتنعا من أنه اذا اختفى هذا الوليد لابد أن تبرأ من علتها • وأقول في نفسي :

« انها لابد أن تبرأ من مرضها • وسوف تتقوى رويدا رويدا وتولد من جديد بدم جديد • وتبدو كأنها مخلوقة جديدة بعيدة عن كل دنس ، ويشعر كلانا بأننا تطهرنا من خطايانا وأصبح كل منا جديرا بصاحبه ، بعد فتـرة استغفار وتكفير طويلة مؤلمة وأن المرض والنقاهة يجب أن يبعدا تلك الذكرى الأليمة الى الأبد • وكان بودي أن أمحو من نفسها أي ظل لهذه الذكرى ، وكنت أريد أن أجعلها تنسى كل شيء نسيانا تاما بحبي لها وحبها لي ، وكنت أقول : « لسوف يبدو كل حب بشرى آخر تافها ازاء حبنا بعد هذه التجربة الكبرى» وكانت صورة المستقبل تبعث في نفسي اللهفة وتجعلني لا أطيق الصبر • والشك يزداد عندي ويؤرق مضجعي ، والجريمة تبدو لي كأنها بعيدة عن كل خطـأ ، وكنت أؤنب نفسي تأنيبا عنيفا على ذلك التـردد الذي كان يؤخرني عن تنفيذ ما صممت عليه • ولكن لم تكن هناك أية فكرة مرت بذهني عن هذا الأمر ولم أكن استطعت بعد أن أجد الوسيلة الأكيدة •

كان من اللازم أن يبدو « رايموندو » وكأنه مات موتا طبيعيا • ويجب ألا يتطرق أى شك الى ذهن الطبيب ، ولم تبد لى أية وسـيلة من الوسائل التى فكرت فيها أنها وسيلة عملية صالحة •

وفى تلك الأثناء بينما كنت أنتظر ذلك البرق الكاشف والفكرة الصالحة شعرت بأننى أنجذب بسحر غريب نحو هذه الضحية •

كثيرا ما كنت أدخل فى غرفة المرضع وقلبى يدق دقا سريعا وكنت أخشى أن تسمع هذه الدقات ، وهـذه المرضع تدعى « أنا » وكانت امرأة من بلدة « مونتجورجو باوزولا » وتنحـدر من أسرة تستوطن جبـال الألب • ولكل نسائها أجسام الرجال الأقوياء • وكانت أنا تبدو فى بعض الأحيان كأنهـا تمثال « تشيلى » النحاسى ولكن كان ينقصها التاج • وكانت ترتدى ثياب بلادها وهى تنورة قرمزية اللون بها آلاف الثنيات المنسجمة وصديرية عريضة موشاة بالذهب يتدلى منها كمان طويلان يندر أن تدخل يديها فيهما • وكان رأسها يبرز عاليا فوق قميصها الناصع البياض أسمر اللون • ولكن بياض عينيها وبياض أسنانها يطغيان على بياض ملابسها الناصع • وعيناها تبدوان كأنهما قطعتان من الزمرد الأخضر وتكادان دائما تكونان جامدتين لا تتحركان ولا تنظران الى أى شىء ولا تغمضان • وكان فمها واسعا وكل شفة من شفتيها تبتعد عن الأخرى ، كما كانت قليلة الكلام ويزين ذلك الفم صفان من الأسنان الجميلة المنضدة • أما شعرها فكان أسود اللون تتهدل خصل منه فوق جبينها الوضاح • وينتهى خلف أذنيها بضفيرتين طويلتين كأنهما قرون الكبوش • وكانت تبقى دائما جالســة فى مكانها وهى تحمل الطفـل كأنها تمثال من التماثيل • ولم يكن يبدو عليها الحزن ولا السرور •

كنت أدخل عليها والغرفة فى أغلب الأحيان يخيم عليها الظلام • وأرى « لفافة » رايموندو البيضاء فوق ذراعى هذه المرأة الربعة الصامتة القوية التى تحدق فى وجهى بتلك النظرات التى تشبه عيون تماثيل الآلهة الصماء لا تتكلم ولا تبتسم •

كنت أبقى فى مكانى فى بعض الأحيان أنظر الى الطفل وهو متشبث بذلك الثدى المستدير الذى كان أكثر بياضا من وجه صاحبته • وتبدو فيه عروقها

الزرقاء الباهتة • وكان الطفل يرضع تارة رويدا رويدا وتارة أخرى بشغف ، وطورا وهو زاهد فى الرضاع وطورا آخر وهو مقبل عليها فى جشع ونهم • وخدوده البضة تخفى حركة شفتيه • وحلقه ينبض عند كل رشفة يرتشفها وأنفه تكاد تختفى بداخل ثدى المرضع المنتفخ • ويبدو لى أننى أرى بوضوح ذلك الخير الذى يسرى فى ذلك الجسم اللين من خلال موجة اللبن المغذى الدسم الذى يرتشفه الطفل • ويبدو لى عند كل رشفة جديدة يرتشفها أنه يزداد حيوية وقوة وصمودا وشراسة وأحس بألم شديد كلما لاحظت أنه يكبر ويترعرع ويزداد ازدهارا ولا يحمل أى دليل على اصابته بأى داء • الا تلك البقع البيضاء غير الضارة • وكنت أقول فى نفسى : « ترى • ألم تضر به كل تلك الاضطرابات ، وكل تلك الآلام التى شعرت بها أمه وهو فى بطنها ؟ وألا يمكن أن يكون به عيب عضوى لم يظهر بعد ويمكن أن يتطور ويزداد فيما بعد ويكون سببا فى هلاكه ؟ »

فى يوم من الأيام تغلبت على اشمئزازى عندما وجدته عاريا فى سريره الصغير فربت عليه وفحصته من رأسه الى أخمص قدميه ووضعت أذنى على صدره لكى أسمع دقات قلبه • وهو يسترجع الى الخلف بساقيه الصغيرتين ثم يدفعهما الى الأمام بقوة ويحرك يديه السمينتين المملوءتين بالنغزات والثنيات • ويضع داخل فمه أصابعه التى كانت تنتهى بأظافره الصغيرة التى تبرز الى الخارج فى شكل دائرة صغيرة ظاهرة • وكانت حلقات اللحم اللينة تستدير حول معصميه وحول كعبيه وخلف ركبتيه وفوق خصره وأسفل بطنه •

كثيرا ما كنت أنظر اليه أثناء نومه وأنظر اليه طويلا وأنا أفكر وأعيد التفكير فى الوسيلة وأنا مشغول بصورة الميت الصغير وهو ممدد فى « لفته » فوق النعش بين باقات الزنبق البيضاء وبين أربع شموع موقدة • وكان ينام نوما هادئا • وينام دائما مستلقيا على ظهره وهو يبقى يديه منقبضتين كأنهما مستعدتان للكم • وابهام كل يد بداخلها • وشفتاه المبللتان تقومان بين الفينة والفينة بحركة الرضاع • وكنت أقول لنفسى كما لو كنت أريد أن أؤكد نيتى من جديد على ضرورة موته :

ـ ليت براءة ذلك النوم تصل الى قلبى • وليت حركة الرضاعة التلقائية

تبث الرأفة والشفقة فى نفسى · ثم أتمثل الآلام التى كان هو السبب فيها · تلك الآلام الأخيرة والعاجلة وتلك المحبة الكثيرة التى سوف يغتصبها على حساب بناتى واحتضار جوليانا وجميع الآلام وكل التهديدات التى كانت الغمامة المجهولة تصبها فوق رأسنا · وهكذا أزيد نيران رغبتى الاجرامية اشتعالا وأجدد الحكم بالاعدام على ذلك النائم · وكانت المرضع التى جىء بها من بلدة « مونتجورجو » جالسة فى الظلام فى أحد الأركان تحرس الطفل فى صمت وسكون ودون حركة كأنها تمثال أحد الآلهة · ولمعان بياض عينيها وبياض أسنانها لا يقل عن بريق الحلقات الذهبية الكبيرة ·

ـ ٤٠ ـ

فى مساء أحد الأيام (وكان ذلك فى اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر) بينما كنت أنا وشقيقى « فيديريكو » عائدين الى الضيعة لمحنا أمامنا على الطريق رجلا وعندما دققنا النظر ظهر لنا أنه « جوفانى دى سكورديو » ·

وهنا صاح أخى :

ـ « جوفانى » !

وعندئذ توقف الشيخ عن المسير واقتربنا منه ·

ـ طاب مساؤك ياجوفانى · ما وراءك من الأخبار ؟

ابتسم الشـيخ وبدأ عليه شىء من الخجل والتردد والارتباك كما لو كنا فاجأناه وهو متلبس باحدى الجرائم ·

وقال متلعثما :

ـ كنت آتيا · كنت آتيا من أجل ابنى الصغير ·

كان خجلا · وكان يبدو أنه على وشك أن يطلب الصفح على تلك الجرأة ·

وهنا سأله فيديريكو بصوت خفيض كما لو كان يقترح عليه اقتراحا فى

شيء من الكتمان • ولابد أنه فهم ذلك الشعور الطيب الحزين الذى يحرك قلب ذلك الجد الذى أصبح وحيدا فى هذا العالم •

ــ لا لا • اننى ما جئت الا لكى أسأل •

ــ اذن لست تريد أن تراه•

ــ لا •• نعم •• ربما فى ذلك ازعاج كثير •• فى مثل هذه الساعة •

وهنا قال له فيديريكو :

ــ هيا بنا •

وأمسك بيده كما لو كان يمسك بيد طفل من الأطفال •

وقال :

ــ تعال لتراه •

عدنا الى البيت وصعدنا الى غرفة المرضع •

كانت أمى هنالك • وابتسمت ابتسامة حلوة للشيخ • وأشارت لنا اشارة فهمنا منها أنها تطلب منا ألا نثير شيئا من الضجيج •

وقالت :

ــ انه نائم •

ثم اتجهت نحوى وأردفت قائلة ، وقد ظهر عليها شيء من الضيق :

ــ لقد سعل قليلا اليوم عند حلول المساء •

أقلقنى هذا الخبر • وبدا انزعاجى واضحا حتى ان أمى أرادت أن تطمئننى فأردفت قائلة :

ــ ولكن أتدرى أن سعاله كان قليلا ؟ سعل سعلة خفيفة تكاد تكون لاشيء•

كان فيديريكو والشيخ قد اقتربا من سرير الطفل ونظرا الى الصغير

النائم على ضــوء المصباح • بقى الشيخ منحنيا فوقه • ولــم يكن هناك شيء يشاهد من حوله أنصع بياضا من شعره الأشيب •

وهنا همس له فيديريكو قائلا :

ـ عليك بتقبيله •

وهنا رفع قامته ونظر الى والى أمي في شيء من الارتباك والذهول ، ثــم وضع احدى يديه على فمه وعلى ذقنه حيث كانت لحيته غير محلوقة •

وقال بصوت خافت لأخي الذى لم يكن بينه وبينه كثير من الكلفة •

ـ انني اذا قبلته لكنت أجرحه • ويقينا انه لابد أن يستيقظ من نومه •

ولما رأى أخي أن الشيخ المسكين الذى بقى وحيدا فى هذا العالم يتحرق شوقا لتقبيل الطفل شجعه بحركة أبداها له •

وعندئذ انثنى ذلك الرأس الكبير الأشيب فوق السرير رويدا رويدا •

ـ ٤١ ـ

عندما بقينا أنا وأمي فى الغرفة بمفردنا أمام السرير الذى كان رايموندو لا يزال نائما فيه والقبلة لا تزال مرتسمة فوق جبينه • قالت لى فى شيء من العطف :

ـ له الله ذلك الشيخ المسكين ! أتعرف انه يكاد يأتى هنا كل مساء ؟ ولكنه يأتى خفية • قد قال لى ذلك « بيترو » الذى رآه وهو يحوم حول المنزل • وقد أراد فى يوم التعميد أن يرشدوه الى نافذة هذه الغرفة • وربما كان ذلك لكى يأتى للتطلع اليها •• يا له من شيخ مسكين ! لشد ما يؤلمنى منظر هــذا الشيخ •

كنت أصغى الى أنفاس رايموندو المترددة • ولم يكن يبدو لى أنها تتغير أو تتبدل • كان ينام نوما هادئا •

وعندئذ قلت :

ــ اذن سعل اليوم ٠٠

ــ نعم ياتوليو ٠ سعل قليلا ٠ ولكن لا يجب أن تشغل بالك أو أن تقلق ٠

ــ ربما أصابه شيء من البرد ٠

ــ لا يبدو لى أن من الممكن أن يكون قد أصابه البرد مع كل هذه الاحتياطات ٠

وهنا تبادرت الى ذهنى فكرة خاطفة وانتابتنى رجفة شديدة على حين غرة ٠ وصار اقتراب أمى منى فجأة أمرا لا يحتمل ٠ فشرد ذهنى واضطربت وخشيت أن تخوننى قواى ٠ كانت الفكرة تضطرب فى نفسى فى شيء كثير من الوضوح وفى شيء كثير من القوة حتى اننى خفت وقلت لنفسى :

« لابد أن يظهر شيء على وجهى » وكان هذا خوفا لا جدوى منه ٠ ولكننى لم أكن أستطيع السيطرة على نفسى ، فتقدمت خطوة الى الأمام وانحنيت فوق السرير ٠

أدركت أمى شيئا ما ٠ ولكن فى صالحى لأنها أردفت قائلة :

ــ ما أشد قلقك ! ألا تسمعه وهو يتنفس تنفسا هادئا ؟ ألا ترى كيف يغط فى نومه فى هدوء ؟

ولكنها رغما مما قالته لى كان يبدو فى صوتها شيء من الضيق والقلق ولم تستطع أن تخفى عنى قلقها واضطرابها ٠

فأجبتهاقائلا :

ــ نعم ٠ هذا صحيح ٠ لن يكون هناك ذو بال ٠٠ أتبقين هنا ؟

ــ سأبقى طالما لم تعد المرضع « أنا » ٠

ــ اننى ذاهب ٠

انصرفت ٠ وذهبت الى جوليانا ، وكانت فى انتظارى ٠ وكان كل شيء معدا لعشائها الذى اعتدت أن أتناول جزءا منه لكى تبدو أمامها مائدتها الصغيرة أقل رداءة وكان تناولى من هذا الطعام واهتمامى بها يشجعانها على تناوله ٠

وأتظاهر أمامها سواء فى حركاتى أو فى أقوالى بالسرور والمرح لا أثبت على حالة واحدة • اذ كنت فريسة لنوع خاص من التأثر السريع أحس به وأعرفه معرفة دقيقة وكنت أستطيع السيطرة على نفسى ، ولكن لم يكن بوسعى تهدئة روعى فشربت خلافا لعادتى كوبين أو ثلاثة أكواب من نبيذ « بورجونيا » الذى وصفه الطبيب لزوجتى جوليانا ، وأردت أن تحتسى هى الأخرى بعض رشفات أكثر من القدر المسموح به •

وقلت لها :

ـ انك تشعرين بشىء قليل من التحسن •• أليس هذا صحيحا ؟

ـ نعم • نعم •

انك لو صرت مطيعة • فانى أعدك بأن أجعلك تقومين من فراشك فى عيد الميلاد • ولا تزال أمامنا الآن عشرة أيام • وانك اذا أردت أن تصيرى قوية فى مدى عشرة أيام فارتشفى رشفة أخرى ياجوليانا •

كانت تنظر الى فى شىء من الدهشة وفى شىء من الاستغراب وهى تبذل شيئا من الجهد لكى تعيرنى كل انتباهها • وربما كانت منهوكة القوى • وربما جفونها بدأت تثقل على عينيها • وضعها وهى جالسة يثير فيها بعد وقت معين أعراض الذهول الفكرى •

بللت شفتيها فى الكوب الذى قدمته اليها • وعندئذ استطردت قائلا :

ـ قولى لى • أين تريدين أن تقضى فترة نقاهتك ؟

وهنا ابتسمت ابتسامة خفيفة •

ـ هل تريدين أن تقضى هذه الفترة على شاطىء « الريفييرا » ؟ هل تريدين أن أكتب الى « أوجوستو اريتشى » لكى يبحث لنا عن احدى الفيللات • ليت « فيلا جينوزا » كانت مهيأة للسكنى ! أتذكرينها ؟

وهنا ابتسمت ابتسامة أكثر ضعفا من ابتسامتها الأولى •

ـ هل أنت متعبة ؟ ربما يتعبك صوتى كثيرا ••

لاحظت أنها كانت على وشك أن تقع مغشيا عليها • فسندتها • ونزعت الوسائد التى كانت ترفع جسمها ، وأضجعتها بحيث جعلت رأسها أكثر انخفاضا من ذى قبل وأسعفتها بالوسائل المعتادة • وما هى الى لحظات قليلة حتى استعادت حواسها • فغمغمت قائلة وكأنها فى حلم من الأحلام :

ــ نعم • نعم • لنذهب ••

ــ ٤٢ ــ

انتابتنى نوبة غريبة من نوبات الاضطراب والقلق • تبدو حينا كأنها نوبة بهجة مضطربة وحينا آخر أشبه ما تكون بالضيق والضجر الشديد وبرغبة جامحة لاتحتمل• كما كانت طورا تبدو فى شكل حاجة كرؤية شخص معين أو الذهاب للبحث عن أحد الناس ، أو التحدث والافاضة بالحديث للتفريج عن كربتى • وطورا فى الاتجاه الى مكان أمين للبقاء فيه وحيدا مع نفسى والنظر الى أعماق نفسى ولتطوير أفكارى ولكى ابحث وأقلب النظر فى جميع تفاصيل الحادث المقبل والاستعداد له • وهذه الحركات المختلفة والمتعارضة وغيرها من الحركات التى لا عد ولا حصر لها والتى لا يمكن وصفها أو تأويلها تتوارد على ذهنى الواحدة تلو الأخرى فى سرعة عجيبة •

كانت تلك الفكرة التى ومضت فى ذهنى وتلك الشعلة العابرة من الضوء المشئوم يبدو أنها أوضحت فجأة حالة من حالات ضميرى كانت موجودة من قبل • ولو أنها غارقة فى الظلام • ويبدو كأنها أيقظت طبقة عميقة من طبقات ذاكرتى • وشعرت بأننى قد تذكرت ، ولكن بأى جهد تذكرت • ولم أتوصل الى العثور على أصل الذكرى ولم أكتشف طبيعتها •

يقينا اننى تذكرت •

ترى • هل كانت ذكرى مطالعة قديمة من مطالعاتى ؟ ترى هل قد وجدت حادثا مماثلا مذكورا فى بعض الكتب ؟ أو أن انسانا فى وقت ما كان قص على ذلك الحادث كما وقع فى الحياة الطبيعية ؟ أم أن ذكرى ذلك الشعور كانت شيئا وهميا • ولم تكن سوى نتيجة لتداعى بعض الأفكار الغريبة

للبعض الآخرى ؟ يقينا ان « الوسيلة » أوحى لى بها شخص أجنبى • ويبدو لى أن شخصا قد جاء فجأة لاخراجى من هذا التردد بأن قال لى : « يجب أن تفعل هذا • كما فعل ذلك الآخر الذى كان فى حالة تشبه حالتك » ولكن ترى من كان ذلك الآخر ؟ يقينا أننى لابد انى عرفته بطريقة أو بأخرى • ولكنى لم أستطع رغم الجهود التى بذلتها أن أبعده عنى أو أن أتخذه لى هدفا • ولكن من المستحيل على أن أصف الحالة النفسية التى كنت فيها • كانت لدى المعرفة بسلسلة من الأعمال التى مر بها رجل عند تنفيذ نية معينة • على أن ذلك الرجل الذى كان سلفى كنت أجهله كل الجهل • ولم يكن فى وسعى أن أضم الى هـذه المعلومات الصور الخاصة دون أن أضع نفسى فى مكان ذلك الرجل • اذن فانى كنت أرى نفسى أقوم بتلك الأعمال الخاصة التى قام شخص آخر بعملها من قبل وأن أقلد مسلك انسان آخر فى حادث شبيه بحالتى • وينقصنى الشعور بالقدرة على العمل من تلقاء نفسى •

وعنـدما خرجت من غرفة جوليانا قضيت بضع دقائق فى تردد وأنا أدور فى الدهاليز على غير هدى دون أن أقابل أحدا • واتجهت نحو غرفة المرضع وأخذت أسترق السمع وأنا على بابها • فسمعت صوت أمى الخفيض وابتعدت عن الباب •

ترى ألم تتحرك من مكانها ؟ ألا يمكن أن يكون الطفل اعترته نوبة شديدة من نوبات السعال ؟ اننى كنت أعرف حق المعرفة ذلك الربو الشعابى الذى يصاب به الأطفال حديثو العهد بالولادة • والأمراض الشديدة ذات المظاهر الخداعة • وتذكرت الخطر الذى تعرضت له ابنتى ماريا عنـدما كانت فى الشهر الثالث من عمرها • وتذكرت كل الأعراض التى ظهرت عليها • وأذكر أن ماريا عطست عدة مرات وسـعلت سـعالا خفيفا • وأظهرت ميـلا كبيرا للنعاس • فقلت فى نفسى :

ـ من يـدرى ! اننى اذا انتظرت • واذا لم يجرفنى التيار فربما تدخلت العناية الالهية فى الوقت المناسب » • وهـكذا أكون نجوت • وتراجعت الى الخلف ، وأرهفت السمع من جديد ، وسمعت مرة ثانية صوت أمى • فدخلت، وسألتها دون أن أخفى ما كنت أشعر به من رجفة قائلا :

ـ اذن • كيف حال رايموندو ؟

ـ بخير • انه هادىء • انه يسعل مرة ثانية ويتنفس تنفسا طبيعيا • وحرارته عادية • انظر انه يرضع •

بدا لى فى الواقع أن أمى أصبحت مطمئنة هادئة • وكانت المرضع « أنا » جالسة فوق السرير وتعطى لبنها للطفل الذى كان يمتصه بشراهة • ويحدث بين الفينة والفينة ضجة صغيرة بشفتيه أثناء رضاعه •

وكانت « أنا » مطأطئة الرأس وعيناها تحدقان فى أرض الغرفة وكأنها تمثال جامد من البرونز • وكانت شعلة المصباح المرتجفة تلقى أضواء وظلالا على تنورتها السوداء •

قلت عندما شعرت بشىء من الاختناق :

ـ أليس الجو حارا هنا ؟

وفى الحق أن الغرفة كانت شديدة الحرارة • وفى ركن من أركانها فوق قبة أحد المواقد كانوا يجففون بعض قطع القماش واحدى « لفات » الطفل • ويسمع أيضا صوت مياه فى دور الغليان • كما يسمع بين آن وآخر صوت ارتجاج الزجاج من أثر الرياح التى تهب وتعصف •

وهنا غمغمت أمى قائلة :

ـ يا لها من ليلة عاصفة •

هذا • وانى لم أتحدث عما عدا ذلك مما كنت أسمعه من جلبة وضوضاء •

كنت أصغى لصوت الرياح فى شىء كثير من الانتباه والقلق • وشعرت برعدة سرت فى عظامى • كما لو كان قد تغلغل فيها خيط من تلك الرياح الباردة • ذهبت نحو النافذة • وعندما كنت أفتح احدى « دلفتيها » كانت أصابعى ترتعد • فأسندت جبينى على الزجاج ونظرت الى الخارج ، ولكن الغمامة التى خرجت من نفسى كانت تمنعنى من الرؤية ، فرفعت عينى الى الأعلى ولمحت السماء المرصعة بالنجوم من خلال الزجاج •

وقلت بعد أن ابتعدت عن فتحة النافذة :

ـ ان السماء صافية ٠

وكنت أرى في قرارة نفسى صورة الليلة القاسية القاتلة ٠ بينما نظراتى تقع على رايموندو الذى كان لا يزال متشبثا بثدى المرضع ٠

وهنا سألتنى أمى فى شىء من الحنان واللطف قائلة :

ـ هل تناولت جوليانا عشاءها هذا المساء ؟

فأجبتها فى شىء من الجفاء قائلا :

ـ نعم ٠

وقلت لنفسى :

ـ ألم تجدى طوال ساعات هذا المساء دقيقة واحدة تأتين فيها لرؤيتها ليست هذه هى المرة الأولى التى تهملينها ٠ لقد أعطيت كل قلبك ومحبتك الى رايموندو ٠

ـ ٤٣ ـ

فى صبيحة اليوم التالى فحص الدكتور « جيما » الطفل ٠ وقرر أنه سليم معافى ولم يعر أية أهمية لمسألة السعال التى ذكرتها له أمى ٠ ورغما من أنه كان مسرورا من العناية والاهتمام البالغين فانه أوصى بعمل الاحتياطات اللازمة من البرد اللاذع فى تلك الأيام ٠ وأوصى بمنتهى الحزم والحذر فيما يتصل بالاغتسال والاستحمام ٠

كنت حاضرا عندما كان يتحدث عن هذه الأمور أمام « جوليانا » ٠ وتقابلت عيناى مرتين أو ثلاث مرات مع عينيها فى لمحات خاطفة ٠

اذن ، فلن تأتى المعونة من العناية الالهية ٠ ومن اللازم أن أعمل ٠ ومن اللازم الافادة من اللحظة المناسبة والتعجيل بالحادث ٠ صممت على ذلك ٠

انتظرت حتى المســاء وقررت ارتكاب الجريمة · استجمعت كل ما كان متبقيا لدى من قوة وتغلبت على ترددى ودرست جميع أقوالى وجميع أفعالى · لم أقل شيئا ولم أفعل شيئا من الممكن أن يثير الشبهة أو يوجب الدهشة ·

ولم أهمل احتياطاتى لحظة واحدة ولم أشعر لحظة واحدة بالضعف العاطفى وكانت حساســيتى الداخلية مكبوتة ومختنقة · وفكرى يركز جميع مواهبه الصالحة فى الاستعداد للوصول الى حل مسألة مادية · ومن اللازم أن أبقى فى المساء وحيــدا مدى دقائق قليــلة مع المولود الصغير فى شىء كثــير من الاطمئنان ·

دخلت أثناء النهار الى غرفة المرضع مرات عديدة · وكانت « أنا » دائما فى مكانها لا تتحرك ولا تتزحزح كأنها حارس يقظ · وكلما أوجه اليها أى سؤال ترد على بكلمات من مقطع واحد · ولها صوت أجش له طابع فريد فى نوعه · وكان سكونها وعدم حركتها يضايقاننى أشد الضيق ·

وهى فضــلا عن هذا لا تبتعد عن الطفل الا فى أوقات تناولهــا الطعام · ولكن تحل محلها فى أغلب الأحيان أمى أو الآنسة « اديت » أو « كريستينا » أو أية امرأة أخرى من خادمات المنزل ·

ومن الممكن فى تلك الحالة الأخيرة أن أتخلص بســهولة من الشاهد بأن أصدر له أمرا ليقوم بتنفيذه ولكن يبقى دائما خطر حضور أحد آخر فجأة فى تلك اللحظة ·

كنت علاوة عــلى ذلك تحت رحمة الخطر ولــم يكن فى مقدورى أن أختار الانسانة التى تحل محل المرضع ، اذ كان من المحتمل أن تكون فى تلك الليلة أو فى الليالى التالية هى أمى · ومن جهة أخرى يبدو لى أنه من المســتحيل اطالة أمد ترقبى وقلقى الى أجل غير معين وأن أبقى بالمرصاد وقتا طويلا وأن أعيش فى انتظار دائم للساعة المشئومة ·

بينما كنت فى مكانى مترددا دخلت الآنســة ايديت ومعها ابنتاى ماريا وناتاليا · وما أن رأتنى ابنتاى الصغيرتان المحبوبتان اللتان كانتا منتعشتين

بعد عدوهما فى الهواء الطلق واللتان كانتا متدثرتين بمعطفيهما المصنوعين من الفراء وتغطيان رأسيهما بقبعتين من ذلك الفراء ، وأيديهما مدسوسة فى قفازيهما وخداهما أكسبهما البرد لونا قرمزيا ـ حتى ارتمتا على صدرى فى شيء من المرح والطيش • وبقيت الغرفة مليئة بأصواتهما المشجية مدى بضع دقائق •

قالت لى ماريا :

ـ أتعرف يا أبى ؟ لقد حضر الجبليون • وفى هذا المساء سوف تبدأ تراتيل عيد الميلاد فى الكنيسة • ليتك كنت ترى نموذج « المذود » الذى صنعه « بيترو » • أتعرف أن جدتنا وعدتنا باحضار شجرة عيد الميلاد ؟ أليس صحيحا يا آنسة ايديت ؟ •• يجب أن نضعهما فى غرفة أمى •• ولسوف تبرأ الأم من مرضها قبل عيد الميلاد • أليس هذا صحيحا ؟ بالله عليك يا أبى دعها تبرأ من علتها •

وقفت ناتاليا تنظر الى رايموندو • وكانت بين الفينة والفينة تضحك ملء شدقيها منه وهو يحرك ساقيه دون توقف كما لو أنه يريد التخلص من « لفته » •

أرادت أن تلهو وقالت :

ـ أريد أن أحمله بين ذراعى •

وانقضت عليه لكى تحمله • واستجمعت كل قواها ورفعته من مكانه • وبدت الرزانة على وجهها كما تفعل عندما كانت تمثل دور الأم مع دميتها •

وعندئذ صاحت ماريا قائلة :

ـ الآن أحمله أنا •

وهكذا انتقل الأخ الزائف من احداهما الى الأخرى دون أن يبكى • ولكن

(يقصد المذود الذى ولد فيه المسيح) •

« ماريا » فى لحظة ما بينما كانت تحمله وتدور به فى الغرفة تحت رقابة الآنسة ايديت تعثرت وكان الوليد على وشك السقوط من بين يديها • ولكن الآنسة ايديت أسندته وأخذته منها وأرجعته الى المرضع التى كانت مستغرقة فى التفكير وبعيدة عن جميع الأشياء والأشخاص الذين يحيطون بها •

وعندئذ قلت وأنا أواصل فكرة مكتومة :

ـ اذن • سوف تبدأ هذا المساء تراتيل عيد الميلاد •

ـ نعم نعم هذا المساء •

كنت أنظر الى « أنا » التى بدا كأنها انتفضت وأخذت تبدى اهتماما غير عادى بما يجرى من حديث •

قلت لماريا :

ـ كم عدد الجبليين ؟

فردت وكان يبدو أنها أحاطت علما بكل شيء وبمنتهى الدقة قائلة :

ـ خمسة ، زماران وعازفان على الصفارة وعازف على الناى •

وأخذت تضحك وهى تكرر الكلمة الأخيرة لاثارة أختها :

وهنا قلت وأنا أتوجه بنظرى نحو المرضع « أنا » :

ـ انهم آتون من بلادك • وربما كان بينهم واحد من « مونتجورجو » •

وكانت عيناها قد فقدتا جود الزمرد اللتان تبدوان به وتحركتا وبدأتا تلمعان وقد تبللتا بالدمع وبدت فيهما علامات الحزن والأسى • كما بدا وجهها كله وقد تغيرت ملامحه بسبب شعور غير عادى شعرت به • وقد فهمت أنها كانت تتألم وأن الحنين الى الوطن كان هو ما تعانيه •

نزلت الى الكنيسة ورأيت الاستعدادات القائمة على قدم وساق للاحتفال بعيد الميلاد : المذود والزهور والشموع وقد خرجت دون أن أدرى السبب فى خروجى • وألقيت نظرة على نافذة حجرة رايموندو •

مشيت بخطى سريعة ذهابا وايابا فى الساحة ، وأنا أؤمل السيطرة على رعدتى الشديدة والبرد القارص الذى كان يتغلغل فى عظامى والتشنجات التى كانت تضغط على معدتى الخاوية •

كانت أمسية باردة والجو قاتما • وكانت السحب الزرقاء الداكنة والتى تميل الى الخضرة تنتشر فوق الأفق البعيد فى آخر ذلك الوادى السحيق الذى يبدو أسفله نهر « اسورو » المتعرج •

كان النهر هو الشيء الوحيد الذى كان يلمع فى هذه الظلمات •

وهنا انتابنى رعب شديد •

وقلت فى نفسى :

ــ ترى هل أنا خائف ؟

كان يبدو لى أن هناك شخصا خفيا ينظر الى نفسى ، وأحسست بذلك الألم الذى تحدثه النظرات الشذراء المغناطيسية •

وقلت فى نفسى :

ــ ترى هل أنا خائف ؟ ولكن من أى شيء ؟ •• هل من ارتكاب الجريمة أو من أن يكتشف انسان فعلتى ؟

كانت تخيفنى ظلال الأشجار الكبيرة واتساع القبة الزرقاء ولمعان نهر « اسورو » وكل تلك الأصوات الغامضة التى كانت تسمع فى الحقول • ومن جرس الكنيسة معلنا « صلاة الملائكة » ••

فعدت أدراجى فى شيء من العجلة وأنا أكاد أفر خوفا من أن يكون هناك من يتتبع خطواتى ••

التقيت بوالدتى فى الممر الذى لم يكن قد أضيىء بعد • وما ان رأتنى حتى قالت لى :

ـ من أين تأتى ياتوليو ؟

ـ من الخارج • لقد تنزهت قليلا •

ـ ان جوليانا تنتظرك •

ـ فى أية ساعة يبتدىء الاحتفال ؟

ـ فى الساعة السادسة •

كانت الساعة وقتذاك قد بلغت الخامسة والربع • وكانت لا تزال أمامنا ثلاثة أرباع الساعة • وكان من اللازم القيام بدورة أخرى •

ـ اننى ذاهب يا أماه •

وبعد أن سرت بضع خطوات ناديتها • وقلت لها :

ـ ألم يعد فيديريكو ؟

ـ لا •

صعدت الى غرفة جوليانا وكانت فى انتظارى • وكانت كريستينا تعد المائدة الصغيرة •

سألتنى المريضة المسكينة فى لهجة تنم على شىء من العتاب قائلة :

ـ أين كنت حتى هذه الساعة ؟

ـ كنت هناك مع ماريا وناتاليا •• وقد ذهبت لأرى الكنيسة •

وهنا غمغمت فى شىء من الحزن والانكسار قائلة :

ـ أجل • فى هذا المساء يبتدىء الاحتفال •

ـ ربما يكون فى مقدورك أن تسمعى الأنغام من هنا •

بقيت مفكرة فترة من الوقت • وبدا لى أنها كانت تشعر بحزن شديد من تلك الأحزان التى تنم على قلب ملىء بالبكاء • وفى حاجة الى الدمع •

فسألتها قائلا :

ـ فيم تفكرين ؟

ـ انني أذكر أول عيد ميلاد قضيناه في الضيعة · هل تذكر شيئا عنه ؟

كانت في تلك اللحظة ضعيفة ويبدو عليها التأثر · وكانت تستدر حناني واشفاقي ·

كانت مستسلمة لى لكى أداعبها وأرفه عنها ولكى آخذها بين ذراعى ولكى أضغط على قلبها وارتشف دموعها · وكنت على علم بآلامها المحزنة وبما تشعر به من ضعف وخور وبما تحس به من أحزان لا نهاية لها · ولكنى كنت أقول فى نفسى وأنا أشعر بكثير من القلق :

ـ يجب ألا أقوم بمساعدتها · يجب ألا أبقى مرتبطا بهـا فالزمن يمر · وأنها اذا ما استبقتنى معها سوف يكون من العسير على التخلص منها · واذا ما بكت فاننى لن أستطيع الابتعاد عنها ويجب أن أسيطر عـلى نفسى · ان الوقت ينقضى بسرعة ·

ترى من ذا الذى سوف يبقى للسهر على رايموندو · يقينا ليست أمى · ومن المحتمل أن تكون هى المرضع · وسيحتشد جميع الآخرين فى الكنيسة · وعندئذ سوف أضع كريستينا محلها ولسوف أكون واقفا· وأن الظروف لايمكن أن تكون مواتية لى أكثر من ذلك · يجب أن أتخلص منه بعد عشرين دقيقة · وأبقى حرا ·

تجنبت اثارة المريضة · وتظاهرت بأننى لا أفهم ما تريد ولم أوافقها على رغبتها وحاولت أن أشغلها ببعض الأشياء المادية · وعملت عـلى ألا تتركنا كريستينا بمفردنا كما كانت تفعل فى ليالى البهجة الأخرى وشغلت نفسى باعداد عشائها فى اهتمام بالغ ·

سألتنى قائلة :

ـ لماذا لا تأكل معي هذه الليلة ؟

ــ لا أستطيع أن أتناول شيئا فى هــذه الساعة · ان صحتى ليست عــلى ما يرام · أرجوك أن تأكلى أنت شيئا ما ·

ورغما من كل مابذلت من جهود لم أستطع اخفاء القلق الذى كان ينهشنى اخفاء تاما · نظرت الى أكثــر من مرة · وكانت نيتها ظاهرة فى التغلغل فى صميم نفسى · ثم أسبلت جفنيها بغتة وبقيت صامتة · وتناولت شيئا قليلا من الطعام وبللت شفتيها فى الكوب · وهنا استجمعت كل قواى وشجاعتى وعزمت على الانصراف وتظاهرت بأننى أسمع قرقعة عجلات احدى العربات ، وأرهفت السمع وقلت :

ــ ربما يكون فيديريكو عاد · اننى فى حاجة الى أن أراه فى الحــال ·· اسمحى لى أن أنزل الى الأسفل لحظة · ولسوف تبقى هنا كريستينا ·

رأيت وجهها تغير كما لو كانت عــلى وشك الشــهيق والبكاء · لم أنتظر موافقتها · وخرجت مسرعا · ولكن لــم أنس أن أكرر رجائى الى كريستينا فى البقاء معها حتى أعود ·

وما ان صرت فى الخارج حتى وجدتنى مضطرا للتوقف لكى أقاوم ما كنت أشعر به من ألم وهلع · وقلت فى نفسى :

ــ اننى اذا لم أســتطع السيطرة عــلى أعصابى ضــاع كل شيء · أرهفت السمع · ولكني لم أســمع الا خلجات أعصابى · وسرت قدما فى الممر حتى وصلت الى السلم دون أن ألتقى بأحــد · كان السكون يخيم عــلى البيت · وعندئذ قلت لنفسى :

ــ انهم الآن جميعا فى الكنيسة حتى الخــدم · ليس هنــاك ما أخشاه · فانتظرت دقيقتين أو ثلاثا أخرى لاستجمع أعصابى · وفى هاتين الدقيقتين أو الثلاث تبادر الى ذهنى كل ما اعتزمت عليه · وهنا شعرت بذهول عجيب · فقد مرت بذاكرتى أفكار غامضة لا معنى لها بعيدة كل البعد عن الأمر الذى كنت عى وشك القيام به ·

أخذت أحصي آليا أعمدة السور · وكنت أقول في نفسي :

ـ يقينا . ان « أنا » لا تزال موجودة وغرفة « رايموندو » ليست بعيدة عن الكنيسة . ولسوف تعلن الأنغام بداية التراتيل الدينية . اتجهت صوب الباب وقبل أن أصل اليه سمعت مطلع معزوفة المزمار ودخلت دون تردد ولم أكن مخدوعا فيما ذهبت اليه .

كانت المرضع « أنا » واقفة على قدميها علـى مقربة من مقعدها منتصبة القامة حتى أنى فهمت أنها فى هذه اللحظة نهضت من مكانها عندما سمعت صوت مزمار بلادها فى مطلع معزوفة الرعاة القديمة . فسألتها قائلا :

ـ هل هو نائم ؟

فأشارت لى برأسها بالايجاب .

كانت الأنغام مستمرة ولكنها غير واضحة تماما بسبب بعد المسافة وكانت أنغاما حلوة يبدو لسامعها أنه فى حلم من الأحلام وكان فيها شيء من الخشونة كما كانت مستطيلة بطيئة . وكانت أصوات الصفير واضحة عند عزف الأنغام البسيطة التى لا تنسى . وكانت تطغى على أصوات المزامير .

قلت للمرضع :

ـ اذهبى أنت أيضا الى الحفلة . وسأبقى أنا هنا .

وسألتها قائلا :

ـ من أى وقت بدأ فى النوم ؟

ـ انه نائم الآن .

ـ اذهبى . اذهبى اذن الى الاحتفال .

وهنا لمعت عيناها وقالت :

ـ هل أذهب ؟

ـ نعم . اذهبى . اذهبى . ولسوف أبقى أنا هنا .

فتحت لها الباب أنا بنفسي . وأغلقته من ورائها وهرعت نحو السرير على

أطراف أصابعي ونظرت اليه عن كثب · وكان « البرىء » ينام فى « لفته » على ظهره · وقد أغلق يديه الصغيرتين وأبقى ابهاميه بداخلهما وكانت تبدو أمامي من خلال أهدابه عيناه الرماديتان · ولكنني لم أشعر فى نفسى بشىء من الحقد الأعمى أو الغضب منه ·

وكانت خصومتي أقل عنفا منها فى أى وقت مضى · وينقصنى كذلك الدافع الغريزى الذى شعرت به أكثر من مرة يجرى فى دمى حتى أطراف أصابعي التى كانت على أهبة الاستعداد لارتكاب أى عمل من أعمال العنف الاجرامية · ولم أخضع الا لدافع ارادة باردة واضحة وأنا فى كامل وعيى ·

عدت الى الباب وفتحته ثانية · وتأكدت من أن الممر كان خاليا · وعندئذ هرعت الى النافذة وخطرت ببالى بعض كلمات قالتها أمى · وساورنى الشك فى أن جوفانى دى سكورديو قد يكون هناك فى أسفلها فى الساحة · ففتحتها بمنتهى الحيطة · وهنا صدمتنى موجة من الهواء البارد وأطللت من فوق قاعدة النافذة للتطلع · ولم أجد أى شىء يثير الريبة · ولم أسمع الا صوت الصلوات الدينية التى كان صداها يتردد فى الجو · وعندئذ تراجعت واقتربت من السرير وتغلبت بجهد شديد على اشمئزازى وأمسكت الطفل رويدا رويدا وأنا أكتم قلقى · وأبعدته عن قلبى الذى كان يخفق خفقانا شديدا وحملته الى النافذة وعرضته للهواء البارد الذى كان يجب أن يكون سببا فى موته ·

لم أفقد صوابى · ولم تخنى أية حاسة من حواسى · بل رأيت نجوم السماء وهى تتلألأ كما لو كانت هناك ريح عاتية تثير فيها الاضطراب · ورأيت الحركات الوهمية المخيفة التى كان ضوء المصباح المضطرب يرسمها على ستارة الباب · وسمعت صوت أنشودة الرعاة واضحة جلية ، ونباح كلب صادر من بعيد · ولكن الطفل طفر طفرة جعلتنى أنتفض · اذ كان استيقظ من نومه ·

قلت فى نفسى :

ـ انه الآن سيبكى · ترى كم من الوقت مضى ؟ من الممكن أن تكون قد مضت دقيقة · لم تمض حتى ولا دقيقة · هل يكفى هذا الأثر البسيط لقتله ؟ ترى هل أصيب بنزلة شعبية قاضية ؟ · حرك الطفل ذراعيه الى الأمام ،

وأدار فمه ثم فتحه . تأخر قليلا فى اطلاق صراخه الذى بدا لى أنه تغير عن ذى قبل وأصبح أضعف مما كان وأكثر ارتجافا ولكن ربما كان ذلك لأنه كان يرن فى هواء آخر لأننى كنت أسمعه دائما فى أماكن مغلقة . كان ذلك البكاء الضعيف المرتجف يملؤنى بالخوف والفزع . وسبب لى بغتة خوفا جنونيا .

جريت الى السرير ووضعت الطفل فى مكانه وعدت الى النافذة لاغلاقها ولكننى قبل اغلاقها أطللت من فوق قاعدتها . وألقيت نظرة فى الظلام . ولكننى لم أر شيئا آخر سوى النجوم . فأغلقت النافذة ورغما مما أشعر به من الخوف تجنبت الضجيج وكان الطفل يبكى من خلفى . ويبكى بصوت عال . وكنت أقول لنفسى :

ـ ترى هل نجوت وهل لم يرنى أحد ؟

هرعت الى الباب ونظرت الى الممر وأرهفت السمع . وكان الممر خاليا . وموجة الأنغام البطيئة تمر به .

وكنت أقول لنفسى :

ـ اذن لقد نجوت . من ذا الذى يستطيع رؤيتى ؟

وكنت لا أزال أفكر فى جوفانى دى سكورديو عندما يتطلع الى النافذة . ولا أزال أشعر بشىء من الضيق والقلق .

وأقول لنفسى :

ـ ولكن لا . لم يكن هناك أحد فى الأسفل . لقد نظرت مرتين . واقتربت مرة ثانية من السرير وعدلت جسم الطفل وغطيته بعناية وتأكدت من أنه ليس هناك شىء فى غير موضعه .

كان يبكى ويستمر فى البكاء .

ماذا كنت أستطيع أن أعمل لتهدئته وتسكينه ؟ انتظرت ولكن ذلك النشيج المستمر فى تلك الغرفة المنعزلة وذلك الأنين الغامض الذى يخرج من فم الضحية المجهولة كان يقطع نياط قلبى ويعذبنى عذابا أليما حتى اننى لم

أستطع الصبر فقمت لكى أتخلص بأية طريقة من الطرق من ذلك العذاب ٠ خرجت الى الممر وأغلقت الباب من ورائى وبقيت هناك أترقب وأقوم بالحراسة٠ كان صوت الطفل يكاد لا يبلغ مسمعى ويختلط بموجة الأنغام البطيئة ٠ وهذه الأنغام تستمر ولكن بعد المسافة يغطى عليها ٠ وكانت حلوة يعتقد من يسمعها كأنه حلم من الأحلام ٠ فيها شىء من الخشونة وفيها استطالة وبطء ٠ وأصوات الصفير الواضحة تصور الأنغام المحزنة البسيطة وتغطى على أصوات المزمار ٠ وكان صوت أنشودة الرعاة ينتشر فى ذلك البيت الهادىء الكبير ، وربما يصل الى نوافذه البعيدة ٠ ترى هل كانت جوليانا تسمعها ؟ ترى فيم تفكر جوليانا الآن وبماذا تشعر ؟ هل تبكى ؟

لا أدرى لماذا دخل فى قلبى هذا الاعتقاد ٠ اذ كنت أقول :

ــ انها تبكى ٠

ونشأت عن ذلك الاعتقاد صورة قوية واضحة أعطتنى فكرة واقعية عميقة٠ وكانت الأفكار والصور التى مرت بذهنى غير متجانسة متقطعة غير معقولة مؤلفة من عناصر لا يتجاوب بعضها مع البعض الآخر ٠ لا يمكن فهمها أوالاحاطة بها ذات طبيعة مريبة ٠ فانتابنى خوف جنونى وسألت نفسى قائلا :

ــ كم من الوقت مضى ؟

وأدركت أننى فقدت كل معرفة بالوقت ٠ ثم توقفت الأنغام والعزف ٠

فقلت فى نفسى :

ــ لقد انتهت الصلاة ٠ والمرضع « أنا » على وشك الصعود ٠ وربما تأتى أمى ٠ عجبا كيف لا يبكى رايموندو بعد ؟

ودخلت الغرفة مرة ثانية ٠ ألقيت نظرة حولى لكى أتأكد مرة ثانية من أنه لم يبق أى أثر للاعتداء ٠ واقتربت من السرير ، وأنا لا أخلو من خوف غامض من أن أجد الطفل قد فقد الحياة ٠ كان نائما على ظهره وقد أغلق كلتا يديه ووضع ابهام كل يد فى داخلها وقلت فى نفسى :

ــ عجبا ٠ انه نائم ! ان هذا أمر لا يمكن تصديقه ٠ يبدو أنه لم يحدث شىء ٠

بدا أن ما فعلته كان حلما من الأحلام • شعرت فجأة وأنا أنتظر بشيء أشبه ما يكون بفقد الذاكرة وبأن الفترة التي مضت كانت فترة خالية •

ما أن أحسست بخطوات المرضع القصيرة في الممر حتى اتجهت نحوها • لم تكن أمي قد حضرت في أثرها • فقلت لها دون أن أنظر الى وجهها :

ـ انه لا يزال نائما •

ثم ابتعدت عنها بسرعة ناجيا بنفسي :

ـ ٤٥ ـ

منذ تلك الساعة سيطر نوع من العجز والخمول على ذهني • وربما ذلك لأني كنت منهوك القوى خائرا لا أستطيع القيام بأية مجهودات أخرى • وفقد ذهني ما كان فيه من يقظة شديدة كما ضعف انتباهي • وكان حبي الاستطلاع لا يتفق مع أهمية الأحداث التي تجري • وذكرياتي في الحقيقة مضطربة وقليلة نادرة • تتألف من صورة ليست واضحة تمام الوضوح •

في تلك الأمسية دخلت الى المخدع ورأيت جوليانا مرة أخرى وبقيت بعض الوقت الى جانب سريرها • وأحسست بشيء كثير من التعب يبدو عليها عند التحدث اليها •

سألتها وأنا أنظر الى عينيها قائلا :

ـ هل بكيت ؟

فأجابتني قائلة :

ـ كلا •

ولكنها كانت مع ذلك أكثر حزنا من ذي قبل • شاحبة اللون يحكي لونها لون قميصها • سألتها قائلا :

ـ ماذا بك ؟

ـ لا شيء وأنت ؟

ـ انني لست بصحة جيدة · أشعر بألم في رأسي ·

كان يرهقني تعب كبير · كانت جميع أعضائي نقيلة ، أحنيت رأسي على طرف وسادتها وبقيت على هذه الحالة وأنا أشعر بألم لا أستطيع وصفه ولا أعرف كنهه ·

وانتفضت عندما سمعت صوت جوليانا وهي تقول :

ـ انك تخفي عني شيئا ما ·

ـ لا لا · لماذا ؟

ـ لأني أشعر بأنك تخفي عني شيئا ما ·

ـ لا لا · انك مخطئة ·

ـ هل أنا مخطئة ؟

التزمت الصمت ثم أسندت رأسي من جديد على طرف الوسادة · وما هي الا دقائق معدودة حتى قالت لي فجأة وعلى غير انتظار :

ـ انك تراه كثيرا (تقصد المولود) ·

نهضت لكي أنظر اليها وشعرت بشيء من الاضطراب والدهشة · وعندئذ أردفت قائلة :

ـ اذهب لرؤيته · اذهب للبحث عنه · انني أعرف ذلك اليوم أيضا ·

ـ هل حدث شيء ؟

ـ انني أخشى من هذا · انني أخاف عليك · انني أعرفك · انك تعذب نفسك · انك تذهب الى هناك لتتعذب · اذهب لتنهش قلبك ·· انني أعرفك ·· انني أخشى ·· انك لم تستسلم · لا · لا ولا يمكن أن تكون مستسلما · لا تخدعني ياتوليو · انك وحتى هذا المساء كنت منذ قليل هناك ·

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ عرفت ذلك وشعرت به ·

تجمد الدم فى عروقى وقلت :

– أتريدين أن يتطرق الشك الى ذهن أمى ؟ وهل تريدين أن تفهم وجود شىء من النفور بيننا ؟

كنا نقول ذلك بصوت خافت • وهى الأخرى يبدو عليها الاضطراب وكنت أنا أقول لنفسى :

– الآن سوف تدخل أمى مقطبة الجبين وهى تصيح قائلة :

– ان رايموندو يموت •

دخلت ماريا بصحبة ناتاليا والآنسة اديت وضج المخدع بأصواتهن العذبة • كن يتحدثن عن الكنيسة وعن المذود وعن الشموع •

تركت جوليانا وذهبت للاعتكاف فى غرفتى وأنا أشكو من الصداع • وعند ما آويت الى فراشى سرعان ما قهرنى التعب فنمت نوما عميقا ساعات طويلة •

عندما طلع النهار وجدتنى أنواره هادئا يسيطر على شىء غريب من عدم الاهتمام والدهشة التى لا أعرف كنهها • ولم يحضر أحد لكى يقطع نومى •

اذن فانه لم يحدث شىء غير عادى •

كانت تبـدو لى حوادث الليلة السابقة كأنها غـير حقيقة وبعيدة الأمد • وأحسست بانفصال كبير بينى وبين وجودى السابق وبين حالتى الآن وبين الحالة التى كنت عليها من قبل • وكان هناك عدم اتصال بين الفترة السابقة والفترة الحاضرة من فترات حياتى النفسية • ولم أبذل أى مجهود لكىأستجمع قواى وأفهم تلك الظاهرة الفريدة • وكنت أشعر بالاشمئزاز والكراهية لأى عمل • وأحاول أن أبقى واحتفظ بنفسى فى حالة الجمود المصطنع التى يستكن تحتها مصدر تلك الاضطرابات الماضية • وأتجنب البحث فى نفسى لكى أوقظ تلك الأشياء التى يبدو أنها ماتت وأصبحت لا تمت بصلة لحياتى الواقعية •

كنت أشـبه بالمرضى الذين بعد أن فقـدوا الاحسـاس بنصف أجسـامهم يعتقدون أنهم وجدوا الى جانبهم وفى أسرتهم جثة من الجثث •

لكن ها هو ذا فيديريكو يحضر ويدق على بابى ثم يدخل • ترى أى خبر يحمله الى ؟ وجعلنى حضوره أنتفض انتفاضا •

قال لى :

ــ لم ير أحدنا الآخر فى مساء أمس • وعدت متأخرا • كيف حالك ؟

ــ لا بأس • بين بين •

ــ لا بأس • بين بين •

ــ انك كنت تشعر بالأمس بصداع شديد • أليس كذلك ؟

ــ نعم ولهذا آويت الى فراشى مبكرا •

ــ انك منحرف المزاج هذا الصباح • يالله • متى تنتهى هذه الكارثة ؟ انك لست بصحة جيدة ولا تزال جوليانا ملازمة للفراش • لقد التقيت بأمى الآن ووجدتها مقطبة الجبين وذلك لأن « رايموندو » سعل فى هذه الليلة !

ــ هل سعل ؟

ــ نعم • ان الأمر لا يتعدى شيئا من البرد • ولكن أمى تبالغ دائما على غير عادتها •

ــ هل حضر الطبيب ؟

ــ لم يحضر بعد • ولكن يبدو لى أنك أكثر مبالغة من أمك •

ــ ان كل احتياط فى مسائل الأطفال له ما يبرره • ويكفى أن يكون هناك ما هو أقل من القليل لكى •••

كان ينظر الى بعينيه الصافيتين الزرقاوين وأشعر بشىء من الخوف والخجل منه •

فقفزت من سريرى بعد انصرافه وكنت أقول لنفسى :

ــ اذن • النتائج بدأت تظهر • فليس ثمة شك • ولكن كم من الزمن سوف يبقى فى قيد الحياة ؟ • ومن الممكن أيضا ألا يموت •• لا • انه من المستحيل ألا يموت • ان الهواء كان صاقعا وكان يقطع النفس •

ورأيت الطفل ثانية فى مخيلتى وهو يتنفس وفمه الصغير الذى يكاد يكون مغلقا وفتحة حلقه ·

ـ ٤٦ ـ

كان الطبيب يقول :

ـ ليس هناك أى موجب للقلق · الأمر لا يعدو أن يكون بردا خفيفا · ان شعب الرئة سليمة ·

انحنى ثانية فوق صدر رايموندو العادى لكى يستمع الى دقات قلبه ثم أردف قائلا وهو يتجه نحوى :

ـ ليس به شىء من اللغط · ويمكنك أن تتأكد من ذلك بنفسك وتسمع بأذنك ·

ووضعت أنا أيضا أذنى فوق ذلك الصدر الرقيق وأحسست بدرجة حرارته العادية وقلت :

ـ انه فعلا ··

نظرت الى أمى التى كانت آتية بسرعة من الجهة الأخرى المقابلة للسرير ·

كانت أعراض النزلة الشعبية المعتادة لا أثر لها · وكان الطفل هادئا · يسعل سعلات خفيفة على فترات بعيدة · ويرضع اللبن فى المواعيد المعتادة وينام نوما عميقا هادئا كما كان ينام من قبل · حتى اننى أنا نفسى خدعتنى هذه المظاهر كنت أشك · وقلت فى نفسى :

« اذا كانت محاولتى بلا جدوى ويبدو أنه لن يموت · يالها من نفس عنيدة ! »

ثم عاودنى حقدى القديم عليه · وصار أشد عنفا من ذى قبل · وغاظنى منظره الوردى وهدوءه · اذن تألمت كل ذلك الألم وعرضت نفسى لذلك الخطر من أجل لا شىء ! وكان يختلط بما كنت أشعر به من غضب شديد نوع من الدهشة والوسواس من عناد تلك « الروح » العجيبة · وأقول لنفسى :

« أعتقد أنه لن تكون لدى الشجاعة لاعادة الكرة ٠ وما العمل اذن ؟ اننى ساكون ضحيته ولن أستطيع الافلات منه » ٠

وظهر لى مرة ثانية ذلك الطيف الصغير الشقى ، وذلك الصبى المشاكس الضارى المملوء بالذكاء والغرائز الشريرة ٠ وأخذ يحدق فى وجهى بعينيه الرماديتين القاسيتين كأنه يتحدانى ٠ وأخذت تظهر أمامى فى ظلام الغرف الخاليـة تلك المناظر المريعة التى أوجدها فى وقت من الأوقات حقـدى عليه وعداوتى له وبرزت من جديد وأخذت تتحرك وتأخذ كل مظاهر الحقيقة ٠

كان ذلك اليوم يوما باردا ٠ ينبىء بسقوط أمطار ثلجية غزيرة ٠ وبدا لى مخدع جوليانا كأنه ملجأ أمين ٠ ولم يكن من الواجب أن يخرج الرضيع من غرفته ٠ ولم يكن بوسعه أن يتتبعنى الى داخل المخدع ٠ واستسلمت بكلياتى وجزئياتى للحزن دون أن أستطيع اخفاء ما كنت أشعر به من أسى ولوعة ٠

كنت أقول فى نفسى وأنا أنظر الى المريضة المسكينة :

« انها لن تشفى ٠ ولن تقوم على قدميها » ٠

عادت الى ذاكرتى تلك الكلمـات الغريبة التى قالتها فى الليـلة السابقة فأحدثت فى نفسى اضطرابا شديدا ٠ لاشك أن هذا الوليد كان قاتلا لها ولى ٠ وليس شك فى أنها لا تستطيع أن تفكر فى شىء آخر سواه وهى تموت بسببه رويدا رويدا ٠ هل يتحمل هذا القلب الضعيف كل ذلك الحمل الثقيل !!

كانت تبدو فى ذهنى مع تلك الصور المتقطعة بعض أجزاء من أدوار حياتى الماضية من ذكريات بعض الأمراض الأخرى ونقاهة قديمة العهد ٠ ترددت فى جمع شتات تلك الأجزاء وفى اعادة بناء تلك الفترة السعيدة والمؤلمة التى بذرت فيها بذرة تعاستى وشقائى ٠ كان النـور المنتشر يذكرنى عصر ذلك اليوم البطىء الذى قضيناه أنا وجوليانا فى مطالعة أحد الكتب الشعرية ٠ ونحن ننحنى معا فوق الصحيفة بذاتها ونتتبع بأعيننا السطر بذاته ٠ وكنت أرى مرة ثانية سبابتها الممتدة على هامش الصحيفة وأثر ظفرها فوق ذلك الهامش٠

وأمسكت بمعصمها وأحنيت رأسى ببطء حتى وضـعت شـفتى فى كفها وغمغمت قائلا :

ـ هل تستطيعين أن تنسى ؟

وعندئذ أغلقت فمي بيدها وقالت كلمتها الكبرى ٠

ـ الزم الصمت ٠

كنت أعيش مرة ثانية ذلك الشطر من حياتي في أحاسيس واقعية وعميقة٠ وكنت أستمر ٠ وأستمر في الحياة مرة ثانية وأصل حتى صبيحة يوم قيامها من فراشها للمرة الأولى حتى ذلك الصباح المريع التعس ٠ وكنت أسمع مرة ثانية ذلك الصوت الضاحك المتصل وأرى مرة أخرى حركة استسلامها لي وأراها بذاتها وهي جالسة فوق الأريكة بعد تلك الضربة المفاجئة ٠ وما تلا ذلك ٠ ترى ؟ هل لم يكن في مقدوري أن أبعد عن نفسي تلك الخيالات ؟

كانت الحسرة لا فائدة منها ولا جدوى وكنت أقول لنفسي :

ـ لقد فات الأوان ٠

سألتني جوليانا التي ربما لم تكن حتى تلك الساعة قد تألمت من أي شيء آخر أكثر من حزني قائلة :

ـ فيم تفكر ؟

لم أخف عنها ما كنت أفكر فيه ٠ فقالت بصوت يخرج من أعماق صدرها الضعيف ، وكان ذلك الصوت أكثر تأثيرا من الصراخ :

ـ انني كنت قد أعددت لك الجنة في نفسي ٠

وأردفت قائلة بعد فترة صمت طويلة ربما كانت في أثنائها قد امتصت في قلبها دموعها التي لم تكن قد انحدرت من عينيها ٠

ـ انني الآن لا أستطيع الترفيه عنك ! وليس هناك عزاء لي ولا لك ٠ ولن يمكن أن يكون هناك عزاء أبدا ٠ فقد ضاع كل شيء ٠

وعندئذ قلت لها :

ـ من يدري ٠

ونظر كل منا الى صاحبه ٠ وكان واضحا أن كلا منا كان يفكر عند هـــذه النقطة فى شىء واحد وهو موت رايموندو ٠

ترددت لحظة ثم أردت أن أسألها وأشير لها الى ذلك الحوار الذى تم بينى وبينها فى احدى الليالى تحت الخمائل ٠ وأقول لها :
ـ هل دعوت الله ؟

كان صوتى يرتجف ارتجافا شديدا ٠

فأجابتنى قائلة (بصوت كدت لا أسمعه) :

ـ نعم ٠

ثم أغمضت عينيها واستدارت الى جانبها ودست رأسها فى الوسادة ٠ ثم تراجعت وانكمشت فى نفسها تحت الأغطية ٠ كما لو كانت قد انتابها برد شديد ٠

ـ ٤٧ ـ

ذهبت فى المساء لرؤية رايموندو ووجدته فوق ذراع أمى ٠ وبدا لى أنه صار أكثر شحوبا ٠ ولكنه لا يزال هادئا ساكنا ، ويتنفس تنفسا طبيعيا ولم تكن تبدو عليه أية علامة تثير الريبة ٠

قالت لى أمى :

ـ لقد نام حتى هذه الساعة ٠

ـ هل هذا شىء يدعو للقلق ؟

ـ نعم ٠ لأنه لم ينم قط نوما طويلا مثل هذه المرة ٠

أخذت أنظر الى الطفل وأحدق فى وجهه ، كانت عيناه الرماديتان خاليتين من كل حيوية ، تحت جبينه الذى انتشرت عليه بقع بيضاء ، ويحرك شفتيه باستمرار كما لو كان يمضغ شيئا ٠

وعلى حين غرة تقايأ قليلا من اللبن الملوث بالدماء فوق مريلته ٠

وهنا صاحت أمى وهى تهز راسها قائلة :

ـ يالله ٠ لا ٠ لا ٠ ان صحة هذا الولد ليست على ما يرام ٠

ـ ولكن هل سعل ؟

وهنا أخذ رايموندو يسعل كما لو كان يريد أن يجيب على سؤالى ٠

وهنا قالت أمى :

ـ أتسمع ؟

كانت سعلة صغيرة خفيفة لا تصاحبها أية خشخشة من اعضائه الداخلية واستمرت فترة بسيطة ٠

وكنت اقول فى نفسى :

ـ يجب الانتظار ٠

ولكن لما كانت الهواجس المشئومة أخذت تدب فى نفسى فان حقدى على ذلك الوليد كان يتناقص ، وغلطتى تهدأ ، وأشعر بأن قلبى أصبح منقبضا وحزينا وصار عاجزا عن الشعور بالراحة والطمأنينة ٠

وانى لأذكر تلك الليلة التى كانت أتعس ليلة قضيتها فى اثناء محنتى ٠

خرجت من البيت وأنا أخشى أن يكون جوفانى دى سكورديو على مقربة منه ٠ فغيرت ذلك الطريق الذى كنت قابلته فيه أنا وأخى فى المرة السابقة ، وكان بياض الشفق ينبىء عن قرب هطول أول الأمطار الثلجية ، ويمتد على طول صف الأشجار بساط من الأوراق الخضراء ، كما كانت الفروع الجافة العارية عن أوراقها تناطح السحاب ٠

كنت أنظر أمامى وأؤمل أن أرى شبح ذلك الشيخ ، وأفكر فى حنان ذلك الرجل الطاعن فى السن وفى عطفه على ابنه بالتعميد وفى حب الشيخوخة

العظيم ، وفى يديه الضخمتين الخشنتين المتجعدتين اللتين رأيتهما ترتعدان وهما تربتان برفق على « اللفة » البيضاء وأقول فى نفسى :

« يالله • كم سيبكى هذا الرجل المسكين » •

وكنت أرى الميت الصغير فى كفنه ممددا فوق النعش بين باقات الليلك البيضاء وبين عدد من الشموع الموقدة ، وجوفانى يركع على ركبتيه ويأخذ فى البكاء • فأقول فى نفسى :

« لسوف تبكى أمى وتشعر بالحزن واليأس • ويخيم على البيت كله الحزن والحداد ، ويكون عيد الميلاد فى هذه السنة عيدا مشئوما » •

ترى ماذا ستقوله جوليانا عند ما أذهب الى طرف مخدعها وأقول لها : لقد مات ؟

وصلت الى طرف الطريق ، ونظرت حولى . ولكننى لم أر أحدا •

كانت الحقول تغوص فى الظلام الدامس ويخيم عليها الصمت والسكون• وهنـاك نار تستعر فوق التـل من بعيد ، فعدت أدراجى وحيدا ، وعلى حين غرة رأيت كأن شيئا أبيض اللون يرتجف أمام عينى ثم ينقشع • وكان هذا هو أول هطول للأمطار الثلجية •

وبعد ذلك سمعت مرة ثانية بينما كنت الى جـانب سرير جوليـانا تلك المزامير التى كانت تصاحب الصلوات الدينية فى الساعة بذاتها •

— ٤٨ —

انقضى المساء ومضى الليل وانتهى صباح اليوم التالى ، ولم يحدث شىء غير معتاد • على أن الطبيب عندما فحص الطفل لم يخفّ عنا أنه يوجد شىء من المخاط فى خياشيمه وفى الشعاب الكبرى مما يدل على اصابة خفيفة بنزلة شعبية لا أهمية لها • ومع هـذا فاني أدركت أنه يخفي بعض القلق ، فانه

أعطى بعض التعليمات وأوصى بعمل أعظم الاحتياطات ووعد بالعودة مرة ثانية أثناء النهار ولم تكن أمى مرتاحة البال ٠

عندما دخلت الى المخدع همست فى أذن جوليانا دون أن أنظر الى وجهها قائلا :

ـ ان حالته ازدادت سوءا ٠

لم نتحدث أكثر من ذلك مدى فترة طويلة ، وكنت أقوم بين الفينة والفينة وأذهب الى النافذة لكى أنظر الى الثلوج المنهمرة ٠ كنت أدور فى الحجرة وأنا فريسة قلق شديد لا يحتمل ، وجوليانا تبقى رأسها مدفونة فى وسادتها وتكاد تكون مختفية بأكملها تحت أغطيتها ، وكلما اقتربت منها تفتح عينيها وتلقى على نظرة خاطفة لم أستطع أن أعرف كنهها ٠

سألتها قائلا :

ـ أتشعرين ببرد ؟

ـ نعم ٠

ولكن الغرفة دافئة ٠ وكنت أعود دائما الى النافذة للتطلع منها الى الثلوج المنهمرة والحقول التى غطتها الثلوج البيضاء التى تتساقط فوقها باستمرار ٠ والسعةا بلغت الثانية بعد منتصف النهار ؛ ترى ماذا كان يحدث فى غرفة الطفل ؟ لم يكن يحدث شىء غير معتاد ٠ هذا لاشك فيه ٠ اذ لم يحضر أحـد لاستدعائى ٠ ولكن قلقى يزداد ازديادا كبيرا حتى قررت الذهاب بنفسى لرؤية ما هو حادث ٠ ففتحت الباب ٠ وهنا صاحت جوليانا ٠ وقد نهضت من رقدتها واتكأت على مرفقيها قائلة :

ـ أين أنت ذاهب ؟

ـ اننى ذاهب الى هناك لحظة ، وسأحضر فى الحال ٠

بقيت متكئة على مرفقيها وازداد شحوبها ٠

سألتها قائلا :

ـ ألا تريدين أن أذهب ؟

ـ لا • ابق الى جانبى •

لم تترك نفسها ترتمى فوق وسادتها ، وهناك اضطراب غريب يقلب سحنتها ، وعيناها تدوران فى قلق كما لو كانتا تتبعان بعض الأشباح المتحركة ، فاقتربت منها وقمت باضجاعها على ظهرها وتحسست جبينها فى شىء من الرفق •

وقلت لها :

ـ ماذا بك ياجوليانا ؟

ـ لا أدرى • اننى خائفة •

ـ مم تخافين ؟

ـ لا أدرى • ليس لى ذنب فيما يحدث ، اننى مريضة ، واننى هكذا •

ولكن عيناها كانتا تدوران على العكس من ذلك لتحدقا فى وجهى • فقلت لهـا :

ـ عم تبحثين ؟ أترين شيئا ؟

ـ لا لا شىء •

تحسست جبينها مرة ثانية •

كانت حرارتها طبيعية ولكن عقلى بدأ يضطرب •

وقلت لها :

ـ انظرى • هأنذا أبقى الى جانبك ولا أتركك •

وجلست • وانتظرت • وكانت حالتى النفسية عذابا مؤلما وأنا أنتظر وقوع حادث قريب وكنت متأكدا من أن شخصا ما لابد أن يأتى لاستدعائى • وأرهف السمع لعلنى أسمع وقع أقدام خفيف • وكنت أسمع من آن لآخر الأجراس تدق فى البيت • وسمعت صوت مرور عجلات عربة فوق الثلج ،

فقلت :

ـ ربما هذا هو الطبيب ٠

لم تنبس جوليانا ببنت شفة ٠ انتظرت وانتهى وقت لم أعرف مدته ٠

وفجأة سمعت قرقعة الأبواب التى تفتح ٠ ووقع أقدام تقترب فانتفضت واقفا على قدمى ونهضت جوليانا فى الوقت ذاته ٠ وقالت :

ـ ماذا حدث ؟

ولكننى كنت أعرف من قبل ما هناك ، وأعرف حتى الكلمات التى لابد أن يقولها لى الشخص الداخل علينا ٠

دخلت كريستينا ، كانت تبدو كئيبة ولكنها تحاول اخفاء اضطرابها ٠ وتمتمت دون أن تتقدم نحونا وهى تتجه بنظراتها نحوى قائلة :

ـ اسمع كلمة منى ياسيدى ٠

خرجت من المخدع وسألتها قائلا :

ـ ماذا هنالك ؟

فأردفت قائلة بصوت خافت :

ـ الطفل فى حالة سيئة ٠ اسرع ٠

ـ اننى ذاهب يا جوليانا ، الى هنــاك لحظة ، وانى أترك كريستينا الى جانبك ، وسأعود حالا ٠

خرجت ، ووصلت عدوا الى غرفة رايموندو ٠ وهنا صاحت أمى وقد بدا عليها اليأس قائلة :

ـ ويلاه ٠ ان الطفل يموت ياتوليو ٠ انظر اليه ٠ انظر اليه !

انحنيت أنا أيضا فوق السرير ٠ كان قد حدث فى شكله تغير سريع مفاجىء غير متوقع لا يعرف سببه يدعو الى الخوف والهلع ٠ وأصبحت « اللفة »

الصغيرة رمادية اللون ، كما أن الشفتين ازرقتا أما العينان فذبلتا وانطفأتا • ويبدو أن المخلوق الصغير أصيب بتسمم شديد •

وكانت أمي تقص على قصته بصوت متقطع وتقول لى :

ـ منذ ساعة مضت كاد يكون فى أكمل صحة • حقا ، انه كان يسعل • ولكن لم يكن به أى شىء آخر • لقد ابتعدت عنه وتركت المرضع « أنا » هنا •

وكنت أعتقد أننى عندما أعود أجده نائما • ويبدو لى أن النعاس كان يداعب أجفانه •• ولكنى عندما عدت وجدته على هذه الحالة • ضع يدك عليه ، انه يكاد يكون باردا •

لمست جبينه بيدى كما لمست أحد خديه ، فوجدت أن درجة حرارة جلده فى الحق انخفضت •

فقلت لها :

ـ وأين الطبيب ؟

ـ انه لم يحضر بعد • وقد أرسلت فى طلبه •

ـ كان يجب ارسال شخص يذهب اليه راكبا جواده •

ـ نعم • ذهب شيرياكو •

ـ هل ذهب راكبا حصانا ؟ ليس لدينا من الوقت ما نضيعه سدى •

لم يكن ما قلته من باب التصنع ، أو التظاهر ، فقد كنت مخلصا فيما أقول • ولم يكن فى مقدورى أن أترك ذلك البرىء يموت على هذه الصورة دون اسعافه ودون القيام بمحاولة لانقاذ حياته • بينما جريمتى على وشك الانتهاء ، وسيطرت على نفسى الشفقة وتأنيب الضمير والألم أمام منظر ذلك الطفل الذى كاد يكون جثة هامدة • ولم أكن أقل لهفة من أمى ونحن فى انتظار الطبيب • دققت الجرس فحضر الى أحد الخدم فقلت له :

ـ هل ذهب شيرياكو ؟

ـ نعم ياسيدي •

ـ هل سار على قدميه ؟
ـ كلا ياسيدى فقد ركب العربة ٠

وهنا لحق بى فيديريكو وهو يلهث من التعب وقال :
ـ ماذا حدث ؟

فصاحت أمى التى كانت لا تزال منحنية على سرير الطفل قائلة :
ـ ان الطفل يموت ٠

عندئذ هرع اليها فيديريكو ونظر الى الطفل وقال :

ـ انه يختنق ٠ ألا ترون ؟ لقد توقف عن التنفس ٠

وأمسك بالطفل وأخرجه من سريره ورفعه بين يديه وهزه ٠
وهنا صاحت أمى قائلة :

ـ لا ٠ لا ٠ ماذا تفعل ٠ انك تقتله ٠

فى تلك اللحظة انفرج الباب وسمعنا صوتا يقول :
ـ لقد حضر الطبيب ٠

ودخل الدكتور « جيما » وقال :

ـ لقد كنت على وشك الدخول فى منزلى عندما جاءت العربة ٠ ماذا حدث ؟

اقترب الطبيب دون أن ينتظر سماع الاجابة على سؤاله من أخى الذى كان لا يزال يحمل رايموندو فوق ذراعيه وأخذه منه وفحصه ٠ وظهر العبوس على وجهه وقال :

ـ أرجوكم الهدوء ٠ أرجوكم الهدوء ٠ يجب نزع « اللفة » من عليه ٠ ووضعه فوق سرير المرضع وساعد والدتى على اخراجه من اللفة ٠

وعندئذ ظهر ذلك الجسم الصغير عاريا ، وكان يبدو عليه ذلك اللون

الرمادى الذى كان ظاهرا على وجهه ، وكانت أطرافه مدلاة ومرتخية ٠ وأخذت يد الطبيب السمينة تتحسس جلد الطفل فى كل مكان من جسمه ٠

وهنا قالت أمى فى ضراعة للطبيب :

ـ اعمل له أى شىء ياسيدى الطبيب ٠ أرجوك أن تنقذه ٠

ولكن الطبيب كان مترددا ٠ جس نبضه ووضع أذنه فوق صدره وغمغم قائلا :

ـ انها آفة قلبية ٠ من المستحيل انقاذه منها ٠

ثم تساءل الطبيب قائلا :

ـ ولكن كيف حدث هذا التغير فجأة ؟

أرادت أمى أن تقص عليه كيف حدث ذلك ، ولكنها قبل أن تتم حديثها انفجرت بالبكاء وقرر الطبيب أن يقوم بعمل أية محاولة ٠ حاول أن يهز الطفل ليجعله يفيق من غفوته ٠ وحاول أن يحمله على الصياح أو يجعله يتقايأ ٠ وحاول احداث حركة تنفس قوية ٠ كانت أمى لا تفتأ تنظر اليه وعيناها مفتوحتان زائغتان تتدفق منهما الدموع ٠

سألنى أخى :

ـ هل عرفت جوليانا ما حدث ؟

لا ٠ ربما لا تعرف ٠٠ وربما تكون قد خمنت ذلك٠٠ وربما تكون كريستينا ٠٠ ابق هنا أنت اننى ذاهب لأراها ثم أعود ٠

نظرت الى الطفل وهو بين يدى الطبيب ونظرت الى أمى وخرجت منالحجرة وهرعت الى جوليانا ووقفت أمام الباب وقلت لنفسى :

ـ ترى ماذا أقول لها ؟ هل أقول لها الحقيقة ؟

دخلت الغرفة ورأيت كريستينا واقفة فى فتحة النافذة ٠ فدلفت الى المخدع الذى كانت الستائر فى ذلك الوقت مسدلة عليه ٠ وعندما اقتربت من جوليانا

ادركت أنها كانت ترتعد كما لو كانت قد أصابتها نوبة شديدة من نوبات الحمل ٠

قلت لها :

ـ انظرى ياجوليانا هأنذا هنا ٠

وعندئذ رفعت الأغطية عنها وأدارت وجهها نحوى ٠ وسألتنى فى صوت خافت :

ـ هل أنت آت من هناك ؟

ـ نعم ٠

ـ قل لى كل شىء ٠

انحنيت فوقها وتحدثنا معا عن كثب فى شىء كثير من الانكسار وقلت لها :

ـ ان حالته سيئة ٠

ـ هل ساءت كثيرا ؟

ـ نعم ٠ كثيرا ٠

ـ هل يموت ؟

ـ من يدرى ! ربما ٠

عندئذ أخرجت ذراعيها بحركة سريعة وأحاطت بهما عنقى ٠ وكان خدى يضغط على خدها ، وكنت أشعر بها وهى ترتجف ٠ كنت أحس بضعف ذلك الصدر المسكين المريض ٠ وبينما كنت ملتصقا بها كانت صورة تلك الغرفة البعيدة تتراءى لى وكنت أرى عينى الطفل الجامدتين الزائغتين المظلمتين ٠ وشفتيه الزرقاوين ، وأرى دموع أمى المنهمرة ٠ ولم يكن فى هذا الاشتباك أية بهجة أو أى سرور ٠ وكان قلبى منقبضا ٠ ونفسى حزينة يائسة ، منحنية فوق هاوية تلك الروح الأخرى السحيقة ٠

ـ ٤٩ ـ

عندما أقبل المساء · كان رايموندو فارق الحياة ، كانت جميع علامات التسمم الحاد عن طريق حامض كربونى ـ ظاهرة على ذلك الجسد الصغير الذى أصبح جثة هامدة ، ووجه الصغير أزرق اللون ويكاد يكون رصاصيا · وأنفه مدببا · وشفتاه مصطبغتان بصبغة سماوية اللون ، وكأن شىء من البياض الداكن يشاهد تحت جفونه التى لا تزال مورورية · وتبدو فوق احدى فخذيه على مقربة من الحقوة بقعة حمراء باهتة اللون · ويبدو أن الجثة دخلت فى دور التعفن الرمى · وما أتعس منظر جسم ذلك الطفل الذى كان حتى ساعات قلائل بضا وردى اللون وأصابع أمى تربت عليه ·

كانت تصل الى أذنى تلك الصيحات والشهقات والكلمات التى لا معنى لها التى تخرج من فم أمى ، بينما فيديريكو والنساء الأخريات يسحبونها الى الخارج ·

كانت تقول :

ـ لا يمسه أحد · لا يمسه أحد ! أريد أن أقوم بغسله · وأريد أن اكفنه بيدى · أريد ··

لم أعد أسمع شيئا بعد ذلك · فالصرخات توقفت · ولا يسمع بين الفينة والفينة الا صوت الأبواب التى تفتح وتغلق ، فكنت هناك بمفردى · وكان الطبيب فى الغرفة ، ولكنى كنت بمفردى ، وهناك شىء غير عادى يعتمل فى نفسى ، ولكننى لم أكن أراه حتى الساعة ·

قال لى الطبيب فى لطف وهو يضع يده على كتفى :

ـ اذهب · اذهب من هنا · اذهب ·

كنت مطيعا · فنزلت على أمره · وكنت أبتعد وأسير فى الممر ببطء عندما أحسست من جديد بمن يلمسنى وكان هو فيديريكو الذى عانقنى ولكننى لم أبك ولم أحس بشىء من التأثر الشديد ولم أفهم الكلمات التى كان يتفوه بها · ومع هذا فقد سمعته يذكر اسم جوليانا ·

وعندئذ قلت له :

ـ خذنى الى جوليانا ٠

وضعت ذراعى تحت ذراعه وتركته يقودنى كأننى أحد العميان ٠

وعندما صرنا أمام باب غرفتها قلت له :

ـ دعنى ٠

وهنا ضغط بقوة على ذراعى ثم تركنى ، ودخلت بمفردى ٠

ـ ٥٠ ـ

خيم سكون القبور على البيت أثناء الليل ٠ وهناك مصباح يستعر فى الممر٠ وكنت أسير نحو ذلك المصباح كما لو كنت مصابا بمرض النوم ٠ فهناك شىء غير عادى يعتمل فى نفسى ، ولكنى لم أكن أرى شيئا ٠

توقفت عن السير ، كما لو كنت تلقيت انذارا بغريزتى٠ انفتح أحد الأبواب، وكان ضـوء ينبعث من خـلال الستائر المسدولة ٠ تخطيت العتبة وأزحت الستائر وسرت الى الأمام ٠

كان السرير فى وسط الحجرة بين عدد من الشموع الموقدة تغطيه أقمشة بيضاء ٠ وهناك أخى جالس فى أحد جوانب الغرفة و «جوفانى دى سكورديو» فى الجانب الآخر يسهران على الجثة ٠ ولم يدهشنى حضور ذلك الشيخ ٠ وبدا لى أنه من الطبيعى أن يكون حاضرا ٠ ولم أسأله عن شىء ولم أقل شيئا ٠ وأعتقد أننى ابتسمت قليلا لمن كانوا يوجهون الى أنظارهم ، ولا أدرى : اذا كانت شفتاى ضحكتا حقيقة ولكن كانت نيتى أن أبتسم لكى أقول لهم :

« لا تتألموا من أجلى ٠ ولا تحاولوا تعزيتى ٠ انظروا الى ٠ اننى هـادىء مطمئن البال ونستطيع السكوت » ٠

خطوت بضع خطوات وذهبت للجلوس عند طرف السرير بين الشمعتين ٠

وحملت الى طرف السرير نفسى الخائرة الذليلة الضعيفة التى فقدت بصيرتها كان أخي والشيخ لا يزالان فى مكانيهما · ولكننى صرت وحيدا ·

كان الميت الصغير يرتدى ثوبا أبيض هو ذلك اللباس الذى كان يرتديه يوم تعميده أو يبدو لى ذلك ·

كان وجهه ويداه هما وحدهما مكشوفين وكان فمه الذى كثيرا ما كان يثير حقدى بعويله وصراخه جامدا لا يتحرك · والسكون المخيم على هذا الفم يخيم أيضا على نفسى ، وكان يسود من حولى · وكنت أنظر · وأنظر ·

فى ذلك الوقت انبعث من ذلك السكون ضوء كبير فى أعماق نفسى وفى صميم روحى · لقد فهمت ، لم تستطع كلمة أخى ولا ابتسامة الشيخ أن تكشفا لى ما كشفه لى لحظة واحدة فم الطفل الصامت الصغير · لقد فهمت · وعندئذ شعرت بالحاجة الملحة لأن أعترف بجريمتى وأفصح عن سرى وأؤكد أمام هذين الرجلين اننى قتلته ·

كان كلاهما ينظر الى · وأدركت أن كليهما كانا قلقين على بسبب هيئتى · وموقفى أمام الجثة · وأن كليهما كانا ينتظران نهاية جودى فى شىء كثير من القلق واللهفة ·

وعندئذ قلت لهما :

ـ أتعرفان من الذى قتل هذا البرىء ؟

وكان لصوتى فى هذا السكون نغمة غريبة بدا لى أنا أننى لا أستطيع تمييزه أو معرفته · وبدا لى أنه ليس صوتى · وهنا دب الرعب فى قلبى وجعل الدم يجمد فى عروقى وشل لسانى عن الحركة وخيم على ناظرى ، فأخذت أرتعد ، وشعرت بأن أخى يسندنى ويضع يده على جبينى ، وكنت أسمع فى أذنى طنينا قويا شديدا الى حد بعيد مما جعل كلماته تصل الى مسامعى متقطعة وغير واضحة · فهمت أنه كان يعتقد أننى مضطرب الأعصاب نتيجة اصابتى بحمى شديدة ، وأنه كان يحاول أن يتخذنى بعيدا · تركته يسير بى حيث يشاء ·

أخذنى الى غرفتى وهو يسندنى ، والفزع لا يزال مسيطرا على • وعندما رأيت شمعة مستعرة فوق أحد المناضد انتفضت ، ولم أكن أتذكر أننى تركتها موقدة •

قال لى فيديريكو وهو يجرنى بلطف من يدى :

ـ اخلع ملابسك • وارقد فى سريرك •

أجلسنى على السرير • ومس جبينى بيده مرة ثانية •

وقال لى :

ـ ألا تشعر ؟ ان الحمى تزداد بك • ابدأ بخلع ملابسك • هيا • هيا •

كان يساعدنى بحنان ، يذكرنى بحنان أمى عند خلع ملابسى • وساعدنى على الدخول فى سريرى ، وكان وهو جالس الى جانب سريرى يلمس جبينى بين آن وآخر لكى يعرف حالة الحمى التى أصابتنى • ويسألنى عندما يرانى لا أزال أرتعد بقوله :

ـ هل تشعر بكثير من البرد ؟ ألم تنقطع الرعدة ؟ هل تريد أن أغطيك بغطاء آخر ؟ أتشعر بالعطش ؟

كنت وأنا أرتعد أقول فى نفسى :

ـ ليتنى تكلمت ! ليتنى استطعت الاستمرار ! ؟ هل كنت أنا بنفسى الذى نطقت بشفتى بتلك الكلمات ؟ هل كنت أنا بالذات ؟ وهل يساور فيديريكو شىء من الريبة اذا ما فكر وتأمل فى كلماتى ؟ لقد سألتهما قائلا :

ـ أتعرفان من الذى قتل هذا البرىء ؟

ولم أقل شيئا آخر • وألم تكن تظهر على وجهى هيئة القاتل المعترف بجريمته ؟

ان فيديريكو اذا ما فكر فى الأمر فانه يجب أن يتساءل قائلا :

ـ ماذا كان يعني بقوله هذا ؟ وضد من يتجه اتهامه الغريب ؟

ولسوف يبدو له اضطرابى هذا مريبا • ان الطبيب هو الذى لابد أن يكون فكر فيه • ولقد أراد أن يشـير الى الطبيب • ربما كان ذلك ولابد أنه وجد دليلا آخر فى اضطرابى • وأنه استمر فى اعتقاده بأننى مهتاج بسبب الحمى، وأننى فى حالة هذيان متقطع •

وبينما كنت أقول ذلك سرعان ما تراءت أمام عينى أشباح سريعة واضحة • وكانت واضحة وضوح الأشياء الحقيقية الملموسة فقلت فى نفسى :

ـ اننى مصاب بحمى • وبحمى شديدة • واذا ما انتابنى الهذيان الحقيقى فانى قد أكشف السر ! •

كنت أراقب نفسى فى شىء كثير من القلق المخيف •

وقلت :

ـ ان الطبيب •• ان الطبيب •• لم يعرف ••

انحنى أخى فوقى ولمسنى مرة ثانية فى شىء كثـير من القلق وهو يتنهد وقال لى :

ـ لا تعذب نفسك ياتوليو واهدأ •

وذهب ليغمس قطعة من القماش فى الماء البارد ووضعها فوق جبينى الذى كان يستعمر بنار الحمى •

كان مرور تلك الصور والخيالات السريعة الواضحة مستمرا •

وكنت أرى مرة ثانية فى شىء كثير من الوضوح احتضار الطفل ـ لقد كان يحتضر فى سريره • كان وجهه أزرق اللون • وكان شاحبا حتى كانت بقع الاكزيما تبدو صفراء اللون •

ولـم تكن شفته السـفلى تشاهد كلية • وكان بين الفينة والفينة يفتـح جفنيه اللذين كانا قد انصبغا بلون البنفسج • وكان يبدو أن محـاجر عينيه تشاركهما • اذ كانت تتبعهما عندما يرتفعان ثم يتلاشى أسفلهما بينما كان يبدو بياض عينيه الأغبش •

وكان الشخير الخافت يتوقف رويدا رويدا ٠

وفى وقت ما كان الطبيب يقول وهو يقوم بمحاولة أخيرة :

ـ هيا هيا ٠ لننقل السرير الى جانب النافذة وفى الضوء ٠ افسحوا الطريق ٠ افسحوا الطريق ٠٠ ان الطفل فى حاجة الى الهواء ٠ افسحوا الطريق ٠٠

كنت أنا وأخى ننقل السرير الذى كان يبدو كأنه نعش ٠ ولكن هذا المنظر كان مريعا فى ذلك النور البارد الناصع الذى ينبعث من الثلوج المنهمرة الى كل مكان ٠

وقالت أمى :

ـ هاهو ذا يموت ! انظروا ٠ انظروا ٠ انه يموت ٠ اسمعوا ٠ لقد توقف نبضه ٠

وقال الطبيب :

ـ ألا ترون ؟ انه يتنفس يجب ألا نيأس حتى اللحظة الأخيرة ٠

وكان يحرك الهواء فوق السرير بمروحة كانت فى يده ٠ ثم أخذ يضغط باحدى أصابعه على ذقن الطفل لكى يجعله يخفض شفته الى أسفل ويفتح فمه٠ أما لسان الطفل الذى كان ملتصقا بسقف حلقه فقد انخفض وأصبح أشبه ما يكون بصمام صغير وكنت أرى خيوط المخاط التى كانت تمتد بين سقف حلق الطفل ولسانه وتلك المادة البيضاء العكرة المتجمعة فى آخر حلقه ٠ وكانت حركة تشنجية ترفع نحو وجهه يديه الصغيرتين اللتين أصبح لونهما يحكى لون البنفسج ٠ وكان هذا اللون الداكن واضحا بصفة خاصة فى كفيهما وفى ثنيات عقل أصابعهما وفى أظافرهما وكانت هاتان اليدان قد استرختا وكانت أمى تلمسهما بين لحظة وأخرى ٠

وكان خنصر اليد اليمنى دائما بعيدا عن الأصابع الأخرى ، وكانت تبدو فيه رعشة خفيفة عندما يتعرض لهواء المروحة ٠ ولم يكن هناك شيء يوجب الأسى والألم أكثر من هذا المنظر ٠

كان فيديريكو يحاول أن يقنع أمي بضرورة الخروج من الغرفة · ولكنها كانت تنحنى فوق وجه رايموندو وحتى كادت تلمسه بوجهها وكانت ترقب كل حركة من حركاته · وكانت دمعة من دموعها قد سقطت فوق ذلك الرأس المحبوب ·

وسرعان ما أخذت تجففها بمنديلها · ولكنها أدركت أن نافوخ جمجمته قد انخفض الى أسفل وأصبح مجوفا ·

وعندئذ صاحت أمي وقد اشتد رعبها قائلة :

ـ انظر ياسيدى الطبيب ·

عند ذلك اتجهت عيناى نحو هذه الجمجمة البضة التى انتشرت عليها البقع البيضاء ، تلك الجمجمة المصفرة اللون التى كانت أشبه ما تكون بقطعة من الشمع ظهر فى وسطها تجويف صغير، وكانت جميع التحامات الجمجمة ظاهرة ، وكان عرق الصدغ السماوى اللون يختفى تحت البشرة ·

ـ انظر · انظر ·

كان ذلك الانتعاش الصناعى الذى أحدثه الأثير يختفى · كما اتخذ الشخير الآن نغمة خاصة واسترخت يدا الطفل الصغيرتان الى جانبه وعجزتا عن كل حركة ·

انخفضت ذقنه أكثر من ذى قبل كما صار النافوخ أكثر عمقا واختفى منه كل نبض · وعلى حين بغتة أبدى الطفل المتحضر ما يدل على رغبته فى القىء · وسرعان ما رفع الطبيب رأسه الى أعلى ، فخرج من فمه المعوج سائل أبيض عكر وعندما كان يميل برأسه أثناء القىء كانت البقع القاتمة تظهر بوضوح فوق جلده وهنا ألقت أمى صرخة عالية ·

وقال لها أخى وهو يحاول اخراجها :

ـ هيا · هيا · تعالى معى ·

ـ لا · لا · لا ·

أعطى الطبيب ملعقة أخرى من الاثير للطفل ، وكانت مدة الاحتضار يطول أمدها والعذاب يستمر .

كانت يدا الطفـل ترتفعان مرة أخرى وأصابعه تتحرك . وكانت عينـاه تظهران وتختفيان أسـفل جفونه المسبلة كأنهما زهرتان ذابلتان أو كأنهما برعمان ينفتحان ثم لا يلبثان أن ينكمشا ويرتخيا .

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله والبرىء لا يزال يحتضر وكان هناك فوق زجاج النوافذ شيء أشبه ما يكون بنور الفجر ، وكان ذلك هو الضوء الأبيض الذى يتصاعد من الثلوج الى الظلام .

كانتأمي تصيح عندما انقطع شخيرالطفل ، وعندما شاهدت لونا أأزرقحول أنفه قائلة :

ـ هل مات ؟ هل مات ؟

ـ لا . لا . انه لا يزال يتنفس .

أوقدوا شمعة حملتها احدى النسوة وكانت شعلتها الصغيرة الصفراء ترتجف عند طرف السرير . وسرعان ما أخذت أمي تكشف جسم الطفل الصغير وأخذت تربت عليه وقالت :

ـ انه بارد . لقد برد كله .

كانت رجلاه قد ارتختا وصارت قدماه زرقاوين ، ولم يكن هناك ما هو أدعى للحزن والأسى من منظر تلك القطعة المهلهلة من اللحمالميت ، أمام تلك النافذة التى كانت الظلال تتساقط عليها فى ضوء تلك الشمعة .

كانت هناك نغمة لا يمكن وصفها . لم تكن عويلا ولا صراخا ولا شـخيرا كانت تخرج من ذلك الفم الذى كاد يكون أزرق اللون مع قليل من اللعاب الأبيض وكانت أمي ترتمي فوق الميت الصغير كما لو كان قد أصابها مس من الجنون .

هكذا كنت أرى كل شىء مرة ثانية وأنا مغمض العينين • كنت أفتح عينى فأرى كل شىء مرة ثانية بوضوح لا يمكن تصديقه •

صحت بأخى فيديريكو وأنا أنهض من السرير • وقد شعرت بالرعب من تحرك تلك الشمعة الصغيرة الشاحبة قائلا :

ـ قاتل الله هذه الشمعة • ارفع هذه الشمعة • ارفع هذه الشمعة •

ذهب فيديريكو لأخذها وذهب لكى يضعها خلف أحد الحواجز • ثم عاد الى رأس سريرى ثم ساعدنى على النوم واستبدل قطعة القماش المبللة بالماء البارد التى كانت فوق جبينى بغيرها •

وكنت أسمع بين الفينة والفينة تنهده وسط ذلك السكون الذى كان مخيما •

ـ ٥١ ـ

أردت فى اليوم التالى رغما مما كنت أشعر به من ضعف وذهول شديدين أن أشهد صلوات خورى الكنيسة ونقل الجثة وجميع الطقوس الدينية الأخرى•

كانت جثة الطفل الصغيرة قد أودعت فى صندوق أبيض اللون ، مغطى بغطاء من البللور • وكانت قد وضعت فوق جبينه باقة من الزنبق الأبيض ، كما وضعت بين يديه المضمومتين زنبقة بيضاء • ولم يكن هناك ما يشبه بياض هاتين اليدين الرقيقتين الضارب الى الزرقة التى بقيت أظافرهما دون غيرها بنفسجية اللون •

كنا حاضرين أنا وفيديريكو وجوفانى دى سكورديو وبعض المعارف والأصدقاء وكانت الشموع الأربع تستعر وتذرف دموعها •

دخل القس بردائه الأبيض ، يتبعه رجال الاكليروس الذين كانوا يحملون رشاشة الماء المقدس والصليب •

ركعنا جميعا على ركبنا . ورش القسيس الماء المقدس على النعش وهو يقول:

ـ باسم الله •

ثم تلا رموز « احمدوا الرب أيها الأطفال » ٠

نهض كل من فيديريكو و « جوفانى دى سكورديو » وحملا النعش ، وفتح « بيترو » الباب أمامهما ، وسرت فى أثرهم ٠ وسار من خلفى القسيس ورجال الاكليروس وبعض المعارف والأصدقاء وفى أيديهم الشموع الموقدة ٠ وبعد أن مررنا فى الدهاليز فى صمت وسكون وصلنا الى الكنيسة بينما كان القس يتلو مزمور « طوبى للأبرياء » ٠

ولما وضع النعش داخل الكنيسة قال القسيس :

ــ هنا تكون البركة مقبولة عند الله ٠

وضع فيديريكو والشيخ النعش فوق المنضدة الصغيرة وسط الكنيسة ، وركعنا جميعا ، وأخذ القس يتلو بعض المزامير الأخرى ، ثم تلا بعض الدعوات لله لكى ترتفع روح البرىء الى السموات ، ثم رش النعش من جديد بالماء المقدس ، وخرج يتبعه رجال الاكليروس ٠

عندئذ نهضنا ، وكان كل شىء تم اعداده لدفن الميت الصغير ٠ حمل « جوفانى دى سكورديو » النعش فوق ذراعه وكانت عيناه تحدقان فى البللور وفيديريكو أول من نزل الى المقبرة ونزل من خلفه الشيخ يحمل الصندوق ثم نزلت أنا مع أحد الأصدقاء ولم يكن أحد منا يتفوه بكلمة واحدة ٠

كانت المقبرة فسيحة وكلها مبنية بالحجارة الزرقاء ، وقد حفرت فى جدرانها الطاقات التى كان بعضها مغلقا باللافتات وبعضها لا يزال مفتوحا وعميقا يغمره الظلام فى الانتظار ٠ وتتدلى من أحد العقود ثلاثة مصابيح مليئة بزيت الزيتون ويستعر لهبها فى هدوء فى ذلك الجو الرطب الثقيل ٠ ولها شعلات ضعيفة ، لا يمكن تمييزها ٠

قال أخى :

ــ هنا ٠

وكان يشير اذ ذاك الى طاقة صغيرة مفتوحة أسفل طاقة أخرى مغلقة باحدى

اللافتات . وكان محفورا فوق تلك اللافتة اسم شقيقتي « كوستنزا » والأحرف لا تكاد ترى بوضوح .

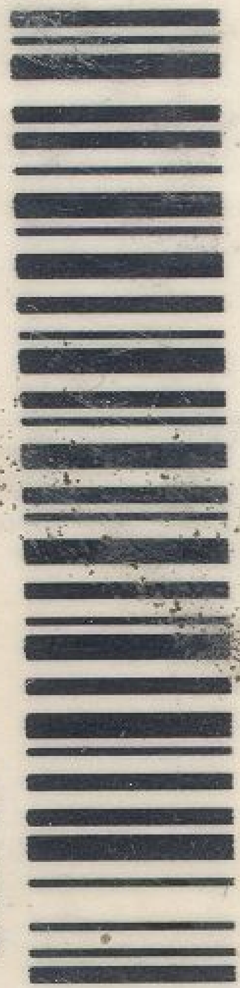
عندئذ رفع « جوفاني دي سكورديو » ذراعيه اللتين تحملان الصندوق . لكي نلقى مرة ثانية نظرة أخيرة على الميت الصغير . فنظرنا اليه - وكان وجهه الصغير الداكن ويداه الصغيرتان المضمومتان وثوبه وتلك الزنبقات وكل تلك الأشياء الأخرى البيضاء تبدو كأنها على مسافة بعيدة منا ولا يمكن لمسها . كما لو كان غطاء ذلك الصندوق الشفاف فوق ذراعي ذلك الشيخ الكبير قد سمح لنا برؤية طرف من كنز عظيم حلو خارق للعادة .

لم يكن أحد يتفوه بكلمة . ويبدو كأن أحدا لا يتنفس في هـذا المكان . واتجه الشيخ نحو طاقة دفن الموتى . وانحنى ووضع الصندوق فيها ودفعه رويدا رويدا الى داخلها ، ثم ركع وبقي جامدا بضع دقائق .

كان الصندوق يبدو بياضه ضعيفا في آخر القبر ، وشيخوخة ذلك‌الرجل تتلألأ تحت نور المصابيح الثلاثة وهو منحن عند بداية الظلام .

كونفنتو دي سانتا ماريا ماجوري

فرانكا فيللا البحرية ـ أبريل ـ يوليو سنة ١٨٩١





دار الطباعة الحديثة
٦ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش
ت ٩٠٨٣١٨ - ص. ب ٨٩٦٩١

الثمن ٥٠ قرشاً